المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة نجران

تاريخ الأدب العربي القديم

١١٨ عرب ٣

المستوى الثاني

العام الدراسي
١٤٣١/١٤٣٠ هـ

يطلب من مكتبة الخليج
٥٢٢٣٥٢٩

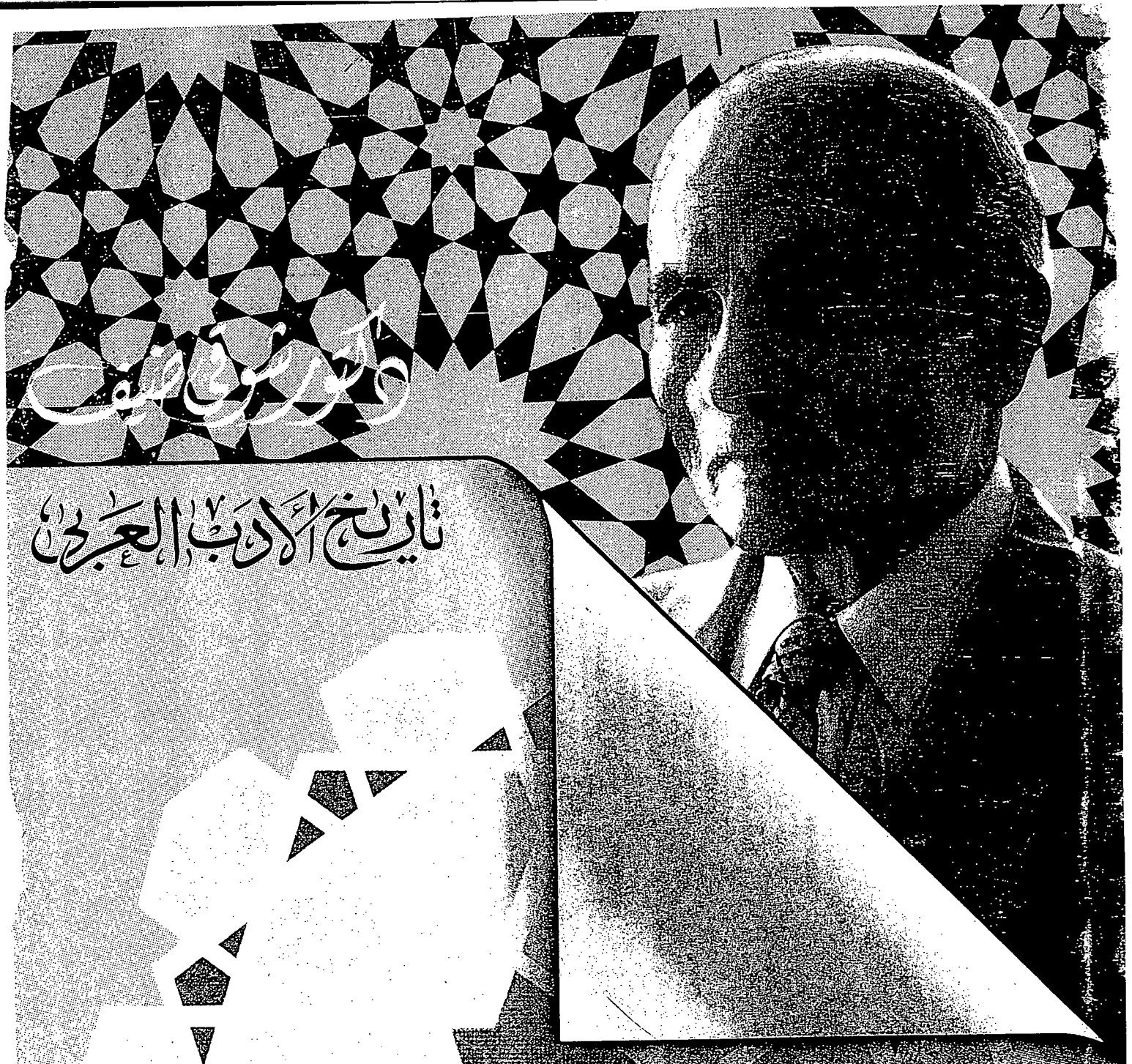

شوقي ضيف

تاريخ الأدب العربي

العصر الجاهلي

الطبعة الأصلية

دار المعارف

الفصل الثالث

الحياة الجاهلية

١

الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة فى العصر الجاهلى تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد ، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالى ، وهم عُتَقاؤها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم ، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد فى أسواقهم ومجامعهم ، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره ، وبذلك يصبح له حق التوطن فى القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها ، مثله مثل أبنائها .

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمضون على وجوههم فى الصحراء ، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم ، على نحو ما نعرف عن تأبط شرًّا والسُّلَيْك بن السلكة والشَّنْفَرى . على أن منهم من كان يظل فى قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الوَرْد ، وكان كريماً فياضاً ، وأُثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عَبْس ومعوزيها ومرضاها ، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها ، قاسماً بينه وبينهم مغانمه[1] .

وهذا الخلع إنما كان يحدث فى حالات شاذة ، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحكم عُراه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هى كلمة المروءة التى تضم مناقبهم ، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغَضّ عن العوراء .

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣ / ٧٨ ومابعدها .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال فكان الغنى بينهم يَفْضُلُ على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله فى سنين القحط ، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سُنَنهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلا على الكُثْبان والجبال ، ليهتدى إليهم التائهون والضالون فى الفيافى ، فإذا وفدوا عليهم أمَّنوهم حتى لو كانوا من عدوهم . ويدور فى شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص[١] :

ومستنبحٍ يخشى القَواء ودونه ... من الليل بابا ظُلمةٍ وسُتورها[٢]

رفعتُ له نارى فلما اهتدى بها ... زَجَرْتُ كلابى أن يَهِرَّ عَقورُها[٣]

فلا تسأَلينى واسأَلى عن خليقتى ... إذا ردَّ عافى القِدْر من يستعيرها[٤]

تَرَىْ أَن قِدْرى لا تزال كأَنها ... لذى الفَرْوَة المَقْرور أُمٌّ يزورها[٥]

مبرَّزةٌ لا يُجْعَلُ السِّترُ دونهـا ... إذا أُخْمد النيرانُ لاح بَشيرها[٦]

إذا الشَّوْلُ راحتْ ثم لم تَفْدِ لحمهَا ... بأَلْبانها ذاق السِّنانَ عَقِيرُها[٧]

واشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون[٨] ، مثل حاتم الطائى الذى ضُربت الأمثال بكرمه ، وهو يصوره فى كثير من شعره كقوله[٩] :

إذا ما بخيلُ الناسِ هَرَّتْ كلابُهُ ... وشقَّ على الضيف الغريب عَقورُها

---

(١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ٥/١٣٦ .

(٢) مستنبح : من ينبح حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حيا قريباً منه ، القواء : الفلاة . . .

(٣) يهر : ينبح نبحاً خفيفاً ، العقور : العاض .

(٤) عافى القدر : مستعيرها .

(٥) ذو الفروة : السائل ، المقرور : الذى اشتد به البرد .

(٦) بشيرها هنا : ضوءها .

(٧) الشول : الإبل العظيمة التى لا تحلب ، راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحى والضيفان .

(٨) انظر فى أجواد الجاهلية كتاب المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧ .

(٩) الحيوان ١/٣٨٣ .

فإنى جبانُ الكلب بيتى موطَّأ جوادٌ إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرها

وكانوا لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه . وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء فى مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد . يقول الحادرة لصاحبته سمية[1] :

أَسُمَيَّ ـ ويحك ـ هل سمعتِ بغَدْرَةٍ رُفع اللواءُ لنا بها فى مَجْمَعِ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم ، وكيف يقبلون الضيم ، وهم أهل حرب وجلاد ، يقول المتلمس[2] :

إنَّ الهوانَ حمارُ الأهل يعـرفه والحرُّ ينكره والرَّسْلَةُ الأُجُدُ[3]

ولا يُقيم على خَسْفٍ يُرادُ به إلا الأذلاَّن: عَيْرُ الأهل والوَتِدُ[4]

هذا على الخَسْف معقولٌ برُمَّتِهِ وذا يُشَجُّ فلا يبكى له أَحَدُ

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضيم ، فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها . وكل شىء إلا الهوان ، وكان أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه فى بلاطه ، وكان نازلا معها عنده ، فاستل سيفه وقتله ، وتغنى شعراء تغلب طويلا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم . وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التى لا تنى ولا تفتر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً فى أقوى صورها ، مضيفين إليها

---

(١) المفضليات ص ٤٥ .
(٢) حماسة البحترى ص ٢٠ .
(٣) الرسلة : الناقة الذلول ، الأجد : الموثقة الخلق.
(٤) العير : الحمار .

حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حُكّام تجاوزت ألمعيتهم حدود قبائلهم[١]، مثل عامر بن الظَّرب وأكثم بن صيفى، وكانت تفزع إليهم القبائل فى خلافاتها الكبيرة التى يصعب حلها فى دائرة قبائلهم وشيوخهم، وقد يفزعون فيها إلى الكهنة والعرّافين.

على أن هناك آفات كانت تشيع فى هذا المجتمع الجاهلى، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار، ونحن نجد الخمر تجرى على كل لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كئوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدى بن زيد العبادى الحيرىّ، وعرض لها كثيرون فى أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم. وأكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بُصْرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق، ويقال إنهم كانوا يضربون خيامهم فى بعض الأحياء أو فى بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبنهم. وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنّى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن البَرّاض ابن قيس الكنانى أحد أدلاّء القوافل فى الجاهلية، إذ كان سكّيراً فاسقاً، فخلعه قومه وتبرأوا منه[٢]. ويقول طرفة فى معلقته:

وما زال تَشْرابى الخمورَ ولذتى ... وبَيْعى وإنفاقى طريفى ومُتْلَدِى[٣]

إلى أن تحامتْنى العشيرةُ كلها ... وأُفْرِدْت إفرادَ البعير المعبَّد[٤]

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى ... وجَدِّك لم أَحفل متى قام عُوَّدى[٥]

فمنهن سَبْقُ العاذلات بشَرْبةٍ ... كُمَيْت متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ[٦]

---

(١) انظر فى حكام العرب كتاب المحبر ص ١٣٢.

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٩/٧٥.

(٣) الطريف: المال الحديث، والمتلد: المال القديم.

(٤) تحامتنى: تجنبتنى، المعبد: الأجرب.

(٥) عود: جمع عائد أو عائدة، ويقصد من يعودونه عند الوفاة ويبكونه. والجد: الحظ والبخت.

(٦) الكميت: الخمر، يقول إنه يباكر شرب الخمر قبل انتباه العواذل.

وكرّى إذا نادى المضافُ محنّبًا كسِيدِ الغَضَا نبَّهْتهُ المتورِّدِ[1]

وتقصيرُيوم الدَّجْنِ والدَّجْنُ معجبٌ بِبَهْكنَةٍ تحت الخِباء المعمَّدِ[2]

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الخصال الثلاث ، وهى الخمر والفروسية أو الشجاعة فى الحرب والتمتع بالنساء . على أن هذه الفتوة التى يصورها طرفة كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنترة ، بل حتى من صعاليكهم مثل عروة ابن الورد وسنعرض لذلك فى موضع آخر .

ومهما يكن فقد كانت الخمر وما يتبعها من استباحة النساء شائعة فى هذا العصر ، وكان يشيع معها القمار أو الميسر ، وكانت عادتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيراً ، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ، ثم يأتوا بأحد عشر قدحاً ، يجرون عليها قمارهم ، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت ، وعلى أصحابها غُرْمٌ إن خابت ، وأكبرها نصيباً يسمى المُعَلَّى . أما الأربعة الباقية فلاحظَّ لها حتى إن فازت .

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التى هاجمتها فى القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكفّ العرب عنها ، وقد شدد فى عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهى عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما) وقوله جلّ وعز : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقد وصف الخمر بأنها (رجس من عمل الشيطان) . ونجد فى الحديث النبوى نهياً كثيراً عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها[3] وقد جعل لها

---

(١) المضاف : الخائف المذعور ، والمحنب : الفرس الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل ، والسيد : الذئب ، والغضا : شجر ، نبهته : هيجته ، المتورد : الجرىء . يقول : إذا استغاث به خائف عطف فرسا يسرع فى عدوه إسراع ذئب الغضا الجرىء حين تهيجه .

(٢) الدجن : الغيم ، البهكنة : المرأة الجميلة ، المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) انظر كتاب الأشربة فى سنن أبى داود وابن ماجة والنسائى والبخارى ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية فى مادة خمر .

الرسول صلى الله عليه وسلم حدًّا : أربعين جلدة ، ولما وجد عمر أن بعض العرب لا يزال يتورط فى شربها رفع حدها إلى ثمانين .

وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية ، وفى أخبار الأعشى أنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم رغب فى الوفود عليه بالمدينة ومديحه ، وعلمت قريش فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان إنه « ينهاك عن خِلال كلها بك رافق ولك موافق » فلما سأله عنها أجابه : الزنا والقمار والخمر ، فعدل الأعشى عن وجهته[1] . وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموى المقدس : قانون الأخذ بثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد ، وأقام لهم نظاماً سماويًّا رفيعاً لمجتمعهم ليس هنا محل بحثه .

وحتى الآن لم نتحدث عن المرأة ومكانتها فى هذا المجتمع ، وقد كان هناك نوعان من النساء : إماء وحُرّات ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخْدان ، وقينات يضربن على المزهر وغيره فى حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريفات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن فى منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد ، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردّت إليه اعتباره .

وكانت الحرة تقوم بطهى الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخِباء ، إلا إذ كانت من الشريفات المخدومات ، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجوارى . وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية ، فكن يخترن أزواجهن ، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن[2] . وبلغ من منزلة بعض شريفاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويردون إليه حريته إذا استشفع بهن ، على نحو ما ردت فكيهة إلى السُّلَيْك بن السلكة حريته حين وقع أسيراً فى يد عشيرتها من بنى عوار[3] . وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شىء

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١٢٦ . والأمالى ٢/١٠٦ والمحبر ص ٣٩٨ .

(٢) انظر الأغانى ١٠/١٣ وما بعدها (٣) الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/٣٧ .

يثيرهم كَسَبْى نسائهم وهم بعيد عن الحى ، فكانوا يركبون وراءهم كل وَعْر حتى يلحقوا بهن وينقذوهن ويغسلوا عار سبيهن عنهم ، وهو عار عندهم ليس فوقه عار .

وكانوا يصحبونهن معهم فى الحرب ، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية ، حتى إذا قتل فارس ندبنه ندباً حارًّا حاضّات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته . وتلمع فى هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن الخنساء ومراثيها فى أخويها صخر ومعاوية مشهورة . وكن يَستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية ، حقناً للدماء ، على نحو ما تصور ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، وقد قُتل أخ لها[1] :

فإن أنتمُ لم تثأروا واتَّدَيْتُمُ ... فمشُّوا بآذان النَّعَامِ المصلَّمِ[2]

فهى ترى أن عشيرتها إن قبلت الدية فى أخيها أعطتْ عن يد وهى صاغرة صَغار الأسرى الذين تُجْدَعُ آذانهم ، بل صَغار النعام المصلم المقطوعة آذانه . وتقول أم عمرو بنت وَقْدان فى أخ لها قُتل وقد فكرت عشيرتها فى قبول ديته[3] :

إن أنتمُ لم تطلبوا بأخيكمُ ... فذَروا السِّلاح ووحِّشوا بالأَبْرَقِ

وخذوا المكاحل والمَجاسد والبسوا ... نُقَب النساءِ فبئس رهط المُرْهَقِ[4]

فهم إن لم يثأروا لأخيها حقّ عليهم أن يلقوا السلاح ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق ، فيتزيوا بزى النساء ، ويتعطروا ويتزينوا بزينتهن . وكانوا يفرون من الحرب حين لا يكون من الفرار بد ، إلا أن تكون معهم النساء ويرونهن فارات وقد حسرن عن وجوههن ، حينئذ يثبتون فى المعركة ويناضلون حتى الدِّماء الأخير[5] :

وكان جمالهن يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من

---

(١) المرزوقى ١/٢١٨ وقارن الأصمعيات ص ١٥٧ .

(٢) اتديتم : أخذتم الدية ، وآذان النعام مصلمة خلقة .

(٣) المرزوقى ٣/١٥٤٦ .

(٤) المجاسد : جمع مجسد وهو الثوب المشبع صبغة ، والنقب : جمع نقبة ، وهى إزار للمرأة .

(٥) المرزوقى ١/١٧٧ .

طيب وحلى وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وتُضْحى فَتيتُ المسك فوق فراشها ... نَؤُومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضّلِ

ويقول المنخّل اليشكرى فى فتاته[1] :

الكاعب الحَسْناء تَـزْ ... فُلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الحَرير

ولم يقفوا عند جمالها الجسدى ؛ فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة ، على نحو ما يقول الشَّنْفَرى فى زوجته أميمة[2] :

لقد أعجبتْنى لاسَقوطا قِناعُها ... إذا ما مشتْ ولا بذات تلفُّتِ

تبيت بُعَيْد النوم تُهدى غَبوقها ... لجاراتها إذا الهدِيَّةُ قَلَّتِ[3]

تحلّ بمنجاة من اللوم بيتَها ... إذا ما بيوتٌ بالمذمة حُلَّتِ

كأن لها فى الأرض نِسْيًا تَقُصُّه ... على أمِّها وإن تكلمك تَبْلَتِ[4]

أميمةُ لا يُخْزى نَثاها حَليلَها ... إذا ذُكر النسوان عَفَّتْ وجَلَّتِ[5]

إذا هو أمسى آبَ قُرَّةَ عينهِ ... مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظَلَّتِ[6]

فصاحبته وقور خجول ، لا يسقط قناعها فى أثناء سيرها ولا تلتفت حولها . وهى كريمة مؤثرة تؤثر جارتها فى الجدب بغَبوق اللبن ، وقد حصّنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها ، وهى شديدة الحياء ، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها ، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شىء ضاع منها . وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها . وإن الحديث العَطِر عنها فى العشيرة ليملأ زوجها زهواً وخيلاء ، إنها مثال العفة والجلال . وإنه ليرفعها عن كل شك وتهمة ، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته

---

(١) الأصمعيات ص ٥٥ .

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الغبوق : اللبن الذى يشرب فى العشى .

(٤) النسى : الشىء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتعقب أثره ، أمها بفتح الهمزة : قصدها . تبلت : أوجزت .

(٥) النثا : الحديث عن الشخص ، الحليل : الزوج .

(٦) آب : رجع .

الطويلة عاد قرير العين بها سعيداً ، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته .

وتدور فى كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هُيام بعضهم بهن ، وكانوا دائماً يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن فى بعض المعاهد والمنازل ، ويمزجون ذلك بالدموع ، على نحو ما يقول امرؤ القيس فى مطلع معلقته :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

فالمرأة لم تكن فى الجاهلية مهملة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار الرسول صلى الله عليه وسلم فى أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تُعْضَلَ المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها كما حرم زواج المَقْت ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين ، وحرم الشِّغار ، وهو أن يتزوج شخص أخت صديق له على أن يزوجه أخته ، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، إلى غير ذلك مما كانوا يبيحونه . وتلك كانت عادات عندهم ، وهى تلازم الأمم فى عصور بداوتها ، ولكن ينبغى أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهدرة الحقوق فى الجاهلية ، أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات فى قوله تعالى : (وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هُون أم يَدُسُّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبى ، إذ كان سباؤهن كثيراً فى الجاهلية ، وكانوا يعدون ذلك سُبَّة ما بعدها سبة .

النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب – بعد موقعة أحد – لغزو المدينة أشار سَلمان الفارسى على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق ، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه ، وكأنه كان أعلم مَنْ حوله بأساليب الحرب[١] . وفى السيرة أيضاً أن النضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتم وإسْفِنْديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو لا يزال فى مكة) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين[٢] .

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية ، غير أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات ، فقد كانوا لا يزالون فى طور السذاجة البدوية ، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا فى نهاية هذا الطور . وقد وقف من قديم قوم يقارنون بينهم وبين الشعوب المتحضرة من حولهم كالفرس والروم ، وكان على رأسهم الشعوبية ، وهى مقارنات تقوم على التحكم ، لأنها تقارن بين بدو ومتحضرين ، وقد مر الفرس والروم بطور بداوة كما مر العرب ، ولم يكن لهم فيه حضارة ولا نظر علمى دقيق . ومثل هذه المقارنات ما بعثه الغربيون منذ القرن الماضى من الموازنة بين الساميين جميعاً عرباً وغير عرب وبين الآريين ، على نحو ما هو معروف عن رينان[٣] ، فقد ذهبوا يزعمون أن الآريين هم الجنس المفضل الذى أحدث الحضارة ،وكأنهم يريدون أن يبرروا صنيع ساستهم واستعمارهم للشعوب السامية . . وهى نظرية لا تؤيدها الحقائق العلمية الخالصة ، إذ لا يستطيع أحد أن يثبت نقاء سلالة جنسية بعينها ، لها نسب صريح ، وأيضاً فإن هذه النظرية تتناسى أثر البيئة والظروف التى تلم بالشعوب ، ومن المحقق أن الحضارة الإنسانية ليست من عمل جنس واحد ، فقد تعاونت على تكوينها أجناس متباينة ، ولكل جنس فيها نسبه المتعادلة . ويدخل فى هذه المقارنات المضللة ما نجده عند ابن خلدون

---

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٣/٢٣٥ .

(٢) السيرة النبوية ١/٣٢١ .

(٣) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/١٦٨ .

من حكمه على العرب بأنهم ليسوا أصحاب صناعات ولا علوم[١] ، لأن ذلك إنما ينطبق عليهم فى الجاهلية ، أما فى الإسلام فقد عرفوا الصناعات ونهضوا فى الميادين العلمية والفلسفية نهضة كانوا فيها أساتذة العالم فى عصوره الوسيطة . ويقول أوليرى : إن العربى مادى ، ضيق الخيال والعواطف[٢] ، وكأنه يتجاهل أدبهم وما يزخر به من أخيلة ومشاعر ، وهو تعميم جنسى لا دليل عليه ، وكأنما قادته إليه نظرية الأجناس البشرية وما يدعو إليه أصحابها من تفوق الجنس الآرى على ما سواه من أجناس .

وندع هذه المقارنات المضللة وما سقط منها من أحكام خاطئة إلى بيان ما كان لدى العرب فى الجاهلية من معارف ، لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوى فى ذلك من المناقب والمثالب ، مما سجله العباسيون فى مجلدات ضخمة . وكأنهم رأوا فى ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم ، واشتهر عندهم كثيرون فى هذا الباب من أبواب الرواية .

ويلى هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها وأمطارها ، يقول الجاحظ : « وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاصح الأماليس[٣] — حيث لا أمارة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة — مضطر إلى التماس ما ينجيه ويُؤْديه[٤] ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه فى كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً[٥] ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً . وسُئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً على كل ليلة . ووصف أعرابى لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائل لشيخ عبادى كان حاضراً : أما ترى هذا الأعرابى

---

(١) المقدمة (طبع المطبعة البهية) ص ٢٥٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ص ٣٩ نقلا عن كتاب أوليرى : Arabia Before Muhammad.

(٣) الصحاصح : الأرض المستوية ، الأماليس : التى ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يعينه .

(٥) فارداً : منفرداً .

يعرف من النجوم ما لا نعرف ؟ قال : من لا يعرف أجذاع[١] بيته[٢]؟ !» .
وهى معرفة أداهم إليها فرط الحاجة ، ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥ هـ :
« كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايبها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب فى العلوم[٣] » .

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكى بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية . وكان ينتشر بينهم فى تضاعيف ذلك كثير من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكلب وأن عظام الميت تشفى من الجنون وأن روحاً شريرة تحلّ فى المريض ، وكانوا يتداوون منها بالعزائم والرُّقى . فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنيًّا على قواعد عقلية ، وحقًّا ما يقول ابن خلدون : « للبادية . . طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عندُ العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلَدة وغيره[٤] » . ومن أهم معارفهم الطبية معارفهم البيطرية ، وخاصة فيما اتصل بالخيل والإبل ، فقد عرفوا شياتها وما يزينها ويعيبها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوونه به . وقد تحدثوا طويلا عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ فى حيوانه ، غير أنه يعلق على ذلك بقوله : « وإنما أعتمد على ما عند الأعراب ، وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية[٥] ولا من جهة التذاكر والتكسب ، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبعاً أو بهيمة أو مشترك الخلق فإنما هى مبثوثة فى بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط أو غَيْضة أو رملة أو رأس جبل ، وهى فى منازلهم ومناشئهم ، فقد نزلوا كما ترى بينها وأقاموا معها . . وربما بل كثيراً ما يُبْتلون بالناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجانى والجارح والقاتل

---

(١) الأجذاع : سيقان النخل تجعل سقفاً للخيمة.
(٢) الحيوان ٦/٣٠ .
(٣) طبقات الأمم لصاعد (طبع بيروت) ص ٤٥ .
(٤) المقدمة ص ٣٤٦ .
(٥) الفلاية : النظر العلمى .

وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلب والهرب، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء[١]».

وكانت لهم عناية خاصة بالفراسة والقيافة، وهى تتبع الأثر فى الأرض والرمل، ولهم فى ذلك أقاصيص طويلة، وطبيعى أن تنمو عندهم القيافة ليتعقبوا من يضل منهم فى الصحراء، أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم فى غيبتهم عن أحيائهم.

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسس على قاعدة ولا على نظرية، فهم فى جمهورهم بدو، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلى مؤسس على أسلوب علمى. ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لهب، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة، ولهم فى الطيرة أحاديث كثيرة، قال الجاحظ: «وأصل التطير من الطير إذا مرّ بارحاً (ميامناً) وسانحاً (مياسراً) أو رآه يتفلى وينتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا.. فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك فى كل شىء.. وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفازة وكنوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم. والغراب أكثر من جميع ما يتطيّر به فى باب الشؤم»[٢]. ولإيمانهم بباب الطيرة كانوا يستقسمون بالأزلام والقداح، وهى سهام، كانو يكتبون عليها عبارات يصدرون عنها مثل الآمر والناهى والمتربص، وهى غير أزلام القمار وقداحه.

وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلى عندهم كان ضعيفاً، وأنهم كانوا لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً، وهذا طبيعى فقد كانوا فى طور البداوة، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول، وكانوا لا يتعمقون فى بحث الأشياء، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً. يقفون عند الجزئيات، ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التى يحيونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة. وحقاً شاعت عندهم الحكمة، ولكن لا بمعناها

---

(١) الحيوان ٦/٢٩.

(٢) الحيوان ٣/٤٢٨ وما بعدها.

الذى عُرفت به فى العصور الإسلامية وهو الفلسفة ، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التى تصورها عبارة من العبارات القصيرة . ومن أمثالهم « فى بيته يؤتى الحكم » وهو من يحكم بين الناس فى منافراتهم ومفاخراتهم وخصوماتهم . وربما اشتقت الكلمة من هذا المعنى ، فالحكم هو العاقل المجرب الذى يحقق بحكمه العدل ويمنع الخصام . وكذلك كانت الحكمة ، فهى تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ، ووقوفه على طرقها المستقيمة التى تهدى سبيل الرشاد .

وكثرت الحكم والأمثال عندهم ، وألفت فيها كتب ضخمة فى العصر العباسى ، من أشهرها كتاب « جمهرة الأمثال » للعسكرى و « مجمع الأمثال » للميدانى . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجرى على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها فى حياتهم ، يقول الجاحظ : « ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنَّكْراء (الفطنة) لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسَليط بن كعب بن يربوع . ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء أكثم بن صيفى وربيعة بن حِذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرب ولبيد بن ربيعة »[1] . وللقمان سورة فى القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها فى صحيفة تدعى مجلة لقمان ، فى أخبار سُوَيْد بن الصامت أنه «قدم مكة حاجًّا أو معتمراً ، فتصدَّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضْها على ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه : قرآن أنزله الله علىّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد ، وقال إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه مات مسلماً ، وكان قَتْلُه يوم بُعاث[2] » .

---

(١) البيان والتبيين (طبعة عبد السلام هارون) . ٣٦٥/١

(٢) أسد الغابة ٣٧٨/٢ .

٢

الشعر الجاهلى شعر غنائى

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر ، يردها نقادهم إلى أربعة أضرب ، شعر قصصى وتعليمى وغنائى وتمثيلى ، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير ، وقد يوجد بجانبه أبطال ، ولكن أدوارهم ثانوية . وهى فى حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً ، فالتسلسل القصصى فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقى محكم ، وهى قصة تفسح للخيال مجالا واسعاً ، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع . وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستانى ، ولكثير من الأمم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها ، فللرومان الإنيادة لفرجيل ، وللهنود الرامايانا والمهابهاراتا وللفرس الشهنامة للفردوسى وللألمان أنشودة الظلام وللفرنسيين أنشودة رولان .

والشاعر فى هذا الضرب القصصى لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه ، فهو شاعر موضوعى ينكر نفسه ، ويتحدث فى قصته عن بطل معتمداً على خياله ، ومستمداً فى أثناء ذلك من تاريخ قومه ، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء ، ويجمع لها المعلومات ، ويكوّن من ذلك قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه . ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصى ، وهى كذلك لم تعرف الضرب الثانى من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزيود الشاعر اليونانى وقصيدته « الأعمال والأيام » التى يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية ، وعند هوراس الشاعر الرومانى فى قصيدته « فن الشعر » التى نظمها فى قواعد الشعر ونقده ، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة فى قصيدته التى نظم فيها أحكام الصوم والزكاة . وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلى الذى يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص ، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة .

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون ، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت ، وهو شعر ذاتى يمثل صاحبه وأهواءه ، على حين الضروب السابقة جميعاً موضوعية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أوحين يعلِّم أوحين يمثِّل ، فهو فى كل ذلك يُغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عند جانب قصصى تاريخى يحكيه أو علمى تهذيبى يرويه أو تمثيلى مسرحى يؤدِّيه ، متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

ولكن إذا كان الشعر الجاهلى يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية ، فإنه يقترب من الضرب الرابع الغنائى ، لأنه يجول مثله فى مشاعر الشاعر وعواطفه ، ويصوِّره فرحاً أو حزيناً ، وقد وُجد من قديم عند اليونان ، إذ عرفوا المدح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء ، وكان يُصْحَبُ عندهم بآلة موسيقية يُعْزَفُ عليها تسمى (لير Lyre) ومن ثَمَّ سموه (Lyric) أى غنائى .

وإذن فنحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلى جميعه غنائى ، إذ يماثل الشعر الغنائى الغربى من حيث إنه ذاتى يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أويرثى أوحين يعتذر ويعاتب ، أوحين يصف أى شىء مما ينبثُّ حوله فى جزيرته . وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائى الغربى من حيث إنه كان يغنَّى غناء ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، فهم يروون أن المهلهل غنّى فى قصيدته :

طفلةٌ مـا ابنةُ المحلَّلِ بيضا ءُ لعوبٌ لذيذةٌ فى العناقِ[1]

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلى ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه . ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهانى يشير إلى أن شاعراً جاهلياً تغنَّى ببعض شعره من مثل السُّلَيْك بن السُّلَكة [2] وعلقمة بن عَبدة الفحل والأعشى ، وكان يوقِّع

---

(١) انظر الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٥١ وما فى البيت زائدة ، وطفلة : رخصة ناعمة .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٣٤ .

شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصّنج، ولعله من أجل ذلك سمى صنّاجة العرب [١] . ويقول أبو النجم فى وصف قينة [٢] :

تَغَنَّىْ فإن اليوم يومٌ من الصِّبا ببعض الذى غَنَّى امرؤُ القيس أوعمرو

وهو يقصد بعمرو، عمرو بن قَمَيئة . ويقول حسان بن ثابت [٣] :

تَغَنَّ بالشعر إمَّا كنتَ قائله إن الغنـــاء لهذا الشعر مضمارُ

فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد، ومنه الحُداء الذى كانوا يحدون به فى أسفارهم وراء إبلهم ، وكان غناء شعبيًّا عامًّا .

ويقترن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمِزْهر والدفّ وكانا من جلد وكالصَّنْج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجنك، وكالبَرْبط وهو آلة موسيقية وترية شاعت فى بلاد الإغريق، ويقص علينا علقمة بن عَبدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان بيزنطيات يضربن على البرابط [٤] وكانوا كذلك فى الحيرة يستمعون إلى القيان وهن يضربن على الآلات الموسيقية الفارسية . وأدخلوا كثيراً من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم من مثل خُلَيْدة وهُرَيْرة فى اليمامة [٥] والأخيرة هى صاحبة الأعشى التى ذكرها فى معلقته ، ويروى الرواة أنه كان بمكة قينتان لعبد الله بن جُدْعان جلبهما من بلاد الفرس وكانتا تغنيان الناس [٦] وفى أخبار غزوة بدر أنه لما نصح أبو سفيان قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول عليه السلام بها قال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نردَ بدراً فنقيم عليه ثلاثا ونَنْحر الجزُر ونطعم الطعام ونُسْقَى الخمور وتعزف علينا القيانُ وتسمع بنا العرب [٧]. وفى السيرة النبوية أن الرسول أمر يوم فتح مكة بقتل رجل يسمى ابن خَطل كان مسلماً ثم ارتد وهرب إلى مكة ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء الرسول ، فأمر بقتلهما ، فقُتلت

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠٩/٩ وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢١٤/١ .
(٢) الشعر والشعراء ٦٠/١ .
(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ .
(٤) أغانى (ساسى) ١٤/١٦ .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١٣/٩ .
(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣٢٧/٨ .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٨٢/٤ .

إحداهما ، وفرّت الأخرى[١] . ومر بنا أن أهل يثرب حين وفد عليهما النابغة أمروا إحدى القيان أن تغنى بشعر له فيه إقواء ، حتى يقف على ما فيه من عيب [٢] . ويكثر ذكر هؤلاء القيان فى شعر الشعراء كما يكثر ذكر ما كنّ يضربن عليه من آلات الطرب ، كقول علقمة فى ميميته [٣] :

قد أشهد الشَّرْب فيهم مِزْهَرُرَنِمٌ والقوم تصرعهم صهْباء خُرْطومُ

ويقول الأعشى فى معلقته :

ومستجيبٍ تخال الصَّنج يسمعه إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ[٤]

ولطرفة فى معلقته وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الغناء فى الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة .

وكان نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين فى حفلاتهم لاعبات على المزاهر[٥] ، وفى الطبرى أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع ذات يوم عزفاً بالدفوف والمزامير ، فسأل عنه ، فعرف أنه عُرْس[٦] ، وأكبر الظن أنهن كن يقرنّ هذا العزف بأناشيد كأناشيد الزفاف المعروفة عند اليونان والرومان . وكن يؤلفن فى الحروب جوقة كبيرة تحمّس وتثير ، ففى الطبرى والأغانى أن هنداً بنت عتبة ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف فى غزوة أحد وكانت هند تغنى فى تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها [٧] :

إن تُقبلوا نعانقْ ونفرشِ النَّمارِقْ[٨]

أو تدبروا نفارق فراقَ غيرِ وامق[٩]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤/٥٣ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .

(٣) المفضليات ص ٤٠٢ والشرب : جمع شارب ، رنم : مترنم ، والصهباء : الخمر ، والخرطوم أول ما ينزل منها صافياً .

(٤) المستجيب : العود ، واستماع الصنج له كناية عن اتساق أنغامهما . الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .

(٥) العمدة ١/٣٧ .

(٦) الطبرى (طبعة أوربا) ١/١١٢٦ .

(٧) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/١٦ وتاريخ الطبرى ١/١٤٠٠ .

(٨) النمارق : جمع نمرقة وهى الطنفسة والوسادة الصغيرة .

(٩) وامق : محب .

وبجانب هذا الغناء العام كان عندهم غناء دينى يرتلونه فى أعيادهم الدينية ، على نحو ما مر بنا من تلبياتهم ، فكانوا يرددون مثل « أشرق ثبير كيما نُغير » . وكانوا فى أثناء تقديم ذبائحهم وصبّ دمائها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النَّصْب الذى شاع بينهم فى الجاهلية . وربما كان فى اسم الداجنة والمدجنة ، وهى القينة تغنى فى الدَّجْن وحين ظهور الغيم فى صفحة السماء[1] ما يدل على أنهم كانوا إذا عزّهم المطر وغلبهم الجدْب توجهوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب .

ومعنى كل ما قدمنا أن الشعر فى الجاهلية كان يُصْحَبُ بالغناء والموسيقى ، فهو شعر غنائى تام ، ويظهر أن الغناء لم يكن ساذجاً حينذاك ، فقد عرفوا منه ضروباً مختلفة ، يقول إسحق الموصلى : « غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسِّناد والهزَج ، فأما النصْبُ فغناء الركبان والقينات وهو الذى يستعمل فى المراثى ، وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض ، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وأما الهزَجُ فالخفيف الذى يُرْقَصُ عليه ويُمْشَى بالدفّ والمزمار فيطرب ويستخف الحليم . هذا كان غناء العرب قديماً ، حتى جاء الله بالإسلام وفُتحت العراق وجُلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المجزّأ المؤلف بالفارسية والرومية وغنّوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير »[2] .

ولعل فى اقتران النصب بالمراثى ما يدل على ما قلناه من أنه كان غناء دينيًّا ، فهم يتغنون به فى الموت ، أما السناد فلعله الغناء الذى كان يقترن ببعض الآلات الموسيقية ، وأما الهزج فغناء خفيف كان يقترن بالرقص والدف والمزامير ، وهو غناء حفلاتهم ، ولعلهم كانوا يؤثرون فيه الوزن الذى يساعد على الحركة المعروف باسمه بين أوزان الشعر وهو وزن الهزج ، كما كانوا يستخدمون فيه الرَّمل والرجز ليطابق الشعر ما يريدون من رقص وسرعة فى الحركة .

وعلى هذا النحو نظم شعراء الجاهلية شعرهم فى جو غنائى مشبه لنفس الجو الذى نظم فيه اليونان شعرهم الغنائى فقد كان الشاعر يغنى شعره ، وقد يوقّع هذا الغناء على

---

(١) انظر مادة دجن فى لسان العرب وغيره من معاجم اللغة . وراجع المفضليات ص١٣٠ .

(٢) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ .

بعض الآلات الموسيقية . وقد يقوم له بالغناء فى شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف فى أثنائه . ويظهر أن الشعر أخذ فى أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ، فكان بعض الشعراء لا يغنيه ، وإنما ينشده إنشاداً ، والإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً ، ولعل القافية هى أهم هذه البقايا التى احتفظ بها ، فهى بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قَرْع الطبول ونقر الدفوف . ومثلها التصريع فى مطالع القصائد وما كان يعمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتى لأبياتهم كقول امرئ القيس فى معلقته يصف الفرس :

مِكَرٍّ ، مِفَرٍّ ، مُقْبلٍ ، مُدْبِرٍ ، معًا كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ

ويكثر هذا التقطيع فى أشعارهم ، ومن يرجع إلى معلقة لبيد التى يستهلها بقوله :

عفتِ الديارُ محلُّهـا فمُقامها بِمِنًى تأَبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها

يجده على شاكلة هذا المطلع يلائم كثيراً بين الكلمتين الأخيرتين ، وكأن للبيت قافيتين : داخلية ، وخارجية ، وكأنه يريد أن يهيئ لنفسه أو لمن يتغنى بقصيدته أن يرتفع بصوته فى كلمتين متتاليتين . ولا نشك فى أن صور الأوزان المتنوعة التى يمتاز بها الشعر الجاهلى إنما حدثت بتأثير هذا الغناء ، وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة فى بعض الأوزان ، كمجزوء الكامل والمديد ، بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمتقارب والرمل والهزج . وبدون ريب إنما كثرت التجزئة والتعديل فى الرجز لأنه كان وزناً شعبياً وكان كثير الدوران فى حُدائهم وفى كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر ، فكثر فيه الحذف وكثر التحريف والتعديل كثرة مفرطة ، حتى زعم الخليل أنه ليس من أوزان الشعر [1] ، وهو شعر غير أن التغنى به تغنياً كثيراً حُدَاءً وغير حداء أحدث فيه تغيرات شتى .

---

(١) انظر باب الرجز فى العمدة لابن رشيق .

٣

الموضوعات

لعل أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربى جاهلياً وغير جاهلى إلى موضوعات ألّف فيها ديواناً هو أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٢ للهجرة ، فقد نظمه فى عشرة موضوعات ، هى الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومعهم المديح ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وهى موضوعات يتداخل بعضها فى بعض فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل فى المديح أو فى الحماسة والفخر ، والسير والنعاس يدخلان فى الصفات ، كما تدخل مذمة النساء فى الهجاء ، أما الملح فغير واضحة الدلالة . وجاء فى باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبى ، غير أنه أنشد فيه أبياتاً فى وصف الخمر ، وأغفل إغفالا تاماً باب العتاب والاعتذار .

ووزّع قدامة فى كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، هى المديح والهجاء والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقى أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء : فالنسيب مديح وكذلك المراثى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية . ونجد نفس المحاولة فى تضييق موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو ، ويدخل فى المديح المراثى والافتخار والشكر واللطف فى المسألة ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطَّرْد وصنعة الخمر والمجون .

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة ، وهى النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار . ومن السهل أن يُرَدّ موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح ، والوعيد والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضاً فإنه نسى موضوع الوصف . ويقول أبو هلال العسكرى : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثى ، حتى زاد النابغة فيها قسماً

سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه [١] ، وهو تقسيم جيد غير أنه نسى باب الحماسة ، وهو أكثر موضوعات الشعر دوراناً على لسانهم .

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات فى الشعر الجاهلى ترتيباً تاريخيًّا ، ولا أن نعرف كيف نشأت وتطورت ، فإن الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت كما قدمنا فى ثنايا الزمن ، وإن كنا نستطيع أن نظن ظنًّا أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم ؛ يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم ، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم ، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم ، كما نشأ شعر الرثاء وهو فى أصله تعويذات للميت حتى يطمئن فى قبره ، وفى أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التى تكمن فيها آلهتهم والتى تبعث فيهم الخوف ، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلى تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة [٢] .

ويظهر أنه كانت لا تزال فى نفوسهم بقية من هذه الصلة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء فى القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعاويذ الكهنة فقد كانوا يرمون الرسول فى بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين) وردَّ عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مراراً فى مثل : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيلٌ من رب العالمين) . ويقول جلَّ وعز فى سورة الشعراء : (وما تنزلتْ به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) وبعد ذلك : (هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاوُون ألم تر أنهم فى كل واد يَهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظَلموا أىَّ منقلب ينقلبون) .

وواضح أن القرآن الكريم يحكى على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين

---

(١) ديوان المعانى ١/ ٩١ . (طبع دار المعارف) ١/ ٤٤ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

امرؤ القيس

٤

شعره

حاول طه حسين أن يردّ شعر امرئ القيس جميعه ، لأنه يمنى من كندة وشعره قرشيّ اللغة ، وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة ، كما مر بنا أن لغة قريش هى التى سادت وذاعت منذ أوائل العصر الجاهلى على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية ، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضعٌ كثير . غير أن هذا كله لا ينتهى بنا إلى إنكار شعره جملة ، وقد رأينا أننا لم نُبْقِ منه إلا على قلة قليلة .

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الأشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين : قسما نظمه قبل مقتل أبيه وقسما نظمه بعد مقتله . أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة ، والمطولة الثانية فى ديوانه (ألاعِمْ صباحاً أيها الطلل البالى) وهما جميعاً مما رواه الأصمعى والمفضل الضبى وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما فى طبعة الديوان بدار المعارف . وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءاً خاصًّا بوصف البرق والمطر والسيول ، ونجد نفس الموضوع فى القطعة السابعة والعشرين التى رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذى الرمة . ولعل فى ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل . ونحن نعرف أن امرأ القيس شبّ فى ديار بنى أسد بالقرب من تيماء[1] ، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره ، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه[2] . واجتماعهما على هذا الوصف دليل بيّن على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه .

ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس ، وهو يستهلها بقوله :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدخول فحَوْمَلِ[3]

---

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التى يذكرها فى معلقته فجميعها من منازل بنى أسد .

(٢) ابن سلام ص ٧٦ .

(٣) السقط : منقطع الرمل ، واللوى حيث يلتوى ويرق . وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لاينزلون إلا فى صلابة من الأرض ، والدخول وحومل : موضعان .

وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته ، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيبَ والمنزل ، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفّسوا عنه ، وهو غارق فى ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالا سريعاً يقصُّ علينا مغامراته مع النساء ، وكأنه يريد أن يستثير صاحبته فاطمة وأن يزرع الغيرة فى قلبها ، فهو يذكر لها بعض صواحبه اللائى أبكينه وبرّح به حبهن مثل أم الحُوَيْرث وأم الرَّباب ، ثم يفيض فى وصف يوم عُنَيْزة مصوراً كيف كان ينال منها وكيف كانت تدلُّ عليه أحياناً ، وفى أثناء ذلك يتعهر ولا يتستر ، فيقول لعنيزة بيته المشهور :

فمثلكِ حُبْلَى قد طرقتُ ومُـرْضِعاً ... فأَلْهَيْتها عن ذى تمائمَ مُغْيَلِ (١)

ثم يعود فيبثُّ فاطمة حبه مصوراً دلالها ، ومعاتباً لها عتاباً رقيقاً ، فى تلك الأبيات البديعة :

أَفاطمَ مهلا بعضَ هذا التدلُّلِ ... وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأَجْملِى (٢)

وإن كنتِ قد ساءتْك منى خليقةٌ ... فسُلِّى ثيابى من ثيابكِ تَنْسُلِ (٣)

أَغرَّكِ منى أن حبـــك قاتلى ... وأنك مهما تأْمرى القلبَ يَفْعَلِ

وما ذرفَتْ عيناك إلا لتَقْدَحِى ... بِسَهْمَيْكِ فى أَعْشار قلبٍ مُقَتَّلِ (٤)

وما يلبث أن يرجع إلى استثارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع مَنْ كنى عنها ببيضة خِدْرٍ لا يرام خباؤها ، مصوراً كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى

---

(١) التمائم : جمع تميمة وهى العوذة تعلق على الصبى ، المغيل : المرضع .

(٢) بعض هذا التدلل : أى كنى عن بعضه ، وأزمعت : عزمت ، وأجملى : من التجمل وهو ترك ما يقبح .

(٣) سلى ثيابى من ثيابك : انزعى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٤) ذرفت العين : سال دمعها ، الأعشار : القطع ، يقول : ما بكيت إلا لتجرحى قلباً مكسراً .

بها ناحية من الحى يتبادلان فيها الصبابة والغرام ، يقول :

وبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِباؤُها ... تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ (١)

تجاوزتُ أحراساً وأهوال مَعْشرٍ ... علىَّ حِراصٍ لو يُشِرُّون مَقْتَلِي (٢)

إذا ما الثُّرَيَّا فى السماء تعرَّضَتْ ... تعرُّضَ أثناءِ الوشاحِ المفصَّل (٣)

فجئتُ وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها ... لَدى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المُتَفَضِّل (٤)

فقالتْ يمينُ الله مالك حِيلَةٌ ... وما إنْ أرى عنك العَمايةَ تَنْجَلى (٥)

خرجتُ بها تمشى تجرُّ وراءنا ... على أثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّل (٦)

فلما أجَزْنا ساحةَ الحىِّ وانتحى ... بنا بَطْنُ حِقْفٍ ذِى رُكام عَقَنْقَل (٧)

إذا التفتتْ نحوى تضوَّعَ ريحُها ... نسيمَ الصَّباجاءَتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ (٨)

إذا قلتُ هاتى نَوِّلِينى تمايلتْ ... علىَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَل (٩)

فهو يذكر خِدْرها وأحراسها ومنعَتها، وكيف وصل إليها وقد استعدَّت للنوم وما كان بينه وبينها من حوار، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحى إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون ، وكيف كانت تعفّى آثار أقدامهما بأذيال ثوبها الموشى ، واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدها وأطرافها ، مصوراً كيف تستصبى الرجال وتعبث بقلوبهم .

---

(١) شبه صاحبته بالبيضة لبياضها ورقتها .

(٢) يشرون : يظهرون .

(٣) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمغيب فأرتك جانباً منها على نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلقاك بناحية منه ، والمفصل : الذى جُعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة .

(٤) نضت : نزعت . اللبسة : هيئة اللباس . المتفضل : اللابس ثوباً واحداً .

(٥) العماية : الغواية والجهالة .

(٦) المرط : إزار من خز ، المرحل : الموشى .

(٧) أجزنا : قطعنا ، والساحة : الفناء . والحقف : المعوج من الرمل ، وركام : بعضه فوق بعض ، وعقنقل : منعقد متداخل . والواو فى وانتحى زائدة لأنها جواب لما .

(٨) تضوع : انتشر . الريا : الرائحة .

(٩) هضيم : ضامر ، الكشح : الخاصرة، وريا المخلخل : أى أن موضع الخلخال من ساقيها ممتلىء .

ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تفد على ذهنه توًّا مغامرات ابن أبي ربيعة فى غزله ، لا من حيث حواره مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب ، بل أيضاً من حيث وصف الدبيب إليهن فى الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة :

أَمِنْ آل نُعْمٍ أَنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غداةَ غَدٍ أَم رائحٌ فَمُهجِّرُ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه فى غزل الشاعرين ، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصى الصريح وقال إنه انتُحل انتحالا ، انتحله بعض القصاص على غرار ما وجدوا منه عند ابن أبي ربيعة[1] . وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبي ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضى طبيعة التأثر إذ يتأثر اللاحق بالسابق ، ومن التحكم أن نرفض ذلك ، ولعل خيراً من هذا الرفض أن نقارن بين صنيعى الشاعرين فى وصف مثل هذه المغامرات وننفذ إلى ما بينهما من فروق ، فكلاهما حقًّا يتحدث عن زيارته لصواحبه وما يتجشم فيها من أهوال ، وما يكون بينه وبينهن من لهو ، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفنناً فى رقة النجوى وفى كلف صواحبه به ، بينما يمضى امرؤ القيس فى وصف مغامراته مع النساء وصفاً حسيًّا حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى صورة من التهتك الخلقى الفاحش ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن قضية الانتحال .

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامى منحى قديم بدأه امرؤ القيس ونماه من بعده الأعشى[2] ، ثم كان العصر الأموى فتعلق به عمر بن أبي ربيعة وأضرابه . ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس فى المعلقة وحدها ، فمثلها المطولة (ألا عِمْ صباحاً أيها الطَّلَلُ البالى) فإنها تذهب نفس المذهب الذى رأيناه فى المعلقة ، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى ، ثم يفيض فى وصف مغامراته وعبثه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا فى المعلقة ، يقول :

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢٢١ .

(٢) ابن سلام ص ٣٥ .

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سموَّ حَبابِ الماء حالا على حالِ (١)

فقالتْ : سَباكَ اللهُ إنك فاضحى ... ألستَ ترى السُّمَّار والناسَ أحوالى (٢)

فقلتُ : يمينَ اللهِ أبرحُ قاعدًا ... ولو قطَّعوا رأسى لديكِ وأوصالى

فلما تنازعْنا الحديثَ وأسمحتْ ... هَصرتُ بُغصْنٍ ذى شماريخَ ميَّالِ (٣)

وصِرْنا إلى الحُسْنَى ورقَّ كلامُنا ... ورُضْت فذَلَّتْ صعبةً أىَّ إذلال (٤)

فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بَعْلُها ... عليه القتامُ سَيِّئَ الظنِّ والبال (٥)

يَغِطُّ غطيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُهُ ... ليقتلنى والمرءُ ليس بقتَّال (٦)

أيقتلنى والمَشْرَفِيُّ مُضاجعى ... ومسنونةٌ زرْقٌ كأنْياب أغْوال (٧)

وكأن امرأ القيس هو الذى سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح ، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه فى تشبيبه الذى يودعه مقدمات قصائده وما يطوى فيه من بكاء ولوعة .

ورجع فى معلقته بعد حديثه عن بَيْضة الخدر يصف لصاحبته شقاءه بحبها وأنه لا يستمع فيه إلى نصيحة ناصح ، ولا إلى عذْل عاذل ، ويصور كيف يقتحم إليها الليل المخوف ، ويسترسل فى وصفه فيقول :

وليلٍ كموج البحر أرْخَى سُدولَهُ ... علىَّ بأنواع الهموم لِيَبْتَلِى (٨)

فقلت له لما تمطَّى بصُلْبِهِ ... وأردفَ أعجازًا ونَاءَ بكلْكَل (٩)

---

(١) سموت إليها : يريد نهضت إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر أحد بمكانى فكنت مثل حباب الماء يعلو بعضه بعضا فى رفق ومهل .

(٢) سباك : باعدك وأذهب عقلك .

(٣) تنازعنا : تبادلنا ، وأسمحت : انقادت وسهلت . وهصرت : جذبت : وأراد بالغصن قامتها وبالشماريخ شعرها شبه بشماريخ النخل لكثرته وغزارته .

(٤) رضت : أذللت ، وذلت : لانت .

(٥) القتام : الغبار يريد أن بعلها ساءه ما رآه من ميلها إليه فأصبح كأنه مغبر كاسف الحال .

(٦) يغط : يردد صوتاً كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل فى خناقه ، فيسمع له غطيط ، كأنه يريد أن يقول إنه يردد صوتاً كصوت البعير المختنق .

(٧) المشرفى : السيف ، والمسنونة الزرق : السهام .

(٨) السدول : الستور .

(٩) تمطى : امتد . بصلبه : بظهره . وفى رواية بجوزه والجوز : الوسط . والكلكل : الصدر ، وناء : نهض .

ألا أيُّها الليل الطويلُ ألا انجَلِي ... بِصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأَمْثَل (١)

فيالك من ليلٍ كأن نجومه ... بكل مُغارِ الفَتْل شُدَّتْ بِيَذْبُل (٢)

كأن الثُّريَّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِها ... بأَمْرَاس كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَل (٣)

فهو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهى ، ويحس كأنه طال وأسرف فى الطول حتى ليظن كأن نجومه شُدَّت بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهى لا تتحرك ولا تزول ، كأنما سُمِّرتْ فى مكانها ، فهى لا تجرى ولا تسير ، وقد ردَّد الشعراء بعده هذا المعنى طويلا . ونراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيده ولذاته فيه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدى صاحبته فروسيته وشجاعته ومهارته فى ركوب الخيل واصطياد الوحش ، يقول :

وقد أَغْتَدِى والطيرُ فى وُكُنَاتها ... بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابِدِ هَيْكَلِ (٤)

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ (٥)

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِهِ ... كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنزَّلِ (٦)

مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى ... أَثَرْنَ غُبارًا بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ (٧)

---

(١) انجلى : انكشف . وما الإصباح بأمثل : يريد أنه مهموم فى الليل وفى الصبح .

(٢) مغار : شديد . يذبل : جبل .

(٣) المصام : مكانها الذى لا تبرحه ، والأمراس : جمع مرس وهو الحبل . والجندل : الحجارة الكبيرة ، والصم : جمع أصم وهو الصلب الشديد .

(٤) الوكنات : المواضع التى تأوى إليها الطير ليلا ، والمنجرد : الفرس قصير الشعر ، الأوابد : الوحش ، هيكل : ضخم .

(٥) الجلمود : الصخرة الصلبة ، حطه : أسقطه .

(٦) الكميت : الفرس الأحمر فى سواد . يزل : يسقط ، حال المتن : موضعه من وسط الظهر ، الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٧) مسح : عداء يصب الجرى صبا ، السابحات : الخيل المسرعة . الونى : الضعف والفتور . الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الذى ركلته الخيل بحوافرها . يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض ، وهى لذلك لا تثير بها غباراً كما تصنع السابحات .

على العَقْبِ جَيَّاشٍ كأَن اهتزامَهُ ... إذَا جَاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ (١)

يُطِيرُ الغُلامَ الخِفَّ عن صهواتِه ... ويُلْوِى بأَثواب العنيفِ المُثَقَّل (٢)

دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوليد أَمرَّه ... تقلُّبُ كَفَّيْهِ بخيطٍ مُوَصَّل (٣)

له أَيطلا ظبْيٍ وساقا نعـامةٍ ... وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُل (٤)

كأَنَّ على الكِتْفَيْنِ منه إذا انْتَحَى ... مَدَاكَ عَروسٍ أَو صَرَايةَ حَنْظَل (٥)

وهو وصف رائع لفرسه الأشقر ، فقد صور سرعته تصويراً بديعاً ، وبدأ فجعله قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت فى الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها . وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكرّ فى الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر فى آن واحد ، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال ، وإن لبْده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من منحدر بعيد . وهو يصبُّ الجرى صبًّا ، ويسبق كل الخيل سبقاً ، لا يثير غباراً ولا نقعاً ، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلى غليان القدر لا ينى ولا يفتر ، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات عليه ، وما أشبهه فى سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التى يلعب بها الصبيان ، إذ يَصلونها بخيط ويسرعون فى إمرارها إسراعاً . وهو فرس ضامر كأنه ظبى نافر ، فله خاصرتاه النحيلتان ، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان ، وهو يهوى فى الأرض كأنه الذئب الفزع ، ويقفز كأنه الثعلب الخائف ، وإذا اعترضك خُيِّل إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مَداك عروس أو صَرَاية حنظل . واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده ، فوصف سرباً من بقر الوحش عنّ لهم فى الصحراء مصوراً كيف قيّده فرسه ، فإذا هو يلحق بأوائله

---

(١) العقب : جرى بعد جرى ، اهتزامه : صوت جوفه عند الجرى ، الحمى : الغلى ، المرجل : القدر .

(٢) يطير : يسقط ، الخف : الخفيف ، والصهوات : موضع اللبد من ظهره ، ويلوى بأثواب العنيف : يذهب بها . العنيف : الأخرق ، المثقل : الذى لا يحسن الركوب .

(٣) درير : سريع ، خيط موصل : وصلت أجزاؤه ، أمره : أمضاه .

(٤) السرحان : الذئب ، التتفل : الثعلب والإرخاء : العدو ، التقريب : القفز .

(٥) مداك العروس : حجر تسحق عليه طيبها فيبرق ، شبه به الفرس فى بريقه . الصراية : حنظلة صفراء براقة .

تاركاً وراءه ما تخلف منه . فصادوا ما ابتغوا ، وأخذ الطهاة يعدون لهم طعامهم بين مشوى ومطبوخ . وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألمت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء فى شمالى الحجاز ، يقول :

أَحارِ ترَى بَرْقاً كأَنَّ وميضَه ... كَلَمْعِ اليدين فى حَبِيٍّ مُكَلَّل (١)

يضِيءُ سَناهُ أَو مصابيحُ راهبٍ ... أَهانَ السَّليطَ فى الذُّبال المفتَّل (٢)

قعدتُ له وصحبتى بين حامِرٍ ... وبين إِكام بُعْدَ ما مُتَأَمَّل (٣)

وأَضحى يَسُحُّ الماءَ عن كل فِيقةٍ ... يكبُّ على الأَذقان دَوْحَ الكَنَهْبَل (٤)

وتَيْماءَ لم يترك بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ... ولا أُطُماً إِلا مَشِيدا بجَنْدَل (٥)

كأَن ظَبِيَةَ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً ... من السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزَل (٦)

كأَن أَباناً فى أَفانين وَدْقِهِ ... كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مُزَمَّل (٧)

وأَلقى بصحراء الغَبيط بَعاعَهُ ... نُزُولَ اليمانى ذى العِياب المخوَّل (٨)

كأَن سِباعا فيه غَرْقَى غُدَيَّةً ... بأَرْجائه القصوى أَنابيشُ عُنْصل (٩)

---

(١) حار : ترخيم حارث يعنى يا حارث ، وميض البرق : لمعانه . الحبى من السحاب : المتراكم ، وكذلك المكلل ، وقيل الحبى : الدانى من الأرض .

(٢) السنا : الضوء ، السليط : الزيت ، الذبال : الفتائل ، وأهانه هنا : أكثر منه ، ويروى أمال بمعنى رعى ، وهى أجود .

(٣) حامر وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .

(٤) الفيقة : ما بين الحلبتين : يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح . وعن : معناها هنا بعد ، يكب على الأذقان : يسقط ويلقى على الوجه ، الكنهبل : ماعظم من شجر العضاه ، والدوح : جمع دوحة وهى الشجرة كثيرة الورق والأغصان .

(٥) الأطم : البيت .

(٦) طمية : جبل ، المجيمر : أرض لبنى فزارة ، الغثاء : ما يحمله السيل من فتات الأشجار . وفلكة المغزل : ما استدار فوق رأسه .

(٧) أبان : جبل ، أفانين : ضروب . الودق : المطر ، البجاد : كساء مخطط ، ومزمل : صفة لكبير أناس أى أنه متدثر بثيابه ملتف بها .

(٨) الغبيط : موضع ، البعاع : الثقل ، العياب : الحقائب ، المخول : كثير المتاع والغلمان الذين يصحبونه .

(٩) غدية : حين يصبح الناس ، وأنابيش العنصل : جذور البصل البرى .

على قَطَنٍ بالشَّيْم أَيمنُ صَوْبِهِ وأَيْسَرُهُ على السِّتار فيَذْبُلِ[1]

أَلَحَّ بِبُسْيانٍ مع الليل بَرْكَهُ فأَنزل منه العُصْمَ من كل منزلِ[2]

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه فى سحاب متراكم ، وشبّه هذا التألق واللمعان بحركة اليدين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوؤها بما يمدها من زيت كثير . ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام ، والسحاب يسحّ سحًّا ، حتى لتقتلع سيوله كل ما فى طريقها من أشجار العضاه العظيمة . وتلك تياه لم تترك بها نخلا ولا بيتاً ، إلا ما شيّد بالصخر ، فقد اجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعده وأصوله . وهذا طمية جبل المجيمر التفت به السيول وما تحمل من غثاء ، حتى لكأنه فلكة مغزل . وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغثاء يشبه شيخاً ملتفًّا فى كساء مخطط . وقد ألقى بصحراء الغبيط ثِقْله فنشَر به من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التى ينشرها التاجر اليمانى حين يعرضها للشراء . وما زالت السيول تفيض حتى علت آجام السباع فغرقت فى لججها وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البرى . وقد تراكم السحاب وملأ أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بنى أسد وأيسره على الستار ويذبل مما يلى بلاد البحرين ، وعمّ المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التى كانت مستقرة به .

ولامرئ القيس مقطوعة فى الغيث والسيل تلتقى فى كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة ، وهى ذات الرقم ٢٧ فى ديوانه ، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذى الرمة ، وهى تمضى على هذا النحو :

ديمةٌ هَطْلاءُ فيها وَطَفٌ طَبَقُ الأَرض تَحَرَّى وتَدُرّ[3]

---

(١) قطن : اسم جبل فى ديار بنى أسد ، الشيم : النظر إلى البرق والمطر . الستار ويذبل : جبلان .

(٢) بسيان : جبل ، والبرك : الصدر ، العصم : الأوعال .

(٣) الديمة : المطر الدائم ، هطلاء : كثيرة الهطل ، والوطف : الدنو من الأرض . طبق الأرض : تطبقها وتعمها لكثرة مطرها . تحرى : تعمد إلى الأمكنة وتثبت فيها . وتدر : يكثر ماؤها وترسل درتها .

تخرجُ الوَدَّ إذا ما أشجذَتْ ... وتُواريه إذا مـا تَشْتَكِرْ[1]

وتَرَى الضَّبَّ خفيفاً ماهرا ... ثانيـا بُرْثُنَهُ ما يَنْعَفِـرْ[2]

وترى الشَّجْرَاءَ فى رَيِّقِهِ ... كرءوسٍ قُطِّعَتْ فيها الخُمُرْ[3]

سـاعةً ثم انتحاها وابِلٌ ... ساقِطُ الأكناف واهٍ مُنْهَمِرْ[4]

راحَ تَمْرِيه الصَّبا ثم انْتَحَى ... فيه شُؤبُوبُ جنوبٍ مُنْفَجِرْ[5]

ثَجَّ حتى ضـاق عن آذِيِّهِ ... عَرْضُ خَيْمٍ فجُفافٍ فَيُسُرْ[6]

قـد غدا يحملنى فى أنْفِهِ ... لاحقُ الإطْلَيْنِ محبوكٌ مُمَرّ[7]

وهو يصور فى هذه المقطوعة منظراً يماثل المنظر السابق ، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله ، وهو يدرُّ لها ويدنو منها بأهدابه، وحيناً يُقلع فتبدو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتوارى عن الأنظار . وتُتْرَعُ القيعان فيخرج الضبُّ من جحره يعدو عدواً سريعاً لما يرى من كثرة المطر . وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس معممة قطعت فى ساحة حرب عنيفة . وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء ، فقد ألقت السحب بوَبْلها وأثقالها تستدرُّها ريح الصبا الشمالية . ولم تلبث ريح الجنوب أن هبّت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خَيْم

---

(١) الود : الوتد ، أشجذت : أقلعت وسكنت . تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها . وقيل الود اسم جبل .

(٢) خفيفاً ماهراً : يريد مسرعاً فى عدوه . وبرثن الضب : كالإصبع للإنسان . وماينعفر : لايصيبه العفر والتراب ، يقصد أنه لا يلصق بالتراب لخفة عدوه .

(٣) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير ، ريق المطر : أوله ، يريد أن المطر ينمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس قطعت وفيها الخمر وفيها العمائم .

(٤) انتحاها : قصدها . وابل : مطر غزير ، ساقط الأكناف : دان من نواحى الأرض . واه : متخرق ، منهمر : منسكب .

(٥) راح : عاد بالمطر فى آخر النهار . تمريه : تحركه وتديره . الشؤبوب : دفعة المطر ، والجنوب : ريح . منفجر : سائل .

(٦) ثج : سال . الآذى : الموج . وخيم وجفاف ويسر : مواضع .

(٧) يحملنى فى أنفه : يريد فى أنف المطر أى أوله . لاحق الإطلين : فرس ضامر الكشحين ، محبوك : موثق الخلق ومثله ممر ، وأصله من الحبل الممر ، وهو المحكم الفتل .

وجُفاف ويُسر .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التى كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهى التشبيب ، والغزل القصصى الصريح ، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول . فتلك هى الموضوعات التى تستغرق أشعاره الأولى . وتجمعها المعلقة جميعاً ، بينما تقف المطولة الثانية (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) عند التشبيب والقصص المادى، ووصف الوحش والفرس ،وهو فى أثناء وصفهما يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع ولهو .

وكُتب لامرئ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذى يعد لاقتناص اللذات فى اتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتملّى مناظر الطبيعة ، فقد قُتل أبوه ، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عاثرة فى الأخذ بثأر أبيه ورَجْع سلطان كندة على بنى أسد ، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال فى مطولته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) :

كأنّىَ لم أركبْ جَوادا للذّةٍ ولم أتبطّن كاعبا ذاتَ خَلْخال

ولم أسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقل لخيلىَ كُرِّى كَرَةً بعد إجفالِ[1]

ولعله نظم هذه القصيدة فى إبان الدورة الثانية من حياته .

ونحن لا ننتظر منه فى هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق ، فهذا أبوه حُجْر يُقْتل وهؤلاء أعمامه يلقون نفس المصير ،ومن قبلهم قُتل جده الحارث . وهو يسعى فى سبيل الأخذ بثأر أبيه ، والمنذر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث . وربما لقى فى أول الأمر شيئاً من العون ، ولكن ذلك لم يستمر ، فقد ازوروا عنه ، وهو يطلب من يجيره ، وعين المنذر تتبعه وسيف المنذر مُصْلَتٌ يلمع أمام عينيه . فكان طبيعيًّا أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره . وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء، تصور جزنه على آبائه

---

(١) أسبأ : أشترى . الزق : دن الخمر .
الروى : المملوء ، الإجفال : الانهزام فى سرعة .

وما تجمَّع عليه من البلاء، وهى ذات الرقم الحادى عشر فى ديوانه ، وفيها يقول :

أرانا مُوضِعين لأَمْرِ غَيْبٍ ... ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشرابِ[1]

عصافيرٌ وذِبَّانٌ ودُودٌ ... وأَجْرَأُ من مُجَلَّحَة الذئاب[2]

وكلُّ مكارم الأَخلاق صارتْ ... إليه هِمَّتى وبه اكتسابى

فبعضَ اللومِ عاذلتى فإنى ... ستكفينى التجاربُ وانتسابى

إلى عِرق الثَّرَى وَشَجَتْ عروقى ... وهذا الموتُ يسلبنى شبابى[3]

ونفسى سوف يَسْلبها وجِرْمى ... فيُلْحقنى وشيكا بالتُّرابِ

ألم أُنْضِ المَطِىَّ بكل خَرْقٍ ... أَمَقِّ الطول لمَّاع السَّراب[4]

وأَركب فى اللُّهام المَجْر حتى ... أَنال مآكلَ القُحَمِ الرِّغاب[5]

وقد طوَّفْتُ فى الآفاق حتى ... رَضِيتُ من الغنيمة بالإيابِ

أَبعدَ الحارثِ الملك بن عمرٍو ... وبعد الخير حُجْرٍ ذى القِباب[6]

أُرَجِّى من صروف الدَّهر لِيناً ... ولم تَغْفُلْ عن الصُّمِّ الهِضاب[7]

وأَعلمُ أَننى عمَّا قليلٍ ... سأَنْشَبُ فى شَبَا ظُفُرٍ وناب[8]

كما لاقى أَبى حُجْرٌ وجَدِّى ... ولا أَنْسى قتيلا بالكُلاب[9]

فقد ضاع منه الماضى بكل أحلامه ، وهو ينظر أمامه فى الأفق البعيد بل القريب ، فلا يرى إلا وادى العدم الذى يشدُّ إليه الناس جميعاً رحالهم ، وهم

---

(١) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت المغيب . ونسحر بالطعام : تتلهى وتخدع .

(٢) مجلحة الذئاب : المصممة التى لا ترجع عما تريد .

(٣) وشجت : اشتبكت واتصلت . ويشير بعرق الثرى إلى آبائه الذين ماتوا .

(٤) أنضى : أهزل بطول الرحلة . الخرق : الفلاة . أمق الطول : واسع الطول .

(٥) اللهام : الجيش الكثيف . المجر : الكثير . المآكل هنا : الغنائم ، القحم : جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم فى شدة . الرغاب : الواسعة .

(٦) القباب : الخيام الكبيرة .

(٧) الصم المصمتة : الجبال . الهضاب : الصلبة .

(٨) شبا كل شىء : حده . أنشب : أعلق .

(٩) قتيل موقعة الكلاب هو عمه شرحبيل .

يتعللون عنه بالطعام والشراب ، وهو فى انتظارهم ، وهم جادون فى المسير إليه . ويَصْغر الناس وتصغر أطماعهم فى عينه ، ويراهم ضعافاً كالعصافير والذباب والدود ، ومع ذلك يسقطون على أطماعهم كالذئاب الضارية . ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو ، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة . وهو يتسب ، فلا يجد أمامه إلا موتى ، وهو يترقب نفس الأجل المحتوم ، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذى كان يركب الخيل ويُنْضيها فى الفلاة الواسعة ، والذى كثيراً ما انتظم فى جيوش أبيه الكثيفة ، يغنم المغانم الكبيرة . وها هو اليوم يطوف فى الآفاق وراء مجده المضيَّع فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل . وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من آبائه وقد واراها التراب . إنه ينتظره نفس المصير ، فالموت يفتح فاه ، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفترسه افتراساً كما افترست جده الحارث وأباه حجراً وعمه شرحبيل يوم الكُلاب .

والمقطوعة رائعة لأنها تصور لنا إحساسه بعبث الكفاح ضد المنذر وكيف كان هذا الإحساس يتعمقه فى تلك الفترة من حياته . وليس له بعد ذلك أشعار تستحق الوقوف عندها سوى بعض مقطوعات قصيرة تتداخل فيها رواية الأصمعى مع رواية هشام بن الكلبى ، وفيها يمدح ويهجو بعض من كانوا يكرمون جواره أو يسيئون هذا الجوار فلا يمدون يد العون إليه ، وهى شظايا صغيرة لا توضح منهجاً فى مديح ولا هجاء .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على قيمة امرئ القيس ، فهو الذى نَهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديثَ فى بكاء الديار والغزل القصصى ووصف الليل والخيل والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر ، ولعله سُبق بأشعار فى هذه الموضوعات ، ولكنه هو الذى أعطاها النسق النهائى ، مظهراً فى ذلك ضروباً من المهارة الفنية ، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه ، سواء العرب فى أحاديثهم عنه أو النقاد فى نقدهم للشعر الجاهلى ، يقول ابن سلام : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ ، وشبَّه النساء بالظباء والبيض وشبَّه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيَّد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصَّل بين النسيب وبين

المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[1] .

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذى فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل ووصْف النساء والخيل ، وهى تضيف إلى ذلك قرب المأخذ ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لايشوبها عسر ولا صعوبة ، وأيضاً تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى ، فلم يخلطه بشىء ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه .

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعر يلاحظ استواءً فى العبارات واتساقاً فى ترتيب الألفاظ ، مما يدل على أنه كان يملك أعنة اللغة فى يده ، وقليل جداً ما قد نلاحظه عنده من بعض النبو كقوله السابق فى المعلقة :

أحارِ ترى بَرْقًا كأَن وميضَه ... كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مُكلَّل

يضىء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ ... أهان السَّليط فى الذُّبال المفتَّل

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يُكمل وصفه للبرق بأنه فى حبي مكلل وسحاب متراكم وأنه يضيء سناه ، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب . ولكن على كل حال مثلُ هذا قليل فى شعره ، إذ قلما نجد فيه اضطراباً فى ترتيب ألفاظه ومعانيه .

وحقًّا ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهاً ، فتشبيهاته جيدة ، وهى تتراكم فى المعلقة وفى قصيدته (ألاعم صباحاً أيها الطلل البالى) تراكماً يجعله حقًّا صاحب فن التشبيه فى العصر الجاهلى فالتشبيهات تتلاحق فى صفوف متعاقبة ، وقد عقد لها ابن سلام فصلا فى طبقاته[2] ، استمده فى جملته من القصيدتين السالفتين . وأول ما يلاحظ فى هذه التشبيهات أنها مستمدة من واقعه الحسى ، وارجعْ إلى تشبيهاته فى المرأة ، فستراه يشبهها بالبيْضَة فى بياضها ورقتها ، كما يشبهها بالدُّرَّة والبقرة الوحشية ، أما ترائبها فكالمرآة وأما شعرها الغزير فكعِذْق النخلة المتداخل ، وأما خصرها فليِّن كالزمام ، وأما ساقها فكالبردىّ فى بياضه ،

(١) ابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١/٥٧ .

(٢) انظر ابن سلام ص ٦٧ وما بعدها .

٢٦٢

وأما أصابعها فكمساويك شجر الإسْحل . وكل هذه الأوصاف مبثوثة فى المعلقة . وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بخُذْروف الوليد ومَداك العروس وصَراية الحنظل والصخرة الملساء تسقط من عل ، كما يشبهه بالظبى فى خاصرتيه والنعامة فى ساقيه والذئب فى عَدْوه والثعلب فى تقريبه وقفزه . ونحس دائماً أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة ، كقوله :

كأَنَّ دماءَ الهاديات بنَحْرِهِ عُصارةُ حِنَّاءٍ بشيبٍ مرجَّلِ[1]

فدم الوحش الذى صاده امرؤ القيس يلطّخ صدر الفرس فيتراءى كأنه عصارة حنَّاء صُبغ بها شيب ، إذ لايكاد يفترق عن الخضاب فى شىء . ويخرج من ذلك إلى وصف السيل والمطر ، فيفزع إلى التشبيه الكثير ، كأنه لا يرى الشعر شيئاً بدونه ، وهو لذلك يوشّى به كل شىء يعرض له فى المعلقة ، سواء حين يصف الثريا أو يصف الليل ، وقد أبدع فى وصفه لقطعه وأجزائه ، فهى ماتنى تتدافع وتتلاحق غير منتهية ، وألم بالوحش ، فشبه بقره بعذارى دوار ، يقول :

فعنَّ لنا سِرْبٌ كأَنَّ نِعَاجَه عَذارَى دُوَارٍ فى المُلاءِ المذيَّلِ[2]

وبذلك عكس الصورة فشبه البقر بالنساء ، وهو تشبيه مقلوب ، تبعه فيه الشعراء ، وأصبح ضرباً من ضروب الخيال التى ينسجونها .

وننتقل معه إلى مطولته (ألاعم صباحاً أيها الطلل البالى) فتلقانا نفس تشبيهاته للمرأة التى لقيتنا فى معلقته ، فهى كالظبية وبيضة النعامة ، بل هى كالتمثال الجميل يقول :

ويارُبَّ يومٍ قد لهوتُ وليلةٍ بآنسةٍ كأَنها خطُّ تمثالِ

ويشبه وجهها فى إشراقه بالمصباح ، ويقول إنها لينة ممتلئة كحِقْف الرمل أو ما استدار منه ، ويشبهها بالغصن فى اعتدال قوامها وتثنيها ، أما شعرها فكشماريخ النخل فى تداخله وغزارته . ويعرض لليل ونجومه فيشبهها بمصابيح رهبان ، ويحدثنا

---

(١) الهاديات : المتقدمات من بقر الوحش . مرجل : مسرح .

(٢) السرب : القطيع . النعاج هنا : بقر الوحش . ودوار : صنم كانوا يطوفون به فى الجاهلية . المذيل : الطويل السابغ .

فقَصَرْتُ يومهمُ برنَّةِ شارِفٍ وسماع مُدْجِنَةٍ وجَدْوى جازرِ[١]

وهذه الموضوعات التى قدمناها جميعاً كانت تتداخل فى القصيدة الطويلة وكان يتداخل معها ضرب من الحكم والمعانى التهذيبية، فالشاعر ما يزال يُدْلى فى تضاعيف قصيدته بتجاربه، وقد يفرد لها مقطوعات، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لبنيه، على نحو ما صنع عمرو بن الأهتم فى وصيته لابنه التى يستهلها بقوله[٢]:

وإن المجد أوَّلهُ وعُورٌ ومصدر غِبِّه كرمٌ وخِيرُ[٣]

وممن كثرت الحكمة فى شعرهم زهير والأفوه الأودى وعلقمة بن عَبَدة، وهى تكثر فى ميمية الأخير وتتوالى فى أبيات متعاقبة من مثل قوله[٤]:

الحمدُ لا يُشْتَرى إلا له ثَمَنٌ مما يَضِنُّ به الأقوامُ معلومُ
والجود نافيةٌ للمال مَهْلَكَةٌ والبخلُ باقٍ لأهليه ومذموم
وكلُّ حِصْنٍ وإن طالتْ سلامته على دعائمــه لا بُدّ مهدوم

ويلخص لنا رأى الجاهليين فى المرأة وما تطلبه من الرجل، فيقول فى بائيته[٥]:

فإن تسألونى بالنساء فإننى بَصيرٌ بأدْواءِ النساء طَبيبُ
إذا شاب رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُه فليس له من وُدِّهن نَصِيبُ

ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم، فنحن نجدها فى معلقة عَبيد بن الأبرص، وفيها يقول:

وكلِّ ذى غَيْبَــةٍ يَئُوبُ وغائبُ الموت لا يئوبُ

ويقول عَبْدة بن الطبيب[٦]:

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدْركهُ والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

(١) الشارف: الناقة، ورنتها: صوتها عند النحر. المدجنة: القينة تغنى يوم الدجن والغيم. وجدوى الجازر: عطاياه من أطايب اللحم.
(٢) المفضليات ص ٤١٠ وانظر القصيدة رقم ١١٦.
(٣) غبه: عاقبته، الخير: الكرم.
(٤) المفضليات ص ٤٠١.
(٥) المفضليات ص٣٩٢.
(٦) المفضليات ص١٤٢.

ويقول عدى بن رَعْلاء الغسانى [١] :

ليس من ماتَ فاستراح بمَيْتٍ إنما الميْتُ ميِّتُ الأَحْيَاءِ

وتلك هى الموضوعات الأساسية التى تنظم فى سلك القصيدة الجاهلية ، فالشاعر يبدؤها بالتشبيب أو النسيب بالأطلال والديار ، ويصف فى أثناء ذلك حبه ، ثم يصف رحلته فى الصحراء ، وهى أول ما يقدمه للمرأة من ضروب جرأته ، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه ، وقد يؤخرهما إلى نهاية القصيدة ، ويقدم عليهما غرضه من الحماسة أو الهجاء أو الرثاء أو المديح ، مفتنًّا فى أثناء ذلك فى وصف ما يقع تحت عينه ، وناثراً حكمه وتجاربه .

٤

الخصائص المعنوية

لعل أول ما يلاحَظ على معانى الشاعر الجاهلى أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق فى الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله فى الطبيعة ، فهولا يعرف الغلو ولا المغالاة ، ولا المبالغة التى قد تخرج به عن الحدود المعتدلة .

ومرجع ذلك فى رأينا أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلا أميناً ، يُبْقى فيه على صورها الحقيقية دون أن يُدخل عليها تعديلا من شأنه أن يمسّ جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهليين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد فى هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد فى وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات ومشخصات . ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلى لم يغتصب الحيوان لنفسه ،

---

(١) الأصمعيات ص ١٧١ .

فيسكب عليه من خياله ما يحيله عن حقيقته ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى وصفه للمعارك الدائرة بينهم ، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إن هُزموا[١]، وبفراره إن ولّى الأدبار ونكص على أعقابه[٢]، وفى أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلائهم فى الحروب ، ولهم فى ذلك قصائد تلقب بالمنصفات ، مرّ الحديث عنها . وجاءهم ذلك من أنهم لا يبدلون فى الحقائق ولا يعدّلون فى علاقاتها ومعانيها ، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم إزاءها . ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم ، فقد تندّ بعض أبيات تحمل ضرباً من المبالغة ، ولكن ذلك يأتى شاذّاً ونادراً . ونظن ظنّنا أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذى طبع أفكارهم بنزعة تقريرية ، إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع يموّهها أو طلاء يزيفها . ومن هنا كانت معانيهم محددة تحديداً يبرزها فى أتم ما يكون من ضياء ، ومن ثَمّ تبدو فى كثير من جوانبها كأنها شىء راسخ ثابت . ويتضح ذلك فى حِكمهم التى تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة كما يتضح فى جوانب كثيرة من تأبينهم ومديحهم وغزلهم وحماستهم ، إذ يقدم الشاعر المعانى منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهى حقائق تُسْرَدُ سرداً وقلما شابها الخيال ، إلا ليزيدها إمعاناً فى الوضوح والجلاء . واقرأْ فى أشعاره فستجد معانيه حسية ، واضحة ، لا يقف بينك وبينها أى غموض أو أشراك ذهنية تضل فى ممراتها وشُعَبها الفكرية ، إذ يعرض عليك هذه المعانى دائماً مجسمة فى أشخاص أو فى أشياء . وخُذْ فضائلهم التى طالما أشادوا بها فى حماستهم ومراثيهم ومدائحهم ، فستجدها دائماً تساق فى مادة الإنسان الحسية ، فهو لا يتحول بها إلى معنى ذهنى عام يصور إحساسه بالبشرية جميعها فى هذه الفضيلة أو تلك ، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرهما من الفضائل والرذائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه .

وهذه النزعة فى الشاعر الجاهلى جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب ، فهو لا يعرف التغلغل فى خفايا النفس الإنسانية ولا فى أعماق الأشياء الحسية . وتتضح هذه النزعة فى نفس خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادىّ ، ولنرجعْ مثلا إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس

(١) انظر مثلا المفضليات رقم ١٠٨ .

(٢) المفضليات رقم ٣٢ بيت ١ — ٣ .

والبدر والبيضة والدرّة والدُّمْية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأقحوان وبنانها بالعَنَم وثغرها بالبلُّور وخدها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمر وبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعَجُزَها بالكثيب وساقها بالبرْدية. أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر وبالرمح والسيف وبالثور والتيس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحل.

وعلى هذه الشاكلة من الحسية فى التشبيه الشعرُ الجاهلى جميعه، فالشاعر يستقى فى أخيلته من العالم الحسى المترامى حوله. وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقّوا النظر فى أجزائه، وفصّلوا الحديث فيها تفصيلا شديداً، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة وإنما يصنع تمثالا، فهو يستوفى ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة. وخير مثل لذلك وصف طرفة لناقته فى معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة. ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان.

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم، بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة، فما يقوله طرفة فى الناقة يقوله فيها غيره، وما يقوله امرؤ القيس فى بكاء الديار يقوله جميع الشعراء، واقرأ حماسية كمعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد. وقل ذلك فى غزلهم ومديحهم ورثائهم فالشعراء يتداولون معانى واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة. ومن ثَمَّ تَبْدو فى أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد، وجَنى عليهم ذلك ضيقا واضحا فى معانيهم، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء. واقرأ فى المفضليات والأصمعيات فستجد دائماً نفس المعانى، وستجد أيضاً براعة نادرة فى إعادتها وصوغها صوغاً جديداً، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته، وخُذْ مثلا تشبيه المرأة بالظبية، فشاعر يشبهها تشبيهاً عادياً، وشاعر يشبهها بها وهى تمد عنقها إلى شجر السَّلَم الناضر، يريد أن يستتم بذلك منظراً بديعاً

٢٢٢

للظبية ، يقول علباء بن أرقم[١] :

فيوما تُوافينا بوجهٍ مُقَسَّمٍ كأَنْ ظبيةٍ تَعْطُو إلى ناضِرِالسَّلَمْ

وثالث يشبه جيدها بجيد الظبية فى استوائه وطوله وجماله ، يقول الحادرة[٢] :

وتصدَّفتْ حتى امْتَبَتْكَ بواضحٍ صَلْتٍ كمُنْتَصِب الغزال الأَتْلَعِ

ورابع يجعل وجه الشبه حَور العين ، وخامس يجعله فى التنفس كقول المنخّل اليشكرى :

ولثمتُهـا فتنفَّسَتْ كتنفس الظبى البَهِيرِ

وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلا جديداً. وخُذْ مثلا تصويرهم للرجال بالكواكب والنجوم ، يقول عامر المحاربى[٣] :

وكنا نجومًا كلما انقضَّ كوكبٌ بدا زاهرٌ منهنَّ ليس بأَقْتما

ويقول طُفَيل الغنوى فى مديح قوم[٤] :

نجومُ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ بَدا ساطعًا فى حِنْدس الليل كوكبُ

ويقول لقيط بن زُرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادة بديعة[٥] :

وإنى من القوم الذين عرفتمُ إذا مات منهم سَيِّدٌ قام صاحبُهْ

نجومُ سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأْوى إليه كواكبه

أَضاءَتْ لهم أَحسابُهم ووجوههم دُجَى الليل حتى نظَّم الجَزْعُ ثاقبه[٦]

وألمَّ النابغة بهذه الصورة فنقلها نقلة جديدة ، إذ قال فى النعمان بن المنذر مقارناً بينه وبين الغساسنة[٧] :

---

(١) الأصمعيات ص ١٧٨ ومقسم : من القسام وهو الجمال ، وأن فى كأن زائدة ، تعطو : تتناول ، والسلم : من أشجار البادية .

(٢) المفضليات ص ٤٤ وتصدفت : أعرضت . بواضح : يريد بعنق ناصع جميل ، وصلت : مشرق ، الأتلع : طويل العنق .

(٣) المفضليات ص ٣٢١ الأقتم : من القتام وهو الغبار .

(٤) الحيوان ٣/٩٤ .

(٥) الحيوان ٣/٩٣ .

(٦) الجزع : خرز فيه سواد وبياض

(٧) الحيوان ٣/٩٥ ومختار الشعر الجاهلى ص ١٧٥ .

وإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْد منهن كوكبُ

ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة فى معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة .

وملاحظة ثانية هى أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنشر الملل فى نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثّوا فيها كثيراً من الحيوية ، وما من شك فى أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التى لم تكن تعرف الثبات والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلأ ، ومن ثَمّ كانوا إذا وصفوا الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً ، وارجعْ إلى وصف طرفة لناقته فستجده يصفها وهى سائرة به فى طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه ، يقول :

أمونٍ كأَلْواح الإرَان نَسَأْتُها على لاحبٍ كأَنه ظَهْرُ بُرْجُدِ(١)

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط ، يجد فيه جمالا ، كما يجد فيها روعة وبهاء ، فيستمر فى وصفها وكأنه تدلّه بها حبًّا ، فهو لا يترك شيئاً دون أن يقيده ، وكأنه يصنع لها تمثالاً يريد أن يحفره حفراً فى أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم ويودون لو أتيح لهم من ينْصبها لهم تمثالا بديعاً . وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأُتن وحمارها ويصورونها لنا وهى تجرى فى الصحراء تطلب الماء ، والصائد إما فى طريقها بكلابه أو على الماء مستتراً منها ، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولا .

وطبيعى أن يفيض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة ، فالحركة أساسه ، وقد يُدخلون هذه الحركة فى المقدمة نفسها ، فالشاعر لا يكتفى بالوقوف بالأطلال وبكاء الديار ، بل كثيراً ما يصور ظُعن حبيبته وصواحبها فى القافلة ، وقد خرجت تطلب مرعى جديداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع وعينُ الشاعر بإزائها تسجل هذه الرحلة الدائبة تسجيلا بديعاً .

---

(١) أمون : موثقة الخلق ، والإران : قابوت لموتاهم ، ونسأتها : زجرتها ، اللاحب : الطريق البين الواضح الذى أثر فيه المشى . البرجد : كساء مخطط شبه به طرائق الطريق وما فيه من تعاريج وخطوط وآثار .

وهذه الحركة فى حياتهم التى تَعْنى عدم الثبات والاستقرار ، وبالتالى تعنى عدم التوقف عند شىء وإطالة النظر فيه هى التى جعلت معانيهم سريعة ، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها ، فالشاعر لا يقف طويلا عند المعنى الذى يلم به بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر . فحياته لا تثبت ولا تستقر ، وهو كذلك فى معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى فى خفة وسرعة شديدة . ومن ثَمَّ غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون ، ولعل هذا هو الذى جعل البيت فى قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها ، وتتألف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التى يكتفى فيها كل بيت غالباً بنفسه ، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادراً .

وربما كان هذا هو السبب الحقيقى فى أن القصيدة الطويلة لا تلمّ بموضوع واحد يرتبط به الشاعر ، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة ، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هى كل روابطها ، أما بعد ذلك فهى مفككة ، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه . ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس فى الشعر الجاهلى ، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقاً من حياته ، وهو التنقل السريع .

وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذى يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق ، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامى من حولهم فى غير حدود هو الذى أملى عليهم صورة قصيدتهم ، فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكرى : إنما هى موضوعات أو أشكال متجاورة يأخذ بعضها برقاب بعض فى انطلاق غريب كانطلاق حياة الشاعر فى هذا الفضاء الصحراوى الواسع الذى لا يكاد يتناهى ولا يكاد يحد ، والذى تتراءى فيه الأشياء متناثرة غير متجاورة .

على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، لا نراه ماثلا فى وصفهم للحيوان الوحشى فحسب ، بل نراه أيضًا فى وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التى أنشدها المفضَّل الضبىّ والتى يستهلها بقوله[1] :

---

(١) المفضليات ص١٠٨ ، وأجمعت : عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت .

أَلا أُمَّ عمرو أَجمعتْ فاستقلَّتِ وما وَدَّعتْ جيرانَها إذ تولَّتِ

فإنه يقصّ علينا بعد غزلها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك، وهو لا يسردها فى إجمال، بل يسرد تفاصيلها، إذ يذكر أنهم أعدّوا العُدَّة للغزو والسلب، يحملون قِسيَّهم الحمر، وقد خرجوا من واديين: مِشْعل والجَبا راجِلين، وقد حمَل زادهم تأبط شرًّا الصعلوك المشهور، وكان يقتِّر عليهم فى الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً. ويصف لنا الشنفرى جعبة السهام التى كانت معهم، وكيف أنهم كانوا يحملون حُساماً صارماً، بل سيوفاً قاطعة كأنها قِطَع الماء فى الغدير لمعاناً، بل كأنها أذناب البقر الصغير تحركه، وقد نهلت وعَلَّتْ من دماء مُحْرِمٍ ساق هَدْيَه إلى الكعبة، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، كما قتلوا بعض من كانوا يرافقونه، ومن لم يُقتَل أخذوه أسيراً. ويُنهى القصة مفتخراً بشجاعته وأنه لا يرهب الموت.

ويكثر الصعاليك من قَصّ مثل هذه المغامرة، ويلقانا فى حماسياتهم كثير من وصف معاركهم، وقد يحاولون سَرْدها، وهو سرد تتمشى فيه الروح القصصية على نحو ما تمثّل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبى خازم فى المفضليات، إذ يتحدث فيها حديثاً مفصلا عن يومى النَّسار والجِفار، فالقَصَص يتخلل شعرهم، وقد أفردوا له فى مطوّلاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشى. ونراه ماثلا فى غزلهم على نحو ما مر بنا فى غزلية المنخّل اليشكرى، وإنما تمثلنا بقطعة منها، وهو ماثل فى غزل المرقِّش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات. فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم كان يسودها فى بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين، وهى روح لم تتسع عندهم، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز. وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصى، فقد ظل شعرهم غنائيًّا ذاتيًّا، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه، غير محاول صُنْعَ قصة، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية، ويرتبها ترتيباً دقيقاً، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله، إذ كان مشغولا بنفسه، لا يهمه إلا أن يتغنى بها وبمشاعره.

٥

الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلى أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهى فى الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفى أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب فى الشعر الجاهلى يصور رقيًّا لغويًّا ، وهو رقى لم يحدث عفواً فقد سبقته تجارب طويلة فى غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع فى مكانها والعبارات تؤدى معانيها بدون اضطراب .

وقد يكون من الأسباب التى أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معانى بعينها ، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقاً مرسوماً ، يسيرون فيه كما تسير قوافلهم سيراً رتيباً ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعوراً دقيقاً ، مما جعل زهيراً يقول بيته المأثور — إن صح أنه له — :

ما أرانا نقول إلا مُعـارا أو مُعادًا من لفظنـا مكرورا

فهو يشعر أنهم يبدئون ويعيدون فى ألفاظ ومعان واحدة ، ويجرون على طراز واحد ، طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب ، فكل شاعر ينقّح فيه ويهذب ويصفى جهده حتى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة فى الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتى نادراً ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ، وبالغوا فى ذلك ، حتى كان منهم من يُخرج قصيدته فى عام كامل ، يردّد نظره فى صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستويه فى بنائها(١) .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تُصْنَعُ دفعة واحدة ، بل كانت تصنع على دفعات ، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريع فى طائفة منها ، ولعله أيضاً السبب

(١) البيان والتبيين ٢/٩ وما بعدها .

فى تفككها واختلاف عواطفها ، فقد كان الشاعر يصنعها فى أزمنة مختلفة . وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عرضها على بعض شعراء قبيلته وبعض من يلزمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يعيد فيها النظر فيبدل فى بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتاً . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلى لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح . وفى أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة فى هذا التنقيح وما ينطوى فيه من تجويد ، فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبى بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقها[1] ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه[2] ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر ، كما لقبوا طفيلاً بالمحبر لتزيينه شعره[3] ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره[4] ولقبوا غير شاعر بالنابغة فى شعره ، ومن ألقابهم التى تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقف والمتنخل . وقد استطاعوا حقاً أن يبهروا العصور التالية بما وفروه لأشعارهم من صقل وتجويد فى اللفظ والصيغة .

ونحن نعرف أن الصيغة فى الشعر صيغة موسيقية ، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغه ، فقد كان الشاعر يتقيد فى قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفون فى نغم القصيدة ، حتى استوى استواء كاملا ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافى وحركاتها ، وبرعوا فى تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ فى غزلية المتنخل اليشكرى السابقة . وحقاً هو فى جمهوره جزل ، ولكنها جزالة تستوفى حظوظاً من الجمال الفنى ، ولذلك ظلت ماثلة فى شعرنا العربى عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة . واقرأ فى حوليات زهير وقصائده المطولة وفى غيره من المبرزين أمثال النابغة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنترة ودريد بن الصمة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبدى فستجدك أمام قصائد باهرة ، قد أحكمت صياغتها وضبطت أدق ضبط ، وسنعرض قطعاً منها فى حديثنا عن الشعراء ، لنصور براعتهم

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٥٧ .
(٢) انظر المفضليات (طبعة لايل) ١/٤١٠ ، ٤٨٥
(٣) المفضليات ١/٤١٠ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ٢١/١١٢ .

فى هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جَزُلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونق .

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم ، لغرض التأثير فى سامعيهم ، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأكثرها دوراناً فى أشعارهم التشبيه ، فلم يصفوا شيئاً إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسى ، فالفرس مثلا يشبَّه من الحيوان بمثل الظبى والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبَّه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام ، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأفعوان والحبل والهراوة والعَسيب والجِذْع وتشبَّه ضلوعه بالحصير وصدره بمداك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكير وعَرْفه بالقصبة الرطبة وحافره بقَعْب الوليد وعنقه بالرمح والصعدة وعينه بالنقرة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالحِباء. وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة فى المفضليات والأصمعيات ، ويعرض علينا امرؤ القيس فى وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها . وعلى نحو ما لاحظنا آنفاً كانوا يحاولون الإطراف فى التشبيه ، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم ، وقد يقعون على صور نادرة كتصوير المتنخل اليَشْكرى لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات ، يقول[١] :

يَعكُفْنَ مثل أساودِ الـ ـتَّنُّوم لم تُعْكَفْ لزُورِ[٢]

وكانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس ، وألمَّ سُوَيد بن أبى كاهل بهذا التشبيه ، وحاول أن يخرجه إخراجاً جديداً فقال[٣] :

حرّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا واضحًا كشعاع الشمس فى الغَيْم سَطَعْ[٤]

فجعل أسنان صاحبته المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبزغ من خلال الغيم .

وكانوا يشبهون الرمح بالجمر ولهبه ، وألمَّ عَميرة بن جُعْل بهذا التشبيه فأضاف إليه إضافة جديدة ، إذ قال[٥] :

---

(١) الأصمعيات ص ٥٤ .

(٢) يعكفن : يمشطن شعرهن ، والأساود : الأفاعى ، والتنوم : شجر ، ولم تعكف لزور كناية عن عفتهن .

(٣) المفضليات ص ١٩١ .

(٤) الشتيت : المتفرق يريد أسنانها المفلجة ، واضحاً : أبيض .

(٥) المفضليات ص٢٥٩ ،والرديني : الرمح.

السفر الجاهلي

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة فى التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً ، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم ، ومن التعسف أن نزعم ذلك لمجرد الظن ، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية . وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية فى العصر الجاهلى فمن المحقق أنه وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان . ومن المؤكد أنهم كانوا يُشْغَفون بالقصص شغفاً شديداً . وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يُرْخى الليل سُدوله يجتمعون للسمر ، وما يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم بقوله : كان وكان ، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه ، وقد يشترك بعضهم معه فى الحديث ، وشبابُ الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة .

ومن غير شك كان يُفيض القَصَّاص على قصصه من خياله وفنه ، حتى يبهر سامعيه ، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجِدِّ ، وعيونهم تلمع فى وجوههم السمْر وقلوبهم تخفق من آن إلى آن، وليس بين أيدينا شىء من أصول هذا القَصَصِ الذى كان يدور بينهم ، غير أن اللغويين والرواة فى العصر العباسى دوّنوا لنا ما انتهى إليهم منه، وطبيعى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى ، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته .

ويمكننا بواسطة ما دوّنه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القَصَص الذى كانوا يتناقلونه بينهم ، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعاً على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجّله أبطالهم فيها من انتصارات مروّعة وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلوا يقصُّون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويّو القرن الثانى للهجرة ورُواته، فدونوها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبى عبيدة فى شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع .

وكانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية ومثل الزبّاء ، مما نجده مبثوثاً فى تاريخ الطبرى وفى السيرة النبوية لابن هشام ، وسقط من ذلك كثير إلى أبى الفرج فى أغانيه ، ومن المحقق أن كثيرا من هذا القَصَص يخالف التاريخ الحقيقى لهؤلاء الملوك، على نحو ما هو معروف عن قصة الزباء ، فإنها لا تتفق فى شىء ووثائق التاريخ الرومانى الصحيحة[1] حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حُرِّف إلى الزباء ، وربما جاء هذا التحريف من أن أباها كان يُدْعى زبای ، فنسبوها إليه وقالوا بنت زبای ، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت ، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف حسب قواعدهم الصرفية همزة ، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزباء .

وعلى نحو ما كانوا يقصّون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصّون عن ملوك الأمم من حولهم وشُجْعانهم، يدل على ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن النَّضْر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويَنْصِبُ له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتم وإسْفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ، فذكّر فيه بالله، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفَه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً منه ، فهلم إلىّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُسْتم وإسْفنديار[2] . . »

ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيراً عن كُهّانهم وشعرائهم وسادتهم ، وهو قَصَص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب مَعِيناً لا ينضب من الأخبار ، وارجعْ إلى تراجم صاحب الأغانى فستراها تحفل بمادة غنية من القصص ، وقد بثوا فيها غير قليل من قصَص الهوى ، كقصة المرقّش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف ، وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها ، واعتذار الأب له بحداثة سنه وأنه لم يُعْرَفْ بعد بشجاعة ، وما كان من انطلاق المرقّش إلى بعض الملوك ومديحه له وبقائه عنده زمناً ، وفى هذه الأثناء أصاب عَوْفاً زمان شديد ،

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/٩٩ وما بعدها .

(٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ١/٣٢١

فأتاه رجل من مُراد، فأرغبه فى المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله. وقال إخوة المرقّش لا تخبروه بخبرها حين يرجع، بل قولوا له إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشاً، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء، وبعد مغامرات يتعرف على راعى زوجها، ويترسل إليه أن يحدثها عنه، فيقول له: إنى لا أستطيع أن أدنو منها، ولكن تأتينى جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عَنْزاً، فتأتيها بلبنها، فقال له مرقش: خذ خاتمى هذا، فإذا حلبتَ فألقه فى اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك، فأخذ الراعى الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به وتركته بين يدى أسماء. فلما سكنت الرَّغْوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع، فقرع الخاتم ثَنِيَّتها، فأخذته واستضاءتْ بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: مالى به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فزعاً، فقال لها: لم دعوتنى؟ قالت له: ادْعُ عبدك راعىَ غنمك، فدعاه، فقالت: سَلْه أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل فى كَهْف خُبَّان، فقال لى: اطرحه فى اللبن الذى تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرنى مَنْ هو، ولقد تركته بآخر رمَقٍ. فقال له زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقّش، فأعْجِل الساعة فى طلبه. فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طَرَقاه من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما، فمات عند أسماء وقال: قبل أن يموت:

سَرَى ليلا خيالٌ من سُلَيْمى ... فأَرَّقنى وأصحابى هجودُ
فبِتُّ أُدِير أمرى كلَّ حالٍ ... وأذكر أهلها وهمُ بَعيد
سكنَّ بِبلدةٍ وسكنتُ أُخرى ... وقُطِّعتِ المواثقُ والعهودُ
فما بالى أَفِىَ ويُخَانُ عَهْدِى ... وما بالى أُصادُ ولا أَصيدُ

ثم مات فدفن فى أرض مُراد[1].

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٦/١٢٩ وما بعدها.

ولم نَسُقْ هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التى دارت فى الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها ، ولكنا سقناها لندل بطوابعها على صورة أمثالها فى الجاهلية ، وما كان يتيح القَصَّاص لمثلها من عناصر التشويق ، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله ، وتارة بما يضيف إليها من أشعار ، وقد يضيف إليها أمثالا ، على نحو ما نعرف فى قصة الزبَّاء ، وهى تتضمن عند الضَّبِّى اثنى عشر مثلا[1] .

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع فى كثير من الحكايات عند أمم غير العرب[2] كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى فى الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية ، ويدخل فى هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيوانات التى يلتقون فيها بخرافات الأجانب[3] ، كخرافة الحية والفأس ، وقد رواها الضبى على هذه الشاكلة[4] :

« زعموا أن أخوين كانا فيما مضى فى إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريبًا منهما واد فيه حية ، قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أنى أتيت هذا الوادى المُكْلِئ ، فرعيت فيه إبلى وأصلحتها ، فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادى إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطنَّ . فهبط ذلك الوادى ، فرعا إبله به زمانًا ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما فى الحياة بعد أخى خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعنَّ أخى . فهبط ذلك الوادى ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح ، فأدعك بهذا الوادى ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيتَ ديناراً فى كل يوم . قال : أفاعلة أنتِ ؟ قالت : نعم ، قال : فإنى أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق ، لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالا . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان ؟ . فعمد إلى فأس ، فأحدَّها ، ثم قعد لها ، فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ،

---

(١) أمثال العرب للمفضل الضبى (الطبعة الأولى بالقاهرة) ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١ / ١٠٢ .

(٣) انظر كتاب الأمثال فى النثر العربى القديم لعبد المجيد عابدين ص ٤٢ .

(٤) أمثال العرب للضبى ص ١٠٦ .

فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جُحْرها، فأثّر فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوّف شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاهدك ؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر ، لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلا مشهوراً من أمثال العرب ، قال نابغة بنى ذبيان (من قصيدة يعاتب بها بنى مرة) :

وإنى لألقى من ذوى الضِّغْن منهمُ بلا عَثْرة ، والنفس لا بُدَّ عَاثِره
كما لقيتْ ذاتُ الصَّفَا من حليفها وما انفكّتِ الأمثالُ فى الناس سَائره

ويُنْشِدُ الضبي بقية القطعة التى يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعى الذى اختان عهده . ونحن نشك فى الأبيات كما نشك فى أن القصة حافظت على الأصل الجاهلى، وإن كنا فى الوقت نفسه نظن ظَنًّا أنها تعطينا جانباً من روح القصص الجاهلى ، وأنه كان يلتقى فى بعض جوانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود، والذى تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف فى قصص إيسوب اليونانى، وبين قصصه الزارع والحية[1] ، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعاً .

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قَصّوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين ، وقد زعموا أنها تتحوّل فى أى صورة شاءت إلا الغول فإنها دائماً تبدو فى صورة امرأة عَدا رجليها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار. وكثيراً ما تتراءى الجن فى صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور . وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويَبْرين . ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها فى كتب الأساطير والعجائب التى ألفت فى العصر العباسى .

ونحن لم نسق ذلك لنؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلى بقية صالحة للدراسة ، فإن شيئا من هذا القصص الذى يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوباً ، ولذلك كنا نتهمه جملة، وإن كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملامحه ، ولكن لا بصورة دقيقة ، وإنما بصورة عامة .

---

(١) انظر الأمثال فى النثر العربى القديم ص ٤٣ .

٢

الأمثال

إذا كان القصص الذى أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلى بحكم تأخره فى التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ أن من شأنها أن لا تغيَّر ، وأن تظل طويلا بصورتها الأصلية ، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة . وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة ، إذ ألف فيها صُحار العَبْدى أحد النسابين فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١–٦٠ هـ) كتاباً كما ألف فيها عُبيد بن شَرِيَّة معاصره كتابًا آخر ، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه فى نحو خمسين ورقة[1] . وإذا انتقلنا إلى القرن الثانى وجدنا التأليف فى الأمثال يكثر ، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعًا يهتمون بها ويؤلفون فيها ، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى ، ونمضى إلى القرن الثالث ، فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتابًا يشرحه من بعده أبو عُبيد البكرى باسم « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام » . وما تزال المؤلفات فى الأمثال تتوالى ، حتى يؤلف أبو هلال العسكرى كتابه « جمهرة الأمثال » ويخلفه الميدانى ، فيؤلف كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابًا .

ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التى تسمى مثلا ، ولا يكتفون بذلك ، بل يقفون غالبًا لسرد القصة أو الأسطورة التى تمخض عنها المثل ، وقد تتمخضُ عن أمثال أخرى فتُروى فى تضاعيفها . وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلى بعامة ، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلى وإن اختلجت بروحه وطبيعته وحيويته ، لنفس السبب الذى ذكرناه ، وهو تأخر تدوينها . أما الأمثال نفسها فمن المحقق أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية ، وخاصة أكثر ما رواه عُبيد ابن شَرِيَّة ، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

من هذه الأمثال ، غير أنه فُقد . ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية ، إذ دَرَج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الاولى على نحو ما ترتّب المعاجم ألفاظها ، فهم يرتبونها أو يؤلفونها فى تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها فى كثير من الأحيان ، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها ، وهى تتخذ عندهم طريقين : الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره ، أو أن يساق هو فى أثناء قصة جاهلية ، كتلك الأمثال التى نقرؤها فى قصة الزبّاء من مثل : « لايطاع لقصير أمرٌ » و« لأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أنفه » و« بيدى لا بيد عمرو » وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميدانى ثمانية عشر مثلا . ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذى زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمى ابتنى قصراً له يسمى الخوَرْنق ، بناه له رومى يسمى سِنِمّار ، فلما أتمه قال له سنمار : إنى أعرف موضع آجرّة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا ، فقال : لا جرم لأدَعَنّها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرُمى من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سِنِمّار .

وأما الطريق الثانى فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة ، ومنهم من يُغْرق فى القدم مثل لُقْمان عاد ، تلك القبيلة اليمنية التى كانت تنزل فى الأحقاف ، والتى بادت ولم تبق منها باقية فى الجاهلية ، وقد ظل اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم [1] وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم . يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يُذْكَرُ بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنُّكْرَاء لقمان عاد » وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم [2] كما ينص على ذلك المفسرون [3] . ولقدم لقمان حفّت الأسطورة به وبحياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء . فقال الأخباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس قوياً قوة

(١) البيان والتبيين ١/١٨٣ وما بعدها و ٣/٣٠٤ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٨٤ .
(٣) قصص الأنبياء للثعلبى (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ٧/١٨٦ وانظر خزانة الأدب للبغدادى ٢/٧٧ .

خارقة حكيما حكمة بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعة نسور وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة وكان لُبَد آخرها، وبه ضربوا المثل فى طول العمر فقالوا « طال الأبد على لبد »[١] . ونُسبت إلى لقمان فى عصور متأخرة طائفة من الأقاصيص أريد بها إلى العظة والاعتبار ، وسميت أمثال لقمان ، وهى مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف . وقد زعم هلر « Heller » كاتب مادة لقمان فى دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل : (ا) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لقمان عاد الأسطورى الذى يقال إنه عاش عمر سبعة نسور وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر ، حتى كان لُبَد الذى ذكره شعراؤهم كثيراً . (ب) مرحلة قرآنية، وفيها نجد للقمان سورة خاصة به فى الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بنى إسرائيل فسردوا له نفس نسبه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور[٢] بن ناحور ابن تارخ . (ج) مرحلة متأخرة، وهى مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب « أمثال لقمان » .

ومن المحقق أن « هلر » مخطئ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان ، لسبب بسيط ، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرّقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم ، فهما ليسا شخصا واحداً بل هما شخصان . وبينما تُعنى بالأول كتب الأمثال نجد الثانى تُعنى به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبى حيان ، وقد روى الجاحظ طرفاً من تعاليمه ، وهى تُطْبَعُ بطابع دينى[٣] .

واشتهر فى الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم ، يقول الجاحظ : « ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صَيْفى وربيعة بن حُذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرِب ولَبِيد بن ربيعة »[٤] وأحكمهم أكثم بن صيفى التميمى وعامر بن الظَّرِب العدْوانى ، فأما أكثم فكان من المعمَّرين[٥] ،

---

(١) انظر المعمرين للسجستانى ص ٣ وأخبار عبيد بن شرية ص ٣٥٦ والخزانة ٢/٧٧ والميدانى ١/٣٧٥ .

(٢) انظر الثعلبى ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ٧/١٨٦ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٤٩ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .

(٥) انظر فى أكثم المعمرين للسجستانى ص ١٠ والأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٧٠ ومجمع الأمثال ٢/١٤٥ وجمهرة الأمثال للعسكرى على هامشه ١/١٢٠ .

ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات فى الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطى فى المزهر طائفة منها نقلا عن ابن دريد فى أماليه ، وهى تجرى على هذا النسق[١] :

« رُبَّ عُجلة تهب رِيثا[٢] . ادَّرِعوا الليل فإن الليل أخفى للوَيْل . المرء يعجز لا محالة . لا جماعة لمن اختلف . لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح ، فإنه كفى بالمشرفية واعظاً . أسرع العقوبات عقوبة البغْى . شر النُّصْرة التعدِّى . آلم الأخلاق أضيقها . أسوأ الآداب سرعة العقاب . رُبَّ قول أنفذ من صَوْل[٣] . الحرُّ حُرٌّ وإن مسَّه الضر . العبد عبد وإن ساعده الجدّ[٤] . إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد . رُبَّ كلام ليس فيه اكتتام . حافظ على الصديق ولو فى الحريق . ليس من العدل سرعة العذل . ليس بيسير تقويم العسير . إذا بالغت فى النصيحة هجمتْ بك على الفضيحة . لو أنصف المظلوم لم يبق فينا مَلُوم . قد يبلغ الخَضْم بالقَضْم[٥] . استأن أخاك فإن مع اليوم غدا . كل ذات بَعْل ستئيم[٦] . الحرّ عزوف . لا تطمع فى كل ما تسمع » .

وعامر مثل أكثم يدخل فى المعمرين[٧] ، ويقال إنه « لما أسنّ واعتراه النسيان أمر ابنته أن تَقْرَع بالعصا إذا هو فَهَّ[٨] عن الحكم وجارَ عن القصد . وكانت من حكيمات العرب حتى جاوزت فى ذلك مقدار صُحَر بنت لقمان وهند بنت الخُسّ وجمعة بنت حابس . . وقال المتلمس فى ذلك :

لذى الحِلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العَصَا ... وما عُلم الإنسانُ إلا ليعلما[٩] »

وكان مثل أكثم حكماً للعرب تحتكم إليه ، وافتخر بذلك ذو الإصبع العَدْوانى فى بعض شعره فقال[١٠] :

---

(١) المزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) ١/١
(٢) الريث : البطء أى رب عجلة تفوّت على صاحبها حاجته
(٣) الصول : الاستطالة فى الحرب .
(٤) الجد : الحظ .
(٥) الخضم : الأكل ملء الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .
(٦) تئيم : يهلك عنها الزوج .
(٧) انظر المعمرين ص ٤٤ وأمثال الميدانى فى المثل : إن العصا قرعت لذى الحلم .
(٨) فه : حاد وجار وانحرف .
(٩) البيان والتبيين ٣/٣٨ .
(١٠) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٩٠ .

ومنا حَكَمٌ يَقْضِى فلا يُنْقَضُ ما يقْضِى

وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه[١] .

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيِّنون قائلها ، وهذا طبيعى لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل، ممن لا يمجَّدون ولا يحفل بهم الناس، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة ، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم . ولا بد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفى المعنى المراد منه . ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال، كقولهم : « بِعَيْنٍ ما أرينَك » فإن معناه : أسرعْ ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ ، ومن ثم علّق عليه أبو هلال العسكرى بقوله : « هو من الكلام الذى قد عُرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه[٢] » . ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن الأمثال لا تتغير ، فتقول : « الصيف ضَيَّعتِ اللبن » [٣] بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجماعة . ومن ثم كانوا يستجيزون فى المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع ، . فمن أمثالهم : « أعط القوسَ باريها[٤] » بتسكين الياء فى باريها والقياس فتحها ، وفيها أيضا : « أجناؤها أبناؤها » جمع جان وبان ، والقياس : « جُناتها بُناتها » لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام ، بل إن طائفة منها تدخل فى الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صَيْفى وعامر بن الظَّرب ، وكان خطباؤهم المفوَّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشْدها فى خطابتهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثَّلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع[٥] » وتبع شعراؤهم خطباءَهم يودعونها أشعارهم . ومن ثَمَّ كنا نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقى ، فإذا هو شطر

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٠١ ، ٢/١٩٩ .
(٢) جمهرة الأمثال للعسكرى على هامش مجمع الأمثال للميدانى ١/١٦٨ .
(٣) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته بعد فوت أوانها .
(٤) أى استعن على ما تعمل بأهل الحذق والمهارة .
(٥) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

أو بيت . وكثيراً ما نلاحظ فى بعض عباراتها احتفالا بتوازن الكلمات توازناً ينتهى بها إلى السجع كما نلاحظ فى بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير ، ومن أجل ذلك يقول النَّظَّام إنها « نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية[١] »

واقرأ هذه الأمثال :

تجوع الحُرَّة ولا تأكل بثَدْيَيْها[٢] — المقدرة تُذْهب الحفيظة — مقتل الرجل بين فكَّيه[٣] — إنما المرءُ بأصغريه : قلبه ولسانه — من استرعى الذئبَ ظلم — فى الجريرة تشترك العشيرة[٤] — وقد يأتيك بالأخبار من لم تزوِّد[٥] — كذى العُرِّ يُكْوى غيره وهو راتع[٦] — اسْتَنْوَق الجمل[٧] — كالمستجير من الرَّمضاء بالنار[٨] — حلَبَ الدَّهرَ اشْطُرَه[٩] — يَخْبِط خَبْط عَشْواء[١٠] — المنيَّة ولا الدنيَّة[١١] — تحت الرَّغوة اللبَنُ الصَّريح[١٢] — هُدْنَةٌ على دَخَن[١٣] — رمتْنى بدائها وانسلَّتْ .

فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنغيم الموسيقى للفظه ، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت . وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة ، ليجسِّم المعنى ويزيده حدة وقوة . والحق أن كل شىء يؤكد أن العرب فى الجاهلية عُنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا ، وقد وصفهم جَلَّ وعزَّ أو وصف فريقاً منهم بقوله : « ولتعرفنَّهم فى لَحْنِ القول » وقوله : « ومن الناس مَن يُعْجِبك قوله فى الحياة الدنيا » . وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلائقهم ، ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزةً بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هى القرآن الكريم . « وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

---

(١) مجمع الأمثال ١/٥ .
(٢) يضرب فى صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة .
(٣) بين فكيه : أى لسانه ومايتكلم به .
(٤) الجريرة : الجناية .
(٥) شطر بيت لطرفة .
(٦) شطر بيت للنابغة .
(٧) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلا لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه .
(٨) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .
(٩) أشطره : الأشطر : أخلاف الناقة ، يضرب مثلا لمن عرك الدهر .
(١٠) العشواء : الناقة ضعيفة البصر ، يضرب مثلا فى التعثر .
(١١) الدنية : العمل الدنىء .
(١٢) الصريح : الخالص .
(١٣) دخن : حقد .

٣

الخطابة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية ، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذى قيلتْ فيه وعصور تدوينها ، ولذلك كان ينبغى أن نحترس مما رواه منها صاحب الأمالى وصاحب العقد الفريد ، فأكثره أو جمهوره منحول . على أن اتهامنا لنصوصها لا ينتهى بنا إلى إنكارها على الجاهليين ، بل إنه لا ينتهى بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين[1] ، فقد كان كل شىء عندهم يؤهل لهذا الازدهار ، إذ لم يكن ينقصهم شىء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم فى مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم فى المقال وحَوْك الكلام ، وأسعفتهم فى ذلك ملكاتهم البيانية وما فُطروا عليه من خلابة ولَسَن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، حتى ليقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام . . عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجاً) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب[2] » .

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ، وأن تتناول أغراضاً مختلفة ، فقد استخدموها فى منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كمنافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل إلى هَرِم بن قُطْبة الفَزارى[3] ومنافرة

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين ص ٣٧٤ .
(٢) البيان والتبيين ٣/٢٨ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٥١ .

القعقاع بن معبد التميمى وخالد بن مالك النهشلى إلى ربيعة بن حُذار الأسدى[١] . واستخدموها فى الحض على القتال وبعث الموجدة فى نفوس قبائلهم ودفعها إلى نيران الحرب وتراميهم فى أوارها كأنهم الفراش ، يقول أبو زُبَيْد الطائى[٢] :

وخطيبٍ إذا تمعَّرتِ الأَوْ جهُ يوماً فى مأْقِطٍ مشهودِ[٣]

ويقول عامر المحاربى فى مديح قومه[٤] :

وهم يَدْعَمُونَ القولَ فى كل موطنٍ بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما[٥]
يقوم فلا يَعْيا الكلامَ خطيبُنـــا إذا الكربُ أَنْسى الجِبْسَ أن يتكلما[٦]

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح وإصلاح ذات البَيْن وأن تضع الحرب أوزارها ، يقول ربيعة بن مقروم الضبى[٧] :

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وكانوا كثيراً ما يخطبون فى وفادتهم على الأمراء ، إذ يقف رئيس الوفد بين يدى الأمير من الغساسنة أو المناذرة ، فيحييه ، متحدثاً بلسان قومه ، وفى السيرة النبوية ما يصور جانباً من هذه الوفود ، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة ، وكان يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو معروف عن وفد تميم وخُطْبة عُطارد بن حاجب بن زُرارة بين يديه[٨] . وكان ذلك سنة شائعة بينهم فى الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رياسة وسيادة . يقول أوس بن حجر فى رثاء فضالة بن كَلَدة[٩] :

أَبادُلَيْجَةَ مَنْ يكْفى العشيرةَ إذ أمسوا من الخَطْبِ فى نارٍ وبَلْبالِ
أم من يكون خطيبَ القوم إذ حَفلوا لدى الملوك ذوى أَيْد وأَفْضال[١٠]

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٧٦ .
(٣) تمعرت الوجوه : تغيرت واصفرت . المأقط : موضع القتال .
(٤) المفضليات ، القصيدة ٩١ .
(٥) كظماً : جمع كاظم وهو الساكت غيظاً .
(٦) الجبس : اللئيم المنقطع .
(٧) أغانى (ساسى) ٩/٩٣١ .
(٨) تاريخ الطبرى ، القسم الأول ص١٧١١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١٤٦ .
(٩) نقد الشعر لقدامة (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص ١٠٣
(١٠) أيد : قوة .

وقد يَنْبرون فى الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم، على نحو ما هو معروف عن قُسٍّ وخطبته بسوق عكاظ ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين ، كبعض ما يُرْوَى عن عامر بن الظَّرب وأكثم بن صيفى . وكان من عادتهم فى الزواج ، وخاصة زواج أشرافهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته ، يخطب باسمه الفتاة التى يريد الاقتران بها ، وخطْبة أبى طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة ، ويقول الجاحظ : « كانت خطبة قريش فى الجاهلية — يعنى خطبة النساء — : باسمك اللهم ذُكرتْ فلانة، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت »[1] . ويقول كان من عادة العرب فى هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصِّر المجيب[2] ، ويتحدث عن خطابتهم عامة فيقول : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المَدَر والوَبَر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكانٌ يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً فى الجودة ، ومتشاكلا فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقَر الحسان والنُّتف الجياد . . ووجدنا عددَ القصار أكثر ورواةَ العلم إلى حفظها أسرع[3] » .

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ما رأيناه آنفاً من تعدد أنواعها وخَوْضها فى أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفادة على الأمراء أو النصح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكفِّ عن القتال أو فى المنافرات والمفاخرات ، فقد استقر فى نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثرون من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق فى البيان والتبيين أثباتاً طويلة بأسمائهم ومواقفهم مُورداً من حين إلى حين فقراً وشظايا من أقوالهم . ولعل من الخير أن نعرض أطرافاً من ذلك ، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوهها ، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروى لهم فى كتب الأدب والتاريخ من خطب، ومن ثَمَّ سنعمد عمداً إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التى تصور بيانهم وبراعتهم فى هذا اللون من ألوان نثرهم ، لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن ينقل عن طريق الرواية آماداً من الأزمنة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة

(١) البيان والتبيين ١/٤٠٨ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٦ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٧ .

٤

سجع الكهان

كانت فى الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتى به الغد بما يُلقى إليها توابعها من الجن، وكان واحدها يسمَّى كاهناً كما يسمى تابعه الذى يوحى إليه باسم « الرَّئِىِّ » . وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم ، فكانت لهم قداسة دينية ، وكانوا يلجأون إليهم فى كل شئونهم ، وقد يتخذونهم حُكاماً فى خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبدشمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعى ، وقد نفَّر هاشماً على أمية[١] . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم فى كثير من شئونهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نَحْر ناقة[٢]، أو قعود عن نُصْرة أحلاف[٣] ، أو نهوض لحرب ، ففى أخبار بنى أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رَقَّ لهم ، فبعث فى إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهَّن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ، فقال لبنى أسد : « يا عبادى ! قالوا لبيك ربَّنا ، قال: من الملك الأصْهب ، الغلاَّب غير المغلَّب ، فى الإبل كأنها الرَّبْرب[٤] ، لا يعلق رأسه الصَّخَب ، هذا دمه يَنْثَعِب[٥] ، وهذا غداً أولُ من يُسْلَبُ، قالوا: من هو يا ربَّنا ؟ قال: لولا أن تجيش نفسٌ جاشية، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية . فركبوا كل صعب وذَلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبَّته » وقتلوه[٦] . وكثيراً ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر[٧] ، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رُؤاهم وأحلامهم[٨] .

فمنزلة كهَّانهم فى الجاهلية كانت كبيرة ، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحَى إليهم ، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التى تجاورها ،

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٤ .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/ ١١٨
(٣) أغانى ١١/ ١٤٠ .
(٤) الربرب : القطيع من الظباء .
(٥) يثعب : يسيل .
(٦) أغانى ٩/ ٨٤ .
(٧) الأمالى للقالى ١/ ١٢٦ والسيرة النبوية ١/ ٤٣ ، ٢٢١ .
(٨) السيرة النبوية ١/ ١٥ وما بعدها .

ومن ثَمَّ كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة، ومما يلاحَظ أنهم كانوا يكثرون فى اليمن وفى بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة مَنْ يتعمقون فى القدم، ولعل فى ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا فى كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القُصَّاص، فيرسمون لبعضهم صوراً خيالية، فمن ذلك أن شِقّ بن الصَّعْب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبى لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان فى صدره ولم يكن له عنق[1]، وربما كان أحدب. ومن كهانهم فى أواخر العصر الجاهلى سَواد بن قارب الدَّوْسىّ وقد أدرك الإسلام ودخل فيه[2]، ومنهم المأمور الحارثى، كاهن بنى الحارث بن كعب[3]، وخُنافر الحميرى، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه «شِصار[4]». وأكهنهم عُزَّى سَلِمة، يقول الجاحظ: «أكهن العرب وأسجعهم سَلِمة بن أبى حَيَّة وهو الذى يقال له عزَّى سَلِمة[5]». ومن قوله[6]: «والأرض والسماء، والعُقاب والصَّقْعاء، واقعةً ببَقْعاء، لقد نَفَّر المجدُ بنى العُشَراء للمجد والسناء[7]». ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كنّ فى الأصل من النساء اللائى يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشَّعْثاء[8] وكاهنة ذى الخَلَصَة[9] والكاهنة السَّعْدية[10] والزرقاء[11] بنت زهير والغَيْطلة القرشية[12] وزَبْراء كاهنة بنى رِئام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: «واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنَّجْم الطارق والمُزْن الوادق، إن شجر الوادى ليأدو خَتْلا، ويَحْرُق أنياباً عُصْلا، وإن صخر الطَّوْد ليُنذِر ثُكْلا، لا تجدون عنه مَعْلا[13]».

---

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى ١/١٧١.
(٢) السيرة النبوية ١/٢٣٣.
(٣) الأمالى ١/٢٧٦ واسمه فيه المأمون، وانظر ٣/١٥١ والأغانى ١٥/٧٠.
(٤) الأمالى ١/١٣٣.
(٥) البيان والتبيين ١/٣٥٨.
(٦) نفس المصدر ١/٢٩٠.
(٧) الصقعاء: الشمس، بقعاء: ماء أو موضع. نفر: حكم بالغلبة. بنو العشراء: عشيرة من فزارة. السناء: الرفعة.
(٨) مجمع الأمثال للميدانى ١/٩١.
(٩) نفس المصدر ١/٢٢٣.
(١٠) نفس المصدر ٢/٥٤.
(١١) أغانى (دار الكتب) ١٣/٨١.
(١٢) سيرة ابن هشام ١/٢٢١.
(١٣) اللوح هنا: الريح. الوادق: المطر. يأدو: يختل. يحرق أنياباً عصلا: كناية عن الغضب والشر. عصلا: معوجة. الطود: الجبل. المعل: الملجأ. انظر الأمالى ١/١٢٦.

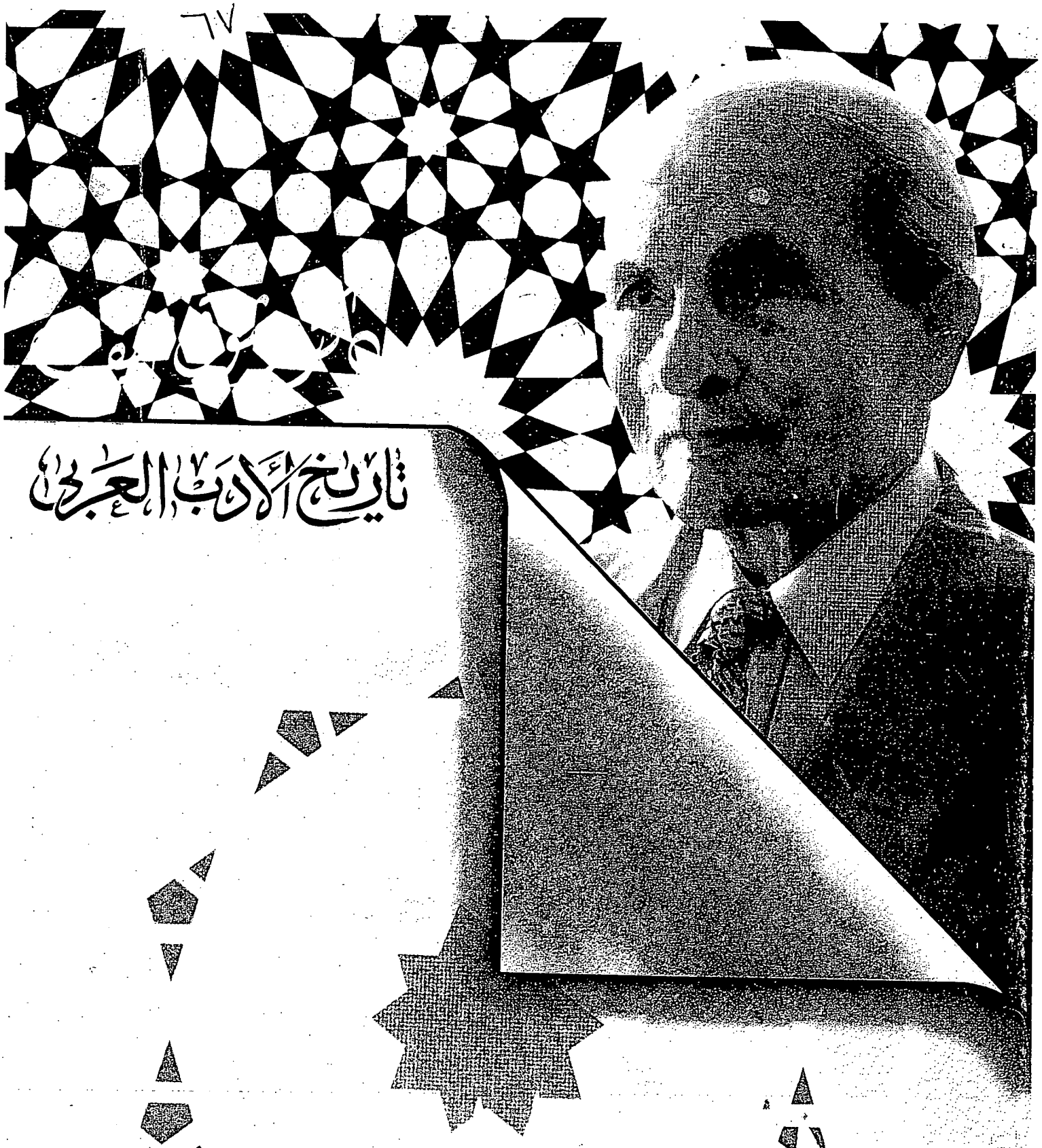

تاريخ الأدب العربي

الطبعة الأصلية

دار المعارف

٦٨

تاريخ
الأدب العربى
٢

العصر الإسلامى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الخامسة والعشرون

دار المعارف

قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم يكن فى سُنّة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو . قال : فضرب بيده فى صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضاه رسول الله» (١) . وقد نَما الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم يكن الخلفاء يُفتون بآرائهم إلا بعد استشارة الصحابة(٢) . ومُصّرت الأمصار وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء فى كل مصر إسلامى تحمل للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكْمه فى القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفى كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفَع من شأن العقل الإنسانى إذ جعله الحَكَم فى فروع الشريعة وحثّه على استكمال سيطرته على الطبيعة وقوانينها ، كما حثه على التزود بجميع المعارف . وفتح الأبواب واسعة أمامه كى يجتهد فى مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى . وسرعان ما شادوا صَرْح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم الذهنية فى جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصّله الإسلام من حق الاجتهاد العقلى أثر واسع فى أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقًا أصوله العقيدية زمنية أبدية ، ولكنها أصول أُسّسَتْ على العقل الصحيح وفسحتْ له فى التشريع .

٣

قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون فى الجاهلية قبائل متنابذة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها تعصباً شديداً ، فإذا جنَى أحدهم جناية شركتْه فى مسئوليتها ، وإذا قُتل لها

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبع القاهرة) ٢/٥٥

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

أحد أبنائها هبّت للأخذ بثأره هبة واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحل محلها فكرة الأمة ، يقول جلّ ذكره : (إن هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناس) وهى أمة يعلو فيها السلطان الإلهى على السلطان القبلى وعلى كل شىء ، ومن ثَمّ أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هى التى توحّد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن نَقل حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد الثأر — كما كان الشأن فى الجاهلية — يجرُّ ثأراً فى سلسلة لا تنتهى ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عقاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدّم القاتل لأولى الأمر حتى يلقى جزاءه . وقد مضى الإسلام يحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عزّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول الرسول فى خطبة حجّة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدمَ ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى . »(١)

وأخذ الإسلام يُرسى القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكأنهم أسرة واحدة ، تُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء فى الصلاة وجميع المناسك وفى الحقوق والواجبات ، وينبغى أن يعودوا إخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه ، باذلا له ولمصلحة هذه الأمة كل ما يستطيع ، فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، وإنما يعيش أيضاً للجماعة يَفْديها بروحه وبماله وبكل ما أوتى من قوة . ومن ثَمّ وُضع نظام الزكاة وعُدّت — كما قدمنا — ركناً أساسياً فى الدين ، فواجبٌ كل شخص أن يقدم من ماله سنوياً فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

---

(١) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٣٣ .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم فى مال الغنى ، يؤديه إليه راضياً . ومدَّ القرآن الكريم هذا الحق ، إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق فى سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة فى حسن المثوبة ، يقول جلَّ وعزَّ : (من ذا الذى يُقرض الله قرْضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبَّة أنبتتْ سبع سنابل فى كل سُنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنَّة بربْوة أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلٌّ والله بما تعملون بصير . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمَّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية فى محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردَّ الغنى بعضَ ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقًّا دينيًّا . إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأمته ويترابط معها ترابطاً اقتصاديًّا كما يترابط فى وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها فى سبيل الله ، ويُؤْثَر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما نفعنى مالٌ ما نفعنى مال أبى بكر »[1] وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به ؛ فقد جهَّز عثمان جيش العُسْرة فى غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمَّ الألف بخمسين فرساً[2] ، وكثُر مال عبد الرحمن ابن عوف حتى قدِم عليه فى إحدى تجاراته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها فى سبيل الله[3] . ولم يُعْنَ الإسلام فقط بتنظيم العلاقة بين الغنى من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عُنى أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

---

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٣٤٢ .

(٢) الاستيعاب ص ٤٨٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (طبع دار المعارف) ١/ ٥٠ .

للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله ، وأوجب على التاجر أن لا يستغل الناس بأى وجه من الوجوه ، سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى ، يقول جل شأنه : (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم) (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس .. وأحل الله البيع وحرم الربا) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قوامها العدالة .

وقد نظم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية ، فرد إليها حقوقها ، وجعلها كفؤاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وأيضاً لهن مثل ما للرجال من السعى فى الأرض والعمل والتجارة ، يقول عز شأنه : (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) . وكان كثير من غلاظ القلوب يئدون بناتهم خشية العار ، فحرم ذلك القرآن ، يقول جل ذكره : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء مايحكمون) . وحرم البغاء وشدد فى النكير عليه حتى القتل . ونظم الزواج وجعله فريضة محببة إلى الله ونعمة من نعمه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . ودعا فى غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم وأن لا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله . فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جل شأنه : (فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تفصم العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يسرحها بإحسان وأن لا يمسك عنها شيئاً من صداقها ، يقول جل وعز : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) .

وبكل ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يرعاها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحريم الذى شاع فى العصر العباسى ، فإن الإسلام يجل المرأة ويرفع قدرها ، حتى لنراها فى الصدر الأول من العصر الإسلامى تشارك فى الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين فى حروب على وطلحة والزبير ، وكانت هى نفسها مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبوى وهدى الرسول الكريم .

٤

قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته ، إذ حرره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلا من أن يشعر أنه مسخر لعوامل الطبيعة تتقاذفه

كما تهوى نبهه إلى أنها مسخرة له ولمنفعته ، ودعاه لأن يستخدم فى معرفة قوانينها عقله ويعمل فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً ، وهيأه لحياة روحية وعقلية سامية ، كما هيأه لحياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبر والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة فى الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه فى المجتمع الرشيد .

ولكن هاتين القصتين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة فى هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان يُنْشَدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله سواء فى معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو فى الفتوح أو فى معركة على مع خصومه فى العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حلّت من عُقَد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التى لم تُعْرَف فى الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء فى الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهى الاختلاط لأنهم خلطوا فى حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا فى العصرين معاً .

٢

الشعر فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا فى الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا فى غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثمّ كنا نخرج دُرَيْد بن الصِّمَّة والأعشى وأمية ابن أبى الصلت والأسود بن يعفر النَّهْشلى وأضرابهم من سِلْك المخضرمين وننظمهم فى سلك الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادّت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب فى جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفّوا حوله فى المدينة فى جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء فى الجانبين المتناقضين يسلّون ألسنتهم ، ولم تكن مكة فى الجاهلية — كما قدمنا — تُعْرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنْسَبُ لورقة ابن نوفل وغيره من المتحنّفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فِتْيانها مثل نُبَيْه ومُسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج فى أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزِّبَعْرى وضرار بن الخطاب الفِهْرى وأبى عَزَّة الجمحى وهُبَيْرة بن أبى وهب المخزومى ، وقد أخذوا يسدّدون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعزّ ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدُّون عن سبيل الله بما يَذيع من شعرهم فى القبائل العربية ، فقال للأنصار : «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسّان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرُّنى به مِقْوَلٌ بين بُصْرى وصنعاء»[1] وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . واقرأ فى سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد فى السنة الثالثة وغزوة الخندق فى السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك فى فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغى أن نشك فى كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق — كما يقول ابن سلام — كان يَحْمِل كل غُثاء من الشعر حتى أفسده وهجّنه[2] ، ونرى ابن سلام يقول فى ترجمته لأبى سفيان بن الحارث : «لسنا نعدّ ما يَرْوى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم»[3] . على أن ابن سلام نفسه يُثْبت لأبى سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها فى يوم أحد كافيةً كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر[4] ، وقد

---

(١) أغانى ٤/١٣٧ .

(٢) ابن سلام ص ٨ .

(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزِّبَعْرى قصيدته التى قالها فى نفس اليوم[١] ، والتى يقول فيها :

ليت أشياخى ببدر شهدوا ضَجَرَ الخَزْرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ[٢]

حين ألقتْ بقُبـاء بَرْكَهَا واستحرَّ القتلُ فى عبد الأَشَلْ[٣]

فقبلنا النِّصْفَ من سادتهم وعَـدَلْنا مَيْلَ بَدْرٍ فاعتدل[٤]

وأيضاً فإنه أثبت لأبى عَزَّة ميمية يحرِّض فيها بنى كنانة[٥] ، وقال عن هبيرة بن أبى وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذى يقول فى يوم أحُد[٦] :

قُدْنا كنانةَ من أكنافِ ذى يَمَن عَرْضَ البلاد على ما كان يُزْجيها[٧]

قالت كنانةُ : أنَّى تذهبون بنا قلنا : النَّخيلَ ، فأمُّوها وما فيها[٨]

وكان فى الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيِّده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدَّى بها أبا سفيان بن الحارث[٩] :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجَـزَاءُ

فإن أبى ووالده وعِرْضِى لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ فشرُّكما لخيركما الفِـدَاءُ

---

(١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركى قريش . الأسل : الرماح .

(٣) قباء : موضع بضواحى المدينة . ألقت الحرب بركها : حمى وطيسها . استحر القتل : اشتد وكثر .

(٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلناه منهم لقتل بدر .

(٥) ابن سلام ص ٢١٣ .

(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .

(٧) الأكناف : النواحى . ذو يمن : موضع قريب من مكة . يزجى : يسوق ويدفع .

(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرته فيها . أموها : قصدوها .

(٩) أغانى ٤/١٣٩ والاستيعاب لابن عبد البر ص ١٢٩ .

٤٩

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أحُد فى كلمة :

فجئنا إلى موجٍ من البحر وَسْطه أحابيشُ منهم حاسِرٌ ومقنَّعُ (١)
ثلاثةُ آلافٍ ونحن نَصِيَّةٌ ثلاثُ مئين إن كثُرنا وأربع (٢)
فراحوا سراعاً مُوجِفين كأنهم جَهامٌ هَراقتْ ماءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ (٣)
ورُحْنا وأُخْرَانا بِطاءٌ كأننا أسودٌ على لَحْمٍ ببِيشَةَ ظُلَّعُ (٤)

وقال فى أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُرَعْبِلُ بَعْضُهُ بعضاً كمَعْمَعَةِ الأَباءِ المُحْرَقِ (٥)
فَلْيَأْتِ مأْسدةَ تُسَلُّ سيوفُها بين المذادِ وبين جِزْعِ الخَنْدَقِ (٦)

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْن إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مُؤْتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله (٧) :

نجالدُ الناسَ عن عُرْضٍ فنأْسرهم فينا النبيُّ وفينا تنزل السُّوَرُ (٨)
وقد علمتم بأنا ليس غالبَنا حَيٌّ من الناس إن عَزُّوا وإن كثُروا
يا هاشمَ الخيرِ إن الله فضَّلكم على البَرِيَّةِ فَضْلاً ماله غِيَرُ (٩)
فثبَّتَ اللهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ تثبيتَ موسى ونَصْراً كالذى نُصِروا (١٠)

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا عند جبل يسمى حبشيا . الحاسر : الذى لا بيضة له عكس المقنع .
(٢) النصية : الخيار والأشراف .
(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب أفرغ ماءه .
(٤) بيشة : مسبعة فى واد كثير الشجر . ظلع : من الظلع وهو العرج يكنى بذلك عن سيرهم البطىء المطمئن .
(٥) يرعبل : يمزق . المعمعة : صوت لهب النار فى القصب . الأباء : أجمة القصب . يصف أصوات المعركة .
(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاد : موضع بالمدينة . جزع الخندق : منعطفه .
(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .
(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم لا يبالون من يضربون .
(٩) غير : تغيير .
(١٠) يقصد الرسل .

٤

شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون فى سبيل الله دولتى الفرس والروم . فقضوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام ومصر . وكانوا فى أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوِّية ، يتغنون فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدُّون لله ودينه . ومن الصعب أن نَعْرض كل ما نظموه فى مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف قليلا عند موقعة واحدة فى الشرق هى موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم أبى مِحْجَن الثقفى[1] ، وكان مولعاً بالخمر فحبسه سعد بن أبى وقاص ، حتى إذا احتدمت المعركة توسَّل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه — على أن يعود إلى قيده — ليُسْهم فى شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد إلى سجنه وهو ينشد[2] :

لقد علمتْ ثَقِيفٌ غيرَ فَخْرٍ ... بأنّا نحن أكرمهم سيوفا

فإن أُحْبَسْ فقد عرفوا بلائى ... وإن أُطْلَقْ أجرِّعْهم حُتُوفا

وكان حول أبى مِحْجَن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برءوس أبطالهم ، وهم يتصايحون بالشعر الحماسى ، منهم عمرو بن معديكرب الزُّبَيْدى[3] ، وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة فى القادسية واليرموك ونهاوند ، ومن شعره[4] :

والقادسيةُ حين زاحم رُسْتَمٌ ... كنا الحماةَ بهنَّ كالأشطان[5]

الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ ... والطاعنين مجامع الأضْغَان[6]

---

(١) انظر فى ترجمة أبى محجن الأغانى (طبع الساسى) ٢١/١٣٧ والشعر والشعراء ١/٣٨٧ والإصابة ٧/١٧٠ والخزانة ٣/٥٥٠ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغانى ٢١/١٤٠ .

(٣) انظر فى ترجمته كتب الصحابة وأغانى (دار الكتب) ١٥/٢٠٨ والشعر والشعراء ١/٣٣٢ وذيل الأمالى ص ١٤٥ والخزانة ١/٤٢٢ ، ٣/٤٦٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ١٥ ومعاهد التنصيص ٢/٢٤٠ والعينى ١/٣٧٩ .

(٤) ذيل الأمالى ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجن والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . المخذم : القاطع . مجامع الأضغان : القلوب .

ومنهم بشر بن ربيعة الخَثْعمى، وله يصور بلاءه وبلاء قومه فى مواقع القادسية[١] :

تذكَّرْ ـ هداك الله ـ وَقْعَ سيوفنا ببابِ قُدَيْسٍ والمكرُّ عَسِيرُ[٢]

عشيَّةَ ودَّ القوم لو أن بعضهم يُعار جَنَاحَىْ طائر فيطير

إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةٍ دَلَفْنا لأُخرى كالجبال تسير[٣]

ترى القوم فيها واجمين كأنهم جمالٌ بأحمالٍ لهنَّ زفير[٤]

وممن له بلاء حسن فى القادسية قيس بن المكشوح المرادى ابن أخت عمرو بن معديكرب، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس فى تلك المعارك، وله يصور ذلك[٥] :

جلبتُ الخيلَ من صَنْعاءَ تَرْدِى بكلِّ مدجَّجٍ كالليث سامى[٦]

إلى وادى القُرَى فديار كلبٍ إلى اليَرْموك فالبلد الشآمى

وجِئْنَ القادسيَّة بعد شَهْرٍ مَسَوَّمةً، دوابرُها دوامى[٧]

فناهضنا هنالك جَمْعَ كسرى وأبناءَ المرازبة الكرام[٨]

فلما أن رأيتُ الخيل جالتْ قصدتُ لموقف الملكِ الهمام

فأضربُ رأسَه فهوى صريعاً بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهام[٩]

وقد أبْلَى الإلهُ هناك خيراً وفعلُ الخير عند الله نامى

وممن حضر القادسية الأسود بن قُطْبة، وله فيها أشعار كثيرة[١٠]، وعمرو بن

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥/٢٤٣.

(٢) قديس : يريد القادسية أو موضع بجانبها.

(٣) دلفنا : تقدمنا.

(٤) واجم : من الوجوم وهو السكوت مع كظم الغيظ.

(٥) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٦٢.

(٦) تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها.

(٧) مسومة : معلمة. الدوابر : العراقيب. دوامى : ملطخة بالدم.

(٨) المرازبة : رؤساء الفرس.

(٩) أفل : مثلم. كهام : كليل لا يقطع.

(١٠) الإصابة ١/١٠٨.

شأس الأسدى[١]، وكان كثير الشعر فى الجاهلية والإسلام، وله يذكر قتل رستم[٢]:

قتلنا رُسْتَماً وبنيه قَسْرًا تثير الخيلُ فوقهم الهَيالا[٣]

وفرَّ الهُرْمُزَان ولم يحامى وكان على كتيبته وبالا[٤]

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله[٥]:

برزتُ لأهل القادسية مُعْلَماً وما كلُّ من يَغْشَى الكريهةَ يُعْلَم

ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبى[٦]، وقد ختم الجاحظ كتابه «الحيوان» بأبيات له يذكر فيها بلاءه حينئذ، يقول فيها[٧]:

وشهدتُ معركة الفيول وحولها أبناء فارسَ بَيْضُها كالأَعْبَل[٨]

مُتَسَرْبِلى حلقِ الحديد كأنهم جُرْبٌ مقارفةٌ عَنِيَّةُ مُهْمِل[٩]

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج فى أغانيه، وهو فيها يتحدث بجانب صنيعه فى تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى صاحبه الصَّبوح، ونحن نعرف أن الإسلام حرَّم الخمر، ومن ثم كنا نقطع بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما فى الجاهلية، وقيل ثانيهما فى الإسلام، وسنرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين نترجم له فى الفصل التالى. ومن ذلك قصيدة لعَبْدة[١٠] بن الطبيب، وهو من الشعراء المجيدين الذين أبلوا فى حروب القادسية والمدائن، ونراه يستهلها بقوله[١١]:

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٩٦ والشعر والشعراء ١/٣٨٩ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٢.

(٢) الطبرى ٣/٥٠.

(٣) الهيال: ما يهال من الغبار.

(٤) الهرمزان: الكبير من حكام الفرس.

(٥) الأغانى (طبع الساسى) ١٦/٥١.

(٦) انظر ترجمته فى أغانى (ساسى) ١٩/٩٠ والشعر والشعراء ١/٢٧٩ والإصابة ٢/٢٢٠ والخزانة ٣/٥٦٦.

(٧) الحيوان (طبعة الحلبى) ٧/٢٦٣.

(٨) البيض: الخوذ. الأعبل: حجر أبيض.

(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء. مقارفة: من القراف وهو داء يقتل البعير. العنية: طلاء للجرب، وأراد نفس الإبل الجربى. والمهمل: الذى يهمل الإبل فى المرعى.

(١٠) انظر فى ترجمته الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٦٣ والشعر والشعراء ٢/٧٠٥ والإصابة ٥/١٠١ والموشح ص ٧٥.

(١١) انظر القصيدة فى المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ١٣٥.

هل حبل خَوْلَة بعد الهجر موصولُ أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ

ويمضى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رءوس العُجْم ضاحيةً منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ(١)

ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربٍّ سَيْبُه حسنٌ وكل خيرٍ لديه فهو مقبـــول

ولكنا نُصْدَمُ فى آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثَمَّ كنا نقطع بأن للقصيدة أصلا قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يحلّون من خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة فى سبيل الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجمع كثيراً من الأشعار التى نُظمت فى كل معركة ، سواء مع الفرس أومع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبرى وكتب الأدب مثل الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب فى الفتوح ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مراث رائعة لبعض من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كَثِير بن الغَرِيزة التميمى يرثى بها من أصيبوا فى معارك الطَّالَقان وجُوزَجَان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول(٢) :

سَقَى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ مصارعَ فتيةٍ بالجُـوزَجانِ

وما بى أن أكون جَزِعْتُ إلا حنينَ القَلْب للبَرْق اليمانى

ورُبَّ أَخٍ أصاب الموتُ قبلى بكيتُ ولو نُعِيتُ له بكانى

وعبَّروا فى أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهليهم . وبجانب هذا الحنين والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم فى المغازى بعامة ، على نحو

---

(١) يقارعون : يضاربون . العجم : الفرس . العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه . الميل : جمع أميل وهو الذى لا يحسن ركوب الخيل.

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/٢٧٨ حيث سرد أبو الفرج القصيدة فى ترجمته وانظر فيه الإصابة ٥/٣١٨ والخزانة ٤/١١٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤٠ .

ما نجد عند زياد بن حنظلة فى وصفه لمغازى الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين[١] ويروون أنه كان لأوس[٢] بن مَغْراء « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم فى الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمَّدٌ خَيْرُ من يمشى على قَدَمٍ وكان صافيةً لله خُلْصانا

ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما ائتُمنوا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصَّعِق ، فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الخراج ، يقص عليه كيف أثْرَوْا ثراء غير مشروع من أعمالهم التى يتولونها ومما يأخذون لأنفسهم من المغازى ، وفيها يقول[٣] :

نؤوبُ إذا آبوا ونغزو إذا غَزَوْا فأنَّى لهم وَفْرٌ وليس لنا وَفْرُ

وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه فى فتوحهم من المعاقل والحصون والحيوان كالفيل ، وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين[٤] .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها فى هذه الأشعار الكثيرة التى رُويت عنهم فى مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طُبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التى نُسبت فى العصر نفسه إلى الشعراء المجوّدين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولا ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند . ومن ثَمَّ اختلف الرواة فى نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يُرْسل الراوى الشعر إرسالا بدون نسبته إلى شاعر بعينه ، وينص الطبرى على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق فى الجزيرة العربية ولا يُعْرَف من نظمهما ، ويعقّب عليهما بقوله : « وسُمع بنحو

---

(١) طبرى ٣/١٠٨ .

(٢) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٨ والشعر والشعراء ٢/٦٦٨ والإصابة ١/١١٨ وابن سلام ص ٤٤٥ وفى مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

(٤) الحيوان ٤/١٣٧ والإصابة ٣/١٤ ، ٥/٦٠

ذلك فى عامة بلاد العرب[١] » . وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التى يبدعها الشعب ، فناظمها لا يعرَفُ كما لا يعرف مرْسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذُكروا أو مُجِّدوا بل إنه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجِّدوا ، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل .

ويسود فى هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة ، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجرى فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق فى معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة ، ويرمى به فى سرعة كما يرمى بسهمه أو يضرب بسيفه ، غير مفكر فى تنقيح ولا فى تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعرض صاحبه من شواغل الجهاد التى تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة ، وهى أن قَصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم فى حروب الفرس والروم أُضيف إلى هذه الأشعار . وقد حمل لنا ياقوت فى معجمه كما حملتْ كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القُصَّاص فزادوا فى القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم . ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين ، وكانوا ينشدونه فى كل موقف وكل معترك ، مقصِّدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعى أن يشيع فيه الرجز ، لأنه كان فعلا الوزن الشعبى الذى يَنْظم فيه عامة العرب .

---

(١) طبرى ٣/٨٣ .

الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون
ومدى تأثرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ فى شعر المخضرمين متصفّحاً ما نُثر فى كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون فى جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التى آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القِدْح المعلّى فى هذا الميدان ، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوّرين لهدْيه الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه فى هجائه للمشركين وفى كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله[١] :

شهدتُ بأن وعد الله حَقٌّ ... وأن النار مَثْوَى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة الشعرية ، وقد رُويت لهم أشعار تنمّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبى قيس صِرْمة بن أبى أنس الأنصارى فى قصيدة بديعة[٢] :

ونعلم أن الله لا شىءَ غيرُه ... وأن كتاب اللهِ أصبحَ هاديا

وقول أبى الدَّرْداء[٣] :

يريد المرء أن يُؤْتَى مُناهُ ... ويأبى اللهُ إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى ... وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

---

(١) الاستيعاب ص ٣٦٢ .

(٢) الاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

(٣) الاستيعاب ص ٦٦٣ .

وتحوَّل شعراء قريش منذ فُتحت مكة ودخلوا فى دين الله يكفّرون عما قدَّمتْ ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن الزِّبَعْرى (١) :

يا رسولَ المليك إنَّ لسانى ... راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور (٢)

إذ أجارى الشيطان فى سَنَنِ الغَـ ... ـىِّ ومن مال مَيْلَهُ مَثْبُـورُ (٣)

آمن اللحمُ والعظامُ بما قُلْـ ... ـتَ فنفسى الفِدَا وأنت النَّذيرُ

وقد حَسُن إسلامهم ، ومضوا يصدرون عنه فى أشعارهم ، حتى إذا انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجَّعون عليه ، على شاكلة قول أبى سفيان بن الحارث (٤) :

لقد عظمتْ مُصيبتُنا وجَلَّتْ ... عشيةَ قيل : قد قُبِضَ الرسولُ

نبىٌّ كان يَجْلُو الشكَّ عنـا ... بما يوحَى إليه وما يقـولُ

وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبوادى وجدنا بينهم كثيرين يَقْبِسون من أضواء الإسلام ، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله فحسب ، فقد عمَّ ذلك مَنْ ظلوا فى الجزيرة ولم يُتِحْ لهم تقدم سنهم شرف الاشتراك فى هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهوريهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة ، ولعل أول من ينبغى الوقوف عنْده عَبْدة بن الطبيب الذى تحدثنا عنه فى شعر الفتوح ، فقد رَوى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه فى شطر كبير منها يوصى أبناءه بتقوى الله وبِرِّ الوالد والحذر من النمَّام الذى يَزْرع الضغائن بين الناس ، مستلهماً فى ذلك كله آى الذكر الحكيم ، يقول (٥) :

أوصيكمُ بتُقَى الإلٰه فإنـه ... يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ

وبِبِرِّ والدكم وطـاعةِ أمره ... إن الأَبَرَّ من البنين الأَطْـوَعُ

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق : خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مثبور : هالك ضائع .

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

واعصوا الذى يُزْجِى النَّمائم بينكم متنصِّحا ذاك السِّمام المُنْقَعُ[١]
يُزْجى عقاربَهُ ليبعث بينكم حَرْباً كما بعث العروقَ الأَخْدَعُ[٢]

وهو القائل فى رثاء قيس بن عاصم[٣] :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمته ما شاءَ أن يترحَّما
فلم يكُ قيسٌ هُلْكُهُ هلكَ واحدٍ ولكنه بنيانُ قوم تهدَّما

وواضح ما فى البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سُوَيْد[٤] بن أبى كاهل اليشكرى فسترى المفضل الضبى يروى له قصيدة[٥] يفخر فيها فخراً جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربَّه وما أنعم به عليهم من نِعَمٍ ، يقول :

كتب الرحمنُ والحمدَ لهُ سعةَ الأخلاق فينا والضَّلَعْ[٦]
وإباءً للدنيَّاتِ إذا أُعْطِىَ المكثورُ ضَيْماً فكَنَعْ[٧]
وبناءً للمعالى إنما يرفع اللهُ ومن شاءَ وضَعْ
نعَمٌ لله فينا ربَّها وصنيعُ اللهِ ، واللهُ صَنَعْ[٨]

ويمضى فيعرض لخصم دنىء النفس كان يغتابه ، ونراه يصفه وصفاً يستلهم فيه الآية الكريمة (ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) يقول :

---

(١) يزجى : يدفع ويسوق . السمام : السم . المنقع : القاتل .
(٢) الأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق .
(٣) الشعر والشعراء ٢/٥٠٧ .
(٤) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١٠/٣٨٤ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٠٢ وابن سلام ص ٢٨ والإصابة ٣/١٧٢ والخزانة ٢/٥٤٦ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ١/١٩٠ .
(٥) المفضليات ص ١٩٠ .
(٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .
(٧) المكثور : المغلوب . كنع : خضع .
(٨) ربها : أتمها . صنع : صفة ، لا فعل ، أى قادر على أن يصنع .

بِئْسَ ما يجمع أن يَغْتابنى مَطْعَمٌ وَخْمٌ وداءٌ يُدَّرَعْ[١]
ويحيِّينى إذا لاقيتُهُ وإذا يخلو له لَحْمِى رَتَعْ[٢]

وممن أسلم وهو فى سنٍّ كبيرة المُحصَين[٣] بن الحُمام سيد بنى مرّة الذبيانيين، وله أبيات تطرد على هذا النحو[٤] :

ويوم تسعَّر فيه الحروبُ لبستُ إلى الرَّوْعِ سِربالها[٥]
فلم يبق من ذاك إلا التُّقَى ونَفْسٌ تعالج آجالها
أمورٌ من الله فوق السماء مقاديرُ تنزلُ أنزالها[٦]
أعوذ بربى من المُخْزيا تِ يوم ترى النفسُ أعمالها
وخَفَّ الموازينُ بالكافرين وزُلْزِلتِ الأرض زِلْزالَها

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون) (وإنْ من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدرٍ معلوم) وقوله عزّ شأنه : (إذا زُلزلت الأرض زلزالها) (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية) (ووفِّيتْ كلُّ نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

واقرأ فى النَّمِر[٧] بن تَوْلب ، وهو ممن أدركوا الإسلام وقد عَلَتْ سنُّهم ،

---

(١) وخم : غير مرىء . يدرع : يلبس .
(٢) رتع : أكل بنهم .
(٣) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/٦٣٠ وابن سلام ص ١٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد الغابة ٢/٢٤ والإصابة ٢/١٨ والخزانة ٢/٧
(٤) أغانى ١٤/١٤ .
(٥) تسعر : تتقد . السربال : الدرع .
(٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع مواقعها .
(٧) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/٢٦٨ وابن سلام ص ١٣٣ والأغانى ١٩/١٥٧ والموشح ٧٨ والخزانة ١/١٥٢ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢٥٣ .

فسنرى فى شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله[١] :

وَمتى تُصِبكَ خَصاصةٌ فارْجُ الغِنَى ... وإلى الذى يُعْطى الرَّغائبَ فارغبِ

وهو القائل[٢] :

أَعِذْنى رَبِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ... ومن نَفْسٍ أعالجُها عِلاجا

ومن حاجات نفسى فاعْصِمَنِّى ... فإنَّ لمُضْمَرات النفس حاجا[٣]

وأنت وَلِيُّها فبرئتُ منها ... إليكَ وما قضيتَ فلا خِلاجا[٤]

ويُرْوَى أنه أنشد الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة قال فيها[٥] :

لله من آياتِـهِ هذا القَمَـرْ ... والشمسُ والشِّعْرَى وآياتٌ أُخَرْ

ومرتْ بنا استجارةُ المخبّل[٦] السَّعْدى بعمر بن الخطاب حين هاجر ابنه للغزو وكيف ردَّه عليه ، ومن قوله فى نهاية قصيدة له رواها المفضل الضبى[٧] :

إنى وجدتُ الأمر أرشدُه ... تقوى الإلهِ وشَرُّهُ الإثْمُ

وكان فى الشَّماخ[٨] شر كثير ، وهو ممن شاركوا فى معركة القادسية ومعارك أذربيجان ، ومع ذلك لا نجد فى ديوانه شيئاً واضحاً عن جهاده فى سبيل الله ، وكأنما عُنِى الرواة بشعره البدوى وإحسانه فيه لوصف القَوْس وحمار الوحش[٩] ، ومما يتمثَّل به من شعره[١٠] :

ليس بما ليس به بأْسٌ باسْ ... ولا يَضُرُّ البَرَّ ما قال الناسْ

---

(١) الشعر والشعراء ١/ ٢٦٩ والأغانى ١٩/ ١٦١ .

(٢) الأغانى ١٩/ ١٦٢ والحيوان ٢/ ٣٠٥ .

(٣) حاج : جمع حاجة .

(٤) خلاج : اعتراض .

(٥) أغانى ١٩/ ١٥٩ .

(٦) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ١/ ٣٨٣ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/ ١٨٩ والإصابة ٢/ ٢١٨ والخزانة ٢/ ٥٣٦ والموشح ص ٧٥ .

(٧) المفضليات ص ١١٨ .

(٨) راجع فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ١/ ٢٧٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٩/ ١٥٨ والخزانة ١/ ٥٢٦ والإصابة ٣/ ٢١٠ والموشح ص ٦٧ .

(٩) انظر ترجمته فى المراجع السابقة وراجع الحيوان ٥/ ٧٩ .

(١٠) الشعر والشعراء ١/ ٢٧٧ وبأس الأولى : شجاعة .

وقد أنشدنا فى الفصل السابق أبياتاً من مرثية أخيه جَزْء لعمر بن الخطاب، واشتهر أخوهما مزرِّد[١] بهجائه وخاصة للأضياف، ويظهر أنه ارعوى وتاب عن الهجاء، كما يدل على ذلك قوله[٢]:

تنزَّلتُ من شَتْم الرجال بتَوْبةٍ ... إلى الله منى لا ينادَى وليدها

ومن شعراء هُذَيْل البارعين فى هذا العصر أبو ذُؤَيب[٣] الهُذَلى، وقد قدم المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكين قائلا من أبيات[٤]:

كُسِفَتْ لمصرعِه النجومُ وبَدْرُها ... وتزعزعتْ آطامُ بَطْنِ الأَبْطحِ

وتزعزعتْ أجبالُ يَثْرِبَ كلُّها ... ونَخِيلُها لحلول خَطْبٍ مُفْدِحِ

وهو فى ديوانه يُعْنَى بوصف النَّحْل، مثله فى ذلك مثل شعراء هذيل؛ وقد خرج يغزو فى سبيل الله، ونراه فى جنود عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح الذين فتحوا قرطاجنة، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين له بفتحها. وعاد إلى مصر، ولكن حدث أن توفِّى له — قبل وفاته بعام — خمس بنين فى وباء، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحسُّ رضاه بقضاء الله مع التحسر اللاذع على نحو ما نجد فى قوله[٥]:

أوْدَى بنىَّ وأعقبونى غُصَّةً ... بعد الرُّقاد وعبرةً لا تُقْلِعُ

فَغَبَرْتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ ... وإخال أنى لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ[٦]

---

(١) راجع فى ترجمة مزرد الشعر والشعراء ١/٢٧٤ والخزانة ٢/١١٧ والإصابة ٦/٨٥ ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص ١/٢٠٢.

(٢) الإصابة ٦/٨٥.

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ٢/٦٣٥ والأغانى ٦/٢٦٤ والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٧/٦٣ والخزانة ١/٢٠٣ وأسد الغابة ٥/١٨٨ ومعاهد التنصيص ١/١٩٥ ومعجم الأدباء لياقوت (طبع مصر) ١١/٨٣ وشرح شواهد المغنى ١٠ والاشتقاق (نشرة الحانجى) ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦.

(٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ١/١ وما بعدها.

(٦) غبرت: بقيت. ناصب: متعب. مستتبع: تابع.

وإذا المنيَّةُ أنشبتْ أظفـارَها ألفيتَ كل تَميمةٍ لا تنفعُ
والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

وروى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى أبا عبيد[1] :

أبا عُبَيْدٍ وقـع الكتابُ واقترب الوعيـد والحسابُ

وأشاع الإسلامُ فى نفوس كثير من الشعراء براً ورحمة بأهليهم وأقربائهم. ويشهر فى هذا الصدد عمرو بن شأس الذى سبق أن عرضنا له فى شعر الفتوح، فقد كان له ابنٌ من أمة سوداء، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها بقطعته المعروفة[2] :

أردتِ عِرارًا بالهوان ومَنْ يُرِدْ عِرارًا لعَمْرى بالهوان فقد ظَلَمْ

وكان ينحو هذا المنحى مَعْن[3] بن أوس المُزَنى فى عتابه لابن عمه الذى أساء إليه إساءة كبيرة. وظل يسىء إليه وهو يوالى أشعاره فى صَفْحه عن زلاته برًا به وبقرابته مع تجنّيه عليه وتجرّمه، يقول[4] :

وذى رَحِمٍ قلَّمت أظفار ضِغْنِهِ بحلمىَ عنه وهو ليس له حِلْمُ
فما زلتُ فى لينٍ له وتعطُّفٍ عليه كما تَحْنُو على الولد الأُمُّ

ومن غير شك كان يستهدى فى ذلك آى الذكر الحكيم التى تدعو إلى البر بالأقرباء والصفح الجميل. ويمرض عمرو[5] بن أحمر الباهلى فيتوجه إلى ربه داعياً[6] :

---

(١) أغانى ٦/٢٧٩ ومعجم الأدباء ١١/٨٩.

(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ١/٣٨٩.

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/٥٤ والإصابة ٦/١٧٩ والخزانة ٣/٢٥٨ وانظر فهرس البيان والتبيين والحماسة للمرزوقى ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص. وقد نشرت أشعاره فى ليبزج.

(٤) أغانى ١٢/٦٠ وديوانه (طبعة ليبزج) ص ٥، ٣٦.

(٥) راجع ترجمته فى ابن سلام ص ٤٩٢ والشعر والشعراء ١/٣١٥ والإصابة ٥/١١٤ والخزانة ٣/٣٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤ والموشح ص ٨٠.

(٦) الشعر والشعراء ١/٣١٦ وقد روى له ابن سلام قطعة حكمية يقول فيها :

والحى كالميت ويبقى التقى
والعيش فنان فحلو ومـر

إليك إلهَ الحق أرفع رغبتى ... عِياذاً وخوفاً أن تُطيل ضَمانِيا[1]
فإن كان بُرْءًا فاجعل البُرْءَ نعمةً ... وإن كان فَيْضاً فاقض ما أنت قاضيا[2]

ومن نحس عندهم أثر الإسلام واضحاً نهشل[3] بن حرِّى فى مراثيه لأخيه مالك، وكان قد قُتل بصفِّين، ومن قوله فى إحداها[4]:

أُناسٌ صالحون نشأْت فيهم ... فأَوْدَوْا بعد إلفٍ واتساقِ
أرى الدنيا ونحن نعيشُ فيها ... مولِّيَةً تهيَّا لانطلاق
أعاذلَ قد بقيتُ بقاءَ قيسٍ ... وما حىٌّ على الدنيا بباق

وكان بجانب من قدَّمنا شعراء عُرفوا برقة دينهم، ومع ذلك فحين نتعقب شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر فى نَسْجه من حين إلى حين، منهم عَبْد[5] بنى الحَسْحاس، وكان يتغزل غزلاً مفحشاً جعل قومه يقتلونه لعهد عثمان ونراه يقول:

عُمَيْرَةُ وَدِّعْ إن تجهَّزتَ غازيا ... كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا

ويُرْوَى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له: لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه. ومثله النجاشى[6] قيس بن عمرو، الذى حَدَّه على بن أبى طالب فى شرب الخمر برمضان، وقد تهاجى مع كثير من الشعراء وعلى رأسهم تميم بن أُبَىّ بن مقبل العَجْلانى، وفيه وفى قبيلته يقول:

إذا الله عادَى أهل لؤمٍ ودقَّةٍ ... فعادى بنى العَجْلان رهط ابن مُقْبِلِ[7]
قبيلةٌ لا يغدرون بذمَّةٍ ... ولا يظلمون الناس حَبَّةَ خَرْدَلِ

---

(١) الضمان: ما يصيب الإنسان فى جسده من مرض أو زمانة.
(٢) فيضا: موتا.
(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥ والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغانى ٩/٢٧٠ والإصابة ٦/٢٦٨ والخزانة ١/٢٤٧.
(٤) أمالى المرتضى ٢/٢٢٦.
(٥) انظر ترجمة عبد بنى الحسحاس فى أغانى (ساسى) ٢٠/٢ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة ٣/١٦٣ والخزانة ١/٢٧١ وشرح شواهد المغنى ١١٢. وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه.
(٦) راجع فى ترجمة النجاشى الاشتقاق لابن دريد (نشرة الخانجى) ص ٤٠٠ والشعر والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزانة ٤/٣٦٨.
(٧) البيت دعاء على بنى العجلان، وواضح أن النجاشى يرميهم بأن أحسابهم لئيمة خسيسة.

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجاهم بالبيت الثانى، فإن الإسلام يُجِلُّ الوفاء بالذمم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية. وكان ابن[1] مقبل على شاكلته، يقول ابن سلام: «إنه كان جافياً فى الدين وكان فى الإسلام يبكى أهل الجاهلية»[2] ومع ذلك ندَّتْ على لسانه أبيات فيها ما يدل فى وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله[3]:

هل الدَّهْرُ إلا تارتان فمنهما ... أموت وأُخرى أبتغى العيش أَكْدَحُ
وكلتاهما قد خُطَّ لى فى صحيفة ... فلا الموتُ أهْوَى لى ولا العيش أَرْوَحُ

وهو يَصْدر فى البيتين عن الآية الكريمة: (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبل أن نَبْرَأها) ومما يُرْوَى له قوله[4]:

الناسُ هَمُّهم الحياةُ ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خَبالِ
وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ... ذُخْرًا يكون كصالح الأعمالِ

وممن يُسْلك فى هؤلاء الشعراء الذى عُرفوا برقة دينهم الحطيئة، وسنرى عما قليل أثر الإسلام فى شعره.

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التى شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة فى نفوس المخضرمين، وخاصة أهل البادية[5]، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً. ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون فى طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد والحطيئة والنابغة الجعدى، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام، ولندل فى وضوح على أن هذا التأثر لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمقهم على نحو ما سنرى عند لبيد والنابغة الجعدى.

---

(١) راجع فى ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء ١/٤٢٤ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة ١/١٩٥ والخزانة ١/١١٣ وزهر الآداب ١/١٩.

(٢) ابن سلام ص ١٢٥.

(٣) الحيوان للجاحظ ٣/٤٨.

(٤) طبرى ٥/٢٩.

(٥) راجع مثلا تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية لنالينو (طبع دار المعارف) ص ٩٥.

٢

حسان[١] بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حَرام الخزرجي «من سادة قومه وأشرافهم»، وكانت أمه «الفُرَيعة» خزرجية مثل أبيه، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله[٢]. وهو يُسْلك في المعمَّرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى، وهي سنٌّ تقريبية، فقد قيل إنه توفي قبل الأربعين، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين. وهو ليس خزرجيًّا فحسب، بل هو أيضاً من بني النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فله به صلة قرابة ورحم.

ونراه قُبَيْل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر؛ وكان لسان قومه في الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية، ومن ثَمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين: قيس بن الخَطيم وأبي قيس بن الأسْلت[٣]. ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ، وقدَّم عليه الأعشى، فأثار موجدته[٤].

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فيدخل حسان في الإسلام، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم يلاذع هجائه، وكان رسول الله يحثّه على ذلك ويدعو له بمثل: «اللهم أيِّدْه بروح القدس» واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال: «لهذا أشدُّ عليهم من

---

(١) انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفي مواضع متفرقة وأغاني (دار الكتب) ٤/١٣٤ وما بعدها و ١١/٢٧ و ١٤/١٥٧ و (طبعة الساسي) ١٦/١٢ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢٦٤ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤/١٢٥ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٢/٨ وسير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف) ٢/١١٥ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد المغني ص ١١٤ والخزانة ١/١٠٨. وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوقي وفي تونس والهند وبيروت، وسنعتمد في المراجعة على طبعة ليدن.

(٢) انظرها في ابن سعد ٨/٢٧١.

(٣) انظر أغاني (دار الكتب) ٣/١٢ والديوان ص ٥٢ وفي مواضع متفرقة.

(٤) أغاني (دار الكتب) ٩/٣٤٠.

وقع النَّبْل » ، وفى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى» . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التى هزموا فيها ويعيِّرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبيعى لأنهم كانوا مشركين فعلا ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويُرْوَى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثْك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهُم وجبريل معك »(١) .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض فى حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتُصْبح غَرْثَى من لحوم الغوافِل(٢)

فإن كان ما قد قيل عنِّىَ قُلتُه فلا رفعتْ سوطى إلىَّ أناملى

ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطّل أثاروه فى هذا الحادث ، حتى وجد وجْداً شديداً ، فقال :

أمسى الجلابيبُ قد عَزُّوا وقد كثُروا وابنُ الفُرَيْعة أمسى بَيْضَةَ البلدِ(٣)

على أنه مضى فى نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر فى ذَبِّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره فى المسجد ، والذى لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمنزلة رفيعة ، حتى ليُرْوَى أنه كان يرفع أزواجه إلى أُطُمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يَقْسم له فى الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهى أم ابنه عبد الرحمن . وكان

---

(١) انظر فى هذا الحديث وما قبله ترجمته فى كتب الصحابة والأغانى ٤ / ١٣٧ وما بعدها .

(٢) حصان : عفيفة . رزان : ذات وقار . تزن : تتهم . غرثى : جائعة . يريد أنها لا تغتاب النساء .

(٣) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استصغاراً لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفى المثل هو أذل من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيحضنه غيره .

الخلفاء الراشدون يجلّونه ويفرضون له فى العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه عَمِيَ بأخرة .

وبحق سُمِّيَ حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم ، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركى العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصْمية . وقصته مع الحارث بن عوف المُرّى حين قُتل فى جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة ، فقد قال فيه وفى عشيرته :

إن تَغْدِرُوا فالغَدْرُ منكم شِيمةٌ والغَدْرُ يَنْبُتُ فى أُصول السَّخْبَرِ (١)

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلا إليه أن يكفّه عنه . وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بنى تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزِّبْرقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً . يقول فى تضاعيفه :

إن الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهم قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ (٢)
يَرْضَى بها كل من كانتْ سريرتُه تَقْوَى الإلهِ وبالأمر الذى شرعوا
إن كان فى الناس سبّاقون بعدهمُ فكلُّ سَبْقٍ لأدْنَى سبقهم تَبَعُ
أهْدَى لهم مِدَحِى قلبٌ يؤازره فيما أراد لسانٌ حائكٌ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر فى عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خلّف ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب ، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعى : «تُنْسَب إليه أشياء لا تصحّ عنه »(٣) ويقول ابن سلام : « قد حُمل عليه مالم يُحْمَلْ على أحد ، ولما تفاضحت (تشاتمت) قريش واستبّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنْفَى »(٤) . وكان ممن حمل عليه عُثاءً كثيراً ابن إسحق فى المغازى ، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يروى عنه السيرة النبوية ، فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصارى راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

(١) السخبر : شجر ، ومن أمثالهم : ركب فلان السخبر إذا غدر .
(٢) الذوائب : الأعالى فى الشرف . فهر : قريش ، يريد المهاجرين .
(٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .
(٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عند ابن إسحق فكانوا يُثْبتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتا فى رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام لنُعلم مدى ما وُضع على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهلُ العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »(١) ومن ذلك أنه نَسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك(٢) ونسب ثالثة إلى عبدْ الله(٣) بن الحارث السَّهْمى ورابعة إلى معقل(٤) بن خويلد الهُذَلى وخامسة إلى ربيعة بن أمية الدِّيلى وقيل بل هى لأبى أسامة الجُشَمى(٥) ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن(٦) . وإذا مضينا نبحث فى مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهى فى رثاء نافع بن بُدَيل(٧) ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهى فى رثاء عثمان(٨) ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية فى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصَّ الرواة على أنها لصِرْمة(٩) بن أبى أنس الأنصارى ، ونُسب له بيتان فى الفخر بالأزد وهما لسعد(١٠) بن الحصين الأنصارى ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهى لبشير(١١) بن سعد بن الحصين .

ونظن ظنّا أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه فى هجاء قريش ،

---

(١) انظر ابن هشام فى مقطوعة عينية ٣/٥٦ وفى قصيدة عينية ٣/١٤٩ وما بعدها وقابل بالديوان ص٧٦ وهى فى رثاء حمزة ، وانظر حائية فى رثاء حمزة ٣/١٥٩ ومقطوعتين فى رثاء خبيب ٣/١٨٦ وقابل بالديوان ص٤٦ ، ٨٤ وكذلك مقطوعة بائية فى ٣/١٩٢ وقابل بالديوان ص٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية فى عمرو بن ود فى ٣/٢٨١ وقابل بالديوان ص٤٦ .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٣٧ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣/٣٦٢ وقابل بالديوان ص ٦٣ .

(٣) السيرة النبوية ٣/٢٠ والديوان ص٢٩ .

(٤) السيرة النبوية ٣/٨١ والديوان ص٨٤ .

(٥) السيرة النبوية ٣/٢٨٢ والديوان ٥١ .

(٦) السيرة النبوية ٤/١٩٩ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ٣/١٠٨ حيث تشكك الجاحظ فى مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن .

(٧) انظر الديوان ص٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ٣/١٩٨ .

(٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ .

(٩) راجع الديوان ص٢١–٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

(١٠) انظر الديوان ص ٤٠ وقارن بالأغانى (طبع الساسى) ١٤/١٢٠ .

(١١) راجع الديوان ص ٤٢ – ٤٣ وقارن بالأغانى ١٤/١٢٠ .

وأما عبد الرحمن فمعروف أنه كان يهاجى النجاشى الحارثى ويذم قومه بنى الحارث بن كعب وعشيرته بنى الحماس ذماً قبيحاً[١] ، ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حُمل عليه[٢] . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قَتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون[٣] ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى صَفِّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التى نظمها حسان فى هجاء أسرتهم حين كان أبو سفيان وغيره من رءوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادّونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار فى مديح الزبير[٤] بن العوام وعبد الله[٥] بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً فى وَضْع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامى كَثُرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع فى بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف فى الإسلام كما زعم الأصمعى ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثّق شعره فى الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة[٦] ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التى يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتى يقول فيها :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى ... وأَسيافُنا يَقْطُرْن من نَجْدَةٍ دَما

ولاميته التى يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم ... شُمُّ الأُنوف من الطراز الأَوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغى أن نُبْعِد منه ما اتهمه الرواة وأن لانقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ، ومن ثَمَّ كنا نرتضى ميميته (تَبَلَتْ فؤادَك فى المنام خريدةٌ) التى يعيِّر فيها الحارث بن هشام المخزومى بفراره فى يوم

---

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان فى هجاء بنى الحماس الحارثيين قوم النجاشى ص ٤٧ ، ٨١ وكذلك انظر مقطوعة رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبد البر فى الاستيعاب ص ٤٩٢ حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه فى رثاء عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان.

(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه أشعار فى هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١ / ٣٠ .

(٦) انظر الأغانى (ساسى) ١٤ / ١٢٥ - ١٢٧ .

بدر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النومَ بالعشاء الهمومُ) التي يهجو فيها ابن الزِّبَعْرَى ويفتخر بقومه فخراً عنيفاً ، ومن نمطهما لاميته (أهاجك بالبَيْداء رَسْمُ المنازل) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التي وجهها إلى أبي سفيان ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام[1] . ومثلها مقطوعته الدالية التي يستهلها بقوله :

وإن سَنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدُك العَبْدُ[2]

ومقطوعته الميمية التي يقول فيها :

لعمرك إن إلّك من قريش ... كإل السَّقْبِ من رَأْلِ النَّعام[3]

وأيضاً نجد نثبت له قصيدته الهمزية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبته مشبباً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزءين : جزء نظم في الجاهلية ، وجزء نظم في الإسلام[4] . وهو يمضي في الجزء الثاني منحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط في هذا الجزء المعاني الجاهلية بالمعاني الإسلامية إذ يَعْرِض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه ، من مثل قوله :

وجبريلُ أمينُ الله فينا ... وروحُ القُدْس ليس له كِفاءُ[5]

وقد تبرز المعاني الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعيِّرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتْبعه ... حتى الممات ونصرٌ غير محدودِ

مستعصمين بحَبْلٍ غير مُنْجذمٍ ... مُسْتحكمٍ من حبالِ الله ممدودِ[6]

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٢) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومي وهي أم عبد الله وأبي طالب والزبير بني عبد المطلب.

(٣) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام . الإل : القرابة .

(٤) انظر الاستيعاب ص ١٢٩

(٥) كفاء : كفء ونظير .

(٦) منجذم : منقطع .

وهو يشير فى البيت الثانى إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) .

وله مراثٍ فى الرسول الكريم تتضح فيها المعانى الإسلامية اتضاحاً على نحو ما يلقانا فى مرثيته التى رواها أبو زيد الأنصارى والتى يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفْقَد

وقد مرَّت بنا فى الفصل السابق مرثيته البديعة لأبى بكر الصديق ، ومن قوله فى عمر حين توفِّى على إثر طعنة فيروز المجوسى :

وفجَّعنا فَيْروزُ لا دَرَّ دَرُّهُ بأَبيض يتلو المُحْكمات منيبِ (١)

وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين الحنيف وهديه الكريم .

٣

كعب (٢) بن زهير

أبوه زهير بن أبى سُلْمى من فحول الشعر فى الجاهلية . وهما من قبيلة مزينة ، ولكنهما يوضعان فى عِداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله بنى مُرَّة الذُّبيانيين . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله فى ذلك مثل أخيه بُجَيْر ومثل الحُطَيئة . ويذكر لنا الرواة الطريقة التى كان يخرِّج بها زهير تلاميذه من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفِّظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء ، فيُلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه (٣) تمريناً له وتدريباً على صَوْغ

---

(١) لا در درّه : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات الذكر الحكيم . وكنى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .

(٢) راجع فى ترجمة كعب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٨٦ وأغانى (طبعة الساسى) ١٥ / ١٤٠ وابن هشام ٤ / ١٤٤ وما بعدها والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٤ / ٢٤٠ والإصابة ٥ / ٣٠٢ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٠ والخزانة ١ / ٣٧٥ ، ٤ / ١١ . وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .

(٣) أغانى (طبع الساسى) ١٥ / ١٤١ وأمالى المرتضى (طبع الحلبى) ١ / ٩٧ .

الفصل الخامس

النثر وتطوره

١

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع فى الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه فى الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو فى أثناء ذلك يخطب فى الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولا بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذى لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنباتها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التى ينبغى أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون فى سبيل الحق والخير ، وهو فى تضاعيف ذلك يأخذهم بآداب رفيعة من السلوك السامى ، مبيناً لهم معانى الإسلام الروحية التى تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسَبُ فيها الإنسان على ما قدَّمت يداه ولو كان مثقال ذرَّة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حُلَّت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثَمَّ كانت فرضاً مكتوباً فى صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحتفظ كتب الحديث بما اتخذه فيها من سنن وتقاليد[١] ثبتتْ إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة فى الجُمَع كانت الصلاة تسبقها فى الأعياد ، وهى تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نَشز من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا ، ويُقْبِل على الناس مسلِّماً . وتبدأ الخطبة الأولى فى الجُمَع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويُؤْثَرُ عن الرسول أنه كان يقول فى فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضْلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »[٢] . وعادة يتلو الخطيب فى الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آى القرآن الكريم ، حتى يستلهمها فى موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبى بكر فى الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعنى فى غَمْرة ، ولا تأخذنى فى غِرَّة ، ولا تجعلنى مع الغافلين »[٣] . ولا تُفْتَتَحُ خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتتح بالتكبير ، فيكبِّر الخطيب فى أولاهما سبع تكبيرات وفى ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سَجْع الكُهَّان الذى كان يرتبط بدينهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تَفِدُ عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عُطارِد بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفاخراً بقومه ،

---

(١) انظر فى صلاة الجمع والعيدين كتب الحديث مثل صحيح البخارى ومسلم .

(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .

(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .

وقد نَدَب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله(١).

ونمضى فى عصر الخلفاء الراشدين، فنكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التى تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء، كموقف أبى بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السَّقيفة، فقد دَرَأ فى الموقفين جميعاً الشَّعَث الذى كاد يُودى بالجماعة، وكذلك موقفه حين ارتدَّ كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة. وكم من خطيب وقف حينذاك يحضُّ قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة. ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام فى الجزيرة أعدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد، إذ كانت كما قدَّمنا فرضاً مكتوباً على المسلمين فى كل مكان يحلّونه من الجزيرة.

ثم تكون الفتوح، ويخطب أبو بكر فى الجيوش الغازية يحضّ على الجهاد ونَشْر الدين الحنيف فى أطباق الأرض. وترتفع أصوات القواد بالخطابة فى كل قطر حاثِّين الجنود على الصبر فى القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب. ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده ببيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بحذافيرها. ولا نغلو إذا قلنا إن بلداً من بلدان الفرس فى العراق وإيران وبلدان الروم فى الشام ومصر لم يُفْتَتَحْ إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القواد، كخطبة المغيرة بن شُعْبة فى القادسية(٢) وخالد بن الوليد فى اليَرْموك(٣)، وعتبة بن غَزْوان فى فتح الأبلّة، ونحن نكتفى بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول(٤):

« أما بعد فإن الدنيا قد تولَّتْ حذَّاء(٥) مدبرة، وقد آذنتْ أهلها بصُرْم، وإنما بقى منها صُبابة كصبابة الإناء يصطبُّها(٦) صاحبها، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يَحْضركم ».

ويتولى عمر، فيكثر من الخطابة لا فى الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث، ومع كل خبر يأتيه بفتح. وقد سار على هدى أبى بكر

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٣٧٨.
(٢) الطبرى ٣/٣٧.
(٣) الطبرى ٢/٥٩٢.
(٤) البيان والتبيين ٢/٥٧.
(٥) حذاء: سريعة الإدبار.
(٦) يصطبها: يشربها. والصبابة: بقية الماء.

فى استشارة أصحابه فى كل مهمٍّ ، وكل ما يجدّ من تشريع ، وخاصة فى معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملا من عوامل نمو الخطابة فى العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطيًّا ، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصوِّراً وجهة نظره ، وفسَح عمر لخطابة الوفود فى مجالسه ، تَستميح لأقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه(١) .

ولم تقف الخطابة الدينية فى هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحلّ مع المسمين فى كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملا من عوامل نموها ، إذ تكاثر من يردِّدونها ومن يحسنون حَوْكها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أُثر عن عبد الله بن مسعود فى إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة(٢) :

« أصدقُ الحديث كتابُ الله ، وأوثق العُرَى كلمة التقوى ، وخير الملل ملّة إبراهيم ، وأحسن السُّنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرُّ الأمور مُحْدَثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى . . . خير الغنى غنى النفس . الخمر جُمّاع الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . . مكتوب فى ديوان المحسنين من عَفا عُفى عنه . السعيد من وُعظ بغيره . . . أحسن الهَدْى هَدْى الأنبياء » .

وفى هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحضّ على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه فى الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الأشتر النخعى فى الكوفة ومحمد بن أبى بكر فى مصر يؤلبون الناس عليه ، وتتوالى الحوادث ، ويُقتَل عثمان ، ويتولّى على بن أبى طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيُضطَرّ على إلى أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

(١) انظر البيان والتبيين ٢ / ١٤٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٥٦ .

المشهورة، وفيها ينتصر علىٌّ، وتتم له بيعة أهل العراق.

وقبيل هذه الموقعة وفى أثنائها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه؛ فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته، وفى تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة، وممن يذكرهم بين من ثبّطوا الناس عنه أبو موسى الأشعرى[1]، أما من استنفروا الناس له فكثيرون، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعى وزيد بن صُوحان وأخوه سَيْحان.

وانتدب علىٌّ أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام، فخرجوا معه إلى صِفِّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده، وفى هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة فى صفوف على وأصحابه، وكان هو نفسه خطيباً مفوَّهاً. وكان بجيشه غيرُ خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عُبادة وعدى بن حاتم الطائى وعمرو بن الحمق وشبث بن رِبْعِىٍّ. وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما، وعبثا تحاول الوفود لمَّ الشعث، ويُقْضَى الأمر، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرضاً أصحابه. ومن رءوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص.

وتستعر المعركة وترجح كفة على وجيشه رجحاناً واضحاً، فيلجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة، إذ يرفعون المصاحف على أسنّة رماحهم، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكّمين يشهدون بآيه. ويُعْمِد القُرَّاء فى جيش علىٍّ سيوفهم، ويتبعهم الناس، ويمانعهم على. فيهددونه بأن يُصْبح مصيره مصير عثمان، وينزل على إرادتهم، ويُختار أبو موسى الأشعرى عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام. وفى أثناء رجوع على بجيوشه إلى الكوفة، يتبين كثير من جنده أنهم قد خُدعوا، ويتاوَّمون عليّاً لأنه قبل التحكيم، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه، ويخطب فيهم. ويتكاثر الخطباء بين محبِّذ للتحكيم ومنفِّر منه، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه وينزلون معسكراً خاصّاً بهم فى حَرَر وراء بالقرب من الكوفة، فيسمون لذلك بالحرورية، أما الاسم الشامل الذى جمعهم فهو الخوارج.

---

(١) الطبرى ٣/٥٠١.

ويحاول علىٌّ وعبد الله بن العباس أن يردّاهم إلى سواء السبيل، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات فى مسألة التحكيم يكون عمادها الجدل المستمدّ من نصوص القرآن والحديث، وبذلك يعرف هذا العصر المناظرة الشفوية، بل إنها لتتفجّر تفجراً. ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبرى، وهو يجرى على هذه الصورة[1]:

« راجعهم ابن عباس، فقال: ما نقمتم من الحكمين، وقد قال الله عزّ وجل: (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما)[2] فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم؟. فقالت الخوارج: قلنا أمّا ما جعل حُكْمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم فى الزانى بمائة جلدة وفى السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا. قال ابن عباس: فإن الله عز وجل يقول: (يحكم به ذوا عدل منكم»[3]. فقالوا له: أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين؟!. وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيننا وبينك، أعدْلٌ عندك ابنُ العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه، وقد حكّمتم فى أمر الله الرجال، وقد أمضى الله عزّ وجلّ حُكْمه فى معاوية وحزبه أن يُقْتَلوا أو يرجعوا[4] وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزّ وجل فأبوه. ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً، وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة[5]. وقد قطع عزّ وجلّ الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقرّ بالجزية».

ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضْطُرّ علىٌّ إلى حربهم، وفتك بهم فتكاً ذريعاً فى موقعة النهروان. وكانوا يظهرون استبسالا شديداً، يدفعهم إلى ذلك

---

(١) الطبرى ٤/٤٧.

(٢) الآية فى الصلح بين الزوجين وتمامها: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما).

(٣) الآية فى حكم قاتل الصيد وهو محرم، وتمامها: « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم).

(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل).

(٥) الاستفاضة: الموادعة.

خطباؤهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبى ، وحمزة قوص بن زهير السعدى والمستورد بن علفة ، ومن يرجع إلى خطبهم يجدها تنقد جماسة وحمية من مثل قول ابن وهب فى بعض خطبه[١] :

« أما بعد فوالله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا — التى الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتبار[٢] — آثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق وإن مُنّ[٣] وضُرّ ، فإنه من يُمنَ ويُضَرّ فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل والخلود فى جناته » .

وينتهى التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آثمة من أيدى الخوارج إليه فى الظلام ، فتطعنه طعنة نَجْلاء ، ويُسْلم الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة فى هذا العصر نموّاً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحَظ فيها ، فقد دارت حول معانى القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهى معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معانى هذا الدين الحنيف الذى بعث لغتنا ونَشْرَها بعثاً جديداً ، والذى مرّنها وذلّلها لكى تؤدى الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضىء به فى كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة فى أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأخصها التى تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سُنّة فى كل خطبة ، حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسمّون كل خطبة تخلو منه بَتْراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آى القرآن الكريم والصلاة على الرسول شَوْهاء[٤] .

---

(١) الطبرى ٤/٥٤ .
(٢) تبار : هلاك .
(٣) من : قطع وهجر .
(٤) البيان والتبيين ٢/٦ .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزوّرون كلامهم ويُعدونه على أنفسهم إعداداً طويلا ، ثم يُلقونه على الناس ، حتى لقد رُوِىَ ذلك عن عمر بن الخطاب (١) . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذى يريد أن يصبّه فى نفوس سامعيه صبًّا ، على نحو ما نجد فى خطبة لأبى بكر فى الأنصار (٢) .

وإذا كنا قد لاحظنا فى الجزء الأول من هذا التأريخ للأدب العربى غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ فى هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت فى خطابة الوفود حين كانت تَقْدُمُ على الخلفاء : يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة » (٣) ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبئة فى حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ اليمامة ، ويقول الجاحظ إنه « عَدَا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه » (٤) . ومما يُرْوَى له — إن صَحَّ قوله (٥) :

« سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره فى كل ما سَرَّ نفسه يجتمع ، رآكم ربكم فحيّاكم ، ومن وحشة خلّاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبار ، رب الغيوم والأمطار » .

ونستطيع أن نقول إن السجع فى خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع فى خطابته ، وكان يَنْفر منه حين يلهج به أحد محدثيه (٦) ، كراهية للتشبه بالكهّان فى سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلّة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يُرْوَى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العَبْدى حين قدم عليه من غزو مَكْران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابه : « أرضٌ سَهْلُها جَبَل ، وماؤها وَشَل (٧)

---

(١) الطبرى ٢/٤٥٦ وقارن بكلمة لعثمان ابن عفان فى البيان والتبيين ١/٣٤٥ وعيون الأخبار ٢/٢٣٥ .

(٢) زهر الآداب ١/٣٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(٤) الحيوان ٤/٨٩ .

(٥) الطبرى ٢/٤٩٨ .

(٦) صحيح مسلم (طبع الآستانة) ٥/١١١ وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ٢/١٩٢ .

(٧) وشل : قليل .

وثمرها دَقَل[١]، وعدوها بطل، وخيرها قليل وشرها طويل، والكثير بها قليل. إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلّوا بها ضاعوا». وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له: أسجّاع أنت أم مخبر[٢]. وكان الخلفاء بعد عمر يُنكرون السجع على محدِّثهم. وأمامنا خطب القوم، وهى تخلو خلوًّا تامًّا من السجع إلا ما جاء عفواً فى الحين البعيد بعد الحين. ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورصانته، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة.

وأخرى تلاحظُ على الخطابة فى هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لارابط بينها، أما فى هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصول، إذ يحدِّث الناس واعظاً، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة أصبحت ذات موضوع، تلمُّ بأطرافه وتفاصيله. وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة، فقد أخذ الخطباء يوسِّعون طاقته بما يحمِّلونه من معانى الإسلام وما يبسطون فى هذه المعانى ويولِّدون ويفرِّعون. ونحن نقف قليلا عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التى وسَّعت جنبات النثر وزادت فى معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة.

٢

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب فى العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، وقد أوتى من اللسَن

---

(١) دقل: ردىء. والبيان والتبيين ١ / ٢٨٥.

(٢) انظر فى هذا الخبر الطبرى ٣/٢٥٧

والفصاحة ما ملك به أزمة القلوب ، وكأنما كانت المعانى والأساليب موقوفة بشخوصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصْغى له الأفئدة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه فى الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب فى نفس معانى القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس فى أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة ، ليَجْزى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، حتى إذا انتقل إلى المدينة فُرضت الخطابة — كما قدمنا — فى صلاة الجمع والأعياد ثم فى مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب فى الأحداث التى تُلِمّ . وفى أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات[1] غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خُطَبه وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثرُ هذه البقايا مما خَطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع آى القرآن التى كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً ، وتارة مشرِّعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع فى نسيج بلاغى رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس فى دخوله إليها صلاةَ الجمعة ، وهى تمضى على هذه الشاكلة[2] :

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأشهد به وأومن به ولا أكفُره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلّة من العلم وضلالة من الناس وانقطاعٍ من الزمان ودُنوٍّ من الساعة وقُرْبٍ من الأجل . مَنْ يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غَوِىَ وفرَّط وضل ضلالا بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضَّه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل به على وَجل ومخافة من ربه ، عَوْنٌ صِدْق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذى بينه وبين الله من

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٣ .
(٢) الطبرى ٢/١١٥ .

أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكنْ له ذكراً فى عاجل أمره وذُخْراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذِّركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد . والذى صَدق قولُه ، وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك ، فإنه يقول عزَّ وجل : (ما يُبدَّل القول لدىَّ وما أنا بظلاّم للعبيد) . فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية (ومن يتَّق الله يكفِّرْ عنه سيئاته ويُعْظم له أجراً) . ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقِّى مقته ويوقِّى عقوبته ويوقِّى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرِّطوا فى جَنْب الله . قدعلمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحْسِنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجْتباكم)[1] وسماكم المسلمين (ليهلك من هلك عن بَيِّنة ويحيى من حَيَّ عن بينة) ولا قوة إلا بالله . فأكْثِروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يُصْلح ما بينه وبين الله يَكْفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم » .

والخطبة موعظة رائعة ، يستهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتمَّ نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة ويُدْخلوا فى رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملا بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة والوسط المشئوم على الهلاك ويجتمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه فى السر والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكنّ فى الصدور ، وليقدّموا من خشيته وطاعته ما يكفِّرون به عن سيئاتهم وتبيض به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا فى جَنَّاته . إنه يوم ما بعده مستعتب ، فإما الجنة وشفيعها العمل الصالح ، وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، ولينشروها فى أطراف الأرض . والرسول فى كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهى تقف

---

(١) اجتباكم : اختاركم .

منارات فى موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضىء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التى تفجرت منها ، إذ كانت تسيل فى نفسه ، بل كانت تشع بمعانى نورها ، كما يشع نور الشمس فى السماء . وكان أحياناً ينتقل فى سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامى ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً فى سبيل الخير ، وهو خير تطبع عليه الجنة بنعيمها الخالد ، خير يكمل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام فى حجة الوداع ، وهى تجرى على هذا النمط (١) :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم — عباد الله — بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع (٢) ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة (٣) والسقاية (٤) . والعمد قود (٥) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون

---

(١) البيان والتبين ٢ / ٣١ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤ / ٢٥٠ والعقد الفريد ٤ / ٥٧ .

(٢) موضوع : ساقط ومحرم .

(٣) السدانة : خدمة الكعبة .

(٤) السقاية : سقاية الحجاج .

(٥) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل القاتل بمن قتل .

من أعمالكم. أيها الناس! (إنما النَّسيء[١] زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله). إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم): ثلاثة متواليات وواحد فَرْدٌ. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جُمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس! إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حق. لكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرُشكم غيركم، ولا يُدْخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم. ولا يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تَعْضلوهن[٢] وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح[٣]. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عَوانٍ[٤]، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس! إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لامرئ مسلم مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعُنّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتابَ الله، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس! إن ربّكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. قالوا: نعم، قال: فليبلّغ الشاهد الغائب. أيها الناس! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصيةٌ لوارث في أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجرُ[٥]، من ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين،

---

(١) النسيء: شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه.

(٢) تعضلوهن: تضيقوا عليهن.

(٣) الضرب غير المبرح: الضرب الخفيف.

(٤) عوان: جمع عانية وهي الأسيرة، أي هن عندكم بمنزلة الأسيرات.

(٥) للفراش: أي لصاحبه؛ وللعاهر الحجر: أي أن هذا مقضى به رغم أنفها أو لعله يشير إلى رجمها.

لا يُقْبَلُ منه صَرْفٌ (١) ولا عَدْلٌ (٢). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ».

وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكد يُسلِمُ بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل يبيّن طائفة من التشريعات الإسلامية التى أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب فى الجاهلية وحياتهم فى الإسلام ، فقد كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال . وجمعهم الإسلام تحت لوائه فى جماعة كبرى متآخية متناصرة لا يبغى بعضها على بعض . ولكى يقضى على كل سبب للحرب بينهم رَدَّ دمَ القتيل إلى الدولة فهى التى تعاقب عليه ، ولكى يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرَّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح فى الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه بإعلان أن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردَّها على صاحبها ، وأن على كل مسلم أن يرْعَى أخاه فى ماله . فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق . ومن ثم حرَّم الرِّبا ، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب المدينين له رِباه . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية . فليس لمسلم أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . ولم يُبقِ من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج . وأوجب فى قتل العمد القَوَد ، ولكن الدولة هى التى تقوم به ، وبذلك قضى الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل فى القتل شبه العمد مائة بعير . كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوئام .

ويحذِّر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم ، واضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثنى عشر شهراً ، منها أربعة حُرُمٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعانى علاقاتها بزوجها ، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفى الطرفين جميعاً يحفظ لها كرامتها كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة ، داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان .

---

(١) صرف : توبة .

(٢) العدل : الفدية .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهد مَنْ نَقَضه عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تناب وتفاخر ، فالناس جميعاً لآدم ، ولا عربى عَدنانى ولا عربى قحطانى ، بل لا عربى ولا أعجمى . فقد وُضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهى معيار التفاضل . ويلفت الرسول سامعيه إلى ما قرَّره القرآن فى الميراث وأنصبته . وأن للمورِّث أن يوصى بالثلث من ماله . ويُرسى قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرَّم ذلك تحريماً باتًّا . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخئولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبيِّن فى خطابته حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به ، فى سلوكهم حتى تزكو نفوسهم ، وفى عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقى الكمال الإنسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران فى دقة حسن منطق الرسول فى خطابته ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برَّأه الله منه إذ يقول فى كتابه العزيز : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) . والذى لا شك فيه أنه كان يبلغ بعفْوه وقُوَى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء ، وقد وصف الجاحظ بلاغته فى خطابته أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التقعيب[1] ، واستعمل المبسوط فى موضع البَسْط والمقصور فى موضع القَصْر ، وهجر الغريبَ الوحشىّ ،

(١) التقعيب : التقعير وهو التكلم بأقصى قعر الفم .

ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسِّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت له قدم ، ولا بارتْ له حجة ، ولم يَقُمْ له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفَلْج[1] إلا بالحق ، ولا يستعين بالخِلابة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبْين فى فَحْوى[2] ، من كلامه صلى الله عليه وسلم »[3] . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذى فتق معانى هذه الخطابة الدينية التى لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذى رسمها ، وفجّر ينابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمّته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه فى الدلالة ، يسعفه فى ذلك ذوق مرهف وحِسٌّ دقيق نتبينهما فيما رُوِى عنه من قوله : « لا يقولنّ أحدكم خَبُثَتْ نفسى ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسى »[4] كراهية أن يضيف المسلم الطاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البرىء من كل ما يُسْتَكره ، اللفظ الذى يحبّب إلى النفوس حلاوته وعذوبته وصفائه ونقائه .

٣

خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى الذروة من الفصاحة والبلاغة ؛ إذ سَرَى فى نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

---

(١) الفلج : الفوز .

(٢) فحوى : دلالة .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ١٧ .

(٤) الحيوان ١ / ٣٣٥ ولقست النفس : غثت .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحبَّ رفيق إلى الرسول وألصقَ أصحابه به ، وقد نوَّه القرآن بذكره . فقال جلَّ شأنه : (فأمَّا من أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى فسنيسِّره لليسرى) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثِّل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معانى الإسلام وقيمه الروحية . وقد أُثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقظته وصدق حسِّه ، وأنه حقًّا كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمت — أقبل فكشف عن وجهه ، فقبَّله ، وقال : بأبي أنت وأمي طِبْتَ حيًّا وطِبْتَ ميتاً . وخرج من عنده فبدر الصحابة بخطبته المشهورة[1] التي قال فيها : « من كان يعبُد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت » ثم أخذ فى بيان غلط من كذبوا موته محتجًّا عليهم بمثل قوله تعالى : (إنك ميِّتٌ وإنهم ميتون) ، وتلا : (وما محمد إلا رسول قد خلَتْ من قبله الرسل أفإنْ مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم) ، ثم تلا : (كل نفس ذائقة الموت) ، ثم تلا : (كل شيء هالكٌ إلا وجهه) . فثاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم . ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عُبادة فى سقيفة[2] بنى ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراعه ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع فى الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر ، وتبعه عمر وأبو عبيدة فى نفر من المهاجرين . وهناك خطب فى الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب فى الناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه وقال[3] :

« أيها الناس ! إنى قد وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حقٍّ فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسدِّدونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيفُ حتى آخذ

---

(١) الطبرى ٢ / ٤٤٤ وزهر الآداب ١ / ٣٠ . (٣) عيون الأخبار ٢ / ٢٣٤ والطبرى ٢ / ٤٥٠ .
(٢) الطبرى ٢ / ٤٤٥ وما بعدها .

الحق له ؛ وأضعفكم عندى القوىُّ حتى آخذ الحق منه . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وأخذت تتجلّى مواقفه العظيمة ومآثره الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بَعْثُ أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قِبَلَ لنا بحرب العرب . فاقبَلِ الصلاة منهم واترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منعونى عِقالا[1] مما أعطوه النبى لجاهدتهم عليه » . وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردّتهم . وإذا أخذنا نقرأ فى خطبه وجدنا جمهورها وعظاً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكلة قوله فى خطبة له[2] :

« إن الله عز وجل لا يتقبّل من الأعمال إلا ما أُرِيد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدّيتموها ، وسَلَف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبّارون ؟ . . أين الذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور ، هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً[3] . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مَدينون ، وأن ما عنده لا يُدْرَكُ إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرَ بخير بعده النار ، ولا شرّ بشرّ بعده الجنة » .

واستنَّ بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو فى وصاياه يتصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية فى معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثّلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلّوا مالا إلا

---

(١) العقال هنا : كناية عن البعير .
(٢) الطبرى ٢/٤٦٠ .
(٣) الركز : الصوت الخفى .

لمأكلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى، وتصوّر ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيّره إلى مشارف الشام، وفيها يقول[١] :

« أيها الناس! قِفوا أوصيكم بعشر، فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تَغُلُّوا[٢]، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تَقْعُروا[٣] نَخْلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ».

وواضح مما تمثلنا به من خطابة أبى بكر أنه لم يكن يلهج بسجع، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما فى نفسه. وكان يتخيّر لفظه، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يُرْوَى من أنه عرض لرجل معه ثوب، فقال له : أتبيع الثوب؟ فأجابه : لا، عافاك الله. فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يُظَنّ أن النفى مسلط على الدعاء، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل : لا، وعافاك الله »[٤].

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختيارُه عمر خليفةً من بعده، وكان على شاكلته نفاذَ بصيرة وصدقَ عزم وبلاغةَ لسان، كما كان صفىَّ رسول الله. وقد أعزَّ الله به الإسلام فى مكة حين أعلن ولاءه لرسوله، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرّ به منه ويتخذه موضع مشورته، حتى توفّى وخلفه أبو بكر، فكان له نعم الظهير والمعين. ولما أُسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها فى رجاحة عقل، حتى إن أحداً لم يردّ عليه رأياً واحداً ولا عملا واحداً، وما زال يوطّىء الأمر بسعة حلم وشدّة عزم، مجنداً للأجناد، حتى فُتحت فارس وتمّ فتح الشام وفُتحت مصر، وهو على ذلك كله نعم الكالىء والحافظ لرعيته. وكان بيانه فى مقدار عقله قوةً وسداداً، إذ كان فى مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضّاد من أى شِدْقيه شاء[٥]، فما هو إلا

---

(١) الطبرى ٢/٤٦٣.

(٢) تغلوا : تخونوا فى الفىء.

(٣) تقعروا : تستأصلوا وتقطعوا.

(٤) البيان والتبيين ١/٢٦١.

(٥) البيان والتبيين ١/٦٢.

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم فى الجنود ناصحاً حتى يتهدر بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفى بقوله فى إحدى مواعظه[١]:

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى، ولم تكونوا شيئاً، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم فى البر والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها، وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله، فأنتم مستخلفون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . . والله المحمود مع الفتوح العظام فى كل بلد . . . فنسأل الله الذى لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته » .

وسار سيرة أبى بكر فى تشييع الجيوش بالخطابة محرضاً على الجهاد، حتى ينتشر الدين الحنيف فى أقطار الأرض ، وهو لن ينتشر إلا بالقوة التى تعز الحق وتعلى سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التى وعدها الله أن ترث الأرض ومن عليها . وما زال عمر يبرز هذه المعانى محاولا أن يرتفع العرب فى جهادهم عن ضعف المخلوق ، ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول فى بعض هذه الخطب[٢]:

« أين الطراء[٣] المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولى أهله مواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون؟ ».

ولما اجتمع الجيش أمّر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم

---

(١) الطبرى ٣/٢٨٣ .

(٢) الطبرى ٢/٦٣١ .

(٣) الطراء : الذين خرجوا عن ديارهم .

فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يُصْلحها إلا الرجل المَكيث [١] الذى يعرف الفرصة والكفَّ » .

وتوفِّى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبى بكر فى الفصاحة والبيان . ويُرْوَى أنه أُرْتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة فى الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدَّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوجُ منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرْتَجُ عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس [٢] :

« إنكم فى دار قُلْعَة [٣] وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتيتم ، صُبِّحْتُمْ أو مُسِّيتم . ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور ، فلا تغرَّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنَّكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جدُّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمَروها ومُتِّعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا ، فقال عزَّ وجل : (واضربْ لهم مثلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نباتُ الأرض ، فأصبح هَشِيماً تَذْروه الرياح وكان الله على كلِّ شىء مُقْتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خير عند ربك ثواباً وخير أملا) » .

وامتُحن فى آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحْدثوا فَتْق هذه الفرقة ، وهو فى أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطرهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقى على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

وولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلِّبون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحاربهم .

---

(١) المكيث : الرزين المتبصر فى الأمور . (٣) قلعة : انقلاع أى أنها لا تدوم .
(٢) الطبرى ٣/٣٠٥ .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية فى حروب صفّين . ثم كانت خُدْعة التحكيم . وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو فى كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً مفوَّهاً لا يُشَقُّ غُبارُه ، ومن مواعظه قوله[١] :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع ، وإن المضمار[٢] اليوم والسباق غداً . ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يَضُرّه أمله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله خسر عمله ، وضَرَّه أمله ، ألا فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون له فى الرَّهْبة ، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبيعى أن تكثر خطبه فى حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب فى أصحابه حاثّاً لهم على الجهاد ، ومن قوله فى خطبة[٣] له بأخَرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاويةَ تغير على أطراف العراق :

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصَّغار ، وسِيم الخسْفَ ، ومُنع النَّصَف[٤] . ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسرّاً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزِى قوم قط فى عُقْر دارهم إلا ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثَقُل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا ، حتى شُنَّت عليكم الغارات ... فيا عجبا من جدّ هؤلاء القوم فى باطلهم ، وفشلكم عن حقكم . . . حتى صرتم هدفاً يُرْمى وفَيْئاً يُنْتَهَب ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغْزَوْن ولا تَغْزُون .. قد وَرَيْتم[٥] صدرى غيظاً ، وجَرَّعتمونى الموت أنفاساً[٦] ، وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان والخِذلان » .

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٥٢ .

(٢) المضمار : الزمن الذى تضمر فيه الخيل للسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٥٣ .

(٤) النصف : الإنصاف .

(٥) وريتم : ملأتم ، وأصله من وري القيح جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك ، وهو الجرعة من الماء ونحوه .

وقد خلّف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغى أن نقف موقف الحذر مما يُنْسَبُ إليه من خطب فى الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرته وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبّه إلى ذلك السابقون[١] ، واختلفوا فى واضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفّى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفى الثانى سنة ٤٠٦ . وممن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبى فى ميزان[٢] الاعتدال وابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان[٣] . وذهب النجاشى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة فى كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى[٤] ، وأقرّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر فى الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذى ألفه ووسمه باسمه : نهج البلاغة[٥] ، وذكر ذلك أيضاً فى كتابه « مجازات[٦] الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على علىّ قديم . فقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب أن له أربعمائة خطبة ونيفاً وثمانين يتداولها الناس[٧] .

ولعل فى ذلك ما يدلُّ على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعوّل على شىء منها إلا إذا جاء فى المصادر القديمة التى أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف فى تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر فى نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة فى هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالُهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة ، وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

---

(١) انظر ترجمة الشريف المرتضى فى ابن خلكان ، وراجع مرآة الجنان لليافعى ٣/٥٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٣/٢٥٧ .

(٢) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو) ٢/٢٠١ .

(٣) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) ٤/٢٢٣ .

(٤) كتاب الرجال (طبعة بومباى) ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف الرضى (طبعة النجف) ص ١٦٧ .

(٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد) ص ٢٢ ، ٤١ .

(٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤/٤٤١ .

تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة . منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة فى الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى ، وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

٤

الكتابة

نوَّه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جلَّ شأنه : (اقرأْ باسم ربِّك الذى خلق . خلَق الإنسان من علَق ، اقرأ وربُّك الأكرم الذى علَّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ومن تمام هذا التنويه القَسَم بالقلم فى قوله تعالى : (ن والقلم وما يَسْطرون) وبالكتاب فى قوله سبحانه : (والطُّور وكتاب مسطور فى رَقٍّ منشور) . وتتردَّد فى القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف فى مثل قوله تبارك وتعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لَوْح محفوظ) ، وقوله : (قُلْ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيسَ) وقوله : (رسولٌ من الله يتلو صُحُفاً مطهَّرة) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن يحذقون الكتابة عشرةً من صبيان المدينة[1] ، وقد حثَّ القرآن على استخدامها فى المعاملات ، يقول عزَّ سلطانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تَدَايَنتم بدين إلى أجل مسمًّى فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتُبَ كما علَّمه الله فليكتبْ وليُمْلِلِ الذى عليه الحقُّ) . ومن غير شك كانت هى الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقد كان الصحابة يكتبونه . حتى يتحفَّظوه .

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٤

الفصل الثانى

مؤثرات عامة فى الشعر والشعراء

١

الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعرُّبها وأثر ذلك فى اللغة

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة فى أقطار الأرض ، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة فى جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها فى الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه فى العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرُّب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرَّب الأقطار الأخرى التى لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يَعُد اللسان العربى خاصًّا بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ يشيع فى شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هيأ لتعرُّبها نظام الولاء الذى أخذ به العرب أنفسهم فى فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب فى ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام من وراءه من الشعوب المفتوحة كى يدخلوا فى هذا الولاء وينتسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية .

وبمجرد أن تمَّت الفتوح أخذ العرب والموالى جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى فى المدن التى اختطها الفاتحون لمعسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط : فإن العرب اختلطوا فيها وفى غيرها من المدن بالأجانب الذين قدَّموا لهم خدماتهم فى الحِرَف والزراعة والتجارة ، وغَضَّت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدموهم فى حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إمائهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسَّرارى والجوارى . وظهر أثر ذلك فى أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد برز بينهم كثيرون لأمهات أجنبيات ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالى زواجاً وولاء لم يكن تأثُّر الموالى به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا فى التعرُّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة فى المغرب والأندلس اللاتينية وفى مصر والشام اليونانية والسريانية وفى العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماكنها من ألسنة أصحابها لتحل محلها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عشية وضحاها ، فقد أخذ التعرب يتدرج شيئاً فشيئاً . وفى أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن مُحيت إلى حد كبير — بفضل القرآن الكريم ولغته القرشية — فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هى اللغة العامة التى يتخاطب بها العرب مضريين ويمنيين فى كل مكان ، وإن ظلت من الماضى آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالى تطوران فى لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسطة ، حتى يفهم عنهم الموالى ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفى أثناء ذلك كانوا يستعيرون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة فى الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعربونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية . ويعرض علينا الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التى جرت على ألسنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فمن ذلك أنهم كانوا يسمون المسحاة « بال » والحوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملتقى أربع طرق

«جهارسوك»، وكانوا يسمون السوق «وازار» والقِثّاء «خياراً» والمجذوم «وَيْذى[١]» وكانت الفارسية شائعة فى البصرة ويتضح ذلك فى دخول مقطع «آن» الفارسى على كثير من أسماء القطائع مثل «عمران[٢]» لعمر بن عبيد الله بن معمر و «سُوَيْدان» لسويد بن منجوف السَّدوسى و «خالدان» لخالد بن أسيد و «مهلّبان» لآل المهلب. ومما يدلى على شيوع الفارسية فى البصرة ما يُرْوَى من أن يزيد بن مفرِّغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد فى ولايته عليها سقاه نبيذاً وحمله على دابة فى ثياب مهلهلة مقروناً إلى هِرَّة وخنزير، وأمر أن يطاف به فى الشوارع على هذه الصورة المُزْرية، فتجمّع حوله الصغار يسألونه بالفارسية إين جيست؟ أى ما هذا، فكان يجيبهم بلسانهم[٣]:

آبَ اسْتْ نَبِيذ اسْت . عصـارات زبيبَ اسْت

سُمَيَّهْ روسبىَ است

واست: من أفعال الكينونة، وآب: ماء. وسمية: أم زياد. وروسبى: الخنزيرة. أى هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسمية الخنزيرة، ويريد البَغِىّ. ويلاحظ الباحث أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة فى المدينة مع من نزلها من الفرس، ولذلك سمو البطيخ «الخِرْبز» والسميط «الرزدق»، وطعام المصوص وهو لحم ينقع بالخردل «المزور» والشطرنج «الإشترنج» وغير ذلك من الأسماء[٤].

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة اليومية، فقد تعداها أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجرير اللذين عاشا فى البصرة، إذ نجد أولهما يستخدم كلمة «البيذق والبياذق» المعروفة فى لعبة الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يصيب البَيْذق فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً، يقول مخاطباً جريراً[٥]:

---

(١) البيان والتبيين ١/١٩ وما بعدها.

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٣ وما بعدها.

(٣) البيان والتبيين ١/١٤٣.

(٤) البيان والتبيين ١/١٩.

(٥) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفن) ص ٧٨٧.

ونحن إذا عَدَّتْ تميمٌ قديمها ... مكانُ النَّواصى من وجوه السوابق
منعتُك ميراث الملوك وتاجهم ... وأنت لدرعى بَيْذَقٌ فى البياذق

فهو يجعله بيذقاً غير متقدم . ونرى جريراً يستخدم فى إحدى أهاجيه للفرزدق كلمة « الرَّوْذق » الفارسية بمعنى الحمل المنتوف وبره بعد سلقه، ويستخدم معها كلمة « البيذق » الفارسية للدلالة على الشيء التافه ، إذ يقول فى جِعْثِنَ أخت الفرزدق[1] :

لا خير فى غضب الفرزدق بعدما ... سلخوا عجانكِ سَلْخَ جلد الرَّوْذقِ
سبعون والوُصَفاء مهـر بناتنا ... إذ مَهْرُ جِعْثِنَ مثل حُرِّ البَيْذَق

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا كان ابن مفرِّغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه شعراء من الزنج مثل رباح[2] ومن الهند مثل أبى عطاء السندى .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لُكْنات هؤلاء الموالى ، فإن كثيرين منهم كانوا يجدون عسراً فى نطق بعض حروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ فى البيان والتبيين صوراً مما كان يجرى على ألسنة عامتهم من هذه اللُّكْنات ، حتى لتُفْسِد العبارة العربية إفساداً ، فمن ذلك أن الحجاج سأل نخاساً : أتبيع الدواب المعيبة من جُنْد السلطان؟ فأجابه : « شر يكاننا فى هوازها وشر يكاننا فى مدايتها ، وكما تجىء تكون » . ولم يفهم الحجاج ما يقول فقال له ويلك ما تعنى؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : « شر كاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب ، فنحن نبيعها على وجوهها[3] »

ومن ذلك أن أمَّ ولدٍ لجرير قالت لبعض ولدها : « وقع الحُرْدان فى عِجان أمكم »

---

(١) النقائض ص ٨٤٥ .
(٢) انظر رسالة تفضيل السودان على البيضان للجاحظ وأمالى ابن الشجرى (طبعة كرنكو) ١/١٩٤ وقد اختلف فى اسمه هل هو رباح أو رياح أو سنج بن رباح . انظر العربية ليوهان فك هامش ص ٣٦ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٦٠ .

فأبدلت الذال من الجرْذان دالاً ونطقت العجين عجاناً. وقال بعض الشعراء فى أم ولد له يذكر لُكْنتها :

أَوَّلُ ما أسمع منها فى السَّحَرْ تذكيرُها الأُنثى وتأْنيثُ الذكرْ

والسوءة السوءاءُ فى ذكر القمر

إذ كانت تنطقه القمر[١]. وكانت آثار من هذه اللكنات تجْرى على ألسنة فصحاء الموالى ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربى ، حتى أصبحوا لا يقلون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الخُلَّص، نذكر من بينهم زياداً الأعجم، وكان يرتضخ لُكْنة فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين همزة والطاء تاء والسين شيناً[٢]، ويروى أنه أنشد المهلب فى بعض مديحه :

فَتًى زاده السُّلطان فى الوُدِّ رفعةً إذا غَيَّر السلطانُ كل خليلِ

فقال : « زاده الشلتان[٣] » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً ينشد شعره[٤]. وكان أبو عطاء السندى وهو ممن عاشوا فى العصرين : الأموى والعباسى يبدل الحاء هاء والجيم زايا والشين سينا ، ودفعه ذلك أن يستوهب ممدوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبى غلاماً ينشد شعره[٥].

ولم تجْر هذه اللكنات على ألسنة الموالى وحدهم ، فقد تسربت منها بعض الآثار إلى ألسنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ، على نحو ما يحدثنا الرواة عن عبيد الله بن زياد والى العراق ، إذ استبقاه أبوه مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شيرويه » فكان يبدل الحاء هاء والقاف كافا ، فإذا قال : أحَرَورىٌّ أنت ؟ قال : أهرورى أنت؟ وإذا قال قلت لك قال : كلت لك[٦]. وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سُلُّوا سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجوه بقوله[٧] :

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٧٣ .
(٢) البيان والتبيين ١ / ٧١ والأغانى (طبعة الساسى) ١٤ / ٩٩ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ٧١ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٣٦٥ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ٨٩ وراجع الأغانى (طبعة الساسى) ١٦ / ٧٩ .
(٥) الشعر والشعراء ٢ / ٧٠ .
(٦) البيان والتبيين ١ / ٢ .
(٧) البيان والتبيين ٢ / ٢١٠ .

ويوم فتحتَ سيفك من بعيدٍ أضعْتَ وكلُّ أمـرك للضَّياع

ويُرْوَى أن أباه زياداً أوفده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكْنته: «إن ابنك كما وصفت ولكن قَوِّم من لسانه»[١].

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك فى مراكز الشعر الأخرى بالأقطار المفتوحة، ولكن لا بد أن ما كان يحدث فى العراق من هذه اللكنات كان يحدث فى المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله. واقترنَ بهذه اللكنات لحنٌ كثير بسبب ضعف السلائق من مثل قول زياد الأعجم:

إذا قلتَ قد أقبلتْ أدبرتْ كمن ليس غادٍ ولا رائحُ

وكان القياس أن يقول: «ليس غادياً ولا رائحاً[٢]». ويظهر أن اللحن شاع على ألسنة بعض العرب أنفسهم، ومن ثم عُنِى خلفاء بنى أمية بتأديب أولادهم ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه، ومما يروون من لحنه أنه نطق يوماً كلمة «لصّ» بضم اللام، وأنه قال لأبيه حين قُتل أبو فديك الخارجى: «يا أمير المؤمنين قُتل أبى فديك» وقال مرة: «يا غلام رُدَّ الفرسان الصادّان عن الميدان[٣]».

واتسع هذا اللحن فى الكوفة والبصرة حتى لترى الحجاج المعروف بفصاحته ولَسَنه ونشأته فى البادية يخاف على نفسه منه، فيسأل ابن يَعْمر: أتسمعنى ألحن؟ فقال: الأمير أفصحُ الناس، فقال الحجاج: عزمتُ عليك أتسمعنى ألحن؟ قال: حرفاً، فقال الحجاج: أين؟ قال: فى القرآن، فقال: ذلك أشنع له، فما هو؟ قال ابن يعمر: تقول: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب. وكأنه لما طال عليه الكلام نسى ما ابتدأ به. فقال الحجاج: لا جرم لا تسمع لى لحناً أبداً[٤]. وكان خالد القسرى مع ما اشتهر به من فصاحته لحّاناً، ويُرْوَى

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١٠.
(٢) الشعر والشعراء ١/ ٣٩٨.
(٣) البيان والتبيين ٢/ ٢٠٤ وما بعدها.
(٤) ابن سلام ص ١٣.

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبيُّون فإنا رمضانيُّون » . وفيه يقول يحيى بن نوفل [١] :

وألحنُ الناسِ كلُّ الناسِ قاطبةً وكان يُولَعُ بالتَّشْديق فى الخُطَبِ

ويَرْوى الرواة أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلا إلى بلال بن أبى بُرْدة والى البصرة لخالد القسرى فجعل عيسى يتتبَّع الإعراب وجعل الرجل ينظر إليه ، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقِّك هذا أحبُّ إليه من ترك الإعراب فلا تتشاغلْ به واقصد لحجتك [٢] ، ومن عُرف فى خراسان باللحن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم [٣] ، وكان سليمان بن عبد الملك فى دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخِّم اللحن كما يفخم نافع بن جبير الإعراب [٤] .

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرَّد جماعة من العلماء وخاصة فى البصرة لتنقية العربية مما دخلها من فساد . وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض لفصحاء الشعراء ينقدهم نقداً نحوياً ، حتى لو اضطرهم إلى ذلك القافية ، واشتهر فى هذا الجانب عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى بمراجعاته للفرزدق فيما كان يُحْدثه أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجعه حتى قال فيه بيته المأثور :

فلو كان عبد الله مولَى هجوتُه ولكنَّ عبد الله مَوْلى مواليا

فتعرض له ابن أبى إسحق قائلا : كان يَحْسن أن تقول : مولى موال [٥] . على أن الفرزدق لم يُعْرَفْ بضعف فى الحِس اللغوى لأنه نشأ فى البادية ، إنما الذى عُرف بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا فى المدن مثل الطِّرِمَّاح والكُمَيْت . ويسجِّل الرواة على الطرماح أنه كان يستخدم الألفاظ البدوية الغريبة فى شعره استخداماً غير دقيق [٦] وأنه كان يكلَّف بإدخال ألفاظ النبط الآراميين فى شعره [٧] . ولم

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢١٦ .
(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢١٨ .
(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢١٩ .
(٤) البيان والتبيين ٢ / ٢١٧ .
(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .
(٦) الموشح ص ٢٠٩ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ / ٣٦ .
(٧) الموشح ص ٢٠٨ .

يكن الكميت يسلك فى أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يشرك الطرماح فى ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية[١] ، ويُروَى أنه أنشد ذا الرُّمّة يوماً بعض شعره ، وسأله رأيه فيه ، فقال له : « إنك لتقول قولاً ما يقدر إنسان أن يقول لك فيه أصبتَ أو أخطأتَ ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقتنع الكميت بوجهة نظره واعتلّ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، إنما يصف شيئاً وُصف له[٢] » ، ولذلك كان اللغويون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرماح فى اللغة[٣] .

وعلى هذا النحو أخذت السلائق تضعف حتى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم فى الحضر ولم يتغذّوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسي حتى يضع اللغويون خطًّا فاصلا بين الشعر القديم الجاهلى والإسلامى والشعر العباسي الحديث الذى سموه شعر المولّدين وهو خط فصلوا به فصلا تامًّا بين الشعر الفصيح الذى يمكن الاستشهاد به فى اللغة والشعر الذى لا يُعتدّ به فى هذا الاستشهاد . وقد اعتدّوا بشعر الجاهليين والمخضرمين دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نفراً من العرب أمثال الطرماح والكميت متخذين النشأة فى الحضر مقياساً لمعرفة المشوب والمصفّى والمعيب والسليم .

٢

الإسلام وأثره فى موضوعات الشعر

طبيعى أن يؤثر الإسلام فى موضوعات الشعر الأموى ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يذيعون فى مختلف الأجواء عِبَر وعظهم ونُسكهم ، سواء فى المساجد الجامعة أو فى مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدّثون الناس عن البعث

---

(١) الموشح ص ١٩٢ والأغانى (دار الكتب) ١٢/٣٦ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٥/١٢٠ .
(٣) الموشح ص ١٩١ ، ٢٠٨ .

ببعض القول ، فهجاه حاجب ، وبادله الهجاء ، ولقّبه فى هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسمّاه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول فى بعض أهاجيه :

أحاجبُ ! لولا أن أصْلك زَيِفٌ ... وأنك مطبوعٌ على اللؤم والكفرِ
وأنى لو أكثرتُ فيك مقصِّرٌ ... رميتُك رمياً لا يَبِيد يَدَ الدهر

وله أشعار كثيرة فى مدح المهالبة ورثائهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل فى معاركه مع بنى أمية طويلا ، وهو فى مديحه ورثائه لهم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قويًّا . وأكبر الظن أنه توفى قبل نهاية العقد الأول من القرن الثانى .

٣

شعراء النقائض

هيأ استعار العصبيات فى البصرة وخراسان لاشتعال الهجاء طوال هذا العصر ، كما هيأ لنمو فن النقائض نموًّا واسعاً ، وقد أعدّت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية . أما العوامل الاجتماعية فمردّها إلى حاجة المجتمع العربى خاصة فى البصرة إلى ضرب من الملاهى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلى وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلا نهضت — كما رأينا فى غير هذا الموضع — دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملاهى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم . وقد رأينا المدينة ومكة تُقبلان على الغناء وتجدان فيه حاجة أهلهما من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالا شديداً . حينئذ انبرى الهجّاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاعرُ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد فى الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته وروِيِّها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعانى ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمَّع الناس من حواليهما يصفِّقون ويهتفون ويصيحون[١] . وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هى سدُّ حاجة الجماعة الحديثة فى البصرة إلى ضرب من ضروب الملاهى .

وتدخلت فى صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردُّها إلى نمو العقل العربى ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة فى النِّحَل السياسية والعقيدية وفى الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون فى حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث فى أدلته ليوثِّقها وفى أدلة خصمه لينقضها دليلا دليلا ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهى مناظرات كانت تتخذ سوق المِرْبَد مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحلَّقون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهمُّ من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان[٢] . وكان أولهما من عشيرة كُلَيْب اليربوعية ، والثانى من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً فى عشيرتيهما من جهة وفى قيس وتميم من جهة ثانية ، فإن ظروفا كثيرة جعلت جريراً يقف فى صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هوَى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشعىٌّ الزبيرَ بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجَمَل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن لجأت النَّوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجوه[٣] .

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١٠/١٥٢ وطبعة ساسى ١٩/١٠٣ .

(٢) شرح أبو عبيدة نقائض الشاعرين ، وحقق الشرح ونشره بيفن سنة ١٩٠٥ فى ثلاثة أجزاء ضخمة . ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق الصاوى سنة ١٩٣٥ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ٩/٣٢٤ وما بعدها

ونحن لا نصل إلى حكم القُباع والى ابن الزبير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين فى تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجدهما فى نقيضتين لهما يُعْلنان نكيرهما على هذا الوالى ، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل[1] . ويقول الرواة إن سبب التحامهما أن شاعراً من عشيرة سليط اليربوعية يسمى غسَّاناً هجا جريرا فسقط عليه بهجاء مرير ، فاستغاث منه بالبَعيث[2] المُجاشعى ، فأغاثه بمثل قوله فى جرير وعشيرته :

أترجو كُلَيْبٌ أن يجىء حديثها ... بخيرٍ وقد أعْيَا كليبا قديمُها

فانصبَّ جرير عليه وعلى مجاشع شُواظ نار ، وأفحش بنسائهم إفحاشاً شديداً جعلهن يستغثن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه فى الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فُقَيْم التميميين معروفة ، ووَجَدْنه عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة . فما زلن به يستثرنه قائلات إن جريراً هتك عورات نسائك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظنه ، فهجا جريرا ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتيهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشاعرين . وكان كثير من الشعراء ينزلق فيها متحيزا للفرزدق على جرير ، فكان يَشْوى وجوههم ووجوه عشائرهم بنيران هجائه ، فينسحبون منهزمين على شاكلة الرّاعى[3] ، وكان من سوء حظه أن فضَّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبيَّ دنا الرَّواحُ فسِيرا ... غلب الفرزدقُ فى الهجاءِ جريرا

وهجاه بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاه بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعِدُّها ، حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

---

(١) شرح النقائض لأبى عبيدة (طبعة بيفن) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف للبلاذرى ٥/٢٧٨ .

(٢) انظر فى ترجمة البعيث ابن سلام ص ٣٢٦ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٤٧٢ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن عساكر ٥/١٢٢ ومعجم الأدباء ١١/٥٢ .

(٣) انظر فى ترجمة الراعى ابن سلام ص ٣٧٢ ، ٤٣٤ وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٣٧٧ وأغانى (ساسى) ٢٠/١٦٨ وفى ترجمة جرير، وفى الخزانة ١/٥٠٢ والموشح ص ١٥٧

بالمِرْبَد ، وكان له مجلس ، وللفرزدق مجلس ، فدعا بدُهن (طيب) فادَّهن وكفَّ[1] رأسه ، وكان حسَنَ الشَّعْر ، ثم قال : يا غلام أسرِجْ لى ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق والراعى ، فتوجه للراعى يقول له : أبَعشَك نِسْوتك تَكسبهن المال بالعراق ، أما والذى نفسُ جرير بيده لترجعن إليهن بِمَيْر[2] يسوءهن ولا يسرُّهن[3] ، ثم اندفع فأنشد قصيدته ، وفيها يقول للراعى بيته المشهور :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا

ولم يلبث الراعى أن انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الخِزْىُ والصَّغار ، واتجه توا إلى منازل قبيلته نمير فى نجد ، وهو يردِّد : فضَحنا والله جرير ، وهم يقولون : هذا شؤمك .

وإنما أطلنا فى هذا الخبر لنعطى صورة عن شاعر النقائض فى المِرْبَد ، وكيف كان يحتفل بثيابه وزينته ، وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصياح والتهليل ، وأيضاً لندل على قدرة جرير فى الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال إنه أسقط فى الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفا ، كانت أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، وممن ثبت له قليلا ثم اندحر عمر بن لَجأ التَّيْمِىُّ[4] ، وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريدُ
ويُقْضَى الأمر حين تغيب تَيْمٌ ولا يُستأذَنون وهم شهود
لئامُ العالمين كرامُ تَيْمٍ وسَيِّدهم – وإن رغموا – مَسُودُ

---

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .
(٣) انظر فى هذا الخبر أغانى (دار الكتب) ٨/٢٩ .
(٤) انظر فى ترجمة عمر بن لجأ ابن سلام ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٢/٦٦٢ والاشتقاق ص ١٨٥ والخزانة ١/٣٥٩ وفهرس الجزء الثامن من الأغانى والموشح ص ١٢٧ وما بعدها .

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تَغْلب. وسنعرض لذلك عما قليل . وفى الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه ، إذ كان على شاكلته يعرف كيف يَبْرى نبال الهجاء المصمية ، وقد تبادل معه نقائض كثيرة ، وظلا سنين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يعترف من نبع لا ينضب فى نفسه .

ومن يرجع إلى شرح أبى عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب ، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التى يتحدثان عنها دون أن يذكراه . فجرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس ، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم ، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل . وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب ، بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام ، وخاصة ما كان بين تميم وقيس فى خراسان ، إذ دفعت تميما الحوادثُ هناك لكى تنكِّل بعبد الله بن خازم السُّلَمى والى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب ، كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلى حين ثار على سليمان ابن عبد الملك .

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية فى الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ فى نقائضهما ، بحيث تُعَدُّ وثائق تاريخية طريفة . وكان ذلك من غير شك يصعِّب عمل النقيضة ، لأنها لم تكن هجاء فحسب ، بل كانت أيضا دراسة ، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التى كان يحامى عنها فحسب ، بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التى يهجوها ليقف على الأيام التى انهزمت فيها ، حتى ينشر مخازيها فى الناس .

وواضح أن أساس الهجاء فى النقائض كان يقوم على العصبيات القبلية ، وقد مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن هذه العصبيات اختلطت فى العصر الأموى بالسياسة ، وهيأ ذلك النقيضة لأن تخوض فى مديح الخلفاء والولاة ، بحيث أصبحت لا تحتوى فخراً وهجاء فحسب ، بل تحتوى كذلك مديحاً ، كما تحتوى نسيباً وغزلا . والشاعر فى كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام فى معانيه ، كما يستلهم قدرة العقل العربى الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل ، وقدرته أيضاً على التوليد فى المعانى . وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجرير عملا فنيًّا معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعانى ، ونحن نختار للفرزدق نقيضته :

تحنُّ بزوراءِ المدينة ناقتى حَنِينَ عَجُولٍ تبتغى البَوَّ رائم (١)

وهو فى غزلها يستشعر الإسلام خائفاً وجلا من يوم الحساب . ونراه يعتذر مما قد بَدَر منه من أشعار تصوِّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولستَ بمأْخوذ بلَغْوٍ تقوله إذا لم تعمَّدْ عاقدات العزائمِ

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللَّغْو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان) ويمضى فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جُعلتَ لأَهل الأَرض نورًا ورحمةً وعَدْلاً وغَيْث المُغْبَراتِ القواتمِ (٢)

وكان الحجاج لجّ فى البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفِّى قبل خلافته ، فنكّل بمن لجُّوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرًّا صوَّره فيه طاغياً باغياً ، لقى جزاء بغيه وطغيانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب الفيل إذ ترميهم طير أبابيل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . وممن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلى وثورته على سليمان بخراسان ، وافتخر بأن تميما بزعامة وكيع بن أبى سَوُد هى التى قضت عليه . ومضى يكيل لقيس وشاعرها جرير هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس فى الجزيرة . ويتجسَّم له جرير كأنه قيسٌ نفسها فيقول :

---

(١) البو : جلد ولد الناقة يحشى ، ويعرض على أمه فترأمه أى تحن إليه ظنا منها أنه ولدها حقيقة .

(٢) المغبرات القواتم : السنوات المجدبة .

وألقيتَ من كفَّيْك حبـــل جماعةٍ وطاعةَ مهدىٍّ شديد النَّقائم[1]

ويسمى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فيهم بسيف سليمان الذى ضرب الله به مشركى قريش فى يوم بدر . ويعير جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُوِّ السيف فى يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخرا عارماً بتميم وأيامها فى الجاهلية وأمجادها العريقة فى الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المراغة (الأتان) فهم ليسوا فرسانا ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبنى وكانت كليبٌ مَدْرَجاً للشتائم

ودائماً يصف كليبَ باللؤم والدناءة ، ويُفْحش فى النَّيْل من نسائها ومن أم جرير خاصة ، ولا يترك مذمة إلا ويَلْفح بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بنى كُلَيْبٍ نجومُ الليل ما وضحتْ لسارِ

ولو يُرْمَى بلؤمهمُ نهـارٌ لدنَّس لؤمُهم وضَحَ النهارِ

وما يغدو عزيزُ بنى كليبٍ ليطلب حاجـةً إلا بِجـارِ

ووقف جرير فى الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التى لخصناها آنفاً ، فمضى بعد غزلها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذى اشتهر به ، يقول :

لقد ولدتْ أمّ الفرزدق فاجرا وجاءت بِوَزْوَازٍ قصير القوائم[2]

وما كانَ جارٌ للفرزدق مسلم ليأمن قِرْدًا لَيْله غير نائم

أتيتَ حدود الله مذ أنت يافع وشِبْتَ فما ينهاك شَيْبُ اللَّهازم[3]

تتبَّع فى المأخور كلَّ مريبة ولستَ بأهل المُحْصَنات الكرائم[4]

---

(١) المهدى هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه بالمهدى كما يلقب الشيعة أئمتهم .

(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .

(٣) اللهازم : أصول اللحية .

(٤) المحصنات : العفيفات .

ومضى يتصِمُه بأخته جِعْثِن. وكانت سيدة طاهرة، ولكنه الهجاء. كما وصمه بأنه قَيْن ابن قَيْن: فهو ليس شريف الأصل كما يزعم. وكان لجده قيون، فرمى جدَّته بهم، كى يغيظه ويُحفظه. ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه فى أخته، وأيضاً فإنه كان يردد كما فى هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حق جواره، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره، كل ذلك ليضرب من حواليه نطاقاً من الذل. وكان الذى قتل قتيبة بن مسلم الباهلى وكيعُ بن أبى سَوُد اليربوعى. فهو ليس مجاشعيا؛ إنما هو من قوم جرير، ومن ثَمَّ يقول له:

فَغَيْرُك أَدَّى للخليفـــة عَهْده ... وغَيْرُك جلَّى عن وجوه الأَهاتِمِ (١)
فإن وكيعاً حين خارتْ مجاشعٌ ... كفى شَعْبَ صَدْعِ الفتنة المتفاقم
لقد كنت فيها يا فرزدقُ تابعا ... وريشُ الذُّنابى تابعٌ للقوادمِ (٢)

وبذلك استلّ منه الفخر بحادثة وكيع. وجعلها لقومه اليربوعيين، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق. وأخذ يفخر بباهلة قبيلة قُتَيبة القيسية وأيامها فى الجاهلية. وعمَّم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب فى الجزيرة. وعيرَّ تغلب بمسيحيتها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين. وكان عمر قَبِلَ منها أن تدفع صدقة كالعرب لا جزية، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمّى ما تدفعه جزية، ثَلْبا وتعييراً. ويعود إلى أيام قيس فى الجاهلية، يعددها. ويعدد مالها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم.

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك فى أثناء حجّة له.. وجاءوه بأسرى من الروم. فأمر بجزّ حلاقمهم. وأُعْطى لبعض من صحبوه أسياف يضربون بها رءوس هؤلاء الروم. وعرف بعض القيسيين أن سيُطْلب إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم، فدَسُّوا له سيفاً كليلا لا يقطع. فلما ضرب به لم يصنع شيئاً فى الرومىّ. وانتهزها جرير: فكان يكرر له هذا

(١) الأهاتم: من أشراف تميم
(٢) القوادم: الريشات الطويلة فى مقدمة جناح الطائر، والذنابى ما خلفها من ريشات قصيرة.

الحادث ليضحك أهل المِرْبد عليه، بما يصور من خَوَره وجُبْنه، ومن ثَمَّ يقول له الفرزدق فى نقيضته السالفة :

فهل ضربةُ الرومىِّ جاعلةٌ لكم ... أَبًا عن كليبٍ أو أَبا مثل دارمِ

ونرى جريرا يردُّ عليه بمثل قوله :

بسيفِ أبى رَغْوَان سيف مجاشعٍ ... ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن ظالمِ (١)

ضربتَ به عند الإمام فأُرْعِشَتْ ... يداك وقالوا مُحْدَث غير صارم

ضربتَ به عُرْقوبَ ذاب بصَوْأَرٍ ... ولا تضربون البَيْضَ تحت الغمائم (٢)

عنيفٌ بهزِّ السيف قَيْنُ مجاشعٍ ... رفيقٌ بأَخْرات الفئوس الكَرازم (٣)

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صَوَّار، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فتجلَّل له جرير هذه المكرمة بعار الجبن، فأبوه وهو إنما يضربان بمثل هذا السيف الذى نبا فى يده، عراقيبَ الإبل لا صدور الفرسان. ويقول له إنك قَيْنٌ لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفزع وتهلع حين تمسك به، إنما تحسن الإمساك بالفئوس فهى صناعتك.

وواضح أن جريراً لم يقف بنبوِّ السيف فى يد الفرزدق ووَصْفِه بأنه قين ابن قين عند حد التَّثْلِيب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق. واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربىَّ عند جرير من قدرة على التوليد فى المعانى، كما نرى فى مثل قوله :

إذا آباؤنا وأبوك عُدُّوا ... أبانَ المُقْرِفاتُ من العِرابِ (٤)

فأَورثك العَلاةَ وأورثونا ... رباطَ الخيل أفنيةَ القِبابِ (٥)

---

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المرى أحد فرسان قيس فى الجاهلية.

(٢) الناب : الناقة المسنة. البيض : خوذ المحاربين. الغمائم : أصوات الجيوش، جمع غمغمة.

(٣) أخرات : جمع خرت وهو الثقب فى أعلى الفأس. الكرازم : الفئوس ضخمة الرءوس.

(٤) المقرفات : الهجينات التى لا يخلص نسبها. العراب : الأصيلات فى العروبة.

(٥) العلاة : سندان الحداد.

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القين لا قينَ مثله ... لفَطْحِ المساحى أو لِجَدْلِ الأَداهِمِ (١)

وقوله :

ورقِّع لجَدِّك أكْيارَهُ ... وأَصلحْ متاعك لا تُفْسِدِ

وأَدْنِ العَلاة وأَدْنِ القَدومَ ... ووسِّع لكِيرك فى المَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شىء هذا العنصرَ من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصرانى ضده ، فأخذ يُضْحك عليه سامعيه فى المِرْبَد بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهمـا ... على دين نصرانيَّةٍ لتنصَّرا

وقوله :

يحبُّك يوم عيدهمُ النَّصارى ... ويومَ السَّبْت شِيعتُك اليهودُ

ولعل فى هذا مايدل أكبر الدلالة على أن النقائض عند الشاعرين الكبيرين : جرير والفرزدق إنما كان يُقْصَدُ بها قبل كل شىء إلى تسلية الجماعة العاطلة التى تكونت فى المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ، ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهى مناظرة كانت تقاطَع بالتهليل والتصفيق . ومن ثم لم تأخذ شكلا جاداً من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلا من هذه الأشكال لَشُهِرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق فى قَذْف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم . بل أصبحت فنًّا يُقْصَدُ به إلى إمتاع الناس فى البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين ، ليتناشدا أمامهم ابتغاء اللهو والتسلية (٢) . وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متوادَّين لا متخاصمين متباغضين . فهما يجتمعان

---

(١) فطح المساحى : تسويتها وتعريضها وهو القيد .
الجدل أيضاً : التسوية . الأداهم : جمع أدهم ،

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٧ ، ٧٦ .

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سوياً ، وإذا نزلت بأحدهما شدة أو حزَبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يدَ العون ، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة تشفَّع له الفرزدق [١] ، وإذا هجا الفرزدق خالدا القَسْرِيَّ وحبسه تشفع له جرير عنده [٢] ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه ويطلقه [٣] . ونراه حين يُلَبِّي القدر قبله يرثيه رثاء حارًّا بمثل قوله :

ولا حملتْ بعد الفرزدق حُـرَّة ... ولا ذاتُ حَمْلٍ من نِفاسٍ تعلَّتِ [٤]

هو الوافد المَحْبُوُّ والراتق الثَّأى ... إذا النَّعْل يوما بالعشيرة زلَّتِ [٥]

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر فى عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر فى عصرنا أصحاب الصحافة الحزبية فى آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم فى أثناء ذلك صداقتهم . وواضح مما قدمنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة إلى ما يسدّ فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما كانوا يبغون من ذلك ، إذ تحولا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة التى استضاءا فيهـا بقدرة العقل العربى الحديثـة على الجدال والتوليـد فى المعانى . وارجعْ إلى أى فكرة عندهما كفكرة أن الفرزدق قَيْسِىّ أو فكرة ذل بنى كليب فسترى كلا منهما يعرض الفكرة التى يقف عندها فى صور كثيرة ، إذ ما يزال يولِّد فيها ، وما يزال يستنبط ويفرِّع ويشعِّب ، وكأنما يريد أن لا يُبْقى فيها بقية . وانظر فى أى نقيضة يردّ بها أحدهما على خصمه ، فستراه يقف بإزاء كل بيت قاله صاحبه ويردّ عليه صُنْع المتناظرين من أهل اللَّدَد والخصومة فى المسائل العقيدية ، فهو يحاول جاهداً أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه فى هجائه وأن ينقضها نقضاً . ومن ثَمَّ كنا نرى أن نقائض جرير والفرزدق فن جديد ، وهى ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقتها مقدمات فى العصور

---

(١) أغانى (ساسى) ١٩/٢٨ .
(٢) أغانى ١٩/٤٢ .
(٣) الديوان ص ١٧٨ .
(٤) تعلت : تطهرت .
(٥) الثأى : الفساد والضعف . زلت : عثرت .

السالفة ، ولكنها استوت عند الشاعرين فى صورة جديدة ، وهى صورة معقدة ، إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع فى العصر من قدرة على الجدال والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة فى الهجاء القديم ، وهى ظاهرة التنديد على المهجو وقبيلته ، حتى تُضْحك المستمعين فى المربد ، وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصياح والصفير والتصفيق . ومن ثَمَّ لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك فى خصمه إلا أثاره ، كأن يقول الفرزدق فى جرير :

يُهْدِى الوعيدَ ولا يحوطُ حَرِيمَهُ ... كالكلب يَنْبَحُ من وراء الدار

أو يقول فى كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم ... وتنام أعينهم عن الأوتارِ (١)

أو يقول :

أتعدل أحسابا لئامًا أدقَّةً ... بأحسابنا إنى إلى الله راجعُ

وكان جرير يلقاه بمثل قوله :

زَعَم الفرزدق أن سيقتلُ مِرْبَعاً ... أَبْشِرْ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ

وقوله :

خذوا كُحْلا ومِجْمَرةً وعِطْـرا ... فلستم يا فرزدقُ بالرجالِ

وهو يتفوق على الفرزدق فى هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثم كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكاية .

وساقت الظروفُ الأخطلَ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميها المناضل عنها . وكان الأخطل — كما قدمنا — يهاجى قيساً فى الحروب التى

(١) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر .

نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مَرْج راهط سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردُّون عليه ، فيُفحمهم بأهاجيه المقذعة .

وشاءت المقادير أن يلمَّ بالعراق فى ولاية بشر بن مروان ، فاصطدم هناك بجرير ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه [١] وطبيعى أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجلّب عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفنى من حيث هو ، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشاعرين . وإذا هما يخلّفان طائفة كبيرة من النقائض ، جمعها أبو تمام [٢] . وقد ظلا ينظمانها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفى الأخطل حوالى سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر فى هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر مَنْ هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر مَنْ مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم ، فأفحموهم ، وسكت عنهم بَعْضُ مَنْ هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون ، جرير والفرزدق والأخطل » [٣]

وجميع الظواهر التى لاحظناها فى نقائض جرير والفرزدق نجدها مجسمة فى نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعْنَيان بتاريخ القبائل فى الجاهلية والإسلام ، وهما يخلطان العصبيات بالسياسة . وقد ساقت الظروف تغلب لتقف فى صفوف بنى أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، كما ساقت الأخطل التغلبى ليكون شاعر بنى أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق فى الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خَفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير ، ونراه يستهلها بالنسيب ووصف حزنه لفراق أحبته ، وهو يُتْبعهم طرفه مولّها ، حتى ليشبّه نفسه بالسكران المنتشى ، ويصف الخمر وصفاً قصيراً ، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدق يلمّان به ، لتحريم الإسلام للخمر ، وكان الأخطل نصرانيا ، فانفرد بهذا الموضوع فى شعره .

---

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغانى ٨/٣١٥ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .

(٢) نشر صاحبى هذه النقائض فى بيروت سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة فى الآستانة ، وقد اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض الشاعرين ، ومن الممكن أن يستخرج من ديوانيهما نقائض أخرى لهما .

(٣) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

على أنه لم يُطْنب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف ظُعُن الحبيبة . مستلهماً زهيراً فى هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء ، وإقبالهن على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فمدحه من حيث هو خليفة ، منوهاً بجوده ، ومشبهاً له فى هذا الجود بالفرات ، وهى صورة يتأثر فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر فى معلقته . ويمضى فيفصل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته فى قيادة الجيوش والظفر بخصومه . ويمدح أسرته الأموية منوها بشرفها العريق وأنفتها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه فى صفوف بنى أمية ونضاله أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس . وكان قد دخل فى طاعة عبد الملك ، وكأنه يبغى أن يحفظه عليه وعلى قبيلته ، يقول :

بنى أُميةَ إنى ناصحٌ لكمُ ... فلا يبيتنَّ فيكم آمنا زُفَرُ

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس فى حروبهما بالجزيرة . ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس فى طاعة بنى أمية ! وقد مرّ بنا أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحَشَّاك التى قتل فيها فارسها عمير بن الحُباب وأن زُفَر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب ، لا قهراً من تغلب ، ولكن بُعْدَ نظر . ومضى الأخطل يهجو قيسا حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب ، فأقذع فى هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُلَيْبُ بن يربوعٍ فليس لهم ... عند التفارط إيراد ولا صَدَرُ (١)

مخلَّفون ويقضى الناسُ أمرهمُ ... وهمُ بغيبٍ وفى عمياءَ ما شعروا (٢)

ملطَّمون بأعْقار الحِياض فما ... ينفكُّ من دارمىٍّ فيهمُ أَثَرُ (٣)

قومٌ أنابتْ إليهم كلُّ مخزيةٍ ... وكل فاحشة سُبَّتْ بها مُضَرُ (٤)

على العِيارات هدَّاجون قد بلغتْ ... نَجْرَانَ أو حُدِّثَتْ سَوْءاتهم هَجَرُ (٥)

---

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ، والإيراد : ورود الماء . والصدر : الصدور عنه .

(٢) يريد أنهم لا يستشارون ولا يعبأ بهم .

(٣) يقول إنهم يُلْطَمون حيث يكونون فى مؤخرات الحياض ، تلطمهم دارم عشيرة الفرزدق لعزتها وشرفها .

(٤) أنابت : رجعت وتناهت .

(٥) العيارات : جمع عير وهو الحمار ، يهجو بأنهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل . الهدج : تقارب الخطو .

ويأخذ فى هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقْذع فيه إقذاعاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل فى نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نِبال الذل والخسّة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس فى الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات ، وكثيراً ما يضمُّ إلى ذلك فخراً بأيامها فى الجاهلية ، كما يضم انتصارا للفرزدق وعشيرته دارم ، حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقضّ عليه كالصَّقْر الجارح ، فيضع تحت عينه مخازى تغلب وهزائمها فى حروبها مع قيس سواء فى يوم ماكسين الذى نكّل بها فيه عمير بن الحُباب أو فى يوم الكُحَيْل الذى نكل بها فيه زفر بن الحارث أو فى يوم البِشْر الذى نكّل بها فيه الجحّاف السُّلَمِىّ ، ضامًّا إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع فى الجاهلية وملججا فى هزائم تغلب قبل الإسلام ، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيضته السالفة :

نحن اجْتَبَيْنَا حياضَ المجد مُتْرَعَةً ... من حَوْمةٍ لم يخالط صَفْوها كدرُ (١)

لم يُخْزِ أولَ يربوعٍ فوارسُهم ... ولا يُقال لهم كلا إذا افتخروا

هل تعرفون بذى بَهْدَى فوارسَنا ... يوم الهُذَيْل بأيدى القوم مُقْتَسَرُ (٢)

خابتْ بنو تغلبٍ إذ ضلَّ فارطُهم ... حَوْضَ المكارم إن المجد مُبْتَدر (٣)

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا ... والسائلون بِظَهْرِ الغيب ما الخبر (٤)

الآكلون خبيثَ الزاد وحدهمُ ... والنازلون إذا واراهم الخَمِرُ (٥)

إنى رأيتكمُ والحقُّ مغضبةٌ ... تَخْزَوْنَ أن يُذْكَرَ الجحّاف أو زُفَرُ

كانتْ وقائعَ قلنا لن تُرَى أبدا ... من تغلبٍ بعدها عَيْنٌ ولا أثَر

حتى سمعتُ بخنزيرٍ يُصَفَّا جَزَعاً ... منهم فقلت أرى الأموات قد نُشِروا (٦)

---

(١) الحومة : معظم الماء .

(٢) ذو بهدى : يوم ليربوع على تغلب وفيه أسرت فارسها الهذيل بن هبيرة .

(٣) الفارط : الذى يتقدم قبل الإبل ليملأ لها الحوض .

(٤) يريد أنهم لا يعرفون الأمر إلا تدبراً ، فهم لا يُسْألون فى شىء وهم يَسْألون عن أخبار الناس.

(٥) الخمر : الموضع المستتر ، يقول إنهم ينزلون به فراراً من الضيفان والحقوق التى تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبُعثوا .

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنىً ، وقد لقبه فى البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصرانى ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً ، وهو يمضى فى نفس هذه النقيضة . فيقول .

رِجْسٌ يكون إذا صَلَّوْا : أذانُهم ... قَرْعُ النواقيسِ لا يدرون ما السُّوَرُ (١)

وما لتغلبَ إن عَدَّتْ مساعِيَها ... نجمٌ يضيءُ ولا شمسٌ ولا قَمَرُ

الضاحكين إلى الخنزير شهوتَه ... يا قُبِّحَتْ تلك أفواها إذا كَشروا (٢)

والمُقْرِعين على الخنزير مَيْسِرَهُمْ ... بئس الجَزورُ وبئس القوم إذ يسَروا (٣)

جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا ... وهل يضيرُ رسولَ الله أن كفروا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه انْجَحَرَ ، ولم يستطع له جوابا ، ومن ثم كان جرير يقول إننى أُعِنْت عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بمهارته فى التنديد على خصمه ، ومما يجمع الجانبين جميعاً قوله فى نقيضة ثانية :

قَبَح الإلهُ وجوه تغلبَ كلما ... شَبَحَ الحجيجُ وكبَّروا إهلالا (٤)

عَبدوا الصَّليب وكذَّبوا بمحمدٍ ... وبجَبْرَئيل وكذَّبوا ميكالا

المُعْرسين إذا انْتَشَوْا ببناتهم ... والدَّائبين إجارةً وسؤالا (٥)

والتغلبيُّ إذا تُنُبِّح للقِرَى ... حَكَّ استه وتمثَّلَ الأمثالا (٦)

ولو أنَّ تغلب جمَّعتْ أحسابها ... يوم التفاضل لم تزنْ مثقالا

نُبِّئْتُ تغلب يَنْكحون رِخالَهم ... وترى نساؤهم الحرام حلالا (٧)

لا تطلبنَّ خؤولةً فى تغلبٍ ... فالزَّنْجُ أكرمُ منهمُ أخوالا

---

(١) يريد سور القرآن الكريم .

(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير ضحكوا شهوة للحمه .

(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول إنهم نصارى ولذلك ييسرون ويقامرون على الخنزير .

(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال : رفع الصوت .

(٥) يقول إنهم بين أجير وسائل .

(٦) تنبح : كانوا ينبحون فى الظلام إذا ضلوا لترد عليهم كلاب الحى ، فيستهدون بها للقرى وهو الطعام والضيافة .

(٧) الرخال : أولاد الضأن .

ويقول فى نقيضة ثالثة :

إن الذى حَرم المكارم تَغْلبـا ... جعل الخلافة والنبوة فينـا
مُضَرٌ أَبى وأَبو الملوكِ فهل لكم ... يا خُزْرَ تغلبَ من أَبٍ كأَبِينا (١)
هذا ابنُ عَمىٍّ فى دمشقَ خليفةً ... لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قَطينا (٢)

وما زالا يتهاجيان حتى حضر الأخطلَ الموت ، فقيل له ألا توصى ؟ فقال تَوًّا :

أُوصِى الفرزدقَ عند المماتِ ... بِأُمِّ جـريرٍ عيـارها (٣)

ولم يكد يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ ... فأَصبح ألأَم زوَّارهـا (٤)

والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً فى الهجاء ، وقد شهد له الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يَرْوى الرواة : «إن جريرًا أُوتى من سير الشعر ما لم نُؤْتَهُ ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحدا قال أهْجى منه ، قلت :

قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأَضيافُ كَلْبَهُمُ ... قالوا لأُمهم بُولى على النار

فلم يَرْوه إلا حكماءُ أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبىُّ إذا تُنُبِّحَ للقِـرَى ... حَكَّ اسْتَهُ وتمثَّل الأَمثالا

فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَوه (٥) » . ولعل من الخير أن نلمّ بحياة هؤلاء الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرِّزيه فى الهجاء والمديح جميعاً .

---

(١) الخزر : ضيق فى مؤخر العين ، يكنى به جرير عن اللؤم .
(٢) القطين هنا : الخدم والعبيد .
(٣) أعيار : جمع عير وهو الحمار .
(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .
(٥) أغانى ٣١٨/٨ .

الفصل السادس

الخطابة والخطباء

١

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة فى ازدهار الخطابة لعصر بنى أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلائقهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً فى كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشادته بهذه القدرة أن رفعهم فى الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق فى تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوِّج هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسطاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان فى الخطابة ، ومما لا شك فيه أنهم يتخلفون عنهم وعن العرب جميعاً فى مضمار هذا الفن من فنون النثر القولى .

وعوامل مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ فى هذا العصر كل ما كان يُنتظر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهى معارضة كانت تدور كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقْصَرُ على بنى أمية أو

تكون حقًّا شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُرَدّ إلى بنى هاشم وأبناء على خاصة ، أو تكون حقًّا للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقرّرون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على على بن أبى طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولاّها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشى ، بل لو كان غير عربى . ومضوا يحاجُّون فى أول الأمر عليًّا وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَداً ، فكان منهم الأزارقة والنَّجدات والصُّفْرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحتج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله فى حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة . ويتوفّى على ، فيدعون للحسن ، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوفّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقْتَلُ بكربلاء دون غايته . ويتوفّى يزيد ابن معاوية ، فتنشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صُرَد ، وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفى ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير . فيقضى عليه قضاء مبرماً . وتمضى إلى القرن الثانى فيظهر زيد بن على بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يُقْضَى عليه .

ويتكون فى هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثماني سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغى أن لا تُقْصَر على قريش وأن تُرَدَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته فى الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدى يعبر عنه فى ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثانى حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا فى صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم فى تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتقاض على بنى أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشَغَبهم وأنهم يَضِلون الطريق . وكل ذلك هيأ فى قوة لنشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد فى الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مرَّ بنا فى خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء فى الشام أو فى الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والأزد فى البصرة ، وما اندلع من ألسنة هذه الخصومات جميعاً فى خراسان . وهى — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبيات القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بنى أمية ونُصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من ينبئونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم فى المصر الجديد . وندخل فى عصر بنى أمية ، فتتحول هذه الوفود إلى سيول ، تَقْصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة فى شئون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفودَ من الأمصار حين تَعِن له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

فى بيعة الخليفة الجديد وفى بثّ شكواها حين يلمّ بها مايوجب الشكوى. وانبثقت فى هذه الأثناء خطب التهنئة والتعزية. وكانوا يُسمَّون محافل هذه الوفود باسم المقامات، وفى العادة كان ينوب عن القوم فى هذه المقامات سيدهم الذى يصدرون عن رأيه. ويتصادف فى بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة، حينئذ يتبارى خطباؤها، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق فى البيان والفصاحة.

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع فى الخطابة، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين، فأيّان ركز الإسلام أعلامه انتصبت المنابر فى المساجد كى يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة؛ يُسْهم فى ذلك الخلفاء والولاة، وجمهور كبير من الخطباء. ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، وكثر أفراد هذه الجماعة فى كل مصر، وكثر بجانبهم جماعة من القصّاص، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آى الذكر الحكيم وبكثير من مخلّفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الدينى. وكانوا يسهون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة، وكان نفر منهم يتزيد فى هذه الأخبار تزيداً شديداً، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإزراء على خصومهم[1]، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية[2]. ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبثّون فى الجيوش لتحميس الجند على القتال، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ، وفى الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة، إذ نجد عتّاب بن ورقاء حين نازل شبيباً الخارجى يقصّ على جنده محمساً لهم[3] كما نجد قتيبة بن مسلم فى خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدى الناسك المشهور[4]. ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب، ومن كبار قصّاصهم صالح بن مسرّح الصُّمْرىّ،

---

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠٤ وخطط المقريزى (طبعة بولاق) ٢/٢٥٣

(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧.

(٣) طبرى ٥/٨٩.

(٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٣.

وفى الطبرى طرف من قصصه[١] ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جهم بن صفوان وصنيعه فى فتنة الحارث بن سريج بخراسان[٢] .

وفى هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رقّ العقل العربى بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدل كثير ينشب فى مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدّ الفروض الدينية ؛ ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخيَّر فى الحياة أو مسيَّر لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هى عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجبرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً فى هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهى مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقى . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم فى جدالهم يستعينون بالمنطق اليونانى وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية فى معرفة شئون الفكر الأجنبى ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام فى عصر بنى أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هى صور المناظرة والمحاورة ، وهى صور جديدة ضُمّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور فى حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر فى رقى الخطابة رقياً بعيداً .

---

(١) طبرى ٥/٥٠ .

(٢) طبرى ٦/٣ وما بعدها .

٢

خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية فى هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيما ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك فى السلم والحرب وجدت الخطباء متراصّين فى صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجعْ إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطَب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما فى رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنفسهم أو من ولاتهم وقوادهم . وهناك فى أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد فى سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلا شديدا . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية فى كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا فى الخوارج ، إذ كانوا شديدى الحماسة لعقيدتهم : ولم يدّعوا لها سراً كما دعا الشيعة فى أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم فى وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم (١) .

(١) البيان والتبيين ١/٢٤٣ وما بعدها و ٢/٣٦٤ وما بعدها .

مطالع كلامهم وخواتمه فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثناياه ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلا عند الحسن البصري وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

الحسن (١) البَصْرى

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمى يسمى يساراً من سَبْىِ ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيْرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هى الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة فى وادى القُرَى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقتبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت ترْوى أحاديث عن أم سلمة وتدمجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق فى نفس ابنيها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفى أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما فى المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة علىّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن يجنح عن المشاركة فى الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك فى الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمدارسة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولا الوقوف على جوانب التشريع الإسلامى . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية فى الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة فى خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

---

(١) انظر فى ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمالى المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين والعقد الفريد وعيون الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصرى لابن الجوزى والحسن البصرى لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربى) .

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الدينى ، ولا يترك تبعاً من ينابيعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ فى مصره إذ كان لا يجارَى فى بلاغته وبيانه .

ويُكبره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذى لم يكن يتعمَّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية فى المدينة دار النبوة ، ومن ثَمَّ أخذت الفرق الدينية تتنازعه ، حتى تسوِّغ آراءها فى عقول الناس ، فكل فرقة تَنْسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين رُوَّادها الأولين ، فالجَبْرية يقولون إنه كان ينفى حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شىء بقضاء من الله ، ويقول القَدَرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار فى أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدَرياً ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوَّه به الجاحظ المعتزلى هذا التنويه العريض الذى نلقاه دائماً كلما ذكره فى صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه فى القدر ، فكتب إليه رسالة ضمَّنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله[1] ، وتلتقى بهذه الرسالة فى نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك[2] .

والذى لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد فى عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شىء والزهد شىء آخر ، حقاً كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صوَّر إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه فى مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر آباد) ص ١٢ .

(٢) انظر مصورة هذه الرسالة فى دار الكتب المصرية برقم ٢٢١ه أدب .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً، فوفد عليه واعظاً ورائله ، وقَبِلَ أن يتولى القضاء إلى فترة فى عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربى محكك[١] » ويؤثر عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخْصاص[٢] البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت[٣] » وهو إنما يَعْنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج[٤] ». وكان يجمع إلى فصاحته حسًّا لغويًّا دقيقاً ، ومما يصور ذلك ما يُرْوَى عن رجل من بنى مجاشع قال : « جاء الحسن فى دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا، بل قُلْ : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله[٥] » .

وتموج بعظاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تموج بها ترجمته فى الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وقد نوّه به الغزالى فى الإحياء مراراً . وهو فى مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الورعين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته[٦] .

وهو فى وعظه ينفّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكّراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حاثًّا على التقوى والعمل الصالح والتأسى بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكَرْمة التى حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التى رواها له الجاحظ قوله[٧] :

« يا بنَ آدم بِعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به . الثَّواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمةَ بعد أمتكم ولا نبىَّ بعد نبيكم ولا كتابَ بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناسَ

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .

(٢) الخص : البيت من قصب ، وكان فى البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها الحسن زهداً وورعاً .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .

(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .

(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .

(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .

(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون الأخبار ٢/٣٤٤ .

والساعةُ تسوقكم، وإنما يُنْتَظَرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً [١] لم يضع لَبِنةً على لبنة ولا قصبة على قصبة . . (لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوَةٌ حسنة) . يا ابن آدمَ طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطتَ من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبرَ . . يابن آدم اذكرْ قوله : (وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عدلَ ، والله ، عليك مَنْ جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذَرُوا كدَرها ، دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم . لقد صحبت أقواماً [٢] ما كانت صحبتهم إلا قُرَّةَ العين وجلاء الصدر . ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفقَ من أن تُرَدَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذَّبوا عليها ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهدَ منكم فيما حرِّم عليكم منها . . لو تكاشفتم ما تدافنتم [٣] ، تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوِيَنا . أعِدُّوا الجواب فإنكم مسئولون . . يابن آدم ليس الإيمان بالتحلِّى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وَقَرَ فى القلوب وصدَّقته الأعمال » .

وواضح كيف كان يمزج عظته بآى الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضىء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم » فى الحديث النبوى : « دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتى بها فى تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فأبَينَ أن يحملْنها وأشفقْن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) ثم عقَّب عليها بقوله [٤] :

---

(١) يريد أنه كان يغدو ويروح فى كسب عيشه الضرورى .

(٢) يريد صحابة الرسول .

(٣) يريد لو تكشفت عيوب بعضكم لبعض لاستثقلتم المشى فى الجنائز .

(٤) أمالى المرتضى ١ / ١٥٤ .

« إن قوماً غدَوْا فى المطارف [١] العتاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيّعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه فى عافية ، حتى إذا أخافوا مَنْ فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمة أهزلوا دينهم وأسمنوا بَراذينهم [٢] ووسعوا دورهم وضيّقوا قبورهم . ألم ترهم قد جَدّدوا الثياب وأخلقوا الدين ، يتكىء أحدهم على شماله ، فيأكل من غير ماله . . يدعو بحُلْوٍ بعد حامضٍ ، وبحارٍّ بعد بارد وبرطبٍ بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكظّة [٣] تجشّأ من البَشَم [٤] ، ثم قال يا جارية هاتى حاطوماً [٥] يهضم الطعام ، يا أحمق لا والله لن تهضم إلا دينك أين جارك ؟ أين يتيمك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عزّ وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكموهم ظلموهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين فى حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الحنيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعْنُفُ بالأغنياء عنفه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التى قلّ ورقها وكثر شوكها ، وإنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسلعها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسلعها الرابحة ، ومن قوله [٦] :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قَصْداً ، وقدّم فضلاً ، وجّهوا هذه الفضولَ حيث وجّهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويُؤْثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرّ بالدنيا ، ففضحها ، فلا والله ما وجد ذو لُبٍّ فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبلَ المتفرقة التى جماعها الضلالةُ وميعادها النار . أدركتُ مِنْ صَدْرِ هذه الأمة قوماً كانوا إذا أجنّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم فى فكاك رقابهم [٧] . . يابن آدم إن كان لا يُغْنيك

---

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز .
(٢) براذينهم : دوابهم
(٣) الكظة : الشبع .
(٤) البشم : الامتلاء .
(٥) الحاطوم : الهاضوم المهضم .
(٦) البيان والتبيين ٣ / ١٣٥ .
(٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يُغْنيك، وإن كان يُغْنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك » .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدّ للعصاة من الجحيم والعذاب المقيم ، ويجلّل الحزن مواعظه ، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون ، فطُوبَى لمن قنع بالكفاف وذكر غدوّه ورواحه المعاد ، وأعدّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدى الله ، وهو لا يدرى أيؤمَرُ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير فى ذلك حرىّ أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والهم آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل فى هذا كله ما يوضح المعانى التى كان يخوض فيها الحسن البصرى ، وقد كان يختار لها كُسْوة حسنة من هذا الأسلوب الذى يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما أنفقه » .

وهو بلا ريب أكبر من ثبّتوا فى هذا العصر ذلك الأسلوبَ المونق الذى تأثّر به عبد الحميد ومَنْ خلفوه من الكتّاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .

الفصل السابع

الكتابة والكتّاب

١

التدوين

كان العرب فى الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضّهم — كما مرّ بنا — على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهيئاً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه صحف يُجمع بعضها إلى بعض فى موضوع معين . وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أُمّية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة ، تدوّن معارفها العربية والإسلامية واضعةً بعض المصنّفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبارُ آبائهم فى الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم ، ومن ثَمّ كثُر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار (١) ومن أشهرهم دَغْفل (٢) بن حنظلة السَّدوسى المتوفّى سنة ٧٠ للهجرة ، وله مجالس عند معاوية دُوِّنت فى كتاب له اسمه « التضافر والتناصر » (٣) وهى تدور بينهما فى أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويجيبه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها فى بيانه ببعض إجابات طريفة . (٤)

---

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ١/٣١٨ وما بعدها

(٢) راجع فى ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال الميدانى ٢/٢٧٣ والإصابة ، وفى الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .

(٣) انظر التحفة البهية (طبعة إستانبول) ص ٣٨ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٢١ ، ٢٤٧ ، ٢/٨٠ ، ٢٥٣ .

وبجانب ذلك نجد القبائل تُعْنَى بأخبارها فى الجاهلية وأشعارها فتدوّنها، وتكاثر هذا التدوين فى الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلى وكل ما يتصل به من أخبار وأيام[١]. وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامى كان يُكْتَبُ ويدوَّن، من ذلك ما يَرْوِيه الجاحظ عن ذى الرُّمَّة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر: «اكتب شعرى فالكتاب أحبّ إلىّ من الحفظ، لأن الأعرابىّ ينسى الكلمة وقد سَهِر فى طلبها ليلته، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها، ثم يُنشدها الناس، والكتاب لا يَنسى ولا يبدّل كلاماً بكلام»[٢]، وفى أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسيناً بإعداد ألواح ودواة ليُملى عليه بعض أشعاره[٣] وأنه كان يقول لسامعيه بالمِرْبَد قيِّدوا قيِّدوا أى اكتبوا[٤]، وفى الأغانى أن خالد بن كلثوم الكلبى كان يدوّن شعره وشعر الفرزدق[٥]. ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيلٌ من الرواة، يُعْنَى بتدوين أخبار العرب فى الجاهلية وأشعارهم، لعل خير من يمثّله أبو عمرو بن العلاء، وفيه يقول الجاحظ: «كانت كتبه التى كتبَ عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له، إلى قريب من السَّقْف، ثم إنه تقرَّأ (تنسّك) فأحرقها كلها، فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حَفِظ بقلبه، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية»[٦].

وعنايةُ العرب فى هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست فى كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوى وتلقين الناس الفقهَ وشئونَ التشريع. وكان كثيرون من المتعلمين فى هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعونه. وقد اشتهر ابن عباس فى مكة بما كان يحاضر فى تفسير القرآن الكريم، وحمل عنه تفسيره نفرٌ من التابعين

(١) أغانى (دار الكتب) ٦/٩٤.
(٢) الحيوان ١/٤١.
(٣) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفن) ص ٤٣٠ وانظر أغانى (دار الكتب) ٨/٣٢.
(٤) ابن سلام ص ٣٧٤.
(٥) أغانى (ساسى) ١٩/١١ - ١٢.
(٦) البيان والتبيين ١/٣٢١.

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «بمصر صحيفة فى التفسير عن ابن عباس رواها على بن أبى طلحة ، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً [١] » . ولا يحمل تفسير الطبرى تفسير ابن عباس وحده ، بل يحمل أيضاً كلّ ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب . وقد أخذت تعظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون ، وما نشك فى أن كثيراً منها دُوّن فى هذا العصر ، وإلا ما وصلت إلى الطبرى . وكان الصحابة والجيل الأول من التابعين كما مر بنا فى غير هذا الموضع يتردّدون فى تدوين الحديث ، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان ، فعمدوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما يصور لنا ذلك البغدادى فى كتابه « تقييد العلم » . ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث ، ويُعْنَى بذلك كما مر بنا الزُّهْرى المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه ، ويتتابع التدوين فيه . وعلى نحو ما أخذوا فى تدوين الحديث والتفسير أخذوا فى تدوين الفقه ، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية ، فإنهم حرّروا فتياه ومذهبه فى التشريع [٢] . ويذكر جولدتسيهر أن عروة [٣] بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة [٤] . ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لاعتقادهم فى أئمتهم أنهم الهادون المهديون الذين ينبغى أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عنوا بفتاوى على وأقضيته . ويظهر أن أول من ألّف فيها سليم بن قيس الهلالى معاصر الحجاج [٥] . وذكر جولدتسيهر أنه يوجد فى المكتبة الأمبروزية بميلانو مختصر فى الفقه اسمه « مجموعة زيد بن على » [٦] .

وأخذت تدوّن منذ القرن الأول مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم وممن عُنوا

---

(١) انظر النوع التاسع والسبعين فى كتاب الإتقان للسيوطى .

(٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية .

(٣) انظر فى ترجمة عروة تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٢/٤٧ والمعارف لابن قتيبة ص ١١٤

(٤) انظر مادة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٥) الفهرست ص ٣٠٧ .

(٦) مادة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .

بها عروة بن الزبير وأبان [١] بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة ووهب [٢] ابن منبه المتوفى سنة ١١٤ . وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين ، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المخضرمون الذين عاشوا فى العصرين الأموى والعباسى كتبهم التاريخية التى يفيض الفهرست لابن النديم فى بيان أسمائها ، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ . وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ . ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة ، وتمثلت هذه العناية فى معاوية ، إذ استقدم عُبَيْد [٣] بن شَرِيَّة الجرهمى اليمنى ليحدثه فى مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين ، وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم ، فتألف من ذلك كتابه « أخبار الأمم الماضية » وكان متداولا فى عصر المسعودى [٤] . وقد طُبع له فى « حيدر آباد » كتاب باسم « أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » وهو يدور فى أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية ويجيب عبيد ، ويستهل بأخبار عاد ولقمان وثمود ثم يتحدث عن هجرة جُرْهم من اليمن وأخبار تُبَّع إلى زمان مملكة طسم وجديس ، وتتخلله أشعار كثيرة . ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه ، وهو مطبوع معه ، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة . ولوهب كتاب يسمى « المبتدأ فى الأمم الخالية » ذكره المقدسى [٥] وقال السخاوى إنه كثير الخرافات [٦] . وله فى الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً ، وفى مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسَب إليه باسم « قصص الأنبياء » . ويلمع فى هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب [٧]

(١) انظر فى ترجمة أبان المعارف ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص ٤٥ وابن سعد ٥/١١٢ والنووى (طبعة وستنفلد) ص ١٢٥ .

(٢) انظر ترجمته فى كتاب المعارف ص ٢٣٣ ، ٣٠١ وطبقات ابن سعد ٥/٣٩٥ وميزان الاعتدال ٣/٢٧٨ وتهذيب ابن حجر وطبقات الحفاظ للسيوطى ١/١٧ وشذرات ابن العماد ١/١٥٠ .

(٣) راجع فى ترجمته الفهرست ص ١٣٢ والمعمرين لأبى حاتم السجستانى ومعجم الأدباء ١٢/٧٢ .

(٤) مروج الذهب (طبعة أوربا) ٤/٨٩ .

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٥ .

(٦) الإعلام بالتوبيخ ص ٤٨ .

(٧) انظر فى ترجمة كعب الإصابة والمعارف ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦ ..

الأحبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طُبع له فى القرن الماضى كتاب بمطبعة بولاق « فى حديث ذى الكِفْل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضْعُ زياد بن أبيه لكتاب فى المثالب [١] ووَضْعُ ابن مفرِّغ الشاعر قصة تُبَّع وأشعاره [٢] وتأليف كل من علاقة الكلابى [٣] معاصر يزيد بن معاوية وصُحار [٤] العَبْدى كتاباً فى الأمثال. ومن ذلك كتاب [٥] فى الوصايا والحِكم للمستورد بن عُلَّفة الخارجى . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبِّه لكتاب فى القَدَر [٦] ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان [٧] المرجىء رسائل فى ألفى ورقة [٨] ، ومع أنها كانت تدور فى المواعظ [٩] نؤمن بأنها حملت آراءه فى الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة. [١٠] ومرّ بنا فى الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصرى أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك يحتج لرأيه فى القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حُمل عنه [١١] . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب فى الغِناء [١٢] ، وقد نسب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب [١٣] .

وفى ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين فى عصر بنى أمية ، ولا نشك فى أن القوم دوّنوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبرى وغيره أن يروُوها وكذلك قُلْ فى رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتّاب البلغاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة . [١٤] وبالمثل كانوا يدوّنون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

---

(١) انظر الفهرست ص ١٣١ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٧ / ٥٢ .
(٣) الفهرست ص ١٣٢ .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٢ .
(٥) المبرد ص ٥٧٨ .
(٦) انظر معجم الأدباء ١٩ / ٢٥٩ .
(٧) مضت مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .
(٨) الفهرست ص ١٧١ .
(٩) انظر عيون الأخبار ٢ / ٣٤٥ .
(١٠) البيان والتبيين ١ / ١٥ .
(١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ .
(١٢) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٤ / ٣٩٨ .
(١٣) الفهرست ص ٢٠٧ .
(١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها .

الخلفاء والخطباء النابهين وعظاماً وغير وعاظ ، من مثل الحسن البصري وواصل ومثل خالد بن صفوان[١] المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : «لكلامه كتاب يدور فى أيدى الوراقين»[٢] ومرت بنا فى الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا فى حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغوفاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته فى الصنعة »[٣] . ومرّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهرن فى الطب ، ويروى الرواة أن ثياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم فى علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا[٤] وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسطاطاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية[٥] . ويقال إنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية .[٦] ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع وينتشر بين العرب لهذا العصر فى جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لنتحدث عما خلّف العصر من رسائل مختلفة .

٢

كثرة الرسائل المدوّنة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أُثرت عن هذا العصر .

---

(١) انظر فى خالد المعارف ص ٢٠٦ والبيان والتبيين فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢ / ٢٤ والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٣٤٠ وانظر الفهرست ص ١٥١ .

(٣) الفهرست ص ٤٩٧ .

(٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١ / ١٢١ وابن القفطى ص ١٠٥ .

(٥) الصناعتين لأبى هلال العسكرى (طبعة الحلبى) ص ٦٩ .

(٦) انظر «صفحات عن إيران» لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١

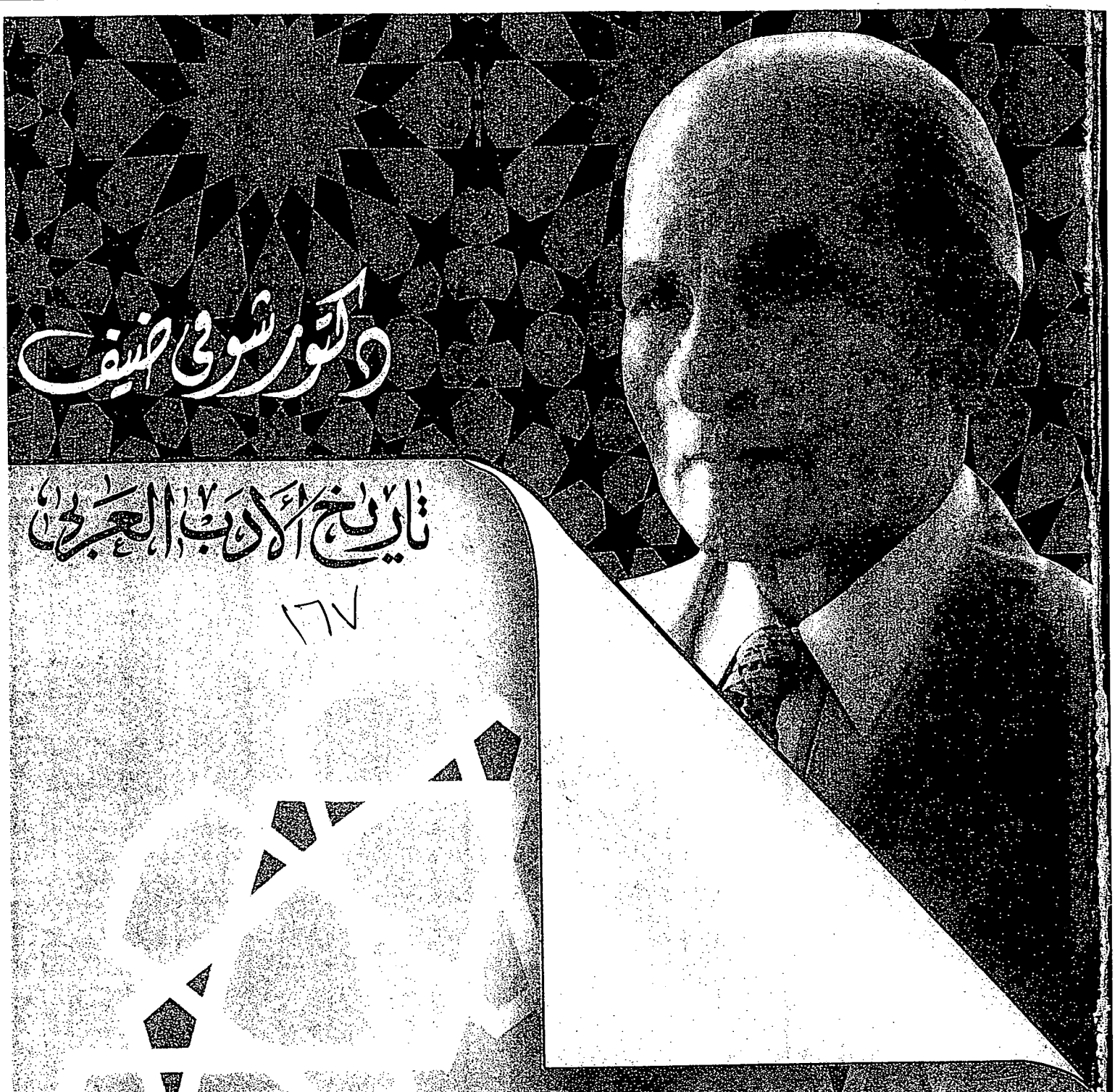

دكتور شوقي ضيف

تاريخ الأدب العربي

١٦٧

العصر العباسي الأول

دار المعارف

الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الامتزاج الجنسى واللغوى والثقافى

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا ومن المحيط الهندى والسودان جنوبًا إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالا ، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب . وهى أوطان كثيرة ، وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة فى الجنس واللغة والثقافة ، غير أنها لم تكد تدخل فى نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربى امتزاجًا قويًا ، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة ، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر فى الوعاء العربى حتى غدت كأنها جنس واحد .

ومن أهم الأسباب التى هيأت لذلك نزول القبائل العربية فى الأمم المفتوحة وامتزاجها بشعوبها فى السكنى وعن طريق المصاهرة وتسرى الإماء ، بحيث غدت بيوت العرب تزخر بالجوارى من كل جنس : سنديات وحبشيات وفارسيات وخراسانيات وتركيات ورومیات وصقلبيات ، وبحيث أصبح العربى خالص الدم فى بغداد نادراً ، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب أمهاتهم من الجوارى والإماء ، وكذلك الشأن فى الخلفاء أنفسهم على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق .

وكان وراء هذا المزج الدموى بين العنصر العربى والعناصر الأجنبية مزج روحى عن طريق الولاء الذى شرعه الإسلام والذى اتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم ، فالشخص يكون فارسيًا أو هنديًا أو روميًا أو قبطيًا ويكون عربيًا ولاء ، وحتى الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالى لأصحابهم وينسبون إلى قبائلهم مثلهم مثل أبنائها الأصليين ، وقد دعا الإسلام إلى هذا التحرير دعوة واسعة ،

وجعله كفارة عن كل ذنب كبير أو صغير ، وكان كثير منهم حين يحرّرون يجِدُون ويعتلون المناصب الكبرى فى الدولة .

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلى أحرار الموالى الذى كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة ، وقد دخلت كثرتهم فى الإسلام ، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يُكْفَلُ للناس من عدل ومساواة ، وحقًّا تعسف معهم الأمويون ولكن العباسيين ردوا الأمر إلى نصابه ، بل لقد فسحوا للفرس كى يغلبوا على العرب فى تصريف شئون الدولة . وحتى من لم يسلم من الموالى : من المجوس والصابئة والنصارى أخذ يندمج فى المحيط العربى بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية . وبذلك فُتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق — على مصاريعها — فى جميع شئون الحياة ، وحقًّا دخل جمهورهم الضخم فى الإسلام ولكن دون إكراه أو عنف أو عسف .

وبذلك استطاع الإسلام — بتعاليمه السمحة — أن يحدث امتزاجًا قويًّا بين العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الدولة العربية ، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة ، إنما بلغه بامتلاك القلوب ، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التى انبسط عليها سلطانه تُسْلِم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة .

وقد أسرع من أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعًا إلى تعلم لغة القرآن الكريم والحديث النبوى ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العربية تسود فى كل أنحاء العالم الإسلامى لا بين المسلمين وحدهم ، بل أيضًا بين غيرهم ممن بقى على دينه القديم لا فى البيئات التى كانت قد أخذت تستعرب فى العصر الجاهلى : بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب ، بل أيضًا فى البيئات النائية : فى إيران وخراسان ومصر وبلاد المغرب ، وهى بيئات لم يكن لها بالعروبة عهد من قبل ، فإذا هى تتعرَّب وتتعرَّب معها الأطراف الغربية للقارة الأوربية فى الأندلس .

وكان سكّان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة ، ففى إيران كانوا يتكلمون الفهلوية ، وفى العراق والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية وما انبثق منها من النبطية والسريانية ، وفى الشام كانوا يتكلمون اللغة الأخيرة ولغات سامية مختلفة ، وفى مصر

كانوا يتكلمون القبطية وفى بلاد المغرب كانوا يتكلمون البربرية . وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع — منذ غزو الإسكندر — فى الأوساط الثقافية بالشرق كله : فى إيران والعراق والجزيرة والشام ومصر ، بينما كانت اللاتينية تشيع فى تلك الأوساط بشمالى إفريقية والأندلس .

ولا نكاد نتقدم فى كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم فى جميع أنحائها القريبة والبعيدة ، وكان هذا تطوراً خطيراً حدث فيها ، إذ أصبحت شعوبها جميعاً عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة . وقد اختلف إسراعها إلى هذا التعرب باختلاف مواقعها من الجزيرة العربية ، فكان أسرعها تعرباً العراق والجزيرة والشام ، وكان تعربها جميعاً قد بدأ فى الجاهلية ، فأتمته الفتوح العربية سريعاً ، فإذا اللغات السامية التى كانت تنتشر فى تلك البيئات وعلى رأسها السريانية تترك مكانها من ألسنة الناس وتنحاز إلى الأديرة وإلى بيئة الصابئة فى حران وبعض المراكز الثقافية القديمة كمدرسة جنديسابور . وتتعرب مصر وبلاد المغرب تدريجاً .

وقد أقبل الفرس على التعرب إقبالا منقطع النظير ، فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبير عن عقولهم ووجداناتهم بحيث لا نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم ، فهم يقبلون على درس الشريعة الإسلامية ويتألق فيها نجم أبى حنيفة وتلاميذه ، وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عن سيبويه وهم يقبلون على إحسان صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع ، وهم يقبلون على الشعر بحيث يصبح أعلامه النابهون منهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبى نواس .

وليس معنى ذلك أن جميع أصحاب اللغات القديمة هجروا لغاتهم تماماً ، فقد ظلت من ذلك بقايا حتى فى أكثر البيئات تعرباً أى فى العراق والشام ، مما نشأ عنه سقوط بعض كلمات نبطية وآرامية إلى العربية[1] . ولعل أهم لغة قديمة

---

(١) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٥/١٧٦ وقد اشتهر فى أواخر عصر بنى أمية شاعر عربى بكثرة ما كان يدخل فى أشعاره من ألفاظ نبطية هو الطرماح : انظر الموشح للمرزبانى ص ٢٠٨.

ظلت حية هى الفارسية، لا بين سكان إيران فحسب، بل أيضًا بين سكان الأمصار فى العراق، إذ زحفت إليها منذ عصر بنى أمية جموع كبيرة منهم، وازداد زحفهم فى هذا العصر الذى علا فيه سلطانهم. ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يرويه الجاحظ عن قاصٍّ من قُصَّاص البصرة ووعاظها هو موسى الأسْوارى إذ يقول: «كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه والفُرْس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحوِّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين»[1]. وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويحسنها، حتى لنراها تدور فى مجالسهم[2]، وحتى لنرى الأصمعى العربى القُحّ يفهم ما يجرى منها على لسان بعض الفرس[3]. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت تشيع على ألسنة كثيرين فى الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة، وبسبب من ذلك ولأنها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس. ودخل العربية فى هذا العصر بعض ألفاظ هندية وخاصة فى أسماء النباتات والحيوانات من مثل الآبنوس والببغاء والفلفل كما دخل بعض ألفاظ يونانية وخاصة ما اتصل بأسماء المقاييس والموازين والأمراض والأدوية من مثل القيراط والأوقية والقولنج.

ولم تُفْسد هذه الكلمات الدخيلة العربية فقد كانت تأتى على هامشها، وكثيراً ما كانت تعرَّب بحيث تتفق واللسان العربى، وقد ألف العرب فيها مصنفات كثيرة تمييزاً لها وتعريفًا بها. ولم يكونوا يعمدون دائمًا إلى استعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التى لم يكونوا يعرفونها، بل كانوا يحاولون فى أحوال كثيرة أن يضعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع فى مدلولاتها ومعانيها القديمة. وبذلك اتسعت العربية وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقوِّماتها ومشخصاتها وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية.

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٨.
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٩.
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٥/٧.

وحقًّا أخذ يفشو اللحن ولكن علماء اللغة كانوا بالمرصاد لكل من يلحن ، حتى لكأنهم كانوا يعدّون اللحن إحدى الكبائر ، وقد مضوا يسجّلون على كل عالم وكل كاتب وكل شاعر ما تعثر فيه أحيانًا من بعض اللحن . وجمع من ذلك « يوهان فك » فى كتابه « العربية » مادة واسعة ، ومَنْ ينعم النظر فيها يعرف أن اللحن لم يكن متفشيًا فى أوساط المثقفين بل كان محدوداً جدًّا ، إذ مبلغ مايضاف إلى أى شخص لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا فى النادر . وقد وقف يوهان فك طويلا عندما ساقه الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » من لُكنات بعض الأعاجم ، وهى لكنات مردُّها إلى ما كان يجده نفر منهم من صعوبة فى التكيف العضوى لمخارج الحروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، إذ كان منهم من يبدل الراء غينًا والزاى والتاء والشين سينًا والعين همزة والقاف كافاً أو طاء والجيم زايًا أو ذالاً والحاء هاء والصاد سينًا والظاء زاياً واللام ياء. وهذه اللكنات إنما كانت تشيع على ألسنة العامة وقلما سقط منها شىء إلى ألسنة الفصحاء من العرب والموالى. وهذا نفسه يلاحظ فى اللحن فإنه إنما كان يشيع فى أوساط العامة ، وكان علماء اللغة يعنون بتنقية العربية وتصفيتها من الشوائب ، وفى ذلك ألف الكسائى كتابه فى لحن العامة ، وهو مطبوع .

ومما لا ريب فيه أن الفصحى كانت المثل الأعلى للناس فى هذا العصر ، وخاصة الطبقة المثقفة ، وكان أهم ما دعمها وبسط سلطانها القرآن الكريم ، وحتى الشعوبيون والزنادقة اتخذوها لسانهم وأداتهم فى التعبير ولم يحاولوا الخروج على قوانينها . وقد عاش علماء اللغة يحوطونها ويحرسونها حراسة حفظت لها كل مقوماتها الاشتقاقية والتعبيرية والنحوية ومكنتها من الثبات والجريان على الألسنة لا فى الأوساط الثقافية والأدبية فحسب ، بل أيضًا فى أوساط العامة وبين العناصر التى لم تدخل فى الإسلام مما أحالها وعاء كبيراً لكل ما نقيته من ثقافات فى البيئات التى ذكرناها ومن معارف مختلفة متباينة ، وهى معارف امتزجت فيها منذ فتوح الإسكندر عناصر شرقية بعناصر إغريقية مكونة ما يسمى باسم الثقافة الهيلينية ، ومعروف أن فتوحه شملت مصر وليبيا والشام والعراق وإيران وخراسان وأفغانستان وشطراً من بلاد الهند، وقد عُنى بنشر الثقافة الإغريقية فى كل البلدان التى افتتحها ومضى خلفاؤه الذين

ورثوا ملكه يستنون بعمله . وبذلك امتزجت هذه الثقافة بثقافات الأمم المفتوحة ، وتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية وغير الفلكية. وكانت تقوم على هذه الثقافة الهيلينية قبل الإسلام مدارس مختلفة فى الإسكندرية وقيسارية وأنطاكية والرها ونصيبين وحرّان وجُنْديسابور ، فاتصلت العربية بكل هذا التراث وأخذت تعمل على المزج بينه وبين معارف العرب وآدابهم ، واتخذ هذا المزج صوراً كثيرة ، منها الترجمة ونقل علوم الأوائل وسنعرض لذلك فى موضع آخر . ومنها تأثر العرب بالمعارف العملية التطبيقية عند الأجانب مما اضطروا إلى الوقوف عليه فى إنشاء المدن وضبط الدواوين وعمل الأساطيل وإعداد الجيوش والنهوض بالزراعة والتجارة . ومنها جدالهم لأصحاب الملل والنحل ، فقد كانوا ناشرين للدين الإسلامى ، فاضطرمت المجادلات والمناظرات بينهم وبين البوذيين والمجوس والصابئة والنصارى واليهود وغيرهم ، وتعرفوا على عقائدهم ونحلهم . وأعمق من ذلك تحول أصحاب النحل والديانات المختلفة إلى الإسلام ، فقد تحولوا إليه بتراثهم العقيدى ، بل بكل تراث آبائهم الثقافى .

ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ألوان الثقافات العامة التى كانت مبثوثة فى البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظمة لسبب طبيعى وهو أن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً ، فكان طبيعياً أن تتحول معهم ثقافاتهم وأن لا تنتظر حتى ينظّم لها النقل والترجمة . وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية . وكانت الثقافة الهندية تصل العرب حينئذ عن طريقين : طريق الفرس وما سقط إليهم منها من قديم وطريق من دخلوا منهم حديثاً فى الإسلام واندمجوا فى عرب العراق ، ومعروف أن جمهور الهنود وثنيون يدينون بالبوذية ، ومنهم براهمة[1] ينكرون النبوات ودهريون لا يؤمنون بشىء سوى الدهر وسُمَنية لا يؤمنون بشىء سوى الحس وقد ناظرهم قديماً جهم[2] ابن صفوان ، وظل المعتزلة — على نحو ما يصورهم الجاحظ فى كتابه الحيوان —

(١) انظر فى نحل الهند الشهرستانى ص ٤٤٤ وما بعدها .

(٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٢١ .

يردون عليهم رداً عنيفاً[١] ، ونعجب أن نرى عربياً أزدياً يعتنق عقيدة السُّمَنِيَّة[٢]. وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح إيماناً شديداً حتى ليقول البيرونى : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحلها لم يك منها ولم يعد من جملتها»[٣] إذ استقر بينهم أن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد تطلب بذلك الكمال ، وما تزال تطلبه حتى تستوفى شرف ذاتها وتستغنى عن الاتصال بالأبدان ، وحينئذ يتحد العقل والعاقل والمعقول ويصبحون جميعاً شيئاً واحداً . وقد سقطت هذه العقيدة — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — إلى مانى والمانوية كما سقطت إلى بعض الشيعة القائلين بتناسخ النور الإلهى فى الأئمة ، وأيضاً فإنها سقطت فى هذا العصر إلى الخرمية ، وكان يؤمن بها أحمد بن حائط المتكلم صاحب فرقة الحائطية ويدافع عنها دفاعاً شديداً[٤] . وكان يشيع على ألسنة عامتهم بعض قصصهم كقصة السندباد . وقد تأثرت المانوية — على نحو ما أشرنا فى الفصل السابق — بزهد البوذيين وطرقهم فى النسك وتحريمهم لذبح الحيوان .

وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثيراً فى المحيط العربى لهذا العصر ، فقد دخل جمهور الفرس فى الإسلام واقتبس العرب كثيراً من صورة حياتهم فى المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم والحشم ، وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم كما أسلفنا ، ويحكون عنهم أقاصيصهم عن رستم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكمائهم . وكانت المجوسية لاتزال حية بمعابد نيرانها ونحلها المختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من ثَنَوية أو إيمان بأن للعالم إلهين : إلهاً للنور وإلهاً للظلمة . ونعجب إذ نجد بعض العرب يصبح ثنوياً مانوياً على نحو ما كان صالح بن عبد القدوس . وكان تأثير المزدكية فى المجتمع أشد عمقاً ، بما كانت تدعو إليه من التحلل الخلقى والعكوف على اللهو والمجون والاندفاع فى إباحية مسرفة .

ولم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلا اختلاطاً محدوداً عن طريق الرقيق البيزنطى الذى كان يقع فى الأسر أو يباع فى أسواق النخاسة ، وكان تأثيره فى

---

(١) انظر مثلا الحيوان ٤/٧٠ وما بعدها .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٤٧ .
(٣) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤ .
(٤) الشهرستانى ص ٤٢ .

المجال العربى محدوداً ، وحقا أن الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت فى الفكر العباسى ، ولكن عن طريق النقل والترجمة لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب ، وأيضًا عن طريق ما ألقته من ظلال على الثقافة الهيلينية الشعبية العامة التى كانت سائدة فى المنطقة والتى حملت فى أطوائها معارف الكلدانيين والصابئة عن النجوم والكواكب ومعارف الشاميين والمصريين عن شئون الزراعة وما كان يتداول هنا وهناك من أقاصيص عن السحر والعرافة وما يجرى فى كل ذلك من إيمان بالغيبيات ومن نزعات روحية عميقة .

وكان يشارك فى الحياة اليومية أصحاب الديانتين النصرانية واليهودية ، ويصور لنا الجاحظ فى رسالته « الرد[1] على النصارى » موقف العرب منهم حينئذ ومن اليهود فيقول إنهم كانوا أقرب من اليهود إلى العرب مودة وأسلم صدوراً ، فإن اليهود طووا قلوبهم على عداوة الإسلام ورسوله الكريم منذ مقامه بين ظهرانيهم فى يثرب ، على حين آوى نصارى الحبشة من هاجروا إليهم من أصحاب الرسول فراراً من اضطهاد قريش ومدّوا إليهم يد البرّ والعون . ويقول إن نصارى بغداد كانوا ينهضون بالصناعات المربحة مندمجين فى حياة الخلفاء والرعية ، بينما كان اليهود يحترفون الصناعات الرذيلة الحقيرة ، فمن النصارى كتاب السلاطين وأطباء الأشراف والعطارون والصيارفة ، أما اليهود فمنهم الصباغون والدباغون والقصّابون والشعّابون ، وقد رسخ فى ذهن العرب أنهم أقذر الأمم . ونرى نفراً منهم يسلمون منذ عهد الإسلام الأول ويذيعون كثيراً من الإسرائيليات التى دخلت فى تفسير القرآن الكريم على نحو ما هو معروف عن كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وقد استغلها القصاص فى وعظهم للعامة استغلالا واسعًا ، وكان منهم من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه ، فمضى يسر عداوته للإسلام ويحاول أن يهدمه هدمًا بما يدخل عليه من عقائد منحرفة وبما يثير من الفتن بين أصحابه مثل عبد الله بن سبأ ، وقد لعب دوراً واسعًا فى فتنة عثمان والتأليب عليه وإحداث أول فرقة فى الإسلام ، حتى إذا حدثت أخذ يلقى فى روع بعض الضعفاء والعوام أن على بن أبى طالب فوق البشر وأن روح الرسول حلّت فيه ، ولما مات قال إنه اختفى وسيعود . وبذلك وضع نواة

---

(١) انظر هذه الرسالة فى ثلاث رسائل للجاحظ .
نشر فنكل .

التشيع الباطن ، بل وضع نواة غلاة الشيعة جميعاً ورافضتهم الذين طالما حاجّهم وجادلهم المعتزلة فى هذا العصر . وكان له خلفاء كثيرون من جنسه مضوا يفسدون على شاكلة إفساده ، بل لقد كان ممن ظلوا على يهوديتهم مَنْ يخالطون العرب فى مجالسهم [١] ويوردون عليهم بعض معتقداتهم الفاسدة من مثل التشبيه على الذات العلية [٢] ، حتى ليصبح هناك قوم معروفون باسم المشبهة من الرافضة وغيرهم . وقد عُنى المعتزلة طويلا بتسفيه أحلامهم ونقض ما زعموه من التشبيه على الله نقضاً . وكانوا يقولون إن التوراة محدثة ومخلوقة وأكبر الظن أن المعتزلة أو نفراً منهم نقلوا عنهم هذه الفكرة فقالوا إن القرآن مخلوق [٣] . وإنما يدفعنا إلى هذا الرأى أن كان من رءوس القائلين بها ثمامة بن أشرس وبشر بن غياث المريسى المتكلم ، وكان غياث يهودياً يسكن بغداد وأسلم ابنه واشتغل بعلم الكلام والقول بخلق القرآن [٤] وما زال هو وثمامة بالمأمون حتى اعتنق هذا القول وجعله محنة وبلاء على الفقهاء والعلماء . وهو بلاء جرّ إلى صدع متفاقم بين المعتزلة وأهل السنة حتى لقد قضى قضاء مرمّاً على ما كان للأولين من مجد فى العصر العباسى الأول .

وقد شكا الجاحظ — على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق — من متكلمى النصارى وأطبائهم ومنجميهم لنقلهم إلى العربية كتب المنانية والديصانية والمرقيونة المارقة ، مما أفسدوا به عقول العوام ، ولكن من الحق أن النصارى لم يكونوا يبطنون للإسلام من العداوة ما أبطنه اليهود على نحو ما لاحظ ذلك الجاحظ نفسه ، وكان المسلمون يبرّونهم ويعاملونهم معاملة كريمة ، وقد دخل منهم جمهور غفير فى الإسلام وامتزج العرب بهم وأكثروا من تسرى جواريهم مما هيأ للقاح واسع بين العناصر الإسلامية والمسيحية فى المجتمع العباسى ، ولا نقصد اللقاح الدموى فحسب ، بل نقصد أيضاً اللقاح الثقافى ، إذ نشأ جيل كبير أمهاته من المسيحيات روميات وغير روميات ، وطبيعى أن يحمل هذا الجيل عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩ .

(٢) انظر الشهرستانى ص ٦٤ — ٦٥ ، ٧٧ حيث يقول إن التشبيه فى اليهود طباع حتى قالوا فى الله : اشتكت عيناه فعادته (فزارته) الملائكة .

(٣) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٣٣٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٨ وقارن ب ٢/١٨٧ .

من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن ، ونرى أحد المتكلمين وهو أحمد بن حائط الذى ذكرناه منذ قليل يزعم أن المسيح تدرَّع بالجسد الجسمانى وأنه الكلمة القديمة المجسدة[١] .

وكان للأناجيل تأثير — من بعض الوجوه — فقد كانوا يقرءونها ويستظهرون كثيراً من كلام المسيح وأقواله فى وعظهم ، وفى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ من ذلك مادة وافرة ، وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى ما كان من تأثير الرهبان المنبثين فى العالم الإسلامى من أثر عام فى زهد الزهاد حينئذ ، إذ كانوا يرون تقشفهم وخلوصهم للعبادة والنسك . وأشرنا أيضًا فى غير هذا الموضع إلى ما كانت تقدمه الأديرة للمجان والخلعاء من خمور معتقة . ومما لا شك فيه أن المسلمين اندمجوا فى النصارى لهذا العصر اندماجًا واسعًا ، وهو اندماج جعلهم يحتفلون بأعيادهم الدينية ويتخذون منهم كتّاب الدواوين والأطباء والمنجمين ونقلة علوم الأوائل ، كما جعلهم يملئون قلوبهم أمنًا ورضًا دون أى عسف أو ظلم .

٢

الحركة العلمية

أذكى الإسلام جذوة المعرفة فى نفوس العرب إذ دفعهم دفعًا قويًّا إلى العلم والتعلم ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها ، وحتى أخذ العرب يلمّون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة ، وقد مضوا فى هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم ، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة ، وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعلم فى الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم وشيئًا من الحساب وبعض الأشعار والأمثال[٢] ، وكان بعض معلمى هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضًا السنن والفرائض والنحو والعروض[٣] . وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة

---

(١) الشهرستانى ص ٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٨٠ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .

وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً ، بما أحدثوا من علوم وبما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة .

٣

علوم الأوائل : نقل ومشاركة

كان من أهم الأسباب التى دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الخصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة وما طوى فيها من معارف وعلوم . وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر بنى أمية طريقين : طريق المشافهة مع المستعربين وطريق النقل والترجمة وقد ظل الطريق الثانى ضيقاً زمن الأمويين ، إذ لا يعدو ما يُذكَرُ من أنه تُرْجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب فى الصنعة والطب والنجوم[١] وأن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة كتيب فى الطب لأهرن[٢] بن أعين وأن كتاباً فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية تُرْجم لهشام[٣] بن عبد الملك . وقد مضت بيئات المستعربين العلمية تمارس نشاطها حينئذ ، وكانت تمثلها الأديرة وما بها من حلقات علمية من المدارس متناثرة فى جُنْديسابور القريبة من البصرة وفى نصيبين وحرّان والرُّها وأنطاكية والإسكندرية ، وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية ، كما كان يغلب عليها علماء السريان المسيحيين ، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرابع الميلادى فى ترجمة الآثار اليونانية ، واستمر نشاطهم فى هذه الترجمة محتدما حتى القرن التاسع ، ومن أشهر مترجميهم قبل الإسلام يوحنا فيلوبونوس الإسكندرى المعروف باسم يحيى النحوى وكان يعيش فى القرن السادس الميلادى ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة فى المنطق والطبّ والطبيعيات[٤] . ومن أبرزهم فى العصر الأموى سويرس سيبوخت

---

(١) ابن النديم ص ٣٤٠ والبيان والتبيين ١/٣٢٨ .

(٢) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (نشر المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) ص ٦١ .

(٣) انظر صفحات عن إيران لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو بالقاهرة) ص ٨١ .

(٤) انظر ابن أبى أصيبعة فى الجزء الثانى من القسم الأول (طبعة بيروت) ص ٦ وأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٣٢ وعلوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب لأوليرى (نشر مكتبة النهضة المصرية) ص ٣٧ ، ١٢٣ .

أسقف دير قنسرين ويعقوب الرهاوى ، وله مصنف مهم فى النحو السريانى .

وكان لمن خلفوهم فى العصر العباسى اليد الطولى فى ترجمة المصنفات اليونانية من لغتها الأصلية التى كان كثير منهم يحذقها ومن لغتهم السريانية إلى اللغة العربية . وكان من أهم مراكزهم مدرسة جنديسابور القريبة من البصرة ، ولعلها لذلك سبقت الكوفة فى التعرف على الفلسفة اليونانية . وكان كثير من مصنفات اليونانيين قد ترجم إلى الفارسية ، فأدلى الفرس بدلوهم لا فى نقل ثقافتهم فحسب ، بل أيضًا فى نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق أرسطو ، وقد نقل كليلة ودمنة الهندىّ الأصل إلى العربية ، وفى ذلك إشارة إلى ما كان فى الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نَقَلَتهم[١] وسنرى عما قليل أن قومًا من مستعربى الهند شاركوا فى هذا النقل .

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة وينفقون عليه الأموال الطائلة وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ، يتقدمهم فى ذلك المنصور وفيه يقول المسعودى : « كان أول خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى وأسلم على يديه — وهو أبو هؤلاء النوبختية — وإبراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الإسطرلابى المنجم . وهو أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند ، وتُرجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها ، وتُرجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الأرثماطيقى وكتاب أوقليدس[٢] » .

واهتمام المنصور بالتنجيم يقترن بنوبخت الفارسى ويظهر أنه كان منجمًا كبيراً ، إذ ينسب له وضع بعض الجداول[٣] الفلكية ، وكذلك كان صاحباه وثانيهما وهو على بن عيسى رسالة فى الاسطرلاب — وهو آلة فلكية لرصد الكواكب — وقد نشرها لويس شيخو . ولم يكتف المنصور بما كان عند الفرس من علم الفلك والتنجيم ، فقد نُقل له كتاب السندهند الهندى وكتاب المجسطى اليونانى لبطليموس وهما فى علم الهيئة والنجوم وحركات الأفلاك والكواكب . ومعنى ذلك أن العرب

---

(١) كانت مدينة بلخ أم مركز إيرانى امتزجت فيه الثقافتان الفارسية والهندية ، وكان بها معبد النوبهار البوذى المشهور . انظر أوليرى ص ١٤٩ .

(٢) المسعودى ٤/٢٤١ .

(٣) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١١ .

استمدوا فى هذا العلم من الفرس والهند واليونان ولا بد أنهم استمدوا فيه أيضًا من الصابئة ورثة الكلدانيين فى الفلك والتنجيم .

وصوَّر نالينو أثر كتاب السندهند فى علم الفلك العربى وكيف وصل إلى العرب ونُقل إلى العربية فقال : « إن وَفْدًا من الهند وَفَد على أبى جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصًا على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (بَراهْمَسْبُوطْسِدْهانْت) ألفه سنة ٦٢٨ م أو ٦ ، ٧ هـ الفلكى الرياضى (برهمكبت) فكلف المنصور ذلك الهندى بإملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا فى حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال . وتولى ذلك الفزارى وعمل منه زيجا[١] اشتهر بين علماء العرب حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية . . واقتصر العرب على الجزء الأخير من اسم الكتاب السابق وهو (سِدْهانت) ثم حرَّفوه قليلا وسمَّوه السندهند[٢] » . ويذكر نالينو ممن أخذوا عن هذا العالم الهندى يعقوب بن طارق وكان رياضيًا ممتازاً وله مؤلفات قيمة فى الفلك[٣] .

ويذكر المسعودى أنه ترجم للمنصور بجانب المجسطى كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها وكتاب الأرثماطيقى فى الحساب وكتاب أقليدس وهو فى علم الأشكال الهندسية أمّهاتها ومركباتها ، وجميع تلك الكتب يونانية . ولم يذكر المسعودى عناية المنصور بنقل الكتب الطبية إلى العربية ، ومعروف أنه استدعى فى سنة ١٤٨ للهجرة جورجيس بن جبريل بن بختيشوع كبير الأطباء فى بيمارستان جنديسابور ورئيس مدرسته ليكون بجانبه وقد نقل كتبًا كثيرة من اليونانية إلى العربية[٤] وأغلب الظن أنها كانت فى جمهورها كتبا طبية . وكان جورجيس من السريان النساطرة ، وتعاقبت من بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب

---

(١) الزيج : علم الجداول الفلكية .

(٢) انظر علم الفلك وتاريخه عند العرب لنالينو ص ١٤٩ .

(٣) نالينو ص ١٥٦ والفهرست ص ٣٨٨ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢٠٩ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٣٧ والقفطى ص ١٠٩ .

والترجمة . وممن لمع اسمهم لعهد المنصور فى ترجمة كتب الطب اليونانى أبو يحيى البطريق المتوفى سنة ١٨٠ إذ عُنى بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس[١] .

وتنشط الترجمة فى عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطًا واسعًا ، وكان مما أذكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة أو خزانة الحكمة وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها وجَلْب الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان يقوم على هذا العمل الضخم يوحنا بن ماسويه وكان طبيبًا نسطوريًا من مدرسة جنديسابور ، وفيه يقول ابن جلجل : « قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة الطبية ، مما وُجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين سباها المسلمون ، ووضعه أمينًا على الترجمة ، ووضع له كتابًا حُذّاقًا يكتبون بين يديه[٢] » . وقد عاش ابن ماسويه طويلا إذ توفى سنة ٢٤٣ وله مؤلفات كثيرة فى الطب وتركيب الأدوية . وأسهم فى الترجمة حينئذ جبريل بن بختيشوع كبير أطباء الرشيد إذ تُضاف إليه كتب مختلفة فى الطب وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق .

وللبرامكة فضل عظيم فى إذكاء الترجمة حينئذ ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية ، من ذلك طلب يحيى بن خالد البرمكى إلى بطريرك الإسكندرية أن يترجم فى الزراعة كتابًا عن الرومية ، وقد ترجمه برسمه[٣] ، وكان مما عنوا به إعادة ترجمة بعض الكتب اليونانية التى ترجمت قبل عصرهم ، بحيث تكون أكثر دقة وإتقانًا ، على نحو ما صنع يحيى بن خالد بكتاب المجسطى لبطليموس ، فقد ندب له أبا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا فى تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين ، فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحّه[٤] . وقد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث الفارسى ونرى جيلاً كبيراً ينهض فى عصرهم والعصر الذى تلاهم بهذه الترجمة نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذى أكثر من ترجمة كتب الفلك[٥] ، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون فى حداثته بعض الكتب

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٤ وذكر أولیری أنه ترجم لبطليموس كتاباً فى التنجيم . انظر علوم اليونان ص ٤٢ .

(٢) ابن جلجل ص ٦٥ والقفطى ص ٢٤٩ .

(٣) انظر مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى .

(٤) الفهرست ص ٣٧٤ .

(٥) الفهرست ص ٣٨٢ .

الفارسية ويعجب بترجمته[١] . ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسى حينئذ محمد بن جهم البرمكى وزادويه بن شاهويه وبهرام بن مردانشاه وموسى بن عيسى الكسروى وعمر بن الفَرُّخان وسلم صاحب خزانة الحكمة وسهل بن هرون أحد خزنتها المشهورين[٢] . ومن أنفس ما نقلوه أمثال بُزُرْجِمِهْر وعهد[٣] أردشير بن بابك إلى ابنه سابور وكتاب جاويدان[٤] خِرَد فى صنوف الآداب ومكارم الأخلاق وكتاب هزار أفْسانه وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وقد نقل أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، ويقال إنه نظمه فى أربعة عشر ألف بيت[٥] ، وأيضاً فإنه نقل إلى الشعر العربى سيرة أردشير وسيرة أنو شروان[٦] . وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمة التراث الفارسى واليونانى دفعوا أيضًا إلى الانتفاع بالتراث الهندى وترجمته ، يقول الجاحظ : « اجتلب يحيى بن خالد البرمكى أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندباذ وفلان وفلان » وقد عملوا فى البيمارستان الكبير ببغداد وسرعان ما استعربوا وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند فى نقل بعض الكنوز الهندية وخاصة فى الطب والعقاقير[٧] وشمل نقلهم صحيفة طويلة فى قواعد البلاغة سجلها الجاحظ فى بيانه[٨] ، كما شمل قصة السندباد وكتباً كثيرة فى الخرافات والأسمار مما تولع به العامة[٩] .

وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها فى عهد المأمون ، إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً وقد ألحق بها مرصده المشهور وجدّ فى الترجمة ، يقول ابن النديم : لما استظهر (غلب) المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا

---

(١) الجهشيارى ص ٢٣٢ .
(٢) انظر فى هؤلاء النقلة عن الفارسية الفهرست ص ١٧٤ ، ٣٤١ وكتاب البيان والتبيين ٣/٢٩ .
(٣) راجع فى هذا الكتاب وسابقه ثلاث رسائل للجاحظ (نشر فنكل) ص ٤٢ وابن أبى أصيبعة ص ١٠٩ .
(٤) انظر جمع الجواهر للحصرى ص ٧٤ وما بعدها .
(٥) الجهشيارى ص ٢١١ .
(٦) الفهرست ص ٢٣٢ .
(٧) الفهرست ص ٣٤٢ ، ٤٢١ .
(٨) البيان والتبيين ١/٩٢ .
(٩) الفهرست ص ٤٢٤ .

ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله ، فنُقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم[١] » ويقول ابن نباته فى ترجمته لسهل بن هرون : « جعله المأمون كاتبًا على خزائن الحكمة وهى كتب الفلاسفة التى نُقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فأرسلها إليه ، واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازناً لها[٢] » .

ونحن نقف قليلا عند هؤلاء المترجمين بتلك المؤسسة الكبيرة ، وأولهم الحجاج ابن مطر وقد اشتهر بتحريره لكتاب الأصول فى الهندسة لأوقليدس[٣] وكتاب المجسطى لبطليموس[٤] . وأما يحيى بن البطريق فكان يجيد اللاتينية واليونانية جميعًا وقد ترجم لأفلاطون قصة طيماوس وترجم لأرسطاليس مختصراً فى النفس وكتبه فى الآثار العلوية وفى الحيوان وفى العالم[٥] وكتاب أرسطو إلى الإسكندر المعروف باسم سر الأسرار ، وهو مما نُحل على أرسطو ويشتمل على مزيج من القصص وبعض القواعد فى السياسة وفى الصحة والتغذية ، وترجم أيضًا كتاب الترياق لجالينوس[٦] . وقد مضى التعريف بيوحنا بن ماسويه ، أما سلم وسهل بن هرون فلم يكونا ممن ينقلون عن اليونانية ، إنما كانا ممن يراجعان النقل عنها وينقّحان فيه ، وهما من أنبه المترجمين عن الفارسية كما أسلفنا . وممن أخذ اسمه يلمع منذ عهد المأمون فى الترجمة حنين بن إسحق ، وكان دقيقًا فى ترجمته حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهباً وقد عاش إلى سنة ٢٦٤ ومكانه لذلك كتاب العصر العباسى الثانى . ومن كبار المترجمين سوى من سميناهم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصى المتوفى حول سنة ٢٢٠ للهجرة وقد اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطاليس وشرح يحيى النحوى (يوحنا فيلوبونوس) على كتاب السماع الطبيعى له أيضًا ،

---

(١) الفهرست ص ٣٣٩ .

(٢) سرح العيون لابن نباته (طبع مطبعة الموسوعات بالقاهرة) ص ١٦٦ .

(٣) يقول ابن النديم ص ٣٧١ : نقل هذا الكتاب نقلين يعرف أحدهما بالهارونى نسبة إلى هرون الرشيد والثانى بالمأمونى نسبة إلى المأمون ، وانظر ابن أبى أصيبعة ص ١٧٢ والحيوان للجاحظ ١ / ٨٠ والقفطى ص ٦٤ .

(٤) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١٥ .

(٥) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٢ .

(٦) ابن جلجل ص ٦٧ وأوليرى ص ٢١٧ . والعلم عند العرب لألد وميلى (نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية) ص ١٢٧ وما بعدها .

وترجم كتاباً نُسب إليه خطأ وهو كتاب الربوبية أو أوثولوجيا أرسطو ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلاطون الإسكندرى المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد ومن أجل ذلك يفيض الكتاب بنزعة أفلاطونية محدثة قوية[١] .

وقد جعل المأمون الإشراف على مرصده الكبير ليحيى بن أبى منصور وألحق به طائفة من نابهى الفلكيين[٢] مثل على بن عيسى الإسطرلابى ومحمد بن موسى الخوارزْمى والعباس بن سعيد الجوهرى . ولم يلبث هذا المرصد أن تحول إلى مدرسة رياضية فلكية كبيرة تخرج فيها غير فلكى مثل بنى موسى بن شاكر . وقد أفادت هذه المدرسة من الأبحاث الفلكية الرياضية والجغرافية التى سبقها إليها الهنود والفرس واليونان ، وأضافت إلى ذلك إضافات جديدة باهرة ، إذ وضعت لحركات الأفلاك زيجات وجداول أكثر دقة مما كان لدى الأقدمين وأدخلت تحسينات على خريطة بطليموس ، واستطاعت أن تقيس درجتين من درجات محيط الأرض على أساس كرويتها ، إلى مباحث فلكية وجغرافية ورياضية كثيرة[٣] .

ومحمد بن موسى الخوارزمى هو أكبر العلماء الرياضيين والفلكيين الذين قاموا على أبحاث هذا المرصد ، وهو يُعَدُّ بحق منشئ عصر جديد فى التاريخ العالمى للرياضيات إذ اكتشف علم الجبر وقواعده وأعطاه اسمه الذى شاع من بعده فى العالم كله ، وقد أضاف إليه أبحاثاً مبتكرة فى أرقام الحساب الهندية وفى حساب المثلثات وفى الجغرافية وفى الأزياج أو الجداول الفلكية ، يقول ألدوميلى : « وله فى هذا المجال أعظم تأثير ، أولا فى الشعوب الإسلامية ثم بعد ذلك فى الشعوب الغربية المسيحية ، وحسابه المفقود نصه العربى مع وجود ترجمة لاتينية له من القرن الثانى عشر الميلادى كان له أعظم الفضل فى تعريف العرب واللاتين من بعدهم بنظام العدد الهندى ، وكتابه المشهور المختصر فى حساب الجبر والمقابلة لم يؤدِّ فقط إلى وضع لفظ علم الجبر وإعطائه مدلوله الحالى ، بل إنه افتتح عصراً جديداً فى الرياضيات . . وألف أيضًا كتباً فى الهندسة ، ووضع جداول خاصة بحساب

---

(١) انظر دى بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢١٧ .

(٢) راجع فى الفلكيين لعهد المأمون الفهرست ص ٣٨٣ .

(٣) انظر فى بحوث هؤلاء الفلكيين ألدوميلى ص ١٤٨ وأوليرى ص ٢٢٣ .

المثلثات والسطوح الفلكية[١] » .

وقد نشر على مصطفى مشرفه ومحمد مرسى أحمد كتابه « الجبر والمقابله » وهو يذكر فى مقدمته تشجيع المأمون له منوّهاً به . ويظهر أنه نجح فى صنع الجداول الفلكية نجاحاً رائعاً ، ويقول نالينو إنه « اصطنع زيجا سماه السندهند الصغير جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السندهند ، وخالفه فى التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس[٢] » .

والخوارزمى — بدون ريب — يفتتح افتتاحاً رائعاً سلسلة الرياضيين والفلكيين والجغرافيين من علماء العرب العظام . وقد نبغ فى هذا العصر كثيرون فى الطب وعلم العقاقير على نحو ما تشهد بذلك كتب طبقات الأطباء وما تزخر به من سيول الرسائل والكتب فى الأمراض وطرق علاجها والعقاقير وتركيبها . وقد استطاع يوحنا ابن ماسويه — بما كان يعكف عليه من تشريح القردة[٣] — أن يضيف بعض النتائج الجديدة إلى ما خلّفه جالينوس فى علم التشريح ، وله فى طب العيون رسالة مهمة سماها « دغل العين » وقد دوّت شهرتها فى عصره وبعد عصره وترجمت إلى اللاتينية[٤] .

وقد مضى العرب يُعْنَوْن — منذ خالد بن يزيد بن معاوية — بعلم الصنعة (الكيمياء) وظلوا يزدادون فيه علماً حتى ظهر لهذا العصر جابر بن حيان ، وهو ابن صيدلى كوفى ، فأرسَى هذا العلم على دعائم التجربة وخلّف فيه كثيراً من النظريات فى الإكسير وخواصّه ، وصوّر ذلك فى أكثر من مائة رسالة ، تُرجمت منها طائفة كبيرة إلى اللاتينية وأفاد منها الأوربيون فوائد جُلَّى مما كان له أكبر الأثر فى نهضة الأبحاث الكيميائية بديارهم . وقد تشكك فى شخصية جابر ومصنفاته بعض الباحثين المحدثين[٥] ، وهو شك بدأه بعض القدماء حتى لنرى ابن النديم يرد عليهم رداً طويلا[٦] ، وهو — دون نزاع — المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند

---

(١) ألدوميلى ص ١٥٤ وقارن بصفحة ١٤٨ .
(٢) نالينو ص ١٧٥ .
(٣) ابن أبى أصيبعة ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٤) علوم اليونان لأولرى ص ٢٢٤ .
(٥) انظر كتاب جابر بن حيان لزكى نجيب محمود فى سلسلة أعلام العرب ص ١٩ وألدوميلى ص ٩٩ ومادة جابر فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) الفهرست ص ٤٩٩ .

العرب ، كما أن الخوارزمى المؤسس الأول للعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، وكما أن يوحنا بن ماسويه المؤسس الأول للأبحاث الطبية العربية .

وكان مما عنوا بنقله إلى العربية كتب الموسيقى لأوقليدس وغيره[١] ، وكان لها تأثير بعيد فى نهضة الغناء والتلحين وقد استطاع الخليل بن أحمد أن ينفذ مما ترجم منها إلى وضع علم العروض العربى ، وأيضًا فإنه ألف كتابًا بديعًا فى علم الإيقاع اتخذه إسحق الموصلى قدوته فى كتبه الموسيقية[٢] .

وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجرى معها سيول أخرى من تراث اليونان والفرس والهند ، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شىء من هذا التراث لم ينقل إلى العربية ، سواء منه ما اتصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل بالعجائب والأسمار والخرافات ، أو ما اتصل بالملل والنحل . وكانت كل هذه السيول تتجمع فى دكاكين الوراقين ، ويطلب كلٌّ منها ما يجد فيه متاعه .

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حملت هذه السيول ، وقد مضى العقل العربى يسيغهما ويتمثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة ، والمتكلمون — وعلى رأسهم المعتزلة — هم أهم من تعمقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها ، وقد عرضوها على بساط البحث ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التى لم يسبقهم إليها سابق .

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربى فى العصر العباسى الأول عقلا متفلسفًا كما أصبح عقلا علميًا ، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضًا من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علومًا لأول مرة فى تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمى علم الجبر . وكان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمى وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثانى ، مما نراه متجليًا فى العلوم اللغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

---

(١) الفهرست ص ٣٧٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٢٧١ .

(٢) إنباه الرواة ١/٣٤٣ ومعجم الأدباء ١١/٧٣ والمزهر (طبعة الحلبى) ١/٨١ .

٤

العلوم اللغوية والتاريخ

عُنى — منذ أواخر عصر بنى أمية — جمهور كبير من العلماء فى البصرة والكوفة بجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب فى الجاهلية والإسلام، وكان من أهم الأسباب فى هذه العناية حاجة الشعوب الأجنبية التى دخلت فى الإسلام إلى تعلم لغة القرآن الكريم؛ ثم ما كان من شيوع اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية وما حدث من ضعف سلائقهم بسبب تحضرهم، وكان كثيرون منهم قد نشأوا فى حجور أمهاتهم من الإماء فضعفت عندهم الملكة اللغوية وأخذ اللحن يفشو فى كلامهم. وكانت هناك لهجات كثيرة تتفاوت قرباً وبعداً من الفصحى وتدور على ألسنة العرب الذين نزلوا واستوطنوا البلدتين الكبيرتين.

ولكل هذه الأسباب انبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفنى العربية فى لغات الشعوب المستعربة، وحتى تسلم لها مقوماتها الأصلية، وحتى تُنْفَى عنها وتُطْرَحُ شوائب اللهجات القبلية. وقد اشترطوا على أنفسهم أن لا يأخذوا اللغة من عربى حضرى وأن يرحلوا فى طلبها إلى باطن الجزيرة حيث ينابيعها الصافية؛ وكانوا يقصدون بذلك إلى غايتين، أولاهما أن يقوِّموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية السليمة؛ وثانيتهما أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية الصحيحة التى يعرضونها على الناشئة وفى حلقات المساجد. ويصوِّر أبو نصر الفارابى صنيعهم فى هذا الجانب فيقول: «والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتُدى وعنهم أُخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أخذ ومعظمه؛ وعليهم اتُّكِلَ فى الغريب وفى الإعراب والتصريف. ثم هُذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سُكَّان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم. فإنه لم

يؤخذ لا من لَخْم ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قُضاعة وغَسّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (١) » .

وعلى هذا النحو كان اللغويون يتوغلون فى نجد حيث المادة اللغوية الفصيحة التى يجمعونها من هنا وهناك ويملئون بها حقائبهم ، وعن أبى عمرو بن العلاء شيخ البصرة : « لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية » يقصد الجزء الغربى من نجد وما يترامى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز . وسرعان ما أقبل من أغوار نجد إلى البصرة والكوفة ثم بغداد بعض الأعراب الفصحاء ليتكسبوا برواية الأشعار وتلقينها للناشئة وبعض العلماء اللغويين مثل ثور بن يزيد الذى أخذ عنه ابن المقفع الفصاحة (٢) ، وأبى سَوّار الغنوى أستاذ أبى عبيدة (٣) ، ويسوق ابن النديم أسماء (٤) طائفة كبيرة من هؤلاء الأعراب .

وقد تعاقبت فى هذا العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة والشعر ، ورأس الجيل الأول فى البصرة أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ وهو أحد القرّاء السبعة المقدّمين الذين أُخذت عنهم قراءات القرآن الكريم ، وكان حجة ثبتاً صدوقاً ، وفيه يقول الجاحظ : « كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس (٥) » . وأشهر أفراد الجيل التالى له خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ والأصمعى المتوفى سنة ٢١٣ وفى تعيين سنة وفاته اختلاف كبير وأبو زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٤ وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ . وكان الأصمعى ثقة ثبتاً ومجموعته الشعرية الملقبة بالأصمعيات بعيدة الشهرة ،

---

(١) المزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) ١/٢١١ .
(٢) الفهرست ص ٦٧ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) الفهرست ص ٦٥ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

ورُوِيت عنه دواوين كثيرة أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبدة . وكان أبو زيد مثله صدقاً وأمانة وصبّ عنايته على جمع اللغات الشاذة كما يتضح فى كتابه « النوادر » فى اللغة . وأبو عبيدة ينزل عنه وعن الأصمعى درجات فى الثقة به إذ كان شعوبيًّا ذميماً ومن أشهر مصنفاته شرح نقائض جرير والفرزدق وكتاب المجاز فى القرآن . وأهم أفراد الجيل الثالث من لُغَوِيِّى البصرة محمد بن سلام الجمحى صاحب « طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين » وهو كتاب نفيس إذ يصور عمل المدرسة البصرية فى توثيق الشعر القديم ووضع شعرائه فى طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنيـــة .

ورأس الجيل الأول من لغوى الكوفة حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ وكان عالمًا بالشعر والغريب غير أنه كان ماجنًا فاسقًا زنديقاً ، فشابَ روايته بالوضع والانتحال على ألسنة العرب ، مما جعل علماء البصرة وعلماء الكوفة أنفسهم من مثل المفضل الضبى معاصره يسقطونها ويزيفونها . وكان المفضل ثقة صدوقاً وحجة فى الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات أنفس مجموعات الشعر القديم . وأشهر أفراد الجيل الثانى فى الكوفة أبو عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ ويقال إنه دخل البادية ومعه دَستيجان[1] حِبْرًا فما خرج حتى أفناهما بكتابة سماعه عن العرب الفصحاء ، ويقال إنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة . ولا يقلّ عنه شهرة معاصره ابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ وقد رويت عنه دواوين كثيرة ، وهو إلى أن يكون فى جيل الكوفة الثالث أقرب منه إلى أن يكون فى جيلها الثانى . ومن أهم أفراد الجيل الثالث أبو عُبَيْد القاسم بن سلام ، ويقال إن الناس لم يكتبوا فى اللغة أصح من كتبه ولا أكثر فائدة . وله مصنفات كثيرة من أشهرها غريب الحديث والغريب المصنف .

ومن ينعم النظر فيما سجلت كتب طبقات اللغويين والنحويين لهؤلاء العلماء من مصنفات يجدها تتطور من التأليف فى موضوعات جزئية مفردة مثل كتاب الفرس وكتاب الإبل إلى تأليف المصنفات المطولة حتى لتتحول إلى معاجم لغوية على

---

(١) الدستيج : إناء .

شاكلة كتاب الغريب المصنف لأبى عبيد ، وسترى الخليل بن أحمد يضع منهج أول معجم لغوى فى العربية . وينبغى أن نعرف أن الطريقة الأولى التى تُعْنى بالجزئيات المفردة ظلت غالبة على محاضرات اللغويين طوال القرون: الثانى والثالث والرابع على نحو ما يصور ذلك الكامل للمبرد ومجالس ثعلب وأمالى القالى .

وإذا تركنا جمع اللغة ورواية الشعر إلى النحو وجدنا البصرة تسبق الكوفة إلى وضع قواعده ومصطلحاته وصَبْغها بالصبغة العلمية ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربطوا بين النحو العربى والنحو اليونانى أو السريانى ، محاولين أن يثبتوا وجوها من الصلة بينهما وبين النحو العربى ، وكأنه نشأ على هديهما[1] . وأكبر الظن أنه وليد العقل العلمى العربى الذى استوى على سوقه فى القرن الثانى ، ودفع دفعا إلى وضع علوم عربية كبيرة ، منها اللغوى ومنها الدينى .

وجاء فى بعض المصادر القديمة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلى المتوفَّى سنة ٦٩ وشُبِّه على بعض القدماء والمحدثين أنه وضع شيئًا من قواعد النحو ، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئًا ، إنما الذى وضعه حقًّا وكان أول واضعيه نَقْط المصحف نَقْطاً يعين حركات أواخر الكلم فيه أو بعبارة أدق يعين حركات الإعراب[2] ، فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة ، ونقطة بين يديه إشارة إلى الضمة ، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة ، وإذا تبع شيئًا من هذه الحركات غنة أو تنوين نقط الحرف نقطتين . واختلط التعبير عن هذا الصنيع بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو بعض مسائله .

وأول نحاة البصرة الحقيقيين عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى المتوفى سنة ١١٧ وعيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٩ . أما ابن أبى إسحق فيقال إنه أول من نهج النحو ومدَّ القياس وشَرَح العلل ، وأما عيسى بن عمر فإنه أول من وضع الكتب فى النحو إذ ألف فيه مصنفين هما الإكمال والجامع ، ويقال إن الأخير أصل كتاب سيبويه ، زاد فيه وحشاه . ويعد الخليل بن أحمد المتوفى فى سنة ١٧٥ هو الواضع الحقيقى لعلم النحو فى صورته النهائية التى أدَّاها عنه تلميذه سيبويه فى

---

(١) راجع فى ذلك تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢ / ١٢٤ . ونولدكه فى مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ، المجلد ٥٩ ص ٤١٤ .

(٢) انظر المحكم فى نقط المصاحف لأبى عمرو الدانى (طبع دمشق) ص ٤ وما بعدها .

مصنفه الملقب باسم « الكتاب » وهو فى كثير من صفحاته يحكى آراءه وقد ذكره فى نحو ثلاثمائة وسبعين موضعاً ، ويقول السيرافى : « كل ما قال سيبويه : سألته أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل[١] » ويقول إنه كان الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، ويقول الزبيدى : إنه استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد وما لم يسبقه إلى مثله سابق[٢] » .

فالخليل هو المؤسس الحقيقى لصرح النحو العربى ، بل هو المقيم لقواعده والمشيد لبنيانه وأركانه ، وكانت المادتان الأساسيتان اللتان اعتمد عليهما فى رفع هذا الصرح إلى عنان السماء — كما يوضح ذلك كتاب تلميذه سيبويه — القياس والعلل ، أما القياس فيتضح فى ضبطه القواعد واطرادها بحيث تُنْفَى الشواذ ، وأما العلل فمقدمات القياس التى تثبت صحته بما تقدمه من أدلة عقلية سديدة .

ويظهر أن الخليل كان يتقن المنطق الذى ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ، وأيضاً فإنه كان يتقن العلوم الرياضية[٣] ، وهو إتقان جعله يقف على ما يصنعه أصحاب الحساب والرياضيات فى مسائلهم الفَرْضية لترسخ ملكة هذه العلوم فى عقول الناشئة . وعلى ضوء من هذا الصنيع مدّ القياس فى التصريف والنحو ، فتولدت له ألفاظ جديدة وفروض فى الصيغ بقصد تمرين التلاميذ وتدريبهم وهى ما يسميه النحاة بالتمارين غير العملية . وقد تمثل تمثلا دقيقاً فكرة المعادلات والتوافيق والتباديل التى هيأت عند الخوارزمى لنشأة علم الجبر ، وهى تلاحظ عنده فى الميزان الصرفى وفى الخطة التى وضعها لصنع المعجم المعروف باسم « العين » إذ دفع تلميذه الليث بن نصر بن سيار أن يقلب كل الصيغ الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية على حروف الهجاء وبذلك حصر جميع الكلمات مما نطقت به العرب ومما لم تنطق مع نَصّه فى المعجم على الطرفين . وجعله يرتبه على مخارج الحروف بالضبط كما ترتّب عند الهنود حروف السنسكريتية[٤] ، وفى ذلك ما يشير إلى إطلاعه على بعض الأبحاث الهندية فى الأصوات ، ولعل ذلك ما جعله

---

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافى (طبعة كرنكو) ص٤٠.

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (نشر الخانجى) ص ٤٣ .

(٣) الزبيدى ص٤٣ وإنباه الرواة ١/٣٤٦.

(٤) انظر ترجمة الخليل فى دائرة المعارف الإسلامية .

يعنى بالهمز والتشديد والروم والإشمام[١] . ويبلغ تطبيقه لفكرة التباديل والتوافيق الرياضية الغاية فى وضعه لعلم العروض ، لا من حيث ما اقترحه فيه من تفاعيل فقط ، بل أيضًا من حيثُ ما وضعه فيه من دوائر ، إذا قُدِّمت فيها أجزاء التفعيلات بعضها على بعض خرجت الأوزان التى استعملها العرب وأوزان أخرى أهملوها ولم يستعملوها ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام العباسيين كى يجدّدوا فى الأوزان حسب إرادتهم الفنية .

وخلّفه على تراثه النحوى سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ غير متجاوز للأربعين من عمره فى أرجح الأقوال ، وقد أودع هذا التراث مصنفه الموسوم باسم « الكتاب » مضيفًا إليه من أنظاره مايدل دلالة بينةعلى فطنته ونفاذبصيرته . والكتاب يُعَدُّ آية خارقة من آيات العقل العربى حتى سماه بعضهم قرآن النحو ، ويقول صاعد ابن أحمد الأندلسى : « لا أعرف كتاباً أُلِّف فى علم من العلوم قديمها وحديثها اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب ، أحدها المجسطى لبطليموس فى علم هيئة الأفلاك، والثانى كتاب أرسطاطاليس فى علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصرى النحوى ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شىء إلا مالا خطر له[٢] » . وأهم من تلقى هذا الكتاب عن سيبويه من البصريين الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١ فكان الطلاب يقرءونه عليه ويشرحه لهم ويفسره ، وله فى النحو مصنفات كان ينشر فيها ضرباً من الغموض والتعقيد رغبة فى التكسب بها[٣] ، واشتهر بأنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته كما اشتهر بإتقانه لعلم العروض وتأليفه فيه .

ولم يكن النشاط النحوى منذ أوائل هذا العصر خامداً فى الكوفة ، فقد كان بها طائفة من النحاة غير أنهم لم يبرعوا فى النحو براعة البصريين ، ومن أجل ذلك كانوا يكثرون من الرحلة إليهم والتلمذة عليهم ، حتى إذا تقدم العصر أخذوا يستقلون عن نظرائهم فى البصرة بمذهب نحوى خاص بهم بحيث أصبح فى النحو مذهبان متقابلان : مذهب البصرة الذى يعنى بالقياس مستمدًّا له من استعمال العرب الشائع ، ومذهب الكوفة الذى يُعْنَى بالسماع ويقدمه على القياس مهما كان شاذًّا نادراً .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (طبعة مطبعة حجازى بالقاهرة) ١٧١/٢ .

(٢) معجم الأدباء ١١٧/١٦ .

(٣) الحيوان ٩١/١ .

وأقدم نحاة الكوفة أبو جعفر الرُّوَاسى تلميذ عيسى بن عمر أستاذ البصريين ، وخلفه معاذ بن مسلم الهرَّاء المتوفى سنة ١٨٧ ويقال إنه هو الذى وضع علم الصرف غير أننا نشك فى ذلك لأن الصرف مندمج فى كتاب سيبويه المتوفى قبله . وأرسخ منه قدماً فى الدراسات النحوية الكسائى المتوفى سنة ١٨٩ وقد تتلمذ للخليل وتلقى عن الأخفش كتاب سيبويه ، ونراه يشيد بالقياس قائلا :

إنما النحو قياسٌ يُتَّبَعْ وبه فى كل أمرٍ يُنْتَفَعْ

ويقول بعض البصريين : « لولا أنه دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل [١] »

وأهم نحاة الكوفة فى العصر الفرَّاء المتوفى سنة ٢٠٧ وكان مثل أستاذه الكسائى يقدِّم السماع على القياس ، وأكثر من قراءة كتاب سيبويه ، ليحاول تعقبه ومخالفته فى بعض ألقاب النحو ، وقد صاغ منها كثيراً أشاعه فى كتابه « معانى القرآن » مثل الجحد بدلا من النفى والتكرير بدلا من البدل والتفسير بدلا من التمييز [٢] . وهو الذى جسَّم الخلاف بين المدرستين الكوفية والبصرية لقدرته على الحجاج والجدل ، ويقال إنه كان مثقفاً ثقافة فلسفية واسعة ، وأنه كان يستخدم فى كتبه ألفاظ الفلاسفة ، ويدل على ذلك كتابه « الحدود » فى النحو فإن اسمه يحمل صلة قوية بينه وبين مباحث الحدود فى المنطق ، ومن أهم كتبه « معانى القرآن » وهو يكتظ بآرائه النحوية .

وواضح مما قدمناه أن الكوفة لم تُسْهِم مساهمة حقيقية فى وضع أصول النحو فقد سبقتها البصرة إلى ذلك محتكمة احتكاماً شديداً إلى القياس [٣] ، وإلى نظرية العامل التى ينفرد بها نحونا العربى والتى تُعَدُّ قوامه ، وهى تدل على أن هذا النحو لم يوضع على أساس نحو أجنبى ، فمحوره الذى تدور حوله بحوثه محور عربى خالص ، إنما كل ما يمكن أن يقال إنه أفاد من العقلية العلمية الخصبة التى اكتسبها العرب فى العصر العباسى الأول من خلال تمثلهم للثقافات الأجنبية الفلسفية والعلمية .

---

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى (نشر مكتبة نهضة مصر) ص ٧٤ .

(٢) انظر معانى القرآن للفراء ١ / ٥١ ، ٥٢ ، ٢٢٥ .

(٣) انظر مقدمتنا لكتاب الإيضاح فى علل النحو للزجاجى (طبع القاهرة) .

ومما كان يعنى به النحاة واللغويون أنساب العرب وأخبارهم التى تؤديها أشعارهم ، وهى عناية اقترنت بنمو الكتابة التاريخية حينئذ ، وهو نمو ارتبط بالسيرة النبوية ، وانضمت إليها مادة من تاريخ الرسل ومن تاريخ العرب ثم تاريخ الأمم المجاورة للجزيرة العربية وخاصة الفرس .

وكانت السيرة النبوية مثبوتة فيما يروى من الأحاديث ، فأخذ كثيرون يستخلصونها منها ، وعُنوا بالقصص عن الأنبياء والرسل لتوضيح جوانب من القصص القرآنى وللوعظ والتذكير بالله واليوم الآخر ، وعُنوا أيضًا بكتابة أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وملوكها . وما نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى تكثر الكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه وبعوثه الحربية ، ويلمع فى هذا الجانب اسم محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ وقد وزَّع السيرة النبوية على ثلاثة أقسام كبيرة ، هى المبتدأ والمبعث والمغازى . ويتضمن المبتدأ تاريخ العرب القديم وقصص الأنبياء ، ويتضمن المبعث حياة الرسول فى مكة ، وتتضمن المغازى حياته فى المدينة . ولم يصلنا هذا الكتاب[1] ، إنما وصلتنا رواية مهذبة له رواها عبد الملك بن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨ .

ومن المؤرخين الكبار الذين عنوا بكتابة السيرة والمغازى النبوية فى هذا العصر محمد بن عمر الواقدى قاضى المأمون المتوفى سنة ٢٠٧ وله مصنفات كثيرة فى الفتوح وتاريخ الخلفاء وأيام الناس ، ونشرت له قطعة خاصة بالمغازى ، وقد ضمَّن كاتبه وتلميذه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ كتابه « الطبقات الكبرى » سيرة مطولة للرسول عليه السلام .

وكان من أثر الاهتمام بالمدينة فى السيرة الزكية أن أخذت تُفرَد لها المصنفات على نحو ما هو معروف عن محمد بن الحسين بن زُبالة المتوفى بعد المائتين ، وكتابه الذى خصه بها هو الأصل الذى ألهم العلماء بعده التأليف فى تاريخ المدن .

وعُنى كثير من المؤرخين بالكتابة فى أحداث الدولة العربية على نحو ما هو معروف عن أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى المتوفى سنة ١٥٨ وله كتب مختلفة فى الفتوح وفى حروب صفين ، وسيف بن عمر التميمى المتوفى سنة ١٨٠ ويشتهر بمؤلفات

---

(١) توجد قطعة من هذا الكتاب فى مكتبة الرباط العامة بالمغرب .

له فى الردة والفتوح ووقعة الجمل ، ونصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ وقد نُشرت له بالقاهرة وقعة صِفّين .

وصبَّ هشام بن محمد الكلبي عنايته على تاريخ العرب القديم وما يتصل به من أنساب وأيام وأشعار ، وكان متهماً بالوضع عند معاصريه ، ونُشر له بالقاهرة كتاب الأصنام . ومن أعلام المؤرخين لهذا العصر المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥ وكان له كتاب ضخم فى أخبار الخلفاء وآخر فى الدولة العباسية ومصنفات مختلفة فى السيرة النبوية وفى الفتوح وأيام الناس ، وهى تُعَدُّ بالمئات ، وقد استقصاها ياقوت وابن النديم . وأخذت تؤلف فى هذا العصر كتب الرجال الذين حملوا الحديث النبوى من صحابة وتابعين على نحو ما يصور ذلك كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الذى أشرنا إليه آنفًا ، ومثله كتاب معرفة الرجال ليحيى بن معين المتوفى فى سنة ٢٢٣ .

وعلى هذا النحو نشطت كتابة التاريخ فى العصر العباسى الأول ، فلم تقف عند السيرة النبوية ، بل اتسعت لتشمل تاريخ العرب فى الجاهلية وفتوحهم ودولهم فى الإسلام وتاريخ الرسل والأنبياء ، وهبطت إليهم روافد من تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس ، إذ عُنى ابن المقفع وغيره بترجمة الكتب المؤلفة فى سير ملوك العجم .

٥

العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال

نشأت العلوم الدينية فى ظلال الحديث النبوى ، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أُثر عن الصحابة لا فى تعاليم الدين الحنيف فحسب ، بل أيضًا ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم فى تفسير الذكر الحكيم . وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير . وقد أخذ يدوَّن تدوينًا عامًّا منذ أوائل القرن الثانى للهجرة ، على نحو ما هو معروف عن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ وما نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى يتكاثر التصنيف فيه ، وكانوا يوزعونه فى

مصنفاته غالبًا على أبواب الفقه ، وأول جيل يلقانا لمصنفيه[١] فى هذا العصر جيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة المتوفى سنة ١٥٠ ومعمر بن راشد باليمن المتوفى سنة ١٥٣ وسعيد بن أبى عَروبة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦ ومواطنه الربيع ابن صَبيح المتوفى سنة ١٦٠ ومواطنهما حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٥ وسفيان الثورى بالكوفة المتوفى سنة ١٦١ وعبد الرحمن الأوزاعى بالشام المتوفى سنة ١٥٧ والليث بن سعد بالفسطاط المتوفى سنة ١٧٥ . ويتبع هذا الجيل جيل ثان على رأسه مالك بن أنس بالمدينة المتوفى سنة ١٧٩ وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨ وعبد الرازق الصنعانى باليمن المتوفى سنة ٢١١ وعبد الله بن المبارك بخراسان المتوفى سنة ١٨١ وهشيم بن بشير بواسط المتوفى سنة ١٨٣ ويحيى بن زكريا بن أبى زائدة بالمدائن المتوفى سنة ١٨٣ ومحمد بن فضيل بن غزوان بالبصرة المتوفى سنة ١٩٨ ووكيع بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦ وعبد الله بن وهب بالفسطاط المتوفى سنة ١٩٧ .

وأهم كتاب وصلنا عن هذين الجيلين كتاب « الموطأ » لمالك بن أنس إمام أهل المدينة ، وهو مرتب على أبواب الفقه ، وفى كل باب أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — المتعلقة به وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وفتاوى مالك نفسه . وقد ظل يمليه على طُلاَّبه نحو أربعين عامًا ، وهو يزيد وينقص فيه وفى أحاديثه ، ولذلك اختلفت رواياته ، وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى المتوفى سنة ٢٣٤ وقد شرحها الزرقانى وشرحه مطبوع .

وأخذت تقترن فى أواخر القرن الثانى بالطريقة السالفة فى تصنيف الحديث طريقة جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، مما جعل أصحابها يوزعون الحديث فى مصنفاتهم على أساس رواته من الصحابة ، وهى الطريقة المعروفة باسم « المسانيد » إذ يُسْنِد المؤلف لكل صحابى ما رُوى عنه من الأحاديث ، وممن سبقوا إلى التأليف على هذه الطريقة الربيع بن حبيب الإباضى البصرى المتوفى سنة ١٧٠ ومسنده مطبوع وأبو داود الطيالسى المتوفى بالبصرة سنة ٢٠٣ ومسنده هو الآخر مطبوع .

---

(١) انظر فى جيلى مصنفى الحديث المتعاقبين خطط المقريزى ٤/١٤٣ وإحياء العلوم للغزالى ١/٧٩ وقوت القلوب ص ٢١٦ والفهرست ص ٣١٤ .

وأشهر المصنفات فى هذا الاتجاه مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وهو مطبوع فى ستة أجزاء ضخام .

وبجانب الطريقتين السالفتين فى تصنيف الحديث أخذت تشيع طريقة ثالثة توزَّع فيها الأحاديث على المعانى والموضوعات التى تتصل بها فقهية وغير فقهية ، ومن أقدم من ألفوا فيها أبو بكر عبد الله بن أبى شيبة المتوفَّى سنة ٢٣٥ وفيه يقول المقريزى : « تفرد بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف[١] » واتبع طريقته فى العصر العباسى الثانى البخارى وغيره من أصحاب الصِّحاح الستة .

وأخذ المحدِّثون منذ هذا العصر يعرضون رواة الحديث على نقد شديد حتى يحيطوه بسياج متين من الصحة والثقة ، مما أدّى إلى نشوء علم هو علم الرجال أو علم التعديل والتجريح ، وهو علم مخّص مادة الحديث ونفى عنها الزيف والتدليس ، وأهم من بدأ التصنيف فيه — كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — محمد بن سعد ويحيى بن معين . ومن العلوم التى نشأت حول الحديث لهذا العصر علم غريبه ، وهو علم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة ، وقد ألف فيه كثيرون من لغوى[٢] هذا العصر وعلى رأسهم أبو عُبَيْد القاسم بن سلام .

وإذا تركنا التصنيف فى الحديث إلى التصنيف فى تفسير القرآن الكريم وجدنا مصنفات كثيرة فيه تستمد مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وخاصة أبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وما أذاعه تلاميذه الكثيرون عنه ، وقد سجل ابن النديم أسماء طائفة كبيرة من هذه المصنفات[٣] ، وتولاّها العلماء بالجرح والتعديل ، فمنها ما اتهموه ومنها ما وثقوه ، وقد أجمعوا على صحة ما دوَّنه على بن أبى طلحة المصرى عن ابن عباس ، وفى ذلك يقول ابن حنبل : « بمصر صحيفة فى التفسير (عن ابن عباس) رواها ابن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً »[٤] . ومن أهم المفسرين فى هذا العصر بتلك الطريقة التى تعتمد على التفسير بالمأثور سفيان بن عُيَيْنة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بالمدينة ووكيع بن الجراح وأبو بكر بن أبى شيبة . وقد ضاعت كتبهم هم

---

(١) خطط المقريزى ٤/١٤٣ .
(٢) الفهرست ص ١٢٩ .
(٣) الفهرست ص ٥٠ .
(٤) الإتقان للسيوطى (طبع مطبعة حجازى) ٢/١٨٨ .

ثلاثة شطور ، ثلاثة شطور ، على هذا النمط[١] :

الحمد لله العلىِّ الأعظم ذى الفضل والمجد الكبير الأكرم
الواحدِ الفَرْد الجواد المنعم
الخالقِ السَّبْعَ العُلا طِباقا والشَّمْسَ يجلو ضَوْءُ ها الإغساقا[٢]
والبَدْرَ يملأ نورهُ الآفاقا

ودخلت شعاعات من هذا الفن التعليمى الجديد إلى بيئات الأخباريين ، فإذا الأصمعى ينظم قصيدة طويلة فى ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم الخالية البائدة [٣] وتتكاثر هذه الشعاعات فى بيئات المتكلمين ، فإذا مَعْدان الأعمى الشيعى الشُّمَيْطِىُّ أحد متكلمى الشيعة الإمامية ينظم قصيدة طويلة فى أصناف الشيعة وعقائدهم ، مقدماً عليهم فرق الشميطية الغالية[٤] . ولعل متكلماً لم ينظم فى هذا الفن كما نظم بشر بن المعتمر المعتزلىّ المشهور ، فقد أكثر من النظم فى الردّ على أصحاب المقالات والنحل المختلفة ، وقد ساق له الجاحظ فى الحيوان قصيدتين طويلتين[٥] يمكن أن يدخلا من بعض الوجوه فى علم التاريخ الطبيعى إذ تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوانات ، وما يتجلّى فيها جميعاً من حكمة الله البالغة فى خلقه العجيب . ومن نمطهما قصيدة الحكم بن عمرو البَهْرانىّ فى غرائب الخلق[٦] وقصيدة هرون مولى الأزد فى وصف الفيل وصورة خلقه وتركيبه [٧] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور النشاط العقلى والفنى للشاعر العباسى وكيف كان يحرص على التجديد ، فهو يشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده ، ولا يكتفى بها ، بل ما زال يكتشف موضوعات أخرى ، تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية ، ولم يلبث أن اهتدى إلى الشعر التعليمى ، فسجّل فيه كثيراً من القصص والتاريخ والدين والعلم والحكمة .

---

(١) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١٧/١١٨ ، ١/٢٣ ، ٣/٧٥ ، ٣٥٦ .
(٢) السبع : هى السموات السبع . طباقاً : لمطابقة بعضها بعضاً . الإغساق : الظلام .
(٣) الحيوان ٦/١٤٩ .
(٤) الحيوان ٢/٢٦٨ والبيان والتبيين
(٥) الحيوان ٦/٢٨٤ ، ٢٩١ .
(٦) الحيوان ٦/٨٠ .
(٧) الحيوان ٧/٧٦ .

٥

التجديد فى الأوزان والقوافى

سبق أن تحدثنا فى كتاب « العصر الإسلامى » عن مدى ما أثَّر به الغناء المستحدث حينذاك فى موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نَظْم المقطوعات القصيرة فى الغزل وأخذ الشعراء يصفُّون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة: نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة. وقد مضى شعراء الغزل يَعْدلون غالباً عن النظم فى الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم فى الأوزان الخفيفة البسيطة، فإن ألموا بالأوزان الأولى جزَّءوها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الخروق أو بعبارة أخرى من الزحافات، إكثارا نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتث وصُنْع بعض المقطوعات فيه.

وانتقلت موجة هذا الغناء فى أواخر العصر الأموى إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسى الأول بلغت فى مدن العراق كلَّ ما كان يُنْتَظَرُ لها من حدة وقوة، فمن جهة صُفِّيَتْ لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة على نحو ما مرَّ بنا فى أوائل هذا الفصل، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، فإذا القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمى: شعر المديح والرثاء، بينما تشيع المقطَّعات فى الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم. ومضى الشعراء ينظمون — على هدى الشعراء الأمويين — فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفى وزن المجتث الذى اقترحه الوليد بن يزيد، ومِنْ خير مَنْ يمثِّل ذلك مطيع بن إياس الكوفى فإننا حين نتصفح الشعر المبثوث فى ترجمته بكتاب الأغانى نجد كثرته من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكامل والرمل أو من الهزج أو من المجتث على شاكلة قوله[1]:

ويلىَ ممَّن جَفَانى وحبُّه قد بَرانى

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٩٢.

وَطيفُــهُ يلقــانى وشَخْصُــهُ غيرُ دانى
أغرُّ كالبدر تَعْشَى بحسنــه العَيْنانِ

ولم يلبث الشاعر العباسى أن حاول النفوذ إلى أوزان جديدة ، وإذا هو يكتشف وزنين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض ، وهما وزنا المضارع والمقتضب ، أما المضارع فأجزاؤه مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن ، ودائمًا تُحْذَفُ فيه التفعيلة الأخيرة ، ومنه مقطوعة أبى العتاهية [١] :

أيا عُتْبَ ما يضرُّ ك أن تطلقى صِفادى[٢]

وأما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن ، وتُحْذَفُ منه التفعيلة الأخيرة أيضًا ، كما يلقانا عند أبى نواس فى مقطوعته [٣] :

حاملُ الهَوَى تَعِبُ يستخفُّــه الطَّربُ
إن بكى يحقُّ له ليس ما به لَعِبُ

وواضح أن هذا الوزن أكمل نغماً وإيقاعاً من سابقه ، ولعل ذلك هو الذى جعله يشيع ويتداوله الشعراء ، بينما كادوا يهملون المضارع . واكتشف الشــاعر العباسى أيضًا وزن المتدارك أو الخبب ، ويقال إن الخليل لم يسجله فى عروضه ، إنما سجله تلميذه الأخفش [٤] ، ولكنه إن كان لم يقترح له اسما فإنه عرفه ونظم منه أشعارًا مختلفة [٥] ، من مثل :

أبكيتَ على طَلَلٍ طَرَباً فشَجاك وأحزنك الطَّلَلُ

ومثل :

ليس المرءُ الحامى أنْفاً مثلَ المرء الضَّيْمِ الراضى[٦]

---

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص١٣٢ .
(٢) الصفاد : القيد .
(٣) الديوان ص ٣١٦ .
(٤) شرح الدمهورى على الكافية (طبع مكتبة محمود توفيق) ص ٣٩ .
(٥) إنباه الرواة ٣٤٢/١ وانظر مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ص ٣٢ .
(٦) الحامى أنفا : العزيز الأبى . الضيم : الذليل .

وبذلك وضع للشاعر العباسى منه نماذج كى يحاكيها ، وكان أولَ مَن بادر إلى محاكاته — فيما نظن — أبو العتاهية فله على نسق مقطوعته الثانية بيتان نظمهما فى بعض القضاة على هذه الشاكلة[١] :

همُّ القاضى بَيْتٌ يُطْرِبْ قال القاضى لما طُولِبْ
ما فى الدنيا إلا مُذْنِبْ هذا عُذْر القاضى واقلبْ

والحق أن الخليل اكتشف للشعراء أوزاناً جديدة كثيرة لم يستخدمها أسلافهم ، وذلك أنه — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — استضاء بفكرة التباديل والتوافيق الرياضية فى وضع عروض الشعر ، إذ جعل أوزانه تدور فى خمس دوائر أو بعبارة أدق تدور أجزاؤها من الأسباب والأوتاد ، فإذا هو يحصى الأوزان التى استخدمها العرب واضعاً لها ألقابها ويحصى أو يستنبط أوزاناً أخرى مهملة لم يستخدموها فى أشعارهم ، كى ينفذ منها الشاعر العباسى إلى ما يريد من تجديد فى أوزان الشعر وبحوره . وكان من أوائل من استغلوا صنيعه تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمَيْدَع البصرى ، وفيه يقول أبو الفرج : « أخذ العروض عن الخليل بن أحمد ، فكان مقدَّما فيه وانقطع إلى آل سليمان بن على ، وأدَّب أولادهم ، وكان يمدحهم كثيراً . . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبة فى شعره ، ثم أخذ ذلك عنه ونَحا نحوه فيه رُزَيْن العَرُوضى ، فأتى فيه ببدائع جَمَّة ، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس »[٢] . ولم يصلنا من شعره سوى قصيدة واحدة احتفظ بها ياقوت فى معجمه ، وهى فى مديح الحسن بن سهل وزير المأمون ، وأولها :

قَرَّبوا جمالهمُ للرحيل غُدْوَةً أحبَّتك الأَقربوك
خَلَّفوك ثم مضوا مدلجين مفرداً بهمِّك ما ودَّعوك[٣]

وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناها تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة ، هو عكس وزن المنسرح ، فوزنها مفعولات مستفعلن فاعلن . وربما كان أهم شاعر

---

(١) المسعودى ٣/٣٦٠ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٦٦/١٦٠ .
(٣) مدلجين : سائرين ليلا .

نابه عُنى بصنع أشعار على تلك الأوزان المهملة ، هو أبو العتاهية ، فقد روى له ابن قتيبة قوله [١] :

للمنون دائراتٌ يُدِرْن صَرْفَها هُنَّ ينْتَقِيننا واحداً فواحدا

وقوله :

عُتْبَ ما للخيال خَبَّرينى ومالى لا أراه أتانى زائرًا مُذْ ليالى

ووزن البيت الأول فاعلن مستفعلن مرتين فهو عكس البسيط بينما وزن البيت الثانى فاعلن فاعلاتن مرتين وهو عكس وزن المديد . والوزنان جميعًا من الأوزان المهملة التى تستنبط من دوائر الخليل . على أنه ينبغى أن نعرف أن هذه الأوزان المهملة التى استخدمها أبو العتاهية ورزين وابن السميدع لم تشع على ألسنة العباسيين ، وكأنهم أحسوا نقص أنغامها وإيقاعاتها بالقياس إلى الأوزان المستعملة . وينسب إلى هذا العصر وزن شعبى هو وزن « الموالیا » ويقال إن سبب ظهوره أن الرشيد منع الناس من رثاء البرامكة ، فلم يجرءوا على رثائهم ، ولكن جارية لجعفر بن يحيى البرمكى بكته فى أشعار نظمتها من هذا الوزن بالعامية ، وكانت تختمها بكلمة « ياموالیه » غير أن هذه القصة — فيما يظهر — أسطورة إذ لم يثبت أن الرشيد منع الشعراء من رثاء البرامكة ، وفى كتب الأدب من مراثيهم أشعار كثيرة . ولعل مما ينقضها نقضًا أن ابن تغرى بردى أنشد مواليا للعتّابى شاعر البرامكة والرشيد على هذا النمط [٢] :

يا ساقياً خُصَّنى بما تهواهُ لا تمزج أقداحى رعاك الله

دَعْها صِرْفاً فإننى أمزجها إذ أشربها بذكر من أهواه

وكأن الموالیا لم تبدأ عامية ملحونة ، وإنما بدأت فصيحة ، ثم تحولت إلى العامية ، إذ ازورَّ عنها شعراء الفصحى كما ازوروا عن الأوزان المهملة السابقة .

وعلى نحو ما جدّدوا — لهذا العصر — فى الأوزان جدّدوا فى القوافى مستحدثين ما سموه باسم المزدوج والمسمّطات ، أما المزدوج فالقافية فيه لا تطرد فى الأبيات ، بل تختلف من بيت إلى بيت ، بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وعادة تُنْظم من

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٦ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/١٨٦

أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقهًا دقيقًا وكل ما يتصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال .

٢

أبو نواس[1]

إذا مضينا بعد بشار إلى الجيل الذى خلفه رأينا تأثره بالحضارة الفارسية المادية يزداد اتساعًا كما تزداد ثورته على العُرْف والخلق والدين الحنيف ، حتى لتتحول فى بعض جوانبها إلى صياح وعجيج وضجيج ، وطبيعى أن ذلك لم يكن عامًا بحيث يشمل الجيل كله ، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح ، إنما كان ذلك يَسْرِى بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المجون وبيوت اللهو والعبث ، فإن تركوها فإلى دورهم التى حوّلوها إلى مقاصف للخمر والغناء يتطارحون فيها أشعارهم المعبرة عن غرائزهم وكل ما اقترن بها من شذوذ الغزل بالغلمان .

وأبو نواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه ، وهو فارسى الأم والأب أيضًا ، وقد انبهم أمر أبيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بنى سعد العشيرة اليمنيين ويتكنى بكنية يمنية هى أبو نواس ، وكذلك حين رأوا فى أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربى ، وتمادوا فصنعوا له نسبا فى بنى سعد

---

(١) راجع فى أبى نواس وترجمته وشعره الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص١٩٣ والأغانى (طبع الساسى) ١٨ / ٢ وتاريخ بغداد ٧ / ٤٣٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤ / ٢٥٤ وابن خلكان فى الحسن بن ابن هانىء ونزهة الألبّا ص٩٩ وشذرات الذهب ١ / ٣٤٥ ومرآة الجنان ١ / ٤٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٣ وأخبار أبى نواس لابن منظور ولأبى هفان وأبو نواس لعبد الرحمن صدقى وله أيضاً فى خمرياته كتاب ألحان الحان طبع دار المعارف وانظر أيضاً « أبو نواس الحسن بن هانىء » للعقاد نشر مكتبة الأنجلو المصرية ومقالات طه حسين عنه فى حديث الأربعاء الجزء الثانى وديوانه طبعة آصاف ، وقد طبع عدة طبعات .

العشيرة[١] . والصحيح أنه كان مولى فارسيًّا من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى[٢] والى خراسان لعهد عمر بن عبدالعزيز ، ويظهر أنه انتظم فى جند الخلافة[٣] ، وقدنزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (١٢٧–١٣١ هـ) وهناك تعرَّف على جارية فارسية تسمى جُلْبان كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترن بها ورُزِقَ منها عدة أولاد[٤] ، منهم أبو نواس ، واختلف الرواة فى السنة التى ولد فيها ، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة[٥] ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى أبوه ، فنقلته أمه إلى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان ما دفعته إلى الكُتَّاب ، فحفظ القرآن وأطرافًا من الشعر ، وتفتَّحت موهبته ، فأخذ يلهج ببعض الأشعار ، وكان مليحًا صبيحًا[٦] ، ويقال إن صبية وضيئة الوجه مرت به فمازحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضَّضة ، فقال على البديهة من أبيات[٧] :

ليس ذاك العَضُّ من عيبٍ لها إنما ذاك سؤالٌ لِلقُبَلْ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين ، فكان يذهب فى العشىّ إلى المسجد يستمع من أبى عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ويلتقط من أبى زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر[٨] وساقه القدر ليتعرَّف على والبة بن الحُباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، ويقال إن هذه المعرفة نشأت فى البصرة ، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار ، فوافقه ، وكان عنده والبة ، فلم تكد تقع عينه على أبى نواس حتى استظرفه ، فحثَّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة ، ولم يتردد الغلام ، فمضى معه[٩] ، ويقال إن الذى أرغبه

---

(١) انظر أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٣ .
(٢) الاشتقاق لابن دريد (نشر الخانجى) ص ٤٠٦ وابن المعتز ص ١٩٤ وأبو هفان ص ١٠٩ ، ١٢١ .
(٣) وقيل : بل كان كاتباً من كتاب الخراج وقيل بل كان حائكاً . انظر ابن منظور ص ٤ .
(٤) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٤ وما بعدها .
(٥) ابن المعتز ص ١٩٤ وانظر ابن منظور ص ٥ .
(٦) راجع ابن منظور ص ٦ وابن المعتز ص ٢٠٨ وذيل زهر الآداب للحصرى ص ٩٤ .
(٧) ابن المعتز ص ٢٠٨ .
(٨) ابن منظور ص ٢٣ وما بعدها وأبو هفان ص ١٠٩ .
(٩) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ١٣ / ٤٨٧ . وأبو هفان ص ١٠٩ .

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله[١]:

ولها ولا ذنبٌ لهـا حُبٌّ كأطراف الرماحِ
فى القلب يَجْرَحُ دائماً فالقلبُ مجروحُ النواحى

وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه — فيما بعد — فى المجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه فى البصرة[٢] ، فارتحل معه ، وأخذ يَعُبُّ من الخمر كى ينسى أمه ، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد وقع فى حبائل شيطان كبير ، غمسه فى كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه مجّان الكوفة من أمثال مطيع بن إياس وحماد عَجْرد ، وكأنما كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والمجون لعصره . وثاب قليلا إلى رشده ، فخرج إلى بادية بنى أسد ، وظل بينهم حولا كاملا يتزود من ينابيع اللغة[٣] ، وعاد ، ولكنه ولّى وجهه نحو موطنه ، وأخذ يفد على المربد بألواحه للقاء الأعراب الفصحاء[٤] ، كما أخذ ينهل من دروس اللغويين ومحاضراتهم وخاصة خلفاً الأحمر الذى حثّه على حفظ الشعر القديم وحفظ المئات من أراجيزه ، وكان خلف من أشعر رواة عصره وأعلمهم فحمل عنه أدبا واسعاً ، وفيه يقول فى بعض مراثيه له[٥]:

أوْدَى جِماعُ العلم إذ أوْدَى خَلَفْ من لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ
كنا متى ما نَدْنُ منه نَغْتَرِفْ روايةً لا تُجْتَنَى من الصُّحُفْ

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه: « كان عالما فقيهاً عارفا بالأحكام والفُتْيا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه »[٦] . وطلب أيضًا علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين ، ومرّ بنا فى الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم فى أشعاره ، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلماً ثم انتقل إلى نظم الشعر[٧] . وقد وصله هذا العلم

---

(١) ابن المعتز ص ٢٠٨ .
(٢) ابن منظور ص ٣٢ وما بعدها .
(٣) ابن منظور ص ١٢ .
(٤) الحيوان ٦/٢٣٩ .
(٥) الديوان ص ١٣٣ .
(٦) ابن المعتز ص ٢٠١ .
(٧) ابن المعتز ص ٢٧٢ وانظر الحيوان ٤/٤٥٠

بالثقافات التى كان يتصل بها المتكلمون، ومرت بنا أمثلة تصور أخذه من الثقافات الهندية ، ولا شك فى أن اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقًا فقد كان فارسى الأصل ، وكان يحسن الفارسية إحسانًا بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها فى أشعاره ، ولا بد أنه نظر فيما ترجمه ابن المقفع وغيره من آدابها المختلفة ، وأيضًا لا بد أنه نظر فى الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من منطق بحكم تثقفه بعلم الكلام، إذ كان المتكلم لا يتمكن فى هذا العلم ولا يجمع أفكاره « حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة »[١] . وفى خمرياته ما يدل دلالة واضحة على أنه وقف وقوفًا دقيقًا على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم[٢] . وتفرَّغ للنوادر والملح وحفظ منها شيئًا كثيراً[٣] ، وتصادف أن كان خفيف الروح ظريفًا[٤] ، مما أعدَّه لتكثر مطايباته ومداعباته ، وليكون سميراً للخلفاء والوزراء ويصف ذلك من نفسه ليحيى بن خالد البرمكى ، فيقول: [٥]

كم من حديثٍ معجبٍ لى عندكا ... لو قد نبذتُ به إليك لسرَّكا

إنى أنا الرجلُ الحكيم بطبعه ... ويزيد فى علمى حكاية من حكى

أتتبَّع الظرفاء أكتب عنهمُ ... كيما أحدِّث من أُحبُّ فيضحكا

وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريبًا من نفس المرأة التى عاصرته ، فقد كانت تَزْدرى فيه غلامياته وسيرته الشاذة ، وكانت أول امرأة شغفته حبا ، وهو لا يزال فى البصرة يختلف إلى المربد وحلقات العلماء ؛ جنان جارية الثقفيين ، وعقد أبو الفرج فصلا فى أغانيه[٦] لأشعاره فيها وأخباره معها ، ونراه يرسل لها بغزلياته ، وترسل له بسبِّها وشتمها ، وهو يزداد بها شغفًا ، حتى ليقول[٧]:

أتانى عنك مَبْلُكِ لى فسُبِّى ... أليس جرى بفيك اسمى فحَسْبى

وقُولى ما بدالكِ أن تقولى ... فما ذا كلُّه إلا لحُبِّى

وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه . وجذبته بغداد فيمن جذبت من شعراء

---

(١) الحيوان ٢/١٣٤ .
(٢) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص١٢٣ وأبا هفان ص٢٥ والديارات للشابشتى (طبع بغداد) ص ١٣١ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠١ .
(٤) ذيل زهر الآداب ص ٩٤ .
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٢ .
(٦) أغانى (طبع الساسى) ٢/١٨ وما بعدها.
(٧) الديوان ص ٣٦٢ .

البصرة ، ففارق موطنه إلى غير رجعة لا باكياً عليه ولا آسفاً ، إذ كانت حياته فيه سلسلة من الإخفاق فى علاقته بجنان وعلاقته بالرفاق حتى كان يشعر كأنه سليب الحرية ، وفى ذلك يقول[١] :

أيا من كنت بالبَصْر ة أصفى لهم الوُدّا
ومن كانوا مــوالىَّ ومن كنت لهم عَبْدا
ومن قد كنت أرعاه وإن ملّ وإن صَدّا
شربنا ماءَ بغدادٍ فأنساناكم جِــدّا
فلا تَرْعَوْا لنا عَهْدا فما نَرْعَى لكم عَهدا

ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدّمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فمدحه ونال جوائزه ، وأخذ ينفقها فى مباذله ، غير تارك حانةً بالكرخ أو فى ضواحى بغداد إلا ارتادها ، ملمّاً من حين لآخر بدير من الأديرة المنبثّة على شواطئ دجلة ، وكأنما تحولت حياته إلى حانة كبيرة يقترف فيها كل ما لذّ له من إثم وفجور ، وارتقى ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً لعله يزدجر[٢] ، ولكنه كان سرعان ما يعود إلى سيرته السيئة حين تُرَدُّ له حريته . وقد غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمنيين ، فأطال حبسه[٣] ، ثم عاد فعفا عنه ، وربما كان للبرامكة أثر فى هذا العفو المتكرر ، فقد كانوا يقربونه منهم ويغدقون عليه من بِرّهم ونوالهم الغَمْر ، ونراه يحزن عليهم حزناً عميقاً حين ينكبهم الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة ويرثيهم بمثل قوله[٤] :

لم يظلم الدهرُ إذ توالتْ فيهم مصيبــاتُه دِراكا
كانوا يجيرون مَنْ يُعادى منــه فعاداهمُ لذاكا

ويولّى وجهه نحو الفسطاط بمصر ، ليمدح والى الخراج بها الخصيب بن عبد الحميد ، وكان فارسياً مثله . وقد استقبله استقبالا حافلا ، وأضفى عليه من

---

(١) الديوان ص ١٦٦ .
(٢) أبو هفان ص ١٠٠ والموشح ص ٢٨٧ .
(٣) ابن منظور ص ١٥ .
(٤) أبو هفان ص ١٢١ .

نواله كثيراً ، كما أضفى عليه أبو نواس غير مدحة ، وله يقول[١]:

أنت الخصيبُ وهذه مِصْرُ فتدفَّقا فكلاكما بَحْرُ
النيلُ يُنْعش ماؤه مصراً وندالك ينعش أهلَه الغَمْرُ

وسرعان ما أخذ يحنُّ حنيناً شديداً إلى بغداد حيث المجون قائم على قدم وساق ، وصوَّر هذا الحنين بصور مختلفة ، من مثل قوله[٢]:

كفى حَزَناً أنى بفسطاط نازحٌ ولى نحو أكناف العراق حَنينُ

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفى وخلفه الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوَّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص ، واتخذ أبا نواس نديماً له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ، واستغلَّ ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين ، « فكان يعمل كتبا بعيوبه تُقْرَأ على المنابر بخراسان ، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلا شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هانئ ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم ، وهو القائل :

ألا فاسْقِنى خمراً وقل لى هى الخَمْرُ ولا تَسْقنى سرًّا إذا أمكن الجَهْرُ
وبُحْ باسْم من تَهْوَى ودَعْنى من الكُنَى فلا خَيْرَ فى اللذات من دونها سِتْرُ

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبى نواس فى المجون » . فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم ينته ، حينئذ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه ، فحبسه ، وقد مضى فى حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشيعاً فيها روحه الفكهة بما يُصوِّر من نسكه وعلامات السجود فى جبهته وحمله للمسابيح أو السُّبح فى ذراعه وللمصحف فى لَبَّته .[٣] وعطف عليه الفضل فتلطف له عند الأمين ورَدَّ إليه

---

(١) الديوان ص ١٠٢ .
(٢) الديوان ص ٣٩٩ وانظر ص ٩٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٨ .

حريته[١] . وكانت قد تقدمت به السنُّ وعلته كبرة وشيخوخة ، فأخذ يُنيب إلى ربه ، وينظم أبياتًا مختلفة فى الزهد ، وفى أخباره ما يدل على أنه تنسك مراراً ، ثم عاد إلى غَيِّه ، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد ، وحين كان يُلْقَى به فى السجن ، إذ يقال إنه حجَّ سنة ١٩٠ للهجرة[٢] ، وكأنما هى صحوات كان يفيق فيها ثم يرجع إلى خطاياه . وتوفى الأمين ، ولم يلبث أن توفى من بعده ، وقد اختلف الرواة فى تاريخ وفاته[٣] ، فمنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفى بعد المائتين بقليل وفى ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨ . واختلف الرواة أيضًا فى سبب وفاته[٤] ، فقيل إنه توفىّ وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماه بالبخل والرفض ، فدسَّ له شربة من سَمٍّ قتلته بعد أربعة أشهر ، وقيل بل دسَّ له مَنْ ضربه حتى مات .

ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على أن عناصر كثيرة اشتركت فى تكوين طبيعة أبى نواس ، فقد كان فارسيًّا حاد المزاج وثقف كل الثقافات التى عاصرها من عربية وإسلامية ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية ، وغرق فى حضارة عصره المادية وفى آثامها وخطاياها ، تدفعه إلى ذلك أزمته النفسية العنيفة إزاء سيرة أمه المنحرفة وكأنما اتخذ من المجون والفسق أداة ، بل ملجأ ، للهروب من أزمته ومن هموم الحياة وأحزانها ، وتردَّى فى أسوأ صور المجون ونقصد غزله الشاذ بالغلمان . ونراه أحيانًا يعلن تمرداً وإلحاداً فى الدين ، ولكنه إلحاد عابر ، لا إلحاد عقيدة كإلحاد بشار ، فقد كان بشار زنديقًا ، وكان يظهر زندقته حين لا يخشى على نفسه ، ويبطنها حين يأخذه الخوف ، أما أبو نواس فلم يكن يعتنق الزندقة إنما كان يعتنق المجون ، ويتعبد لملاذّ الحضارة التى عاشها ، فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقًا عن خمره ومجونه وإثمه . وهو من هذه الناحية مضطرب

---

(١) زهر الآداب ١١١/٢ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص ١٣٦ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أبو هفان ص ٩٨ وانظر النجوم الزاهرة ١٥٦/٢ .

(٣) ابن منظور ص ٥ والشعر والشعراء ص ٧٨٣ .

(٤) أبو هفان ص ٣٤ .

أشد الاضطراب تارة يعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور[١] وتارة يعلن أنه مؤمن عاص ، وأنه على الرغم من جهره بعصيانه وفسقه يعتمد على عفو الله ومغفرته على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل السابق وحواره للنظام فى فكرة العفو التى قال بها المرجئة[٢] .

ولا بد أن نلاحظ مع ذلك كله عنصراً مهماً فى مزاجه هو عنصر التنديد والميل إلى الهزل والعبث ، ولعل ذلك هو الذى جرَّه إلى صياح كثير فى وجه الدين الحنيف ، وكان إذا تلوَّمه بعض معاصريه قال : « والله ما أدين غير الإسلام ولكن ربما نَزَا بى المجون حتى أتناول العظائم »[٣] وهو بذلك يعترف أن جمهور هذا الصياح إنما كان ينظمه فى أثناء معاقرته للخمر هزلا وتعابثا ومجانة ، ومن أجل ذلك ترددت نبراته فى خمرياته ، إذ نراه فى ثناياها يهاجم الدين أو يهاجم العرب ووقوف شعرائهم على الأطلال ، حتى إذا صحا وعادت إليه يقظته أوقف ثورته على الدين والعرب جميعاً ومضى يقدم لمدائحه بوصف الأطلال وبكاء الديار ونَعْت رحلته فى الصحراء على ناقته أو بعيره . .

وأبو نواس — على الرغم من مجونياته — يُعَدُّ من أعاجيب عصره فى الشعر ، إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة ، وهى ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس »[٤] وأضاف إلى هذا العلم علما دقيقاً بقوالب الشعر الجاهلى والإسلامى وما صارت إليه عند بشار وأضرابه من أوائل العباسيين ، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو فى اتجاهين : اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة دون أن يشتط فى التجديد ، واتجاه يجدد فيه تجديداً واسعاً ، يجدد فى معانيه وألفاظه .

ويمكن أن نسلك فى الاتجاه الأول مدائحه وأراجيزه ومراثيه ، بينما نسلك فى الاتجاه الثانى أهاجيه وغزلياته وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه ولهوه . أما المديح

---

(١) أبو هفان ص ٣٧ .
(٢) انظر الديوان ص ٢٣٥ .
(٣) أبو هفان ص ٣٨ .
(٤) تاريخ بغداد ٧/٤٣٧ .

فكان كثيراً ما يحتفظ فيه بمقدماته القديمة وله فى ذلك قلائد بديعة مثل رائيته فى الخصيب[١] :

أجارة بَيْتينا أبوكِ غَيورُ ... وميسورُ ما يُرْجَى لديكِ عسير

وميميته فى الأمين[٢]:

يا دارُ ما فعلتْ بك الأيَّامُ ... لم تُبْقِ فيكِ بشاشةً تُسْتامُ[٣]

ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار فى وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه فى المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله فى الرشيد[٤]:

وأخفتَ أهل الشِّرْك حتى إنه ... لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

وقوله أيضًا فيه[٥]:

ملكٌ تصوَّر فى القلوب مثالُهُ ... فكأنه لم يَخْلُ منه مكانُ

وقوله فى الأمين مخاطبًا ناقته[٦]:

يا ناقُ لا تَسْأمى أوتبلغى ملكا ... تقبيلُ راحته والرُّكْنِ سيَّانِ

محمدٌ خير من يَمْشِى على قَدَمٍ ... مِمَّنْ بَرَا اللهُ من إنْس ومن جانِ

ونراه فى هذه القصيدة يضفى على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى ليشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم مما كان يتردَّى فيه من لهو ومجون ، واستطرد فى تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين فى الخلافة رادًّا ردًّا عنيفًا على بنى عمهم العلويين . ومن مبالغاته الطريفة قوله فى بعض ممدوحيه[٧] :

تغطَّيتُ من دهرى بظِلِّ جناحِه ... فعَيْنى ترى دَهْرى وليس يرانى

فلو تُسْأَل الأيامُ ما اسمى لمادرتْ ... وأين مكانى ما عرفْنَ مكانى

وجانب آخر فى بعض مدائحه يمتاز به من بشار فإنه كان يعمد كثيراً إلى

---

(١) الديوان ص ٩٨ .
(٢) الديوان ص ٦٣ .
(٣) تستام : ترى
(٤) الديوان ص ٦٢ .
(٥) الديوان ص ٥٩ .
(٦) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .
(٧) الديوان ص ٩٧ .

الألفاظ العذبة الرشيقة التى تموج بالنعومة والخفة فيؤلف منها مدائحه على شاكلة سينيته فى الأمين وفيها يقول[١]:

أضحى الإمام محمدٌ للدين نورًا يُقْتَبَسْ
تبكى البدورُ لضِحْكهِ والسيفُ يضحك إن عَبَسْ

وكان له حس دقيق وذوق مرهف، يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشقها وأخفّها فى النطق وأحلاها فى السمع، وكان يدنو فى ذلك حتى يمس شغاف القلوب، إذ كان يحسن اختيار أسهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجرى على ألسنة الناس فى حياتهم اليومية. ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء، حتى فى المديح، أو قل فى كثير منه، فإنه كان يبتغى فيه أو على الأقل فى بعضه أن يأخذ بألباب سامعيه بما يعرض عليهم من لغة عذبة تسيل خفة ورشاقة.

وأبو نواس فى أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكًا بالقوالب القديمة، وقد سبقه، كما مر بنا فى غير هذا الموضع، أبو نُخَيلة وأضرابه من شعراء العصر الأموى مثل الشَّمَرْدَل إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف، ومضى فى إثرهم يحاكيهم فى التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب. وقَرَن بهذه المحاكاة الشديدة ضروباً من التجديد فى المعانى والصور على شاكلة قوله فى إحدى طردياته[٢]:

لما تبدَّى الصُّبْح من حجابهِ كطلعة الأَشْمَط من جلبابهِ[٣]
وانعدلَ الليلُ إلى مآبهِ كالحبشىِّ افترَّ عن أنيابه
هِجْنا بكلب طالما هِجْنا بهِ يَنْتَسِفُ المِقْوَدَ من كَلاَّبه[٤]
كأَن مَتْنَيه لدى انْسِرابهِ مَتْنا شجاعٍ لَجَّ فى انسيابه[٥]

---

(١) ابن المعتز ص ٢١١.
(٢) الديوان ص ٢١٠ والحيوان ٢/٤٠.
(٣) الأشمط: الذى يخالط سواد شعره بياض الشيب.
(٤) ينتسف: ينتزع بقوة.
(٥) انسرابه: انسيابه وإسراعه. الشجاع هنا: الأفعى، متناه: مكتنف صلبه.

كأنما الأظفورُ فى قِنابهِ مُوسَى صَناعٍ رُدَّ فى نِصابهِ[١]

كأَن نَسْرًا ما توكَّلْنا بهِ يعفو على ما جَرَّ من ثيابهِ[٢]

ترى سَوام الوحش يُحْتَوى بِه يَرُحْنَ أَسْرَى ظُفْرِه ونابه[٣]

وتمتلئ طردياته بمثل هذه الصور ، وهى تُعَدُّ ركنا هامًّا فى شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات ، وكان يعرف كيف يجدد فيها وكيف يأتى بالطريف النادر .

وكان يتخير لمراثيه أسلوبًا جزلا مصقولا ، وقد يكثر فيه من الغريب ، وخاصة إذا كان من يبكيه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذه ، وقد يتخفف من ذلك ، ولكنه على كل حال يظل محتفظًا بالأسلوب الرصين . وهو فى مراثيه يمتاز بحرارة اللهجة وصدق العاطفة ، وربما كان أجودها جميعًا مراثيه فى الأمين ، وهى تفيض باللوعة والحزن العميق من مثل قوله[٤] :

طوى الموْتُ ما بينى وبين محمَّدٍ وليس لما تَطْوى المنِيَّةُ ناشرُ

فلا وصلَ إلا عَبْرَةٌ تستديمها أَحاديثُ نَفْسٍ مالها الدهرَ ذاكر

وكنت عليه أَحذر الموت وحده فلم يبق لى شىءٌ عليه أحاذر

لئن عَمرتْ دورٌ بمن لا أَودُّهُ لقد عَمرتْ ممن أُحبُّ المقابرُ

ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التى نظمها فى السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع[٥] .

وإذا كان أبو نواس اعتدَّ فى كل تلك الأغراض بسنن الأسلوب الموروثة ، فإنه حاول أن يجدد فى الهجاء والغزل والمجون ، وأهاجيه نوعان : نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية ، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين[٦] وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائض جرير والفرزدق ، فهى تعجّ بالمثالب

---

(١) الأظفور : الظفر ، قنابه : غطاؤه . صناع : ماهر . نصابه : قرابه ومقبضه .

(٢) توكلنا به : اعتمدنا عليه . يعفو : يمحو .

(٣) سوام الوحش : الوحش المنطلقة فى الفيافى .

(٤) الديوان ص ١٢٩ .

(٥) الديوان ص ١٠٦ وما بعدها .

(٦) الديوان ص ١٥٥ وما بعدها .

القبلية التى عرفها فى نقائضهما والتى طالما سمعها من أبى عبيدة وهو يحاضر فيها طلابه بالبصرة ، ونوع ثان كان يجرى فيه فى نفس الدروب التى مهّدها من قبله بشار ، إذ نراه يشغب على العرب من جهة ، ويحاول أن يطلق على خصومه نفس السهام المسمومة التى كان يطلقها بشار وبعض من عاصروه . وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار ، فشعوبيته — إن صح هذا التعبير — من لون آخر ، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين ، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجرى فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفًا ، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله[١] :

عاج الشقيُّ على رسمٍ يسائلُهُ ... وعُجْت أسألُ عن خمّارة البلدِ[٢]
يبكى على طَلل الماضين من أَسَدٍ ... لا دَرَّ دَرُّك قل لى من بنو أسدِ؟
كم بين ناعتِ خمرٍ فى دَساكرِها ... وبين باكٍ على نُؤْيٍ ومنتضَدِ[٣]
دَعْ ذا ، عَدِمتك ، واشربْها معتّقَةً ... صفراءَ تفرق بين الروح والجسد

ونحن نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك — كما ذهب بعض المعاصرين[٤] — شعوبية حقة ، إنما هو تماجن وإمعان فى التماجن . ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية ، بل لقد بكاها كثيراً . وقد دفعته حدة مزاجه إلى الاصطدام بكثيرين من الشعراء وممن كان يمدحهم ويرعى على موائدهم مثل إسماعيل بن نوبخت وكان ما يزال يرميه بالبخل من مثل قوله[٥] :

خُبْزُ إسماعيل كالوَشْـ ... ـيِ إذا ما انشقَّ يُرْفَا
عجبًا من أثر الصَّنْـ ... ـعَةِ فيه كيف يخفى

---

(١) الديوان ص ٢٦٦ .
(٢) عاج : عطف .
(٣) الدساكر : جمع دسكرة وهى القرية العظيمة . النؤى : حفرة حول الخيمة لمنع السيول ، منتضد : مكان تجمع الناس ، يريد ديار الحبيبة .
(٤) حديث الأربعاء (طبعة سنة ١٩٣٧) ص ١١٣ — ١١٤ .
(٥) الديوان ص ١٧٢ .

إن رفاءَك هذا ألطفُ الأُمــة كَفًّا

وأهم شاعرين اصطدم بهما أبان بن عبد الحميد وفضل الرقاشى ، أما أبان فكان البرامكة يقيمونه على ديوان الشعر والشعراء بقدر جوائزهم ، فبخَسَه جائزته[١] ، ويقال بل إن البرامكة طلبوا إلى أبى نواس أن ينقل لهم كليلة ودمنة شعراً ، فنصح له أبان أن لا يصنع لما يجشمه ذلك من صعاب كثيرة ، فاستعفى منه ، وتخلّى به أبان فترجمه ، وأعطاه البرامكة على ترجمته مالا جزيلا . وعرف ذلك أبو نواس وتبين له أنه احتال عليه ، فهجاه ونشبت بينهما خصومة عنيفة[٢] ، كان أبو نواس ما يزال يرميه فيها بالزندقة واقتراف الآثام[٣] ، وكان من أشد ماهجاه به على نفسه نعته له بصفات لا تليق بمن يكون سميراً للوزراء من أمثال البرامكة ، إذ يقول فى إحدى أهاجيه مصورا ثقله[٤] :

فيك ما يَحْمل الملوكَ على الخُرْ ق ويُزْرى بالسيد الجَحْجاحِ[٥]
فيك تِيهٌ وفيك عُجْبٌ شَديدٌ وطِماحٌ يفوق كلَّ طِمــاحِ
باردُ الظَّرف مظلم الكذْب تيَّا هٌ مُعيد الحديث غَثُّ المزاح

وكانت هذه الأبيات سبباً فى سقوط أبان عند البرامكة ، وصار له كالعَبْد لا يلقاه ولا يُذْكر له إلا بجلّه . ويظهر أن اصطدامه بفضل الرقاشى يرجع إلى تقديم أبان والبرامكة له ، وكان خليعًا ، فأتاه أبو نواس من هذا الجانب كثيراً ، وله يقول[٦] :

واللهِ لو كنتُ جريرًا لمــا كنت بأَهْجَى لك من أَصْلكا

وله أهاج كثيرة فى القيان والمغنين ، وحتى مَنْ أكرموه مثل الخصيب والبرامكة لم يسلموا من هجائه ، وهو فيه دائمًا يلتمس السيئات وكثيراً ما يُفْضى إلى فحش وإقذاع شديد .

ولأبى نواس غزل كثير فى المرأة والغلمان ، وأروع ما له من غزل فى المرأة ما نظمه فى جنان ، إذ يعبّر فيه عن مشاعر صادقة ، ومن الغريب أنها كانت

---

(١) ابن المعتز ص ٢٠٢ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٤١ .
(٣) الديوان ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) ابن المعتز ص ٢٠٣ .
(٥) الخرق : الحمق . الجحجاح : الجواد .
(٦) الديوان ص ١٧٨ .

تردّه ردًّا منكراً عنيفًا ، وهو كلما ردّته ازداد بها غرامًا وعليها تهالكاً ، وكلف بها أشد الكلف ، وله فيها مقطوعات بديعة من مثل قوله ، وقد رآها تندب فى بعض المآتم[١] :

يا قمرًا أبصرتُ فى مأتمٍ ... يَنْدب شَجْوًا بين أَتْرابِ
أبرزه المأتَمُ لى كارها ... برغم دايات وحُجَّاب
يبكى فيُذْرِى الدُّرَّ من نرجسٍ ... ويَلْطِمُ الوَرْدَ بعُنَّابِ[٢]
لا تَبْكِ مَيْتًا حلَّ فى حُفْرَةٍ ... وابْكِ قتيلا لك بالباب
لا زال موتاً دَأْبُ أحبابه ... وكان أَنْ أُبْصره دابى[٣]

وعبثا استطاع يومًا أن يلقاها ، مما جعله يصطلى حقدًا بحبها وناره المحرقة ، ويتعذب عذابًا طويلا ، بثّه فى كثير من أشعاره ، ولعلها المرأة الوحيدة التى استأثرت بقلبه وملكت عليه كل شىء من أمره . ونراه فى بغداد يسوق غزلا كثيراً فى إمائها وجواريها ، يشوبه بكثير من الفحش الذى ينبو عنه الذوق ، حتى مع عنان جارية الناطفى ، وكانت شاعرة ظريفة ولها أيام تستقبل فيها الشعراء وتطارحهم الشعر ، ممعنة معهم فى كل ما يخوضون فيه من بذاءة تظرفاً ومعابثة[٤] . وديوانه من هذه الناحية يصور الجوارى المبتذلات اللائى كان يجلبهن النخاسون إلى بغداد ، وكانت كثيرات منهن يقبلن على الخلاعة والمجون ، وقلما عَرَفْنَ شيئًا من العفة والطهارة .

ويتسع الفحش فى غزل أبى نواس الشاذ بالغلمان ، حتى ليصبح وصمة فى جبين عصره ، وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يتستّر بذلك عن فسقه الحقيقى بالجوارى الخليعات[٥] . وإذا صح ذلك يكون من الخطأ أن تفسّر نفسية أبى نواس على أساس هذه الآفة الشاذة التى كان يتظاهر بها ليخفى حقيقة سريرته وحياته الماجنة . وينبغى أن نلاحظ هنا ما أشرنا إليه فى حديثنا عن إلحاده ، فإن كثيراً من غزله المفحش فى الغلمان والنساء جميعًا كان ينظمه فى مجالس الخمر تعابثًا

(١) أغانى ١٨/٦ والديوان ص ٣٦١ .
(٢) استعار الدر للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعناب لأطراف الأصابع .
(٣) الدأب : الشأن والعادة .
(٤) العقد الفريد ٦/٥٧ .
(٥) ابن المعتز ص ٣٠٩ .

ومجانة ، على أننا كثيراً ما نقع فى ثنايا هذا الغزل على أبيات رائعة من مثل قوله[١]:

يا مَنْ له فى عَيْنه عَقْرَبُ فكلُّ مَنْ مرَّ بها تضربُ
ومن له شمسٌ على خَدِّهِ طالعةٌ بالسَّعْد ما تَغْرُبُ

وهو أستاذ فن الخمرية فى الشعر العربى غير مدافَع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، فقد عاش للخمر يتغنَّى بها ، مجاهراً بالفسوق والمجون . وكان شىء من ذلك قد أخذ يشيع على ألسنة الشعراء منذ ظهور الوليد بن يزيد ، ونمَّاه بشار ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وعصاباتهم من المجان فى البصرة والكوفة ، غير أن أبا نواس اتسع به اتساعاً شديداً ، فإذا الخمرية تتكامل صورتها وتُفْرَدُ لها القصائد والمقطوعات وتصبح فنًّا مستقلا ، له وحدته الموضوعية ، مستعينًا فى ذلك بملكاته العقلية الخصبة التى أمدته بكثير من المعانى الدقيقة ومستعيناً أيضًا بملكاته الخيالية التصويرية البديعة التى رفدته بكثير من التشبيهات والاستعارات البارعة ، وحتى إن فاته التصوير النادر والمعنى الدقيق أحيانًا فإنه لم تكن تفوته حلاوة النغم ورشاقة اللفظ . وقد مضى يتحدث عن كئوسها ودنانها وعتقها وطعمها ورائحتها ومجالسها مصوراً كلفه بها وهيامه وتهالكه على احتسائها من أيدى سقاتها بين آلات الطرب ورنَّات القيان ، يقول[٢]:

إنما العيشُ سماعٌ ومُدامٌ ونِدامُ
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا سلام

فلا حياة فى رأيه سوى حياة الخمر والمجون فى بيوت القيان وفى الحانات ، ومن ثَمَّ مضى يدعو فى خمرياته دعوة واسعة إلى العدول عن وصف الأطلال إلى وصف الخمر والمتاع بما يقترن بها من غناء وسُقاة ، على نحو ما يصور ذلك فى قوله[٣]:

لا تَبْكِ ليلى ولا تطربْ إلى هِنْدِ واشْرَبْ على الورد من حمراء كالوردِ
كأساً إذا انحدرتْ فى حَلْق شاربها أجْدَتْه حُمْرتَها فى العين والخَدِّ[٤]

---

(١) الديوان ص ٤٠٧ .
(٢) العقد الفريد ٦/٢٢١ .
(٣) الديوان ص ٢٦٥ .
(٤) أجدته : أفادته وأعطته .

فالخمرُ ياقوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ في كفِّ جاريةٍ ممشوقة القَدِّ
تسقيك من يدها خَمْرًا ومن فمها خمرًا فما لك من سُكرين من بُدِّ

وأخذ يجدِّف كثيراً ضد الدين الحنيف الذى يحرم الخمر وجملة الآثام التى كان يتردَّى فيها ، معلناً ذلك إعلانًا صريحًا بمثل قوله[1] :

ترى عندنا ما يُسْخط الله كلَّه من العمل المُرْدِى الفتى ماعدا الشِّرْكا

وقد يتمادى فى ذلك حتى ليعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا حساب ولا بجنة ولا نار ، وهو فى ذلك كله إنما يتماجن ويتعابث .

وكان كثيراً ما يلمّ بالأديرة ، فيصف معاقرته الخمر فيها وسُقاتها من الرهبان والراهبات ، وقد يلمُّ بحانة لمجوسى أو ليهودى . وأتاح له ذلك أن يصف كل تلك البيئات بالإضافة إلى حانات الكرخ ببغداد وعلى ضفاف دجلة ، وشعره من هذه الناحية ملىء بتصوير الحياة الاجتماعية لعصره .

وفى خمرياته فحش كثير ، وكأنما وُجد ليحمل ذنوب عصره وجميع خطاياه . على أنه ينبغى أن نلاحظ أنه وُضع عليه كثير من الشعر فى هذا الباب ، إذ تحول إلى ما يشبه شخصية أسطورية ، فإذا هو يدخل فى قصص ألف ليلة وليلة ، وإذا هو توضع فى فحشه ونوادره كتب مستقلة ، بدأها أبو هفان فى كتابه « أخبار أبى نواس » ومضت تتسع من بعده . وليس ذلك فحسب ، فإن كثيراً من أشعار المجّان الذين عاصروه أضيفت إليه ، وعَرف ذلك القدماء ، إذ نرى ابن قتيبة ينصُّ على أن الخمرية المشهورة : « ياشقيقَ النفس من حَكَم » تُنْسَبُ إليه وهى لوالبة[2] ، ويقول أبو الفرج فى ترجمة الحسين بن الضحاك الخليع إنه « كان إذا شاع له شعر نادر فى الخمر نسبه الناس إلى أبى نواس »[3] ويقول ابن المعتز : « إن العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعر فى المجون إلى أبى نواس ، وكذلك تصنع فى أمر مجنون بنى عامر ، كلُّ شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون »[4] ولم تقف المسألة عند العامة ، بل تعدتهم إلى الرواة ، وأيضًا لم تقف عند شعر الخمر والمجون

---

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٧٧١ .
(٣) أغانى ٧/١٤٦ .
(٤) ابن المعتز ص ٨٩ .

فقد نُسب إليه كثير من شعر معاصريه فى جميع الموضوعات، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة النظام فى ابن المعتز ، فسنراه ينشد له فى الخمر بيتين وردا فى ديوان أبى نواس[١]، وينشد له قطعة فى مديح الأمين جاءت أيضًا فى ديوان أبى نواس[٢]، وإذا تركنا ابن المعتز إلى أمالى المرتضى وجدناه ينسب قطعة دالية فى الغزل إلى النظام وهى مبثوثة فى الديوان[٣] وكأن الرواة حملوا عليه شعر المتكلمين لما رأوا فيه من غوص على المعانى وبعد فى الخيال والوهم . وكان حَمْلهم عليه لأشعار المجّان أوسع مدى ، بل إنهم حملوا عليه كثيراً من زهديات أبى العتاهية[٤]

ونحن لا نريد أن نبرئه من الفحش ولا من الغزل الماجن، إنما نزعم أنه حُمل عليه كثير فى هذا الباب ،ومن ثَمَّ ينبغى أن لا نتسع فى أحكامنا عليه، وربما كانت أسوأ رواية لديوانه رواية حمزة الأصفهانى ، فإنها تمتلىء بالشعر الموضوع عليه ، ولذلك لا يصح أن تتّخذ أساسا لدرسه وبحثه . وهو يعتدُّ فى كثير من خمرياته وغزلياته باللفظ المونق والأسلوب الرَّصين ، وله فيها مقطوعات كثيرة تسيل عذوبة ونعومة ، غير أن له أيضًا وراء ذلك كثيرا من الشعر المهلهل ، إذ « كان لا يقوم على شعره ويقوله على السكر كثيراً ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو فى الثُّرَيَّا جودة وحسناً وقوة وما هو فى الحضيض ضعفا وركاكة »[٥] . وكان كثيراً ما يُدْخل ألفاظًا فارسية فى خمرياته بحكم شيوع الفارسية فى الحياة اليومية وبين خلعاء الغلمان المجوس الذين كان يتغزل بهم ،ودَفَعه ذلك إلى استخدام كثير من أساليب العامة الغثَّة ، مما جعل بعض اللغويين والنحاة يصطدمون به وجعله يكثر من هجائهم . وكان إذا خلص من هزله وعبثه وأفضى إلى حاسته الفنية أتى بالعجب العجاب من روائع الشعر ونادره ، وكانت ترفده مواهب فنية أصيلة ، جعلته يحكم تصاويره ويجرى فيها كثيراً من الطباقات والمقابلات والجناسات البديعة .

وحين علت سِنُّ أبى نواس ووخَطه الشيب أخذ يفيق أحياناً من سكره مفكراً

---

(١) انظر ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ٢٦٢ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ١١٦

(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٨ والديوان ص ٤١٩ .

(٤) انظر الأغانى ٤/١١ ، ٢٩ ، ٧٠ والديوان على الترتيب ص ٢٠٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٥ .

فى الحياة وعواقبها وفى البعث والنشور والموت والفناء ، وكان من حين إلى حين ينيب إلى ربه ، مما جعله يردد أنغاماً مختلفة فى الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الشهوات ومتاع الحياة الزائلة والإعداد للآخرة بالتقى والعمل الصالح من مثل قوله[1] :

يا طالبَ الدنيا ليجمعها جمحتْ بك الآمال فاقتصِدِ
والقَصْد أحسنُ ما عملتَ له فاسلكْ سبيل الخير واجتهد
واعملْ لدارٍ أنت جاعلُها دارَ المقامة آخرَ الأبد

وكان يدعو الله ويبتهل له ابتهالات كثيرة . وكنا نتمنى لو اختلط مثل هذا التفكير فى الحياة والموت ومصير الإنسان والقدر وما ينزله بالناس من خير وشر بمجونياته وخمره ونشوته بها ، إذن لما انتظرنا طويلا حتى يوجد عمر الخيام ولكان أبو نواس خياما آخر ولوَجَد من مسائل الحياة الكبرى : مسائل المقادير والشقاء والسعادة والموت والفناء ما يشغله عن فسقه ومجونه وفحشه وهزله وعبثه الوقح مع الغلمان والجوارى . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه عُنى فى بعض أشعاره بقالب الرباعيات والمسمطات غير أنه لم يتسع بذلك ، وكان أهم ما وفَّر له عنايته صفاء النغم وعذوبته . ولعل ذلك هو الذى دفعه إلى الإكثار من الأوزان القصيرة والمجزوءة .

٣

أبو العتاهية[2]

وُلد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسان فى « عين التَّمْر » بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة ، وكان أبوه نبطياً من موالى بنى عَنَزة ، أما

---

(١) الديوان ص ١٩٣ .

(٢) راجع فى ذى العتاهية وأخباره وأشعاره أغانى (طبع دار الكتب) ٤/١ وطبعة الساسى فى ترجمة والبة ١٦/١٤٢ وترجمة سلم الخاسر ٢١/٧٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥ وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها و٣٦٤ وتاريخ بغداد ٦/٢٥٠ وابن خلكان والموشح ص ٢٥٤ ومرآة الجنان ٢/٤٩ وشذرات الذهب ٢/٢٥ ومروج الذهب للمسعودى ٣/٢٤٠ ، ٢٧٤ ، ٣٥٨ وزهر الآداب للحصرى ٢/٣٤ وما بعدها وأبو العتاهية لمحمد أحمد برانق (نشر لجنة البيان العربى بالقاهرة) . ونشرت ديوانه مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٨٦ م .

الفصل الثامن

تطور النثر وفنونه

١

تطور النثر

كان العصر العباسى الأول عصراً خطيراً حقاً فى تطور النثر العربى ، إذ تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التى أظلتها الدولة العباسية ، بحيث تدخّل جميع ذلك فى تركيبه وائتلف مع نسيجه ، وتولد منه جديد تلْوَ جديد .

وتم هذا التحول — كما مرّ بنا فى الفصل الثالث — عن طريقين : طريق النقل والترجمة ، وهو طريق عُنى به الخلفاء العباسيون — ووزراؤهم وخاصة البرامكة — إلى أبعد حد ممكن ، كما عنى به أفراد مختلفون مثل ابن المقفع وآل نوبخت . وطريق ثان لعله كان أوسع مجرى ، هو تعرب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط ، بل انتقلوا أيضًا بعاداتهم وتقاليدهم وطرائقهم فى المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة ، بل مما هيأ لظهور المدنية العربية فى تلك الأقاليم التى دانت بالإسلام ، وهى مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ومن الأدب العربى بشعره ونثره ومن صور الحياة العقلية والمادية فى المحيط العربى الجديد .

وعلى سُنَنٍ من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطوراً واسعًا ؛ إذ حمل خلاصة هذه المدنية ومُلئت أوانيه بشرابها الجديد الذى اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وقد أظهر النثر العربى مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوى كل هذه الينابيع وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كمجرى نهر كبير ترفده جداول من ثقافات متنوعة تنوعا لايكاد يُحَدُّ أو يحصى ،

وكل جدول يذوب فى النهر بمجرد دخوله فيه ، إذ يتحول عربيًّا ، ويتحول معه كل ما يحمل من سيول المعارف ، حتى الفلسفة والعلوم فإنهما لم يستعصيا على هذا التحول ، إذ سرعان ما صُبَّا فى قوالب عربية ملائمة .

وكان ذلك إيذانًا بتعدد شُعَب النثر العربى وفروعه ، فقد أصبح فيه النثر العلمى والنثر الفلسفى ، وأصبح فيه أيضًا النثر التاريخى ، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة ، وحتى النثر الأدبى الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجمته عن هذه اللغة لقصص كليلة ودمنة الهندى الأصل ونَقْله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونُظُمهم فى السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر فى الرسائل الديوانية وفى نشوء الرسائل الأدبية التى تُعنَى بالكتابة فى موضوع محدود ، مما نسميه اليوم باسم المقالات ، إذ يعالج الكاتب موضوعًا فى طائفة من الصحف .

ولم يقف النثر العربى عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التى جاءته من لدن الأجانب ، فقد انبرت العبقرية العربية فى هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشرعية ، وهو وضع كان واسع الأثر فى تمهيد اللغة وتيسيرها وجعلها لغة علمية محدَّدة الألفاظ والاصطلاحات التى ترسم المعانى رسما دقيقًا . وقد مضت هذه اللغة تركض ركضًا لا فى مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل أيضًا فى مجال العلوم الطبيعية والكونية ، فإذا لنا علماء كيماويون ورياضيون مختلفون ، لهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

وعلى نحو ما أثمرت العقلية العربية فى المجال العلمى أثمرت فى المجال الفلسفى وخاصة فى بيئات المتكلمين ، إذ مدُّوا مباحثهم فى العقائد الإيمانية إلى كل شعب الفلسفة ، واستطاعوا — وخاصة المعتزلة منهم — بأنظارهم العقلية أن يُدْلوا فى جميع هذه الشعب بآراء جديدة طريفة على نحو ما يفصِّل ذلك الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » حين يعرض لمذاهب المعتزلة المختلفة وما يقولونه فى الأجسام والأعراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والطفرة والوجود والعدم والروح والنفس والعقل وإدراك الحواس والكم والكيف والألوان والخير والشر .

وكل ذلك كان له آثار بعيدة فى النثر العربى ، لا من حيث الألفاظ

والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضًا من حيث ذخائر الفكر الفلسفى اليونانى والعربى التى التقت فى أوعيته وأوانيه والتى جعلته يعرف صورا من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها ، كما جعلته يعرف القياس المنطقى الصحيح وطرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعانى وفرق ما بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنوع والفصل والخاصة وما بين الحجة والشبهة والممكن والمحال والمعقول والموهوم والبرهان الجلىّ والبرهان الخفى ، مما جعل الفكر العربى يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلا بما لا يُحْصَى ولا يُسْتَقْصَى من الخواطر والمعانى .

ومن المؤكد أن التعبير عن كثير من هذه المعانى والخواطر لم يكن مألوفًا للعربية ، غير أنه قُيِّض لها من نابهى المتكلمين والكُتَّاب والمترجمين مَنْ مدَّ طاقتها وجعلها تسيغ تلك الخواطر والمعانى دون دخول أى ضَيْمٍ عليها من شأنه أن يمحو طوابعها أو يجور على خصائصها ومقوماتها ، بل لقد أخذت تونق فى أثناء هذا التحول العقلى والحضارى وما صحبه من تراكيب وصيغ مستحدثة لا عهد لها بها سواء فى المجال العلمى والفلسفى أو فى المجال الأدبى الخالص .

ولم تقف المسألة عند احتفاظها بالقوالب العربية وأوضاعها اللغوية وتيسير هذه القوالب والأوضاع وتذليلها للمعانى العلمية والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ورَسْمها رسما محدداً دقيقًا ، بل امتدت إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، أسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والتجافى عن الألفاظ الغامضة والمعانى المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأداء البليغ ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامعَ بعذوبة منطقه ، بل بحيث يَلَذُّ الآذان حين تستمع إليه كما يلذ العقول والقلوب .

وهو أسلوب قام على هَجْر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافية التى تَنْبو على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة ، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الصوتى . وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب ، إذ اتخذ لنفسه أصولا بيانية تُشيع فيه الرونق والجمال ، مما جعل جهابذته يتساءلون طويلا عن البلاغة ، وهو سؤال يلقانا فى جميع البيئات وتلقانا معه أجوبة كثيرة .

والطريف أنهم لم يكتفوا فى ذلك بما قد يكشفونه ببصائرهم الحاذقة ، إذ مضوا يطلبون ما عند الأمم الأجنبية من وصايا فى البيان والبلاغة سواء الفرس أو اليونان أو الرومان[1] ، وحتى الهنود ، إذ نجد معمّراً صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة يتعرض لبهلة الطبيب الهندى فى عصر البرامكة يسأله عن رأى أمته فى البلاغة ، فيعطيه فى ذلك صحيفة مكتوبة بالسنسكريتية ، ويقول له إنى لا أحسن ترجمتها لك ، لأنى لم أعالج صناعة البلاغة فأثق من نفسى بالقيام بأداء معانيها وخصائصها على الوجه الصحيح ، ويلقى معمر بالصحيفة التراجمة الذين يحسنون النقل من السنسكريتية إلى العربية فينقلونها له ، وقد احتفظ بها الجاحظ فى البيان[2] والتبيين ، وهى تطلب إلى الخطيب أن يلائم بين كلامه ومستمعيه وأن يحرص على الوضوح ويتجافى عن الألفاظ الوعرة والأخرى الغامضة وأن لا ينقح ألفاظه كل التنقيح إلا لمن حاز قسطا من الحكمة والفلسفة ممن خبروا الكلام والمعانى ، وأن يحرص على استخدام الألفاظ المحددة البينة التى تفى بمعانيها وتؤديها أداء سليما دون زيادة أو نقص .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا فى هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التى تقوم عليها براعة القول ، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام ، أو بعبارة أخرى فن المناظرة فى المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المعانى الفلسفية . ونستطيع أن نجد مقدماتهم فى العصر الأموى وفى مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلو الأحزاب السياسية فيتحاورون فى مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذاك إقناع خصمه أو قهره والغلبة عليه بالحجة القاطعة والبيان الخلاب . وما نصل إلى العصر العباسى ، بل إلى أواخر العصر الأموى ، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويقطعه عن الكلام قطعاً .

وطبيعى أن يدفع ذلك المتكلمين ومن حولهم إلى التساؤل عن البراعة فى القول والأسس التى تقوم عليها وأن ينثر المتكلمون الحاذقون فى ذلك بعض ملاحظات عن البيان والبلاغة ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا سائلا يتعرض لمعتزلى كبير فى

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٨٨ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٩٢ .

أوائل هذا العصر ، هو عمرو بن عُبَيْد ، فيسأله عن البلاغة وقُطْبها الذى تدور عليه ، ويجيبه بأنها « تخير اللفظ فى حسن الإفهام وتزيين المعانى بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان[1] » . ويدور السؤال طوال العصر وتتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العَتَّابى لسائل سأله عن البليغ والبلاغة ، فقال له[2] :

« كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهارُ ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هَنَاه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمعْ منى ، واستمعْ إلىّ ، وافهمْ عنى ، أو لست تفهم؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عىٌّ وفساد »

وواضح أن العَتَابى يجعل البلاغة فى التدفق البيانى دون إعادة وتكرار ودون حَصَر وعىّ ، ودون استعانة بحشو يُؤْذى الذوق الحضرىَّ المهذب . وتلك هى البلاغة العادية ، أما البلاغة الرفيعة فهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعانى ، وهى التى تبلغ من الحذق ما تعرض به الباطل فى صورة الحق معتمدةً على خلابة اللسان وتزيين المعانى فى القلوب ، والاحتيال على ذلك والتلطف له حتى يُرَى كأنه الحق الذى لاحق وراءه . وهو يستوحى ذلك من قدرة المتكلمين حوله فى مناظرة خصومهم وإفحامهم بالحجج الصحيحة تارة ، وتارة بالحجج غير الصحيحة التى يستطيع البليغ التام الذى يتقن أبنية الأدلة والكلام أن يموهها على السامع حتى يظن أنها صحيحة صحة تامة . ولا نبالغ إذا قلنا إن صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتفظ بها الجاحظ فى بيانه[3] هى أروع ما أُثر عن المعتزلة فى هذا العصر بصدد الأصول البلاغية العامة ، وهو يستهلها بأن الأديب سواء كان خطيباً أو كاتباً أو شاعراً ينبغى أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعداً متهيئا تمام التهيؤ ، فارغ البال ناشطا له تمام النشاط . وينصحه

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٣ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٣٥ والصناعتين (طبعة الحلبى) ص ١٣٤ .

باختيار ألفاظه وتفصيلها على المعانى بحيث تكون بقدرها لا فاضلة عنها ولا مقصّرة، كما ينصحه بأن تخلو ألفاظه من كل غريب وكل تعقيد ، وأن تؤدى دلالتها أداء واضحا مهما كانت دقيقة عسيرة وأن تتلاءم معها بحيث تؤديها أداء تاما يحيط بدقائقها إن كانت من الدلالات الغامضة، وفى الوقت نفسه تُلْقَى عليها كل مايمكن من أضواء تكشفها من جميع أطرافها، مع تذليلها وتيسيرها وعرضها فى لغة متوسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة الأعراب الخشنة المملوءة بالغريب . وينصح من لا تواتيهم طبائعهم بالرصف الحسن للألفاظ ووضعها فى مواضعها الصحيحة دون نبو أو شذوذ أن يكفّوا أنفسهم عن صناعة البيان والكلام البليغ ، وأولى منهم بهذا الكف والهجران لتلك الصناعة من تقعد بهم طبائعهم مهما أجهدوا أنفسهم عن الإتيان بشىء من الكلام له روعة أو ما يشبه الروعة. ولا يكفى للبليغ أن يلائم بين كلامه ومعانيه أو بعبارة أخرى بين كلامه والموضوع الذى يتحدث عنه ، بل لا بد له من ضميمة ثانية هى إحسانه الملاءمة بين كلامه والمستمعين وأحوالهم النفسية والعقلية ، بحيث يجدون فى كلامه اللذة والمتاع ، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوساط الناس أن لا يرتفع عن مداركهم بما يورد عليهم من اصطلاحات المتكلمين ، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم ، أما إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراده لهذه المصطلحات التى يفهمونها فهماً حسناً ، والتى قد يجدون فيها شيئاً من المتاع .

وملاحظات كثيرة أخرى كان يلاحظها المتكلمون معتزلة وغير معتزلة فى شئون البيان والبلاغة ، وهى متناثرة فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، ولا بد أن ملاحظات أخرى سقطت منه ولم يسجلها . ولم يكن المتكلمون وحدهم الذين يتعمقون فى معرفة أصول البيان والبلاغة ، فقد كان يَشْركهم فى ذلك كتّاب الدواوين والمترجمون، ومن خير مَنْ يمثلهم فى مطالع العصر ابن المقفع ، ويروى أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها ، فقال[1] :

« البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٥ .

وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامةُ ما يكون من هذه الأبواب الوَحْىُ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السَّماطين وفى إصلاح ذات البين فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال . وليكنْ فى صدر كلامك دليلٌ على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته . فقيل له : فإن ملَّ السامع الإطالة التى ذكرتَ أنها حقٌ ذلك ؟ قال : إذا أعطيتَ كل مقام حقه وقمتَ بالذى يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيتَ مَنْ يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوِّ فإنه لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شىء لا تناله ، وقد كان يقال : رِضا الناس شىء لا ينال » .

وابن المقفع يذكر كل فنون الكلام ويطلب فيها الإيجاز والتركيز الدقيق ، ويلتفت إلى خطب المحافل والصلح ويطلب فيها الإطناب فى غير خطل ولا إملال . ويضع قاعدة مهمة أن يكون فى صدر الكلام ما يدل على غرضه ، وهو ما سماه البلاغيون ، فيما بعدُ ، باسم براعة الاستهلال ، كما يضع للشعر قاعدة ثانية هى أن يتلاءم صدر البيت مع قافيته حتى لكأنه يستدعيها استدعاء وهو ما سماه البلاغيون باسم رَدّ الأعجاز على الصدور . ويلاحظ ملاحظة تامة أن لكل من الإيجاز والإطناب فى الكلام مقامه ، وأنه ينبغى دائما أن يستوفى الكلام حقوقه من النصاعة والبلاغة والبيان .

وقد تحولت الدواوين الكثيرة المعقدة التى عرضنا لها فى الفصل الأول إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة ، إذ كان لا بد للشبان الذين يعملون فيها من إتقانهم لصياغة الكلام بحيث لا يدخله ضعف ولا ابتذال وبحيث لا يعلو على أفهام العامة الذين كانوا يوجِّهون إليهم منشورات دار الخلافة . وكان هؤلاء الشبان يقيمون أولا بأبواب الدواوين متعرضين لامتحان قاس ، فمن أظهر كفاءته فيما طُلبَ إليه من بعض الرسائل رُفع أمره إلى رؤساء الديوان ، فوظفوه ، وإن لم يُحْسن ما طلب إليه ردّوه . وجعلهم ذلك يتساءلون عن البلاغة ومتى يُصْبح الكلام بليغاً وما العيوب التى تعوق بلاغته ، ودارت هذه الأسئلة بين رؤساء الدواوين وبلغائها ، المفوّهين ، وكانوا يمثلون الذوق الحضارى المترف فى أدق صوره فدقّقوا فى كلامهم

إلى أبعد حد ممكن ، وعبّروا فيه عن دقة مزاج ورهافة حس بالغة، حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أرَ قطّ أمثل فى طريقة البلاغة من الكُتّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّراً وحشيًّا ولا ساقطا سوقيًّا[1] » .

وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة فى هذا العصر لكى ينمو ويزدهر ، فقد أخذ يمتدُّ ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى فى المجال الأدبى، إذ أخذت تَغْذوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغذوه الثقافات الأجنبيةوكل ماالتصل بها من الفكر اليونانى ، ومضى يتفاعل مع ذلك كلهمحتفظًا بمقوماته وطوابعه العربيةالأصيلة ، بحيث لم يحدث أىُّ ازدواج فى اللغة يعرِّضها للضياع ، بل لقد أينعت الفروع الجديدة فى شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكوَّن فيها أزهار ذاكية الشَّذَى وثمار حلوة يانعة بفضل كبار الكتاب والمترجمين والمتكلمين الذين احتفظوا لها بأصولها وأوضاعها وأغنوها ونمّوْها حتى فى مجال الأساليب الخالصة ، إذ عرفوا كيف يستخلصون رحيقها البلاغى الذى يغذّى العقول ويَشْفى القلوب والأفئدة .

٢

الخطب والوعظ والقَصَص

نشطت الخطابة السياسية فى مطالع هذا العصر ، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها فى بيان حق العباسيين فى الحكم ، وكانوا يحسُّون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم ، فمضوا يؤكدون فى خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق ، فهم الذين أدالوا للشعب من بنى أمية وهم الذين قوَّضوا حكمهم وحطَّموه حَطْما ، وقدانهالوا عليهم بالتجريح والطعن العنيف ، على نحو ما يتضح فى خطبة[2] أبى العباس السفاح حين بويع بالخلافة فى الكوفة ، وفيها نراه يتحدث عن رَحِمِهم وقرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم تاليًا من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل(إنما يريد

---

(١) البيان والتبيين ١ /١٣٧ .

(٢) انظر الخطبة فى الطبرى ٦ /٨١ وما بعدها .

اللهُ ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً) وما يلبث أن يعرض للسبئية من الشيعة الغالية قائلا : « وزعمت السبئية الضُلَّال أن غيرنا أحقُّ بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بِمَ ولِمَ أيها الناس ، وبنا هَدَى الله الناس بعد ضلالتهم وبصَّرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم . . وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبِرّ » . ويتحدث عن الأمويين وظلمهم للرعية وكيف تداركها الله بهم وردَّ عليها حقوقها المسلوبة. وخطب عمه داود بن علي بنفس اللحن ، ويشيد الجاحظ ببيانه وفصاحته قائلا إنه « كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول . وله كلام كثير معروف محفوظ » . ويروى من ذلك خطبته فى أهل مكة حين وليها لابن أخيه ، وهى تمضى على هذا النمط :

« شكرا شكرا . أما والله ما خرجنا لنَحْتفر فيكم نهراً ولا لنبنى قصراً، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نظفر به إذ أرْخىَ له فى ذمامه ،حتى عثر فى فَضْل خِطامه . فالآن عاد الأمر فى نِصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوسَ باريها ، وعادت النَّبْلُ إلى النَّزَعة[٢] ، ورجع الحق إلى مستقره فى أهل بيت نبيكم : أهل بيت الرأفة والرحمة ».

ويموت السفاح سريعاً ، ويخلفه أبو جعفر المنصور ، ولم يكن فى العباسيين أبينُ منه ولا أخطب ، وفى عهده تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن العلوى الملقب بالنفس الزكية بالمدينة ، لسنة ١٤٥ للهجرة ، ويتكاتبان كما مر بنا فى الفصل الأول ، وكل منهما يؤكد حقه فى الخلافة وإرثها عن الرسول الكريم . ويشهر كل منهما السلاح فى وجه صاحبه ، كما يشهران الخطب ويرسلان سهام القول ، وكان محمد بن عبد الله لا يقل عنه لسناً وفصاحة ، ومن قوله فى بعض خطبه[٣] :

« إن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرَّموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيَّروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفتَ وأخافوا من آمنت ، فأحْصِهم عدداً ، واقتلهم بَدَداً[٤] ، ولا تُبْقِ على الأرض منهم أحداً » .

ولم يلبث المنصور أن قضى على هذه الثورة قضاء مبرما ، ولم يعد العلويون

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٣١ وما بعدها .
(٢) النزعة : الرماة .
(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٢١ .
(٤) بددا : متفرقين .

ـ كما أسلفنا فى غير هذا الموضع ـ يحاولون الثورة جهاراً على أبناء عمهم ، بل عمدوا إلى السرية خوفاً من بطشهم وما عوّدوه الناس من إقناعهم بالسيف دون اللسان . وتضاءلت حينئذ ـ كما قدمنا ـ حركات الخوارج ، فلم يكن هناك إلا السيف أو الإذعان . وبذلك كُمّمت الأفواه ، وضعفت الخطابة السياسية فى هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حين تُكْفَلُ للناس حرياتهم السياسية على نحو ما كان الشأن فى عصر بنى أمية ، أما فى هذا العصر فقد أخذ العباسيون الناس بالشدة فضعفت الأحزاب السياسية وفنيت أو ذابت حريتهم فى سلطانهم الباطش بكل مَنْ حدثته نفسه بخروجٍ عليهم بل بخلاف أو ما يشبه الخلاف ، وحقا عادت الخطابة السياسية إلى الظهور فى فتنة الأمين وحروبه مع أخيه المأمون ، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة فى العصر الأموى وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه .

وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية التى كنا نعهدها فى عصر بنى أمية لسبب طبيعى ، وهو أن وفود العرب لم تعد تَفِدُ على قصور الخلفاء ، وبالتالى لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ، فقد أُسْدلت الحجب بين الخليفة والرعية ، ولم يعد يَلْقَى وفودها ولا خطباءها المفوَّهين . واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات كأن يموت للخليفة ابن أو بنت فيقف بعض الخطباء لتعزيته ، وكأن يموت خليفة ويتولى خليفة جديد فيجمع بعض الخطباء بين التعزية والتهنئة ، من مثل قول ابن عتبة للمهدى يهنئه بالخلافة ويعزيه فى أبيه المنصور (١) :

« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين ، فاقْبَلْ يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسبْ عنده أعظم الرزيّة » .

وكان يُعْقَدُ لبيعة الخليفة حفل عام يحضره القواد وكبار رجال الدولة ، وعادة يقف بعض الكتاب النابهين خطيبا بين يدى الخليفة الجديد منوِّهاً بجلال الخلافة وإرث الخليفة لها وما له على القواد ورجال الدولة والناس من الطاعة علويين

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٩٢ .

وغير علويين ، على نحو ما يلقانا عند يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب فى خطبته بين يدى الرشيد حين جلس بين القواد والأمراء والوزراء لأخذ البيعة له ، وهو يستهلها على هذا النمط بعد حمد الله والصلاة على رسوله[١] :

« إن الله بمنّه ولطفه مَنّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافه ومعدن الرسالة ، وإياكم أهلَ الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التى لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضى مدى الأبد . وأياديه التامة أن جمع ألفتكم وأعلى أمركم ، وشَدَّ عَضُدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزّكم الله وكان الله قويًّا عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضى والذّابّين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدى الظَّلَمَة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدَّمَ الحرام والآكلين الفَيْء[٢] والمستأثرين به » .

وعلى هذا النحو أصبحت الخطابة الحفلية شيئًا نادراً يقال فى الحين الطويل بعد الحين ، وبذلك تضاءلت كما تضاءلت الخطابة السياسية ولم يعد لها شأن يذكر .

وقد ظل للخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ازدهارُها فى هذا العصر ، وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بنى أمية كانوا يشاركون فيها أيضًا لهذا العهد ، إذ نجد للمهدى خطبة بارعة مأثورة[٣] ، كما نجد للرشيد خطبة أخرى رائعة ، وفيها يقول[٤] :

« عبادَ الله إنكم لم تُخْلَقُوا عبثا ولن تُتْرَكوا سُدًى ، حَصِّنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له » . إنكم سَفْرٌ[٥] مجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإنابة

---

(١) تاريخ الطبرى ٦/٤٤٢ .
(٢) الفىء : غنائم الحرب .
(٣) العقد الفريد ٤/١٠١ .
(٤) العقد الفريد ٤/١٠٢ .
(٥) السفر : الجماعة المسافرون .

فإن الله ، تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين ».

على أننا نجد الرشيد يسنّ سُنَّةً كانت سببًا فى أن تضعف هذه الخطابة على ألسنة الخلفاء ، إذ طلب إلى الأصمعى أن يعدّ لابنه الأمين خطبة يخطب بها يوم الجمعة[١] ، كما طلب إلى إسماعيل اليزيدى وابن أخيه أحمد أن يُعِدّا خطبة مماثلة يخطب بها المأمون[٢] ، وبذلك سنّ للخلفاء أن يخطبوا بكلام غيرهم ، وكان المأمون معروفا بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجة والطلاوة[٣] ، وقد روى له ابن قتيبة ثلاث خطب[٤] : أولاها فى يوم جمعة وثانيتها فى يوم الأضحى وثالثتها فى عيد الفطر وفيها يقول :

« اتّقوا الله عبادَ الله وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عَثْرة ولا تُحْظَرُ قبله توبة ، واعلموا أنه لا شىء قبله إلا دونه ، ولا شىء بعده إلا فوقه .. ولا يعين على القبر وظُلْمته وضيقه ووحشته وهول مَطْلعه ومسألة ملائكته إلا العمل الصالح الذى أمر الله به فمن زلّتْ عند الموت قدمه فقد ظَهرت ندامته وفاتته استقالته ودعا من الرَّجْعة إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفِدْية ما لا يُقْبَلُ منه » .

ومعروف أن الولاة كانوا يجمعون بين الولاية والصلاة ، ويظهر أنهم أخذوا مع مر الزمن يخطبون بكلام غيرهم ، وقد يندبون من يقوم مقامهم فى الصلاة والخطابة ، ويذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسي والى البصرة والكوفة لعهد المنصور والمهدى أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لا يغيّرها ، وهى خطبة قصيرة[٥] .

ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على لسان الولاة والخلفاء فإنها أينعت فى بيئة الوعاظ والنساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة ، وكانوا أخلاطا من الزهاد والفقهاء والمحدّثين والمتكلمين ، وكان بعضهم يلمّ بمجالس الخلفاء لوعظهم ، وأحيانا كانوا يستقدمونهم ، فيعظونهم حتى يبكوهم ،

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢ / ٢٠ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ٨٢ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ٩١ ، ١١٥ .
(٤) عيون الأخبار ٢ / ٢٥٣ وما بعدها .
(٥) انظرها فى البيان والتبيين ٢ / ١٢٩ .

٤

الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات

تحدثنا فى الفصل الأول عن تعقد الدواوين فى هذا العصر وتنوعها ؛ فدواوين للخراج ودواوين للنفقات ودواوين للجيش ودواوين للحروب ودواوين للرسائل ودواوين للخاتم ودواوين لشرقىّ الدولة ودواوين لغربيها ، ولكل ولاية ديوان ، وفوق هذه الدواوين ما يسمّى ديوان الزمام الذى ينظر فى ضبط كل ديوان على حدة . وبجانب هذه الدواوين العامة فى بغداددواوينُ فى الولايات للخراج والرسائل ودواوين أخرى لأولياء العهد وللأمراء والوزراء وكبار القواد ، ومَنْ لم يتخذ من هؤلاء ديوانا كبيراً كان له كاتبٌ يكتب عنه وينظر فى تدبير أمواله ونفقاته وضياعه ، وحتى نساء الخلفاء كن يتخذْن الكتاب ، وكذلك كان يتخذهم بعض القضاة والعلماء للكتابة عنهم .

وبذلك نشطت الكتابة فى هذا العصر نشاطًا واسعًا ، فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم فى ذلك ما كانت تدرُّه عليهم من أرزاق واسعة . وكان مَنْ يُظْهر منهم مهارة فى دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رياسة الديوان الذى يعمل فيه . وقد تُقْبل عليه الدنيا فيصبح رئيسًا لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشئونها ، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البحباح البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة وقد ولى مصر فى عصر الهادى والأمين ، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس ومثل عمر بن مهران كاتب الخيزران أم الرشيد وقد ولاه مصر فى بعض السنين . وكثير من الولاة والقواد كانوا يحسنون الكتابة إلى أبعد غاية مثل جعفر بن محمد بن الأشعث والى خراسان للرشيد ومثل طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وابنه عبدالله بن طاهر والى مصر والشام والجزيرة ثم والى خراسان ومثل أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور .

وعلى هذا النحو كانت الكتابة فى هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب ، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يَلْقَى الإكبار

والإعجاب فى كل مكان ، وقد أخذ يسيل لها لعاب كل من أحسّ فى نفسه قدرة عليها ، حتى يَحْظَى بما يكفل له العيش فضلا عما قد يصيب من رَغَدٍ ونعيم، ومن أجل ذلك كثر الوافدون على أبواب الدواوين وخاصة من الناشئة ذوى المطامح البعيدة ، وكانوا يعرضون أنفسهم، فيُمْتَحَنُونَ امتحاناً عسيراً ، تُبْحَثُ فيه مهارتهم الأدبية والعقلية ، ومن جاز الامتحان أمرهم رؤساء الدواوين بملازمتهم، ثم ضموهم إلى دواوينهم وترقوا بهم من حال إلى حال، على قدر مهاراتهم حتى بلغوا بهم المنزلة التى يستحقونها، وربما ألحقوهم ببعض الولاة والقواد أو جعلوا لهم التصرف فى بعض الأعمال أو فى بعض دواوين الخراج.

ولم يكن نجاح الكاتب الناشىء هينا ، فقد كان لا بُدَّ له من إحسان صناعة الكتابة ، وهو إحسان جعله يتوفر على مادتها اللغوية والأسلوبية ، حتى يتقنها الإتقان المنشود من حيث الوضوح والجمال الفنى ، أما الوضوح فلأنه كان يكتب غالباً إلى الرعية ولا بد للرعية أن تفهم عنه ، وأما من حيث الجمال الفنى فلأنه كان يكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد، ولا بد أن يروعهم ببيانه وبلاغته ، وقد توقَّفَ الجاحظ مراراً فى كتاباته يُشيد ببراعتهم فى القول وعذوبة آدائهم وطلاوة صياغاتهم من مثل قوله : «إنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعانى[1] » .

وكان لا بد لهم بجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقنوا طائفة من المعارف وفى مقدمتها علوم اللسان العربى وعلم الفقه ، وكان العلم الأخير ضرورياً لهم، لأنهم كانوا يكتبون فى شئون الخراج وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤدوه من أموال، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان . وكانوا يلمون بكل علم مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم . ولم يكن ذلك كل ثقافة الكاتب ، فقد مضى يقرأ كل ما تُرْجم من الحكمة اليونانية ومأثور

(١) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

ما تبادله الإسكندر المقدونى وأرسطو من رسائل وما نُقل عن الفلاسفة اليونانيين من أقوال وكذلك ما نقل عن الهنود من حكم وقَصَص يتصل بتدبير الملك وخاصة كتاب كليلة ودمنة . ومرَّ بنا مدى إعجاب يحيى البرمكى بهذا الكتاب مما جعله يطلب إلى أبان بن عبد الحميد أن ينقله شعراً حتى يسهل حفظه ، وكان قد نقله ابن المقفع قبل ذلك نثرا ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه نقل كثيراً من سير ملوك الفرس وأنظمتهم فى الملك وتدبيرهم فى السياسة والحكم وأن مما نقله « خُداى نامه » فى سير ملوكهم و« آيين نامه » فى أنظمتهم و « التاج » فى سيرة كسرى أنوشروان و« الأدب الكبير » و« اليتيمة » و« الصحابة » . وأكبَّ الكاتب العباسى على هذه الكتب وغيرها مما عرضنا له فى الفصل الثالث كأمثال بزرجمهر وكتاب « جاويدان خِرَد » فى الآداب والأخلاق و « عهد أردشير بن بابك إلى ابنه سابور » .

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت من أهم المؤثرات فى رقى الكتابة الديوانية وتطورها ، وحقًّا أن هذا التأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب ولكنه لم يبلغ أشده إلا فى هذا العصر إذ اتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة ، مما سالت مادته الغزيرة فى كتابات الكاتب العباسى ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه الوزراء والكتاب بتمهيد واسع عَرَض فيه لتدوين الفرس للدواوين ونظمها المختلفة ، متحدثًا فى ثنايا ذلك عن كتب الأكاسرة إلى عمالهم ومقتبسًا فصولاً عن سابور إلى ابنه ومن كلام أردشير وكلام أبرويز إلى وزرائه ووصيته لابنه شيرويه ووصية أردشير لوزرائه واستشارة سابور لوزيرين نابهين . وعَرَض الجهشيارى لبعض رسائل أرسطو للإسكندر ، ولبعض وصايا الهند وحكمهم . وفى ذلك كله الدلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ به الكاتب العباسى نفسه من ثقافة سياسية ، وخاصة ما كتبه الفرس فى وصاياهم وعهودهم . وكان لابد له من إلمام واسع بأخبار العرب وأشعارهم وكل مايتصل بهم وبخلفائهم ، وكان أحياناً يحسن نظم الشعر ورصفه ، ويستشهد به فى رسائله وكلامه ، وكذلك كان يحفظ القرآن الكريم ويقتبس منه أحيانًا ، وأحياناً يحاول مجاراة

أساليبه وما يجرى فيها من حسن التأليف والتئام الكلم وجودة المقاطع وحلاوة البيان وعذوبته . وحتى الخطّ كان لا بد للكاتب العباسى من إجادته .

ومَنْ ينظر نظرة عامة فى موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخْذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخصب والجدب ، وعهود الخلفاء لأبنائهم ، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم . وأيضًا فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التى كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر مما سنعرض له فى الرسائل الإخوانية التى تصور عواطف الأفراد ، وقد تفننوا حينئذ طويلا فى التحميدات التى تُصَدَّر بها الرسائل ، وتُنْسب إلى الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدىء مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم[1] . وفى رواية ثانية أن يحيى البرمكى وزيره أول من زاد فى الرسائل : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وأنه أنشأ فى ذلك كتابًا ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام[2] .

ونحن نقف عند طائفة من الكتاب النابهين مرتبين لهم على عهود الخلفاء وأول كاتب لمع اسمه فى مطالع العصر عُمارة بن حمزة كاتب السفاح والمنصور وقد ولاه الأخير فى سنة ١٥٦ على كور دجلة والأهواز وفارس ثم ولاه المهدى خراج البصرة ، وعاش حتى سنة ١٩٩ للهجرة[3] ، وكان المهدى يجلّه ، وكان جواداً غير أنه كان فيه تيه شديد حتى ضُرب المثل بتيهه ، فقيل أتْيه من عمارة ، وتُرْوَى له فى التيه والكرم حكايات كثيرة . وهو أحد الكتاب البلغاء وقد اشتهر بتدبيجه لأول رسالة من رسائل الخميس ، وهى رسالة كانت تُكتَبُ فى عهد كل خليفة عباسى ، وكان موضوعها تأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة الحاضر وتعداد مناقبه وبيان مآثره وأنه أحق أهل بيته بالخلافة . واشتهر أيضًا برسالة

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ / ١٠٣ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٧٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢ / ١٦٤ وانظر فى ترجمته الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ١٥ / ٢٤٢ والجهشيارى ص ٩١ ، ١٣٣ وفى مواضع أخرى متفرقة ، راجع الفهرس .

لُقّبت باسم الماهانية وفيها يقول ابن النديم : « الكتب المجمع على جودتها عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » . ويظهر أنها كُتبت لعامل كى يستشير عيسى بن ماهان فى كل ما يأخذ من الأمر ويدع ، وفيها يقول له على لسان الخليفة[1] :

« أمير المؤمنين لا ينكر قرب الطاعة من المعصية قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلب القلوب واختلاف الحالات عند مَيْل الهوى ولا يُنْكِرُ جَرْىَ المقادير بغَيْب ذلك عن العباد واستئثار الله بعلم ما لم يأتهم إلا بغتة . بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما فى قلوبهم ضغائن ، دونها الغَدْر ، يُظْهر أسرارهم ويخرج أضغانهم ، ثم يبلغ بغضبه منهم ما لم يكن فى ذلك عنده عزيزاً ، ولم يكن بهم امتناع . غير أنه قد أنكر أن تعجل إلى ابن ما هان — وإن كان يكن محلا بارزا — بأمرٍ دون مؤامرته (مشاورته) ويكره لك العجلة فإنها موكّلٌ بها النَّدم وإنه كان يقال : أصاب متأمل أو كاد . وقالت العرب : فإما تَرَيَنَّ أمراً رَشَداً فتبيَّن ثم ارْعَوِ أو أقْدِمْ وأحْكم . ولحقُّ ما أمر الله عزَّ وجلَّ به من التَّبَيُّن وما حذَّر أن يصاب قوم بجهالة وما خوَّفَ على ذلك من الندامة ، فليس يبرح المرء بخير ما فرغ لقول الله عز وجلَّ واتعظ واستيقظ » .

وواضح حرص عمارة على التمثل بكلام العرب واستعارة ألفاظ القرآن ومعانيه ، فقد حلَّ فى آخر كلامه قوله جلَّ شأنه : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) .

ومن كُتَّاب المنصور مَسْعدة بن سعد بن صُول أحد ملوك جرجان فيما يقال ، وكان يكتب أولا لخالد بن برمك وزير المنصور ثم لواليه على فارس . ولما اتخذ المنصور أبا أيوب الموريانى وزيراً وقلَّده الدواوين أقام مسعدة على ديوان الرسائل ، ويَرْوى ياقوت فى ترجمته لابنه عمرو أن المنصور قال يوماً لكتّابه : اكتبوا لى تعظيم الإسلام ، فبَدر مسعدة فكتب[2] :

---

(١) انظر الرسالة بأكملها فى جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٣/١٢٧ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٦/١٢٨ .

٢٨

الفصل التاسع

أعلام الكتاب

١

ابن[1] المقفع

فارسى الأصل، اسمه رُوزْبِهْ بن داذُوِيهْ، كان أبوه من قرية إيرانية تسمى جور، نزل البصرة، وظل على دينه مجوسيا مانويا، غير أنه استعرب سريعا، لاختلاطه بمواليه آل الأهتم التميميين، وهم يشتهرون باللسن والفصاحة والخطابة، ولم يلبث أن عمل فى دواوين الخراج للحجاج، وظهرت عليه خيانة فى أموال الدولة، فضربه الحجاج ضربًا مبرِّحا تقفَّعتْ (يبست) منه يده، فسمِّى من حينئذ المقفَّع، ولم يُسْلم، بل مات على دينه، وعليه نشأ ابنه، ويظهر أنه عُنى عناية شديدة بتأديبه، حتى أتقن اللغتين الفارسية والعربية، وقد مضى يتكسَّب بصناعة أبيه، فاشتغل، فى دواوين العراق آخر زمن بنى أمية، إذ كتب لعمر بن هبيرة والى العراق لهشام بن عبد الملك، وكتب لابنه يزيد فى ولايته العراق لمروان بن محمد، ولابنه الثانى داود فى ولايته على كِرْمان بإيران وأفاد منهما أموالا كثيرة. ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن على عم المنصور ووالِيه على البصرة، ولأخيه عيسى بن على والى الأهواز وعلى يديه أعلن إسلامه وتكنى بأبى محمد، ويقال إنه حين حاول اعتناق الإسلام طلب إليه عيسى أن

(١) انظر فى ترجمة ابن المقفع وأخباره الفهرست ص ١٧٢ والجهشيارى ص ١٠٣، ١٠٩ وفى مواضع متفرقة وأمالى المرتضى ١/١٣٤ وثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ و ٤٧ والبيان والتبيين ١/١١٥ وفى مواضع متعددة (انظر الفهرس) والحيوان ١/٧٦، ٦/٣٣٠ ومروج الذهب للمسعودى ٤/٢٤٢ واعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨ وزهر الآداب ١/١٨١ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/٢٠٠ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق) ص ٤٠٨ وخزانة الأدب للبغدادى ٣/٤٩٥ وتحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليبزج) ص ٧٦ ومقدمة كليلة ودمنة لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف) وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/١٩٥ ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين (طبع دار المعارف) ص ٤٦.

يؤجل ذلك إلى الغد حتى يكون إعلان إسلامه فى حفل عظيم ، وحدث أن حضر طعام العشاء ، فلاحظ عيسى أنه يأكل ويزمزم ، أو بعبارة أخرى يدعو بأدعية المجوس ، فسأله عيسى : أتصنع ذلك وأنت على نية الإسلام ، فأجابه : كرهت أن أبيت على غير دين . وظل بعد إعلانه الإسلامَ يعمل فى دواوينه .

واتفق أن خرج عبد الله بن على عم المنصور ووالیه على الشام ، إذ أعلن ثورته عليه ، غير أن جيوش المنصور هزمته ، ففرَّ إلى أخويه سليمان وعيسى ، فطلبه المنصور منهما ، فأبيا أن يسلماه إليه إلا إذا كتب له أماناً ، فقبل ما عرضاه ، وكلفهما كتابته ، فأمرا ابن المقفع أن يكتبه ، فكتبه ، وتشدَّد فيه تشدداً أغضب المنصور وأحفظه وملأه موجدة ، إذ طلب إليه أن يكتب فى أسفل الأمان هذا التوقيع[1] :

« وإن أنا نلتُ عبد الله بن على أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحدمنهم ضرراً سِرًّا أوعلانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحًا أو كناية أو بحيلة من الحِيَل ، فأنا نَفِيٌّ من محمد بن على ابن عبد الله ، ومولود لغير رِشْدة ، وقد حَلَّ لجميع أمة محمد خَلْعى وحَرْبى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين . وهو متبرئ من الحَوْل والقوة ، ومدَّع إن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرِّم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرِّفْ والمِلْك والملبس على الوجوه والأسباب كلها . وكتبت بخطِّى ، ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه ، والوفاء به » .

واحتدم المنصور غيظاً حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له ابن المقفع كاتب عيسى بن على عمك ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وأوعز إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة حينئذ أن يقتله ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فانتهز فرصة قدومه إليه ذات مرة ، وأمر بتَنُّور ، فمُلِىء وقوداً

---

(١) الجهشيارى ص ١٠٤ .

حتى إذا حميتْ ناره أخذ يقطعه جزءاً جزءاً ويرمى بكل جزء فى التنور حتى أتى عليه . ويقال إن المنصور إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيده للإسلام، ويبدو أن التعليل الأول لقتله هو الصحيح ، لما صعّب فى صيغة الأمان على المنصور تصعيباً امتهن فيه كرامته ووطئها بالأقدام ، إذ طلب إليه أن يكتب بخط يده أنه إن غدر بعمه أو بأحد ممن معه فنساؤه طوالق وعبيده أحرار ودوابّه محرمة عليه والمسلمون فى حل من بيعته بل عليهم أن يحاربوه حتى يعطى عن يد وهو صاغر ، وأيضًا فإنه إن فعل يكون كافراً خارجاً من جميع الأديان . فكان طبيعيًّا أن يثور المنصور لكرامته وأن يوعز إلى سفيان بقتله ، ويقول الجاحظ إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن على بالمنصور ، ففُطن له وقُتل ، وأغلب الظن أنه لا يريد بإغرائه لعبد الله بن على سوى صيغة هذا الأمان المشئوم ، واختلف الرواة فى السنة التى قُتل فيها ، فقيل سنة ١٤٢ وقيل سنة ١٤٣ وقيل سنة ١٤٥ للهجرة .

وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السالف هو السبب الحقيقى فى قتل ابن المقفع أننا ننفى عنه الزندقة ، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده ، وكان المهدى يقول : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع »[1] ويقول المسعودى: « أمعن المهدى فى قتل الملحدين . . لما انتشر من كتب مانى وابن دَيْصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وتُرْجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية »[2] ويُقال إنه مرَّ ببيت نار للمجوس بعد إسلامه، فلما رآه أحسّ بحنين شديد إلى دينه المانوى القديم ، وأنشد بيتى الأحوص[3]:

يا بَيْتَ عاتكةَ الذى أتعزَّلُ حذَرَ العِدا وبك الفؤادُ موكَّلُ

إنى لأمنحك الصدود وإننى قَسماً إليك مع الصدود لأَمْيَلُ

وقد يكون فى ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوى القديم فهو يظهر الإسلام ويضمر مانويته، وقد مضى ينقل ديانات قومه المجوسية ومذاهب الملحدين

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٣٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٤٢ .

(٣) أمالى المرتضى ١/١٣٥ .

مثل ابن ديصان ومرقيون ، مما جعل العرب يتنبهون إلى غايته من هذا النَّقْل وما كان يتصل به من ترجمة الحكم الفارسية ، فقالوا إنه إنما كان يريد على الأقل ببعض ترجماته وتصنيفاته معارضة الذكر الحكيم ، وعرض لذلك الباقلانى فقال : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة ، وهى كتابان : أحدهما يتضمن حكما منقولة.. والآخر فى شيء من الديانات[1] » وقد ألف القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة كتاباً فى نقض زندقته سماه « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله » . وذكر فى أوائله أن ابن المقفع وضع كتابًا عاب فيه المرسلين وافترى الكذب على رب العالمين[2] ، ولذلك تصدى له يهدم مزاعمه هدمًا . وشك أحمد أمين فى هذا الكتاب الذى نسبه ابن طباطبا إلى ابن المقفع ، ولا ينفى هذا الشك عنه زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن تلاهم ممن قرءوا كتاباته ، وكثير منها سقط من يد الزمن .

وكان — مع زندقته — نبيل الخلق وقورا يترفع عن الدَّنايا ولا يجعل للهوى سلطاناً على عقله ، وكان يأخذ نفسه بكل ما يمكن من خصال المروءة والشعور بالكرامة ، ويقول الجهشيارى إنه « كان سَرِيًّا سَخِيًّا يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه . . وكان يُجْرى على جماعات من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين فى كل شهر » . وتُرْوَى عنه حكايات مأثورة تدل على كرمه الفياض ، كما تروى عنه أخبارٌ تدل على دقة حسه ، من ذلك أن عيسى بن على دعاه يوما للغداء فاعتذر بأنه مزكوم ، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة من عشرة الأحرار[3] . وكان يلفت معاصريه بأدبه الجم ، فسأله سائل : من أدَّبك ؟ فقال : نفسى ! إذا رأيت من غيرى حسناً أتيته ، وإن رأيت قبيحًا أبيته » . وكان يقدر الأخوة والصداقة حق قدرهما ، وقد بنى عليهما كثيراً من حكمه ونصائحه فى الأدبين : الصغير والكبير . وكان ذكيًّا ذكاء مفرطاً حتى قال ابن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد

---

(١) إعجاز القرآن (طبع مطبعة الإسلام) ص ١٨ .

(٢) كتاب الرد على الزنديق اللعين (نشر جويدى) ص ٨ .

(٣) أمالى المرتضى ١/١٣٦ .

الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع»[١] . وكان يرى أن الذكاء لا يعمر القلوب ولا يثمر الثمرة المرجوة بدون العلم ، وإلا كان كالأرض الطيبة الخراب. ولعله لذلك دأب على التثقف بكل ما استطاع من الآداب الفارسية وما تُرْجم إلى لغته من الهندية وكذلك ما ترجم إليها من اليونانية زمن كسرى أنو شروان.

وبذلك كان ابن المقفع يجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات الأخيرة ؛ وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر ، فقد نقل عنها كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع كتاباً فى تعاليم مزدك وكتاب «خداى نامه» وهو فى سير الملوك الإيرانيين ، وعليه اعتمد الفردوسى فى نظم «الشاهنامه» وكذلك نقل كتاب التاج فى سيرة أنوشروان . ونقل عنها فى أنظمة الملك وتدبير السياسة والحكم كتاب « آيين نامه » ورسالة « تنسر » وفى عيون الأخبار منهما ومن كتاب التاج نقول مختلفة . وكان فى الفهلوية أدب أخلاقى كثير نما فى بلاط الساسانيين ، وكان يُراد به إلى تثقيف الفرس بما يوضح لهم سبل الحياة العامة عن طريق الأمثال وما تُشْفَعُ به من الحِكم ، ونقل من ذلك ابن المقفع مادة غزيرة فى الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة ورسالة الصحابة . وعمد إلى خير أثر فى لغته للهنود وهو كتاب كليلة ودمنة فنقله إلى العربية ، كما نقل عن لغته بعض ما تُرْجم إليها عن اليونانية من كتب أرسطو فى المقولات والقياس المنطقى .

وما نقله عن أرسطو من لغته مفقود ، ولم يصلنا ما نقله عن الفهلوية من الكتب الخمسة الأولى إلا ما اقتبسه ابن قتيبة مما يتصل ببعض وصايا الفرس السياسية وأنظمتهم فى الملك والقضاء وفنون الحرب . ونحن نقف قليلا عند الأدبين الصغير والكبير واليتيمة ورسالة الصحابة .

والأدب الصغير رسالة قصيرة[٢] فى نحو ثلاثين صحيفة تتضمن طائفة من

---

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى (طبعة مكتبة نهضة مصر) ص ٢٨ .

(٢) انظر الأدب الصغير فى رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ وما بعدها .

الوصايا الخلقية والاجتماعية التى ترشد الناس إلى صلاح معاشهم فى أنفسهم وفى علاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان ومن الأصدقاء ومن غيرهم ، ونراه يقول فى أوائلها : « قد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصِقالها وتجلية أبصارها ، وإحياءٌ للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » ومن قوله فى تضاعيفها :

« على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ فى الرأى والزَّلل فى العلم والإغفال فى الأمور . إن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً ، فإذا الصغير كبير ، وإنما هى ثُلَمٌ[1] يَسْلمها العجز والتضييع ، فإذا لم تُسَدَّ أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق . كلامُ اللبيب وإن كان نَزْرًا أدب عظيم ، ومقارفة[2] المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جليلة . لا يمنعنَّك صِغَر شأن امرئ من اجتباء ما رأيت من رأيه صوابا ، واصطفاءِ ما رأيت من أخلاقه كريما ، فإن اللؤلؤة الفائقة لا تُهان لهوان غائصها الذى استخرجها . أعدلُ السِّير أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يُؤْتَى إليك . حقٌ على العاقل أن يتخذ مِرْآتين فينظر من إحداهما فى مساوئ نفسه فيتصاغر بها ، ويصلح ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى فى محاسن الناس فيحكيهم بها ويأخذ ما استطاع منها . عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هَوًى ، والهوى آفة العفاف . من أشد عيوب الإنسان خفاءُ عيوبه عليه فإنه من خفى عَيْبُه عليه خفيت عليه محاسن غيره ، ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذى لا يعرف ، ولن ينال محاسن غيره التى لا يبصرها أبداً . لا يَتِمّ حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذى قد علم دواء نفسه ، فإذا هو لم يتداوَ به لم يُغْنه علمه . والرجل ذو المروءة قد يُكْرَم على غير مال كالأسد الذى يهاب وإن كان عَقِيراً[3] ، والرجل الذى لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكَلْب الذى يهون على الناس وإن طُوِّقَ وخُلْخِلَ[4] » .

وأكثرُ وصايا الأدب الصغير على هذا النحو من القِصَر وقلما يطَّرد فيها

---

(١) ثلم : جمع ثلمة وهى الخلل .
(٢) مقارفة : ارتكاب .
(٣) عقيراً : جريحاً .
(٤) خلخل : وضع فى رجله خلخال .

السياق . أما الأدب[1] الكبير فرسالةٌ أكثر طولا إذ تمتد إلى نحو مائة صحيفة ، موزعة بين موضوعين كبيرين ، هما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم ، والصداقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح ؛ ونراه يصرح فى تقديمه لهذه الرسالة بما صرّح به فى أوائل الأدب الصغير من أنه يفيد فى وصاياها من أقوال الأسلاف القدماء ، إذ يقول : « منتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم ، وأحسنُ ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر فى كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع ... ولم نجدهم غادروا شيئًا يجد واصف بليغ فى صفة له مقالا لم يسبقوه إليه » . ويشير مع ذلك إلى أنه بقيت فى وجوه الأدب وضروب الأخلاق أشياء من لطائف الأمور تشتقها الفطن السليمة من حكم الأولين وأقوالهم ، وأنه سيضمّن كتابه أو رسالته منها أطرافا . ومعنى ذلك أن وصايا الرسالة إما نَقْلٌ عن القدماء ممّا قرأه فى الأدب الساسانى السياسى والأخلاقى ، وإما استنباطات وَصَلَ إليها على هَدْيهم ؛ وهو يستهلّ رسالته بالحديث عن أصول الأدب ويريد به التهذيب الخلقى والاجتماعى والسياسى ، ثم يورد بعض الوصايا لمن يتقلد شيئًا من أمور السلطان وينصحه فيما يتولاه أن يُرضى ربه ومَنْ فوقه من أصحاب السلطان ومن تحته من صالحى الرعية ، ويقول له : لا تلتمسْ رضا الناس جميعًا ، لأن ذلك شىءٌ لا يُدْرَك ، إذ بينهم مَنْ رِضاه الجَوْرُ ومَنْ رِضاه الضلالة ، فيكفيك رضا الأخيار منهم والعقلاء ، ومن طريف ما يوصيه به قوله :

« لا تتركنّ مباشرة جسيم أمرك ، فيعودَ شأنك صغيرا ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعًا ، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شىء ففرّغْه للمهم . . وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة فأحسنْ قسمتهما[2] بين دعتك وعملك ؛ واعلمْ أنك ما شغلت من رأيك فى غير المهم أزرى بالمهم . . وما شغلت من ليلك ونهارك فى غير الحاجة أزرى بك فى الحاجة . واعلم أن من

---

(١) انظره فى رسائل البلغاء ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) قسمتهما : أى قسمة الليل والنهار .

الناس فاساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكُلوح[1] والتقطيب فى غير مَنْ أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهمّ بعقوبته ، وشدّة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرّع بالأمر ذى الخطر[2] لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد إعطاءه ويكرم من لا حق له ولا مودة فاحذرْ هذا الباب الحذر كله » .

ويسترسل ابن المقفع فى مثل هذه الوصايا للوالى ، ويتحدث عن صحبة السلطان وواجباتها وآدابها وكذلك صحبة الولاة والحكّام ، ثم ينتقل إلى الصديق والصداقة ، ويصور الخلال التى ينبغى أن يتصف بها فى رأيه الصديق الحق حتى ليرى من واجب الصديق على الصديق أن يبذل له ماله ودمه وأن يلقاه بالتواضع والحياء وأن يمدّ له يدَ العَوْن فى الشدة . ويستطرد إلى الحديث عن جار السوء وعشير السوء وجليس السوء ، كما يستطرد إلى الحديث عن العدو وما ينبغى من استعمال الدهاء معه والعمل على القضاء عليه أو اجتنابه والبعد عنه ، ويُفيض فى الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة التى تنفّر الناس من صاحبها فضلا عن الصديق ، ومما يسوقه فى الطرفين قوله :

« انظُرْ مَنْ صاحبتَ من الناس من ذى فَضْلٍ عليك بسلطان أو منزلة ومَنْ دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والإخوان فوَطِّنْ نفسك فى صحبته على أن تقبل منه العَفْوَ ، وتسخو نفسك عما اعتاصَ عليك مما قِبَله غير معاتب ولا مستبطئ ولا مستزيد ، فإن المعاتبة مقطعة للود ، وإن الاستزادة من الجشع ، وإن الرضا بالعفو والمسامحة فى الخلق مقربٌ لك كلَّ ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة . . ولا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأى ، ولا تجترئنّ على تقريعه وتبكيته بظفرك إذا استبان وحجّتك إذا وضحت . وتعلّمْ حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهالُ المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم ، والوعى لما يقول . . واعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأى ليس بمضمون ، بل

---

(١) الكلوح والتقطيب : العبوس .

(٢) الخطر : الشرف .

الرأى كله غَرَرٌ[1] ، لأن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة ، ولأنه ليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز ، بل ربما أعْيَى الحَزِمة[2] ما أمكن العجزة ، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعلْ ذلك عليه لوما وعَذْلا بأن تقول : أنت فعلت هذا بى ، وأنت أمرتنى ، ولولا أنت لم أفعل ، ولا جرم لا أطيعك فى شيء بعدها ، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة . وإن كنت أنت المشير ، فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابك فلا تمنَّ ولا تكثرنَّ ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تَلُمْه عليه إن كان استبان فى تركه ضرراً بأن تقول : ألم أقل ، ألم أفعل ، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .. واعلم أن من تنكُّب الأمور ما يسمى حَذَراً ، ومنه ما يسمى خَوَراً فإن استطعت أن يكون تجنُّبك من الأمر قبل مواقعتك إياه فافعلْ ، فإن ذلك هو الحذر ، ولا تنغمس فيه ثم تتهيبه ، فإن ذلك هو الخور ، وإن الحكيم لا يخوض نهراً ، حتى يعلم مقدار قَعْره » .

وردَّد محمد كرد على فى نشرته للأدب الكبير بكتابه رسائل البلغاء بين هذا العنوان وعنوان ثان هو الدرة اليتيمة ، وهما كتابان لا كتاب واحد ، كما يشهد بذلك كلام الباقلانى عن اليتيمة الذى سبق أن نقلناه عنه ، وفيه أنها قسمان قسم فى الحكم المنقولة ، وقسم فى شيء من الديانات ، وليس فى الأدب الكبير حديث عن الديانات ، إنما هو حديث كما رأينا عن السلطان والصداقة . ومما يقطع بأن الدرة اليتيمة ليست هى الأدب الكبير أن ابن طيفور احتفظ فى كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بقطعة طويلة من صدرها لا توجد فى الأدب الكبير ، ونرى ابن المقفع يذكر فيها أن الناس قد سألوه أسئلة ، وأنه سيجيبهم عما سألوا ، واحتفظت القطعة بالسؤال الأول ، وهو يدور على الزمان ، وقد أجابهم بأن الزمان الناس ، وهم رجلان ، وال ومولًى عليه . وقسم الأزمنة على أساس الوالى والرعية أربعة أقسام : قسم هو خير الأزمنة لصلاح الحاكم والمحكومين ، وقسم ثان يليه وفيه يصلح الحاكم ويفْسُدُ المحكومون ، وقسم ثالث يصلح فيه المحكومون ويفسد الحاكم ،

---

(١) غرر : خداع .

(٢) الحزمة : جمع حازم .

دكتور شوقي ضيف

تاريخ الأدب العربي

٤٧

العصر العباسي الأول

دار المعارف

الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الحركة العلمية

دعا الإسلام أمته فى قوة إلى العلم والتعلم ، فبمجرد أن اكتسح العرب العراق وإيران والشام ومصر مضوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف التى كانت منبثة فى هذه البلدان ، وأسعفهم فى ذلك أنهم عرَّبوا شعوبها وأخذتْ بنفسها تعرّب لهم كل مدَّخراتها وكنوزها الثقافية ، وتجرَّد بعض العرب لمعرفة اللغات الأجنبية التى كانت تحمل تلك الكنوز والمدخرات ، وما ينقضى القرن الثانى الهجرى حتى تكون قد دخلت العربية سيولٌ ثقافية وعلمية لا حصر لها ، مما مكّن العرب أن يتحوَّلوا سريعًا إلى أمة علمية تُعْنَى بكل جوانب العلم الذى كان معروفًا عند الأمم القديمة وخاصة الفرس والهنود والسريان واليونان ، وتشارك فيه مشاركة جادَّة خصبة ، وتضيف إليه علومًا جديدة تتصل بالقرآن والشريعة والشعر واللغة والنحو والعروض .

ونشط التعليم حينئذ نشاطًا واسعًا فمن تعليم للناشئة بالكتاتيب إلى تعليم للشباب بالمساجد ، وكان الناشئة يبدءون بتعلم الخط والكتابة والقراءة ويحفظون بعض السور القرآنية ، ويَشْدون بعض الأشعار والأمثال ، ويدرسون شيئًا من الحساب والسنن والفرائض والنحو والعروض ، وعُنى معلمو البنات بتحفيظهن القرآن وخاصة سورة النور ، على نحو ما صورنا ذلك كله فى كتاب العصر العباسى الأول نقلا عن

الجاحظ ، وذكر هو وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب ، ونراه يخصهم برسالة لا تزال منها بقايا بين رسائله المطبوعة على هامش كتاب الكامل للمبرد ، وفيها يصوّر نوادرهم وحماقاتهم المضحكة ، ومن حينئذ أصبحت شخصية معلم الكُتّاب تدور بين الشخصيات الهزلية فى أدبنا العربى ، ويقول محمد بن حبيب العالم اللغوى المتوفى سنة ٢٤٥ : إذا قلت للرجل ما صناعتك ؟ فقال : معلم صبيان فاصفَعْ ، يشير إلى حماقته ، وكان ينشد :

مَنْ عَلَّم الصِّبيان صَبَّوْا عَقْلَهُ حتى بنى الخلفاء والخلفاءُ[1]

وصَبَّوا عقله : جعلوه مثل عقلهم : عقل الصبيان حمقًا وبلاهة ، وكأنما تصيب عقله عدوى من عقولهم لطول ملابسته لهم ، وابن حبيب يعمم ذلك حتى فيمن يعلمون أبناء الخلفاء وآباءهم حين كانوا فى المهد صغاراً . ويقول ابن قتيبة إنهم كانوا يعلمون الصبيان على حسب الهدايا التى كانت تأتيهم من آبائهم[2] ، أو بعبارة أدق على حسب الأجور التى كانوا يأخذونها منهم .

وطبيعى ألا تكون حياة معلم الكتّاب على هذا النحو رافهة ، بل كان كثيراً ما يحفّ بها الضيق والبؤس على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ وكان فى بدء حياته معلم كُتّاب ، وقد شكا شكوى مرة حينذاك من حياته[3] البائسة . وكثير من اللغويين والنحاة قبل أن ينالوا شهرتهم العلمية بدءوا معلمى صبية مثل يعقوب بن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣ ، فقد كانت له فى مطالع حياته حلقة فى درب القنطرة ببغداد يؤدّب فيها مع أبيه صبيان العامة[4] . ويخيَّل إلى الإنسان كأنما أولاد العامة جميعًا كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما استقر فى نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وأنه مثل الطعام والشراب لا يمكن الاستغناء عنه ، وأن من لم يتعلم فى صغره فاته العلم فى كبره ، ومثّلوا العلم فى الكبر بالنقش على الماء ، وفى الصغر بالنقش على الحجر يثبت ولا يزول أبداً . وكان الأولاد يكتبون فى ألواح من الآبنوس أو الخشب ، كل على حسب قدرة أبيه

---

(١) معجم الأدباء لياقوت (طبعة القاهرة المصرية) ٤/٣٩ .

(٢) عيون الأخبار (طبعة دار الكتب ١٨/١١٢ .

(٣) معجم الأدباء ٣/٦٥ ، ٨١ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٤/٢٧٣ .

المادية ، وكان المعلمون يأخذونهم بالتأديب ؛ فيضربونهم أحيانًا أو يحبسونهم ، حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه .

وكان معلمو أبناء الخاصة أحسن حالا ومعاشًا من معلمى أبناء العامة ، ومع ذلك نرى الجاحظ يأسى لحالهم إذ يقول : « يكون الرجل نحويًا عروضيًا وقَسَّامًا فَرْضِيًا وحسن الكتاب جيد الحساب حافظًا للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلّم أولادنا بستين درهمًا ، ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعانى ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم »[١] وهذا إنما ينصب على معلمى أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار فكانوا يحظون برواتب كبيرة ، فمثلا يعقوب ابن السكيت الذى بدأ ، كما أسلفنا ، معلم كتاتيب حين عهد إليه بعض الحكام فى تعليم ابنه جعل له راتبًا شهريًا خمسمائة درهم وسرعان ما جعلها ألفًا ، واتخذه المتوكل لتعليم ولده وأسنى له الراتب وأجزل فى العطاء[٢] . ولما أسند محمد بن عبد الله ابن طاهر نائب المتوكل على بغداد وجماعة من الخلفاء بعده تعليم ابنه إلى ثعلب الإمام الكوفى النحوى المشهور ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه على مائدته ، وفرض له أن يأخذ يوميًا خبزاً فاخراً ولحمًا كثيراً حين انصرافه إلى منزله وجعل له ألف درهم شهريًا . وقالوا إنه حين مات خلّف واحداً وعشرين ألف درهم وألفى دينار وحوانيت أو دكاكين بباب الشام فى بغداد قيمتها ثلاثة آلاف دينار[٣] ، ويقال إن الخاقانى وزير المقتدر أولم وليمة ضخمة بمناسبة دخول ابن له الكُتّاب وأعطى المعلم ألف دينار .

ولم تكن هناك مراحل للتعليم مثلنا اليوم ، بل كان الكُتّاب يحلُّ محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى ، ومن يريد أن يكمل تعلمه بعده يختلف إلى حلقات المساجد ، وكانت أشبه بمعاهد عليا ، فلم تكن فقط دوراً للعبادة ، بل كانت أيضًا دوراً ، بل قل جامعات ، للعلم والعلماء ، إذ كان لكل عالم فى كل فرع من فروع

---

(١) البيان والتبين ١/٤٠٣ .

(٢) تاريخ بغداد ١٤/٢٧٣ .

(٣) إنباه الرواة للقفطى (طبعة دار الكتب المصرية) ١/١٤٧ وما بعدها ومعجم الأدباء ٥/١٢٥ .

العلم حلقة كبرى ، يتحلّق فيها طلابه من حوله . وكان عادة يستند إلى أسطوانة فى المسجد ، ثم يملى محاضراته والطلاب يكتبون ، وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردّد مُستَمْلٍ كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته ، وكان العالم لا يغير مكان حلقته الذى اختاره منذ نهض بالتدريس ؛ ويُرْوَى أن نَفْطَوَيْه المتوفى سنة ٣٢٣ ظل يملى دروسه فى اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها لا يزايل مكانه منها[١] . وكانت أكثر الحلقات طلابًا حلقات المتكلمين والفقهاء ، أما المتكلمون فلكثرة ما كان يجرى بينهم من مناظرات كان الطلاب يختلفون إليها للفرجة والتعلم ، وأما الفقهاء فلأن الإلمام بالفقه كان الوسيلة إلى تولى مناصب الحِسْبة والشرطة والقضاء والولاية أحيانًا. وكان الطلاب يمسكون فى أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة وأمامهم محابرهم ، وكانوا يُعَدُّون بالمئات فى بعض الحلقات ، ويُرْوَى أن الطبرى حين سأله الطلاب الحنابلة عن إمامهم ابن حنبل وخلافه مع بعض الفقهاء وأجابهم بأن خلافه لا يُعَدُّ أو لا يُؤْبَهُ له رموه بمحابرهم وكانت ألوفًا[٢] .

وكانت المساجد حينئذ أشبه بجامعات حرة ، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أى شرط ، منهم من يأخذ الفقه أو الكلام أو الحديث النبوى أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر ، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ ، ثم يتحول عنه إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى . ويبدو أن بعض علماء النحو واللغة كان يتقاضى من طلابه أجوراً على حسب قدرتهم ، ففى أخبار الزجاج أنه رغب فى تعلم النحو فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه ، فسأله أى شىء صناعتك ؟ فأجابه : أخرط الزجاج وكَسْبى فى كل يوم درهم ونصف ،وأريد أن تهتم بتعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهمًا ، وسأظل أعطيك إياه أبد الدهر ، فلزمه وعُنى بتخريجه ، وطلبت منه أسرة معلمًا شابًا يعلم أولادهم النحو فسمّاه لهم ، وعلم أولادهم وظل يعطى المبرد فى كل شهر ثلاثين درهمًا ويزيده بما يقدر عليه[٣] . ويبدو أن المبرد كان شحيحًا بعلمه ، إذ فى تاريخه أن المتوكل والفتح بن خاقان وزيره كانا يجزلان له فى العطاء حتى إذا توفيا أجرى عليه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد راتبًا

(١) معجم الأدباء ١ / ٢٥٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٥٨ .
(٣) معجم الأدباء ١ / ١٣١ .

شهرياً ، ويتوفى فيتابع أخوه عبيد الله الذى خلفه على بغداد إجراء الرواتب عليه ، وهو مع ذلك كله لا يتورع عن أن يأخذ من طالب فقير درهماً كل يوم .

على كل حال كان المبرد مثله مثل المحاضرين الكبار بالمساجد ترعاهم الدولة وتفرض لهم رواتب شهرية ، وكانوا أنواعاً كثيرة ، فمنهم فقهاء ومنهم لغويون ونحاة ومنهم محدّثون ومفسرون ، ومنهم أدباء يأخذون من كل علم بطرف وعلى أيديهم كان يتخرج الندماء . وكان كل عالم وصاحب فن يأخذ راتبه مع جماعته ، وكان منهم من يُسْلَكُ فى جماعات كثيرة ، فيأخذ مع كل جماعة الراتب الذى تأخذه ، كالزجاج تلميذ المبرد ، فقد جعل المعتضد له راتباً فى الفقهاء وراتباً فى العلماء وراتباً فى الندماء ، فبلغ راتبه من الدولة ثلثمائة دينار شهرياً[١] . وكان الموفق يُجْرى على ثعلب راتباً سنياً[٢] . وكان المقتدر يجرى على ابن دريد العالم اللغوى المتوفى سنة ٣٢١ خمسين ديناراً فى كل شهر[٣] . وكان أبو الحسن بن الفرات وزير المقتدر يطلق لطلاب الحديث سنوياً عشرين ألف درهم[٤] . وكان القضاة ورجال الحسبة من الفقهاء يتقاضون رواتب كثيرة ، حتى ليُشْرى بعضهم من راتبه ثراء طائلا ، على نحو مامرّ بنا فى الفصل الماضى عن إبراهيم بن جابر القاضى بحلب .

ولم يكن الخلفاء العباسيون ووزراؤهم وحدهم الذين عملوا على تنشيط العلم وإعطاء الرواتب الجزيلة للقضاة والعلماء من كل صنف ، فقد كان يشركهم فى ذلك حكام الولايات ، وفى مقدمتهم أسرة الصفاريين حكام سجستان ، إذ نرى أبا عبد الله البُوشَنْجىّ شيخ أهل الحديث بنيسابور المتوفى سنة ٢٩١ يذكر أنه أخذ من تلك الأسرة سبعمائة ألف درهم ، ولما دالت دولتهم تحوّل عنهم إلى السامانيين ببخارى ، ففرضوا له راتباً مجزياً[٥] ، وقد بعثوا فى إمارتهم بتشجيعهم للعلماء نهضة علمية عظيمة ، ويُرْوَى أن أميرهم إسماعيل بن أحمد السامانى كان يصل محمد بن نصر المروزى إمام المحدثين فى دياره المتوفى سنة ٢٩٤ بأربعة آلاف درهم كل سنة ، وكان أخوه إسحق يصله بمثلها ، كما يصله بمثلها سكان موطنه سمرقند[٦] .

---

(١) الفهرست ص ٩٦ وإنباه الرواة ١ / ١٦١ .
(٢) معجم الأدباء ٥ / ١٤١ وإنباه الرواة ١ / ١٤٢ .
(٣) انظر ترجمته فى ابن خلكان .
(٤) كتاب الوزراء للصابى ص ٢٠١ .
(٥) طبقات الشافعية للسبكى ٢ / ١٩٢ .
(٦) السبكى ٢ / ٢٤٨ .

عند المحدّثين باسم الإجازة ، وهى شهادة قيمة على صحة الرواية[١]. وقد يسجل التلميذ على نسخته أنها من سماع هذا الشيخ أو ذاك، وقد يسجل أنه قرأها عليه ، وقد يسجل له ذلك الشيخ . وكان الشيخ أحياناً يملى عملا له فى بلد ، ثم ينتقل إلى بلدة أخرى ويمليه مضيفاً إليه أو مهذباً ، وكانوا ينصُّون على ذلك ، مثل معجم الجمهرة لابن دُرَيْد ، إذ نصوا على أنه مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان ، لأنه أملاه مراراً بفارس وببغداد ، فلما تعدد الإملاء زاد المعجم ونقص ، ويقول ابن النديم أصح النسخ نسخة أبى الفتح عبد الله بن أحمد النحوى ، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه[٢]. وتلك هى أعلى مرتبة فى تحقيقنا العلمى الحديث للكتب ، إذ نراجع مخطوطات الكتاب ونعرضه عليها ، ونستخلص منه أصلا صحيحاً غاية الصحة ، وقد اهتدوا مبكرين إلى ذلك يرشدهم نظر علمى سديد . وكان كثير من العلماء حين يُمْلى كتاباً ثم يزيد فيه ويضيف يهمل نسخته أو نسخه الأولى ، ولا يقرُّ سوى النسخة الأخيرة ، على نحو ما يلقانا عند أبى عمرو المطرز ، فإنه أملى فى سنة ٣٢٦ كتابه الياقوت فى اللغة ، ثم رأى الزيادة فيه فأملاه على تلاميذه ثانية سنة ٣٢٩ ، ثم رأى أن يضيف إليه بعض إضافات ، فجمع نسخه وعارضها بعضها على بعض سنة ٣٣١ وجعل هذه العرضة الصورة النهائية للكتاب وأهدر ما سواها من الصور السابقة[٣].

وكان من أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات العلماء فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء فى الكلام وفى الفقه وفى اللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التى كان يشتد فيها الخلاف والجدل . وكان الشباب يختلف فى المساجد إلى هذه المناظرات ، ليتعلم قَرْع الحجة بالحجة وغلبة الخصم بالحق وبالباطل أحياناً ،وتفيض كتب المتكلمين بأخبار هذه المناظرات وكذلك كتب الفقهاء واللغويين والنحاة وكثيراً ما أثيرت فى أثناء هذه المحاورات بعض القضايا والمسائل كقضية العشق فى مجلس المنتصر[٤] وأنواع اللهو والملاهى فى مجلس المعتمد[٥].

---

(١) انظر فى أقدم هذه الإجازات كتابنا البحث الأدبى ص ١٥٧

(٢) الفهرست ص ٩٧

(٣) الفهرست ص ١١٩

(٤) مروج الذهب ٤ / ٥٥

(٥) مروج الذهب ٤ / ١٣١

وكان استخدام الورق فى الكتابة وتصنيف الكتب استخداماً عاماً منذ عصر الرشيد عاملا مهماً فى ازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد كانوا يكتبون قبل عصره غالباً فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى وكانوا يكتبون فى ورق الكاغد المستورد من الصين وكان مرتفع الثمن جداً، فنقلوا صناعته إلى بغداد فى عصر الرشيد ، إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكى وزيره مصنعاً للورق ، فرخص ثمنه ، وانتشرت الكتابة فيه لخفته ، وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات ، كما كثر الوَرّاقون الذين يعيشون من نسخها ، وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها ، واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء الكتب والمؤلفات فحسب ، بل ليقرءوا فيها وينهلوا من مصنفاتها ، وكانوا يكترونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح ويقيّدون أو ينسخون ما يشاءون من الأفكار والصحف والرسائل . وعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة ، إذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب والشباب وبأيديهم ، يتزودون منها كما يريدون أزواداً كانت أيسر وأسهل من التلقى عن الشيوخ والعلماء فى المساجد ، إذ كانت تجمع لهم مسائل العلم الذى يريدونه وأصوله وفروعه ، ويصور ذلك الجاحظ مقارناً بين من يطلب الفقه عن طريق الاختلاف إلى حلقات العلماء ومن يطلبه عن طريق الكتب ودكاكين الوراقين ، يقول : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار (الحديث) وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً : فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ويحفظ كتاب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحرَى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان »[1] . ولرواج هذه التجارة حينئذ اتخذ كثير من العلماء المحاضرين بالمساجد وَرّاقين يقيّدون إملاءاتهم ويذيعونها فى الناس ، ويذكر ابن النديم وَرّاقَى المبرد إسماعيل بن أحمد الزجاجى وإبراهيم بن محمد الساسى [2] ، ويذكر ياقوت من وراق الجاحظ زكريا[3] بن يحيى ، ومن حين إلى آخر تلقانا أسماء هؤلاء الوراقين فى تراجم العلماء وأخبارهم .

---

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١ / ٨٧ .
(٢) الفهرست ص ٩٥ .
(٣) معجم الأدباء ١٦ / ١٠٦ .

وبجانب الوراقين ودكاكينهم التى كانت تحل حينئذ محل دور النشر والطباعة كانت هناك مكتبات يختلف إليها الناس والشباب فى كل مكان ، ويشيد أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ بعناية ملوك الفرس بالمكتبات وما كان بها من كتب مودعة أصناف علوم الأوائل[١] ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول خزانة الحكمة التى شادها ببغداد هرون الرشيد ، وأقام عليها يوحنا بن ماسويه لترجمة الكتب الطبية القديمة ، وكيف تحوّل بها المأمون إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً إذ ألحق بها مرصداً ضخماً ، ووظّف بها كثيرين للترجمة . وقد تأسست مكتبات كثيرة فى العصر ، منها ما كان عاماً ، ومنها ما كان خاصاً ، أما العام فعلى رأسه مكتبات المساجد ، إذ كان كثير من العلماء يقفون كتبهم عليها ليفيد منها الطلاب ، وقلّدهم فى ذلك السرّاة . وعُنى بعض المثقفين والعلماء ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزواداً علمية مختلفة ، ومن أشهرها حينئذ مكتبة على بن يحيى المنجم نديم الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد وكان أديباً مثقفاً ثقافة واسعة كما كان شاعراً ، وكانت له ضيعة نفيسة بنى فيها قصراً جليلا جعله خزانة كتب عظيمة وسماه خزانة الحكمة مشاكلة لخزانة الرشيد والمأمون ، وكان الناس يؤمونها من كل بلد ، فيقيمون فيها ويعكفون على المصنفات العلمية دارسين ، والكتب مبذولة لهم ، والنفقة مشتملة عليهم من مال على بن يحيى ، فقدم عليها أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن شيئاً ذا بال من النجوم ، فلما رآها هاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم وتعمق فيه حتى ألحد كما يقول ياقوت ، وحتى كان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً[٢] ، ويذكر ياقوت أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الشافعى — من أدباء العصر وعلمائه — أسس مكتبة ملأها بكتب من جميع العلوم والفنون ، وقفها على كل طالب للعلم ، وكان لا يمنع أحداً من دخولها ، فهى مفتوحة للجميع ، وإذا ألمّ بها معسرٌ أو بائس فقير صُرِف له ورق للكتابة فيه وفضة أودراهم لمعاشه . وكانت تُفْتَح كل يوم ، وكان ابن حمدان يجلس فى بعض غرفها ، ويحاضر قاصديها مملياً عليهم من أشعاره وأشعار غيره وحكايات مستطرفة وشذوراً من الفقه وما يتعلق به[٣] . ولا يكاد يكون

---

(١) الفهرست ص ٣٤٨

(٢) معجم الأدباء ١٥ / ١٥٧

(٣) معجم الأدباء ٧ / ١٩١

هناك عالم أو أريب نابه أو سَرِيّ إلا وله مكتبة خاصة تموج بالكتب ، وكانوا يوظفون لها بعض الوراقين كما كانوا يجلدونها[١] ويتفننون فى العناية بكتابتها وتجليدها ، وكان المانوية شديدى الاهتمام بزخرفة كتبهم [٢] يريدون أن يجعلوها تحفاً فنية استمالة للقراء .ويتوقف الجاحظ فى كتابه « الحيوان » ليعجب من مكتبة إسحق بن سليمان العباسى وما كانت تزخر به من الكتب والأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر [٣] ، وكانت لابن حنبل مكتبة قُدّرت كتبها باثنى عشر حملا وعدلا[٤] ، أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل المتوفى سنة ٢٤٨ فكانت له خزانة كتب جمعها له على بن يحى المنجم لم يُرَ أعظم منها كثرة وحسنًا ، وكان يحضر مجلسه فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة [٥] ، وكانت لثعلب مكتبة حافلة ، قوّم خيران الورّاق ما يساوى عشرة دنانير منها بثلاثة : ومع ذلك بلغ ثمنها ثلثمائة دينار [٦] ، وكذلك كانت لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى مكتبة كبيرة ، وسأله بعض أصحابه كم يحفظ منها ؟ قال : ثلاثة عشر صندوقًا[٧] . ونسوق خبراً يدل على عظم المكتبات الخاصة عند بعض الأفراد ، فقد روى الرواة أن أبا عمر غلام ثعلب كان يؤدّب ولد القاضى أبى عمر محمد بن يوسف فأملى عليه ثلاثين مسألة بشواهدها من كلام العرب واستشهد فى تضاعيفها ببيتين غريبين جدًّا ، فعرضهما القاضى أبو عمر على ابن دُرَيْد وابن الأنبارى وابن مِقْسم فلم يعرفوهما ولا عرفوا غالب ما استشهد به من أبيات : وقال ابن دريد : هذا مما وضعه أبو عمر من عنده . فلما جاء أبو عمر ذكر له القاضى ما قال ابن دريد . فطلب من القاضى أن يحضر له ما فى داره من دواوين العرب ، فلم يزل يأتيه منها بشاهد لما ذكره بعد شاهد ، حتى خرج من الثلاثين مسألة وشواهدها ، ثم قال للقاضى : وأما البيتان فإن ثعلباً أنشدناهما وأنت حاضر فكتبتهما فى دفترك فطلب القاضى دفتره ، فإذا هما فيه[٨] . وتلك مكتبة قاض كان بها جميع دواوين العرب ، ولو لم تحدث هذه القصة لما عرفنا شيئًا

---

(١) رسائل الجاحظ (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٤ .

(٢) الحيوان ١ / ٥٥ .

(٣) الحيوان ١ / ٦٠ .

(٤) السبكى ٢ / ٢٧ .

(٥) معجم الأدباء ١٦ / ١٧٤ .

(٦) إنباه الرواة ١ / ١٤٨ .

(٧) معجم الأدباء ١٨ / ٣٠٧ .

(٨) السبكى ٣ / ١٩١ .

عنها ، فما بالنا بمكتبات المؤلفين العظام فى العصر ، وكثير منهم ألّف مكتبة ضخمة فلو لم يكن له سوى مؤلفاته لكانت لديه منها خزانة كتب حافلة ، ويكفى أن نذكر مثلا الجاحظ وقد خلف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يؤلف مكتبة كبيرة . ومما لا ريب فيه أن مكتبته كانت تحتوى المصنفات التى جمع منها المادة اللغوية والأدبية والكلامية لكتبه . ونذكر بجانبه الطبرى ، وقد أحصى بعض تلاميذه الأوراق التى كتبها وألّف منها كتبه ، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين ورقة ،وحسب آخرون أوراق كتبه من يوم ولد إلى أن مات فوجدوه كتب كل يوم أربع عشرة ورقة(١) .

ويحس كل من يتعقب الحركة العلمية فى العصر كأن سباقًا نشب بين العلماء والعلم ، فهم يجدّون فى طلبه وتحصيله وهم يصارعونه صراعًا متصلا يريدون أن يذللوه ويقهروه فى جميع الميادين . وهو صراع كان يداخله شغف شديد به ، كما كان يداخله إيمان بأنه لن يخضع لهم إلا إذا تجرّدوا له وتوفّروا عليه وأمضوا فيه بياض النهار وسواد الليل فى غير كلل ولا ملل ، بل فى حب لا يفوقه حب ، ويحدثنا الرواة عن كثيرين عشقوا الكتب أو بعبارة أخرى العلم عشقًا لا يشبهه عشق ، ويقول أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب أكثر من ثلاثة : الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، والفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتابًا من كمه أو خُفّه وقرأه فى مجلس المتوكل إلى حين عَوْده إليه ، وإسماعيل بن إسحق القاضى فإنى ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر فى كتاب أو يقلب كتبًا أو ينفضها(٢) » .

وهذا الشغف العلمى الشديد هو الذى دفع العلماء إلى الرحلة من بلد بعيد إلى بلد بعيد طلباً للعلم ، مهما تجشموا فى ذلك من مشاق ، فكان اللغويون يرحلون إلى البوادى محتملين ما فيها من شظف العيش وخشونته فى سبيل جمع اللغة ، وكان الفقهاء يرحلون بدورهم للتتلمذ على أئمتهم ، ومثلهم العلماء المختلفون فى كل فرع من فروع العلم ، ومن خير ما يصور ذلك ما رواه يا قوت عن أبى زيد البَلْخى أحمد

(١) السبكى ٣ / ١٢٢ وما بعدها

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥

ابن سهل من أن نفسه دعته وهو فى عنفوان شبابه إلى أن يرحل عن بَلْخ ويدخل أرض العراق ويجثو بين أيدى العلماء ويقتبس منهم العلوم ، فتوجَّه إليها راحلا مع الحاج وأقام بها ثمانى سنوات ، فطوَّف البلاد المتاخمة لها ، والتقى الكبار والأعيان وتتلمذ لأبى يوسف يعقوب بن إسحق الكندى ، وحصَّل من عنده علومًا جمَّة ، وتعمَّق فى علم الفلسفة ، وهجم على أسرار علم التنجيم والهيئة ، وبرَّز فى علوم الطب والطبائع وبحث فى أصول الدين[1]» . وأكبر من شُغفوا بالرحلة فى العصر المحدِّثون ، لأن الصحابة كانوا قد نزلوا فى أمصار العالم الإسلامى من إيران إلى المغرب ، وكانوا يروون أحاديث كثيرة عن الرسول حملها عنهم تلاميذهم من التابعين ومن جاءوا بعدهم ، فكان فى كل مصر أحاديث لا تعرفها الأمصار الأخرى ، فرحل مصنفو الحديث وحُفَّاظه فى طلبها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ورحلة البخارى من خراسان إلى مدن إيران والعراق والحجاز والشام ومصر مشهورة ، ومثله بقية المحدثين الذين جمعوا متفرقات الأحاديث فى العالم الإسلامى . وسنرى الرحلة تشيع بين المترجمين إلى بلاد الروم ، كما سنراها تشيع بين الجغرافيين ليصفوا ما شاهدوه بأعينهم ، وكذلك سنراها تشيع بين المؤرخين من أمثال المسعودى .

ويبدو أن الشغف المفرط بالعلم لم يكن مقصوراً على الطبقات الخاصة من العلماء ومن يبتغون من الطلاب أن يكونوا على شاكلة أساتذتهم المتخصصين ، بل كان حظًّا مشتركاً بين الطبقات العامة ، إذ كان العلم مطروحًا فى المساجد مباحًا للجميع ، وكذلك فى المكتبات العامة ، ولم يكن هناك كتاب طريف إلا وتعرضه دكاكين الوراقين . ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلى تراجم العلماء سيجد كثرتهم الغامرة من الطبقة العامة ، وتصور ذلك ألقابهم من مثل الحدَّاد والخزَّاز والقَوَارِيرى والتمَّار والقوَّاس والنبَّال والقلاَّل والعطار والمطرِّز . وأبعد من ذلك وأعمق أن نجد الجاحظ فى رسالته «الرد على النصارى» يشكو من مناقشة العامة للملحدين والزنادقة فى آرائهم الضالة ، لعدم معرفتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يفندها من الأدلة الساطعة ، حتى ليقول : «ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد» ، وكأن كل

---

(١) معجم الأدباء ٣ / ٧٢

فرد من أفراد العامة لعصره كان يظن نفسه نال حظًا أو حظوظًا من مناهج المتكلمين فى جدال أصحاب الملل والنحل الضالة . وظاهرة ثانية تدل على مدى تغلغل الثقافة بين جميع أفراد الأمة بلا استثناء، إذ نرى من النساء من يختلفْنَ إلى حلقات المتكلمين (١) والفقهاء وغيرهم ،ويبدو أنه برزت حينئذ فى الثقافة الدينية غير امرأة حتى لنرى — كما مر بنا — قهرمانة لأم المقتدر ، هى ثَمَل ، تجلس فى سنة ٣٠٦ لسماع المظالم والحكم بين المتظالمين ويجلس معها القضاة والعلماء ، واختلف الفقهاء حينئذ فى جواز ولاية المرأة للقضاء ، وأجاز ذلك الطبرى (٢)، وهى فتوى تدل على ما بلغته المرأة من التعمق فى الفقه وعلوم الشريعة لهذا العصر ، ولابن بسام المتوفى سنة ٣٠٣ أبيات يقول فيها (٣) :

ما للنساء وللكِتا بةِ والعِمالة والخطابَهْ

وقد يدل البيت على أن من النساء حينئذ مَنْ كنَّ يطالبن بمساواة المرأة بالرجل فى الوظائف المهمة مثل كتابة الدواوين وولاية الأقاليم والخطابة فى المحافل العظام .

ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمار اشتراك الطبقة الشعبية العامة فى العلم والثقافة، فقد كانت هناك ثمرة مهمة غاية الأهمية ، هى محاولة أن يصبح العلم شعبيًا بحيث لا يعلو على أفهام العامة ، وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها ، ويتضح ذلك عند الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وعند ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار» . ومرَّ بنا أن الجاحظ أراد بكتابة « البيان والتبيين » أن يردَّ على الشعوبية رداً مفحمًا ببيان ما تحمل الثقافة العربية فى الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغية رائعة ؛ ونضيف هنا أنه أراد أن يذلل هذه الثقافة بعرضها فى أسلوب عصرى يقرّبها من أفهام العامة بحيث تُسيغها بدون أى عسر أو مشقة . وبَوْنٌ بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويين من أمثال الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وعرضها عند الجاحظ فى البيان والتبيين ؛ فهى عند الأولين جافة جفافًا شديداً ولا يستطيع غير المتخصصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة . أما فى البيان والتبيين فعذبة سائغة لا للطبقة الوسطى من المثقفين فقط . بل أيضًا للطبقة الشعبية الدنيا . وبالمثل عرضه

(١) انظر ترجمة الأشعرى فى ابن خلكان .
(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٠٧ .
(٣) صبح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية) ٦٤/١ .

لهذه الثقافة فى كتابه الثانى « الحيوان » فهو يقرّب هذه الثقافة من الشعب، بحيث يجد فيها لذة ومتاعًا، وهو يمزج بينها وبين ما عُرف عند أرسطو وغيره من علم الحيوان ، ليتضح أن هذا العلم لم يكن غريبًا ولا بعيداً عن العرب، بل لقد استظهروا منه كثيراً فى أشعارهم . وهو لا يقرّب هذا العلم من العامة وحده، بل يقرّب أيضًا علم الكلام ونظريات أصحابه من المعتزلة أمثال النظام ، بل أدق الدقائق من هذه النظريات وما حملت من براهين عقلية سديدة ، وكأنما كان يريد للعامة أن تتمثل هذه البراهين حتى تتسلح عقليًا فى مناقشتها للمسائل ومحاورتها لأصحاب الملل وخاصة النصارى كما أسلفنا منذ قليل . وأما كتاب عيون الأخبار فقد عرض فى مجلداته الأربعة الثقافات المعاصرة له عرضًا بسيطًا سهلا ، حتى يجعل قطوفها دانية للعامة ، وحتى لا يظنوا — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — أن بينها تعارضاً ، فتلك آداب الفرس وتقاليدهم فى السياسة والحكم، وتلك وصايا العرب فى القضاء وغير القضاء وخطبهم وأشعارهم، وتلك أقوال المسيح عليه السلام وأقوال أصحاب الكتب السماوية فى الزهد، وتلك أحكام وقواعد فى الطعام والنبات والحيوان منقولة عن اليونان . وكل ذلك يسوّى منه الكتاب فى لغة سهلة يسيرة واضحة أشد الوضوح ، بحيث تتيح له أن يتغلغل فى طبقة الشعب، وبحيث يتبين فى وضوح أنه لا توجد حواجز ولا سدود بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية وما قد يُظَنّ من ذلك كله إنما هو أقواس وهمية . وبلغ من قرب هذا الكتاب من نفوس جميع طبقات الشعب الخاصة والعامة أن أكبَّ الناس على ما فيه من آداب الفرس وأهملوا كل ما صوّر هذه الآداب من كتب أخرى ، إذ استطاع ابن قتيبة أن يعطيها صبغة شعبية تجعلها واضحة كل الوضوح، كما استطاع أن يكسُوَها بأساليبه البديعة ثوبًا عربيًا ناصعًا ، بحيث أصبحت فى ثوبها الجديد أنصع وأبهى وأنضر من ثوبها القديم .

٢

علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف

تحدثنا فى كتاب العصر العباسى الأول عن حركة الترجمة فيه وكيف أنها شملت كل ما استطاع العرب نقله من علوم الهند والفرس واليونان، وكان أكثر ما نقلوه عن الفرس والهند فى مجال الفلك والرياضيات ، ونقلوا عن اليونان

إما عن اليونانية مباشرة وإما عن السريانية والفارسية مجموعات العلوم التى تتصل بهم من الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسرعان ما أخذوا يشاركون فى هذا التراث فإذا يوحنا بن ماسويه ينفذ إلى إضافة مباحث جديدة فى التشريح ، وإذا هم يضعون لحركات الأفلاك زيجات وجداول جديدة أكثر دقة من المأثورات الفارسية واليونانية ، وإذا محمد بن موسى الخوارزمى ينشئ عصراً جديداً فى التاريخ العالمى للرياضيات فيكتشف علم الجبر وقواعده ويعطيه اسمه الذى عُرف به فى العالم كله . والدولة هى التى هيأت لذلك كله منذ أبى جعفر المنصور ، فقد شجعت على الترجمة والنقل بكل الوسائل ، ولم يلبث هرون الرشيد أن أنشأ دار الحكمة وجلب إليها المترجمين من مدرسة جنديسابور الفارسية ومن السريان والفرس ، وخلفه المأمون فاستحالت هذه الدار جامعة كبرى ، إذ ألحق بها مرصداً ومكتبة ضخمة ، وأرسل البعوث إلى بيزنطة وبلاد الروم تأتيه بالمأثورات اليونانية المختلفة ، وأخذت هذه المأثورات تستولى على معظم النشاط فى النقل والترجمة ، حتى أصبحت لها نهائياً الغلبة على المأثورات الفارسية والهندية .

وأشرنا فى حديثنا عن الترجمة فى العصر العباسى الأول إلى ما تُرجم عن اليونانية من الأصول المختلفة ، فقد ترجمت فى الرياضيات النظريات الفلكية الإغريقية ومن أهم مصنفاتها التى عُنى النقلة بترجمتها كتاب المجسطى لبطليموس الإسكندرى ، كما عنوا بترجمة كتاب الأصول لإقليدس فى الهندسة ، وترجموا كثيراً من المؤلفات اليونانية فى العلوم الطبيعية وخاصة ما اتصل عند أرسطو بعلم الحيوان وبوصف النباتات مما يهم الصيادلة ، وترجموا فى الطب مصنفات جالينوس وبقراط . وترجموا لكثيرين من اليونان غير أرسطو ، فترجموا لأفلاطون وغير أفلاطون مصنفات مختلفة . ويلاحظ أن العرب استعانوا فى هذه الترجمة بالسريان ، وكانوا قد نقلوا إلى لغتهم قبل الإسلام كثيراً من المأثورات اليونانية ، وتصادف أن أخذوها من علماء المذهب الأفلاطونى الجديد ، مع ما أضافوه إليها من شروح اقتبسوها من آراء أفلاطون أو من الأفلاطونية الجديدة المتأثرة بفيثاغورس أو بالرواقيين . وليس ذلك فحسب ، فإن السريان فيما يبدو نسبوا إلى أرسطو وأفلاطون كتباً كثيرة ، ونُقلت إلى العرب بهذه النسبة الخاطئة ، مثل كتاب

الربوبية المنسوب خطأ إلى أرسطو ومحوره بحوث فى النفس والإنسان تُمزَجُ بقصص كثيرة وبقواعد فى السياسة والصحة والتغذية . على أن كثيراً مما نسبوه إليه صحيح وخاصة ما يتصل بالطب والحيوان والعلوم الطبيعية . وكلما تقدمنا مع الزمن كثر الاهتمام به وبترجمة آثاره ، حتى غدا المعلم الأول للعرب وعلمائهم وفلاسفتهم المختلفين ، وخاصة فى علم المنطق والطبيعيات ، أما فى الرياضيات فكان أساتذتهم فيها فيثاغورس وبطليموس وإقليدس .

ويذهب العصر العباسى الأول ، ونمضى فى العصر العباسى الثانى فنجد حركة النقل والترجمة تزداد حدة وقوة وتنمو الترجمة عن اليونانية نمواً عظيماً ، ويتم لها الانتقال من الترجمة الحرفية التى تمتلئ بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى ترجمة الفقر والعبارات بالمعنى ترجمة دقيقة . وهذا هو السر فى أننا نجد كثيراً فى ترجمات المترجمين أنهم أعادوا ترجمة هذا الكتاب أو ذاك مما ترجمه الحجاج بن مطر وغيره من مترجمى العصر العباسى الأول . ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا حينئذ كتاباً يونانياً فى أصله اليونانى أو فى ترجمته السريانية إلا ترجموه إلى العربية . وكان الذى أذكى الترجمة والنقل حينئذ الأموال الضخمة التى كان يُغْدقها المتوكل وغيره من الخلفاء على المترجمين ، ويكفى أن نذكر ما أهداه المتوكل إلى حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٤ فإنه أهداه ثلاث دور من دوره وحمل إليها كل ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً خمسة عشر ألف درهم غير ثلاثة خدم من الروم وغير ما أسبغه على أهله من الأموال والخِلَع والإقطاعات[1] . وكان الوزراء بدورهم يغدقون على المترجمين أموالا كثيرة ، سواء أهدوا إليهم بعض ترجماتهم أو بعض ما ألّفوه على هدى ما قرءوه فى اللغتين اليونانية والسريانية ، وفى أخبار قسطا بن لوقا أنه أهدى إبراهيم بن المدبر كتابين كما أهدى الحسن بن مخلد وزير المعتمد كتاباً[2] . وفى أخبار إسحق بن حنين أنه كان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد[3] . وكان ثابت بن قرة لا ينقطع عن إسماعيل

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر مكتبة دار الحياة ببيروت) ص ٢٧٠ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٣٣٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٧٤ .

ابن بلبل وزير المعتمد وله ألّف مقالة فى الهندسة.[١] وكان كثير من الأطباء يكلفون المترجمين نقل كتب طبية أو كتب تتصل بالطب ، يقول ابن أبى أصيبعة : « وكان مما نُقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وابنه بختيشوع وداود بن سرابيون وسلمون بن بنان واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفورى وحبيش بن الحسن»[٢] . وكانت هناك أسر وأفراد كثيرون يَعُدُّون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين ، وكانوا يتنافسون فى هذه الحماية مع أنفسهم ومع الخلفاء ، ذكر منهم ابن أبى أصيبعة طائفة[٣] ، منها على[٤] بن يحيى المنجم صاحب خزانة الحكمة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وأحمد بن المدبر . وممن نوّه بهم القدماء طويلا فى هذا الجانب بنو موسى[٥] بن شاكر وهم محمد والحسن وأحمد ، وكان الأول والثانى يُشْغَفان بالهندسة فى حين شُغف الثالث بالحيل (الميكانيكا) وكان لهم مرصد أسسوه على دجلة ، وكانوا يُغْدقون رواتب شهرية على جماعة من المترجمين بينهم حنين بن إسحق وحبيش ابن أخته وثابت بن قرة ، ويقال إنها كانت تبلغ فى الشهر خمسمائة دينار[٦] . وكل هذا الاهتمام بالترجمة والإنفاق عليها والتنافس فيها أحدث ازدهاراً عظيماً لها فى العصر العباسى الثانى فقد أكبَّ المترجمون على المأثورات الإغريقية فى كل فروع العلم والفلسفة يترجمونها ، وكادوا لا يبقون كتاباً بدون ترجمة وبدون شرح أو تلخيص . ومن يرجع إلى ابن أبى أصيبعة والقفطى تهوله الكثرة الغامرة مما ترجموه ، إذ يبلغ أحياناً عند المترجم الواحد مئات الكتب والرسائل ، سوى ما ألّفوه وصنفوه .

وأهم المترجمين حينئذ وأشهرهم حنين[٧] بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٤ وكان طبيباً

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٣٠٠ .
(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٤ .
(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٣ .
(٤) انظر أيضاً تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ١٣٢ .
(٥) راجع فى بنى موسى ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٠ والفهرست ص ٣٩٢ والقفطى ص ٣١٥ ، ٤٤١ والعلم عند العرب لألدوميلى (نشر الجامعة العربية) ص ١٣٩ .
(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٠ وانظر ترجمة الرازى ص ٤١٤ وكثرة من ألف الكتب بأسمائهم وأهداها إليهم .
(٧) انظره فى الفهرست ص ١٢٣ والقفطى ص ١٧١ وابن أبى أصيبعة ص ٢٥٧ وألدوميلى ص ١٣٢ ، ١٣٩ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الرابعة) ص ٣٧ .

مسيحيًا نسطوريًا من مدرسة جنديسابور ، رحل إلى بلاد الروم وتعلم اليونانية وكان يجيد بجانبها السريانية والفارسية والعربية ، وهو وابنه إسحق[١] وابن أخته حبيش[٢] أكثر المترجمين فى العصر إنتاجًا ، وكانوا يعملون معًا، فنسبت بعض الترجمات لهذا تارة ولذاك تارة أخرى . وكان يعاونهم تلاميذ كثيرون ، يدل على ذلك ما جاء فى ترجمة حنين من أن الخليفة المتوكل « جعل له كتّابًا نحارير عالمين بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما ترجموا ، وفى مقدمتهم أصطفن بن بسيل[٣] » ، ويبدو من اسمه أنه يونانى الأصل . وكان حنين يُشْغف بترجمة الكتب الطبية ، وقد ترجم لجالينوس منها عشرات إلى العربية والسريانية، غير ما أصلحه لتلاميذه من آثاره مما ترجموه إلى اللغتين. ويصور لنا فى مقدمة بعض الكتب التى ترجمها مدى دقته العلمية فى الترجمة إذ كان لا يزال يجمع للكتاب الذى يريد ترجمته كل ما يمكنه من نسخ، حتى إذا اجتمعت له قابل بينها وعارض عباراتها بعضها على بعض واستخلص للكتاب ترجمة دقيقة[٤]. وكان ابنه إسحق يعنى بترجمة الكتب الحكمية والفلسفية، فلم يقف عنايته مثله على الكتب الطبية، ولذلك كثرت ترجماته لأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس. أما حبيش فعُنى مثل خاله بترجمة الكتب الطبية. واشتهر أصطفن بأنه كان أول من ترجم كتاب ديوسقوريدس فى النبات وكتاب أوريباسيوس فى الأدوية المفردة[٥].

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة للترجمة وأستاذها حنين كان هناك مترجمون يفوقون الحصر ، من أشهرهم ثابت[٦] بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ ومن أهم ما ترجمه كتاب الأصول لإقليدس ، ويقول ألدوميلى ان النص العربى يصلح النص الإغريقى فى

---

(١) راجع الفهرست ص ٤٢٩ والقفطى ص ٨٠ وابن أبى أصيبعة ص ٢٧٤ ودى بورص ٣٧ وألدوميلى ص ١٤٢ .

(٢) انظر الفهرست ص ٤٢٨ والقفطى ص ١٧٧ وابن أبى أصيبعة ص ٢٧٦ ودى بورص ٣٧ وألدوميلى ص ١٤٢ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٢ والقفطى ص ١٧١ .

(٤) انظر أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجستراسر (طبع مطبعة دار الكتب المصرية) ص ٩٤ .

(٥) القفطى ص ٧٤ وألدوميلى ص ١٤٢ .

(٦) راجع الفهرست ص ٣٩٤ والقفطى ص ١١٥ وابن أبى أصيبعة ص ٢٩٥ ودى بورص ٣٧ وألدوميلى ص ١٤٢ .

مواضع مختلفة ، وترجم كتاب أرسطو فى النبات تفسير نيقولاوس ، وله كتاب قرسطون فى نظرية الميزان واعتدال الأجسام الميكانيكية ، وكان له أثر كبير فى لاتينية العصور الوسطى كما يقول ألدوميلى ، ومن مصنفاته كتاب الذخيرة فى الطب ألفه لابنه سنان . ومن أنبه المترجمين حينئذ قسطا[١] بن لوقا البعلبكى المتوفى سنة ٣٠٠ وكان مسيحيًّا من أصل يونانى ، ومن ترجماته شرح الإسكندر الأفروديسى وشرح جون فيلوبون على السماع الطبيعى وكتاب آراء الفلاسفة المنسوب إلى فلوطرخس وكتاب الحيل لهيرون المنشور فى ليبزج سنة ١٩٠٠ وكان قد ترجمه للخليفة المستعين . وترجم لإبراهيم بن المدبر كتابه الجامع فى الدخول إلى علم الطب غير كتب أخرى ألفها أو ترجمها لكثيرين . وله رسالة صغيرة فى الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اللاتينية . وخاتمة هؤلاء المترجمين النابهين أبو بشر متى[٢] بن يونس ، وكان من أصل يونانى ، وقد عُنى بترجمة جميع آثار أرسطو فى المنطق وغير المنطق ، وترجم له كتاب الشعر ترجمة مضطربة ، لأنه يدور — كما هو معروف — حول المأساة اليونانية ، ولم يكن العرب ولا المترجمون حينئذ يتصورونها ، ولذلك يكون لمتى عذره فى اضطراب ترجمته لهذا الكتاب[٣] . وقد انتهت إليه رياسة المنطقيين فى عصره ، وله مناظرة فى المنطق والنحو مع السيرافى سنة ٣٢٠ احتفظ بها ياقوت فى معجمه[٤] .

وبمتى بن يونس ينتهى عصر الترجمة العظيم ، ومنذ أوائل هذا العصر ، بل منذ عصر المأمون ، يشارك العرب فى علوم الأوائل التى ترجموها ، بحيث يظهر عندهم علماء يزاحمون العلماء الأوائل عند الأمم القديمة بمناكب ضخمة ، ويكفى أن نذكر محمد بن موسى الخوارزمى وابتكاره لعلم الجبر الذى أشرنا إليه فى غير هذا

---

(١) انظر الفهرست ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ ، وألدوميلى ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ وألدوميلى ص ١٥٥ ، ١٦٥ ودى بورص ٣٩ .

(٢) راجع الفهرست ص ٤٢٩ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٧ والقفطى ص ٣٢٣ وعبد الرحمن بدوى فى كتاب فن الشعر لأرسطو مع الترجمة العربية القديمة لمتى بن يونس نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٧٦ .

(٤) انظر معجم الأدباء ٨/١٨٠ .

الموضع والذى ليس له سابقة عند علماء الأوائل ، وله شروح على كتاب إقليدس فى الهندسة وكتاب بطليموس فى الجغرافية ، وقد خلّف فيها أول كتاب عربى جغرافى سماه صورة الأرض ، ونشطت الكتب والمباحث الجغرافية منذ هذا التاريخ المبكر. ومع افتتاح هذا العصر العباسى الثانى يؤلف عبيد الله بن خرداذبة الفارسى الأصل كتابه « المسالك والممالك » وهو يصرح فى مطالعه بأنه اعتمد فى بيان حدود الأرض ومسالكها على كتابات بطليموس . وأخذ غير عالم يتناول هذا الموضوع ، تناوله أبو عبد الله الجيهانى وأبو زيد البلخى ، وأهم منهما ابن الفقيه ، غير أنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ولذلك سمّى كتابه « البلدان » . وأدق منه وأمهر علميًا اليعقوبى أحمد بن يعقوب العباسى ، إذ نراه فى كتابه الذى سماه أيضًا باسم البلدان يعتمد على الرحلة والطواف ببلاد ديار الإسلام واصفًا لها وصف المشاهد المثبت من الأخبار. وبذلك تم تكامل علم الجغرافيا عند العرب . واهتموا حينئذ بإفراد جزيرة العرب وجغرافيتها ببعض الكتب على نحو ما نجد عند الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ فى كتابه « صفة جزيرة العرب » .

وعلى نحو ما نهضوا حينئذ بعلم الجغرافيا نهضوا بالرياضيات والفلك ، يتقدمهم محمد بن موسى الخوارزمى ، ومن تلاميذه فى مرصد المأمون حبش الحاسب ، وله جداول فلكية مهمه . ومن نابهى الفلكيين فى أواسط العصر أحمد ابن محمد بن كثير الفرغانى وكتابه : « أصول الفلك » له ترجمات كثيرة إلى اللاتينية ، وترك هناك تأثيراً كبيراً حتى عصر كوبرنيقوس[1] ، وله كتب مختلفة فى الإسطرلاب. ومن الفلكيين الذين اشتهروا حينئذ شهرة واسعة أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ وكان له تأثير واسع فى العرب ومسيحيى العصور الوسطى وترجمت له كتب كثيرة إلى اللغة اللاتينية[2] . ومن الفلكيين النابهين فى العصر الفضل[3] بن حاتم النيريزى المتوفى سنة ٣١٠ وكان متندمًا فى علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله شروح على أصول إقليدس ترجمها جيرار دى كريمونا ونشرها كورتزه فى ليبزج سنة ١٨٩٩ وله شروح أيضًا على كتاب بطليموس فى الفلك وزيج على مذهب

(١) ألدوميلى ص ١٦٧ وانظر فى ترجمة الفرغانى الفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٦ .

(٢) ألدوميلى ص ٢٦٩ وراجع ترجمته فى الفهرست ص ٤٠٠ والقفطى ص ١٥٢.

(٣) انظر فيه ألدوميلى ص ١٥٥ ، ١٦٢ والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٥٤ .

الهند وكتابها « السند هند » وكتاب سمت القبلة أو معرفة اتجاهها . وكان يعاصره البتّانى[١] محمد بن جابر بن سنان المتوفى سنة ٣١٧ « ولا يُعْلَم أحد فى الإسلام بلغ مبلغه فى تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها » وكان له مرصد فى الرَّقَّة على نهر الفرات ، وله زيج جليل ضمَّنه أرصاد النيرين وإصلاح الحركات المثبتة لهما فى كتاب المجسطى لبطليموس ، وتُرجم زيجه إلى اللاتينية ، وقد لخص نلّينو أهمية مباحثه الفلكية وتصحيحه لبطليموس كثيراً من أخطائه فى دراسته القيمة عنه بدائرة المعارف الإسلامية .

وبالمثل نهضت العلوم الطبية والطبيعية وكانت تشمل حينئذ الصيدلة والكيمياء ، وقد أنتج العصر العباسى الأول أكبر كيميائى فى تلك الحقب القديمة ، وهو جابر بن حيان ، وسبق أن ألممنا به فى كتابنا عن العصر المذكور ، وكان قد تُرْجِم كتاب الحيوان لأرسطو وعلى هديه ألَّف الجاحظ كتابه « الحيوان » فى هذا العلم ، وحلَّل بلاسيوس هذا الكتاب فى مجلة إيزيس العدد الرابع عشر سنة ١٩٣٩ مبيناً ما يشتمل عليه من الطبيعة الكيمائية وعلم الحيوان وعلم الإنسان[٢]. وظل المترجمون يتوفرون على ترجمة كتب الصيدلة والكيمياء والطب ، وكل يحاول تصحيح ترجمة من سبقه وإفادة الأطباء بكل ما يستطيع . ومرَّ بنا أنهم كانوا يشجعون بأموالهم الغدقة الترجمة وأن كثيراً من الكتب تُرجم باسمهم . ومن أهمهم بختيشوع[٣] ابن جبرائيل بن بختيشوع ، وبلغ من كثرة ثرائه أن كان يضاهى الخليفة المتوكل فى الزينة والفرش والمأكل والمشرب ، ويقال إنه وصف للمتوكل دواء فى بعض وعكاته فأمر له بثلثمائة ألف درهم وثلاثين تختاً من الثياب ، ونقل له حنين كثيراً من كتب جالينوس الطبية . وكان يعاصره سابور[٤] بن سهل المسيحى صاحب بيمارستان جنديسابور المتوفى سنة ٢٥٥ واشتهر بكتاب له فى الصيدلة كان يقع فى ٢٢ باباً وظل الأطباء والصيادلة يعتمدون عليه حتى ظهر كتاب ابن التلميذ فى القرن السادس.

---

(١) انظر فيه الدوميلى ص ١٥٥ ، ١٦٨ والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٠ .

(٢) الدوميلى ص ٩٦ .

(٣) راجع فيه الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى ص ١٠٢ وابن أبى أصيبعة ص ٢٠١ وفى القفطى أنه كان يلبس الجبة المثقلة بالوشى قيمتها ألف دينار .

(٤) انظر فى سابور الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى ص ٢٠٧ وابن أبى أصيبعة ص ٢٣٠ والدوميلى ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

ومن كبار الأطباء فى العصر سنان[١] بن ثابت بن قرة الذى أسلم على يد الخليفة القاهر بالله ، وقد عاش حتى سنة ٣٣١ وتقلد مارستانات بغداد الخمسة سنة ٣٠٤ وبنى فى سنة ٣٠٦ مارستانين كبيرين ، أحدهما للخليفة المقتدر وكانت نفقته مائتى دينار فى كل شهر، والثانى لأمه وكانت النفقة عليه شهرياً ستمائة دينار وأقام للوزير ابن الفرات مارستاناً ثالثاً ببغداد سنة ٣١١ كانت النفقة عليه شهرياً، مائتى دينار ، وبنى لبجكم حاكم بغداد سنة ٣٢٩ مارستاناً رابعاً ببغداد على الشاطئ الغربى لدجلة وزوّده بالأطباء والأدوات المختلفة . ومن طريف ما يُرْوَى أن نجد حامد بن العباس أحد وزراء الخليفة المقتدر يأمره أن يفرد أطباء للمسجونين يزورونهم يومياً ومعهم الأدوية والأشربة ، وظل ذلك تقليداً مرعيا حتى نهاية العصر ، ونراه يأمره أيضاً بإرسال متطببين إلى الفلاحين فى سواد العراق بحوض دجلة والفرات يطوفون به ويقيمون فى كل جانب منه المدة التى تدعو إليها الحاجة ، ومعهم خزانة الأدوية والأشربة . ويبدو أن المتطببين كثروا فى العصر ، حتى ليذكر ابن أبى أصيبعة أن عددهم فى جانبي بغداد وحدها بلغ فى سنة ٣١٩ ثمانمائة رجل ونيفاً وستين سوى من كان فى خدمة السلطان .

وطبيب المسلمين غير مدافع فى العصر ، كما يقول القفطى ، هو أبو بكر محمد[٢] بن زكريا الرازى المتوفى حوالى سنة ٣٢٠ وُلد كما يتبين من اسمه بالرى، وسبق أن عرضنا له فى حديثنا عن الزندقة وألممنا بكتابه « مخاريق الأنبياء» وقد بدأ حياته بدراسة العلوم الرياضية ، ثم اشتغل بالكيمياء والطب ، وعمل فى بيمارستان موطنه وبيمارستانات بغداد وتنقل فى مدن إيران وخراسان ، وألف باسم كثيرين من الأمراء وذوى الجاه طائفة من كتبه المهمة ، وتُرْجم إلى اللاتينية كثير من كتبه الطبية وظل حجة الطب غير مدافع حتى القرن السابع عشر ، وما زال المستشرقون يُعْنَوْن به وبآثاره حتى اليوم وقد نُشر فى باريس سنة ١٩٣٣

---

(١) راجع سنان بن ثابت فى الفهرست ص ٣٩٤ ، ٤٣٥ والقفطى ص ١٩٠ وابن أبى أصيبعة ص ٣٠٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٩٣ ، ٢٧٩ .

(٢) انظر فى ترجمته المراجع المذكورة فى حديثنا عنه بين الزنادقة فى الفصل السابق، وراجع دى بور ص ١٤٧ والدوميلى ص ١٧١ - ١٧٨.

فهرس كتبه الذى ذكره البيرونى ومنه تبين أنه خلّف فى الطب ٥٦ كتابًا وفى الطبيعيات ٣٣ وفى الفلسفة ١٧ وفى الرياضيات ١٠ وفى الميتافيزيقا ٦ وفى المنطق ٨ وفى علم الكلام ١٤ وفى الكيمياء ٢٣. وأكبر كتبه فى الطب كتابه الحاوى ، وهو دائرة معارف طبية ضخمة ، وقد ترجمت منه أجزاء إلى اللاتينية ، واستخرج منه ماكس ما يرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية لها خطرها . ويلى هذا الكتاب الطبى فى الأهمية كتابه المنصورى الذى أهداه إلى الأمير السامانى بخراسان المنصور بن إسحق ، وهو كتاب نفيس ، تُرجم إلى اللاتينية مراراً فى العصور الوسطى وعصر النهضة . وتُرجم له أيضًا إلى اللاتينية مراراً كتابه فى الجُدَرى والحصبة ، وهو بحث طبى رائع فى الوبائيات ، وله ترجمات حديثة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية . ولم يُعْنَ بالطب الجسمى وحده فقد عنى أيضًا بالطب النفسى ، إذ ألف كتابًا فى الطب الروحانى نشرته جامعة القاهرة ، وهو فيه يُكْبر من شأن العقل عارضًا النقائص الخلقية التى تسبب الأمراض والعلل النفسية مبينًا أن المصاب بها إذا حكّم معياره العقلى موازنًا بين نفعه وضرره تخلص من تلك العلل والأمراض وفارقته إلى غير مآب . وكان ينصح الأطباء أن يوهموا مرضاهم أنهم أصحاء وإن لم يثقوا بذلك لأن مزاج الجسم فى رأيه تابع لأخلاق النفس . وكان يهتم بالكيمياء معلنًا أن الفيلسوف لا يكون فيلسوفًا حقًا إلا إذا تعلم صناعة الكيمياء ومهر فيها ، وله فيها كتب مختلفة كما قدمنا . وكان يؤمن بخمسة مبادئ قديمة تأثر فيها بفلاسفة اليونان مثل إنباذوقليس وأنكساجوراس وهى : الله تعالى والنفس الكلية والهيولى الأولى والمكان المطلق والزمان المطلق ، وكان يؤمن بقدم هذه المبادئ وأنه لا بد منها لوجود العالم .

وكان طبيعيًا وقد نُقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية أن تصبح للعرب بدورهم فلسفة ذات طوابع مستقلة ، ومر بنا أن ما تُرجم إليهم من تلك الفلسفة صُبغ بالصبغة الأفلاطونية الجديدة عن طريق تأثر السريان بها ، وكان ذلك سببًا فى أن تشوب فلسفتهم تلك النزعة . ولعل أول فيلسوف عربى بالمعنى الدقيق الكلمة فيلسوف نلتقى به فى هذا العصر هو الكندى[1] يعقوب بن إسحق ، وهو عربى أصيل من

(١) انظر فى الكندى الفهرست ص ٢٧١ والقفطى ص ٣٦٦ وابن أبى أصيبعة ص ٢٨٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثًا للشيخ مصطفى عبد الرازق فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة لعام=

قبيلة كندة ، ولذلك لُقب فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة ثم تركها إلى بغداد ويبدو أنه أكبَّ فى نشأته على الاعتزال ، ولعل ذلك ماجعل نجمه يأفل فيما بعد حين أفل نجم المعتزلة لعهد المتوكل. ولا تُعْرَفُ سنة وفاته ويبدو أنه عاش حتى أواخر العقد السادس من القرن الثالث. وله كتب ورسائل تعد بالعشرات بل بالمئات ، وهى تبلغ عند ابن النديم نحو مائتين وأربعين وعند القفطى نحو ما ئتين وثلاثين وعند ابن أبى أصيبعة نحومائتين وثمانين ،وتتناول العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق والأخلاق والسياسة والكلام والجدل والطب . وقد تُرجم كثير منها إلى اللاتينية وأثَّر فى شعوبها تأثيراً عميقًا ، ويقول ألدوميلى إن كتابه فى الهندسة أثَّر تأثيراً ملحوظًا فى روجر بيكون. وقد يفهم من بعض ما كتبه ابن أبى أصيبعة وغيره عنه أنه كان يترجم عن اليونانية والسريانية ويرى الباحثون أنه لم يكن يعرفهما ، إنما كان يُصْلح ويصحح بعض ما تُرجم عنهما ، وله تهذيباتٌ لكثير مما تُرجم ، وله أيضًا شروح وتعليقات. ويذكر ابن النديم وغيره أن له كتبًا فى التوحيد والعدل والاستطاعة أو حرية الإرادة ، مما قد يدل على اتجاهه الاعتزالى ، ومما يدل بقوة على هذا الاتجاه عنده إشادته بالعقل . وهو فيلسوف إسلامى بالمعنى الدقيق ، إذ له رسائل فى إثبات النبوة والدفاع عنها دفاعًا قويًّا ، وكان يذهب إلى أن العالم محدث مخالفًا بذلك أرسطو فى زعمه أنه قديم ، وذهب إلى أن النفس بسيطة وأنها من نور الله ، وعنها صدر عالم الأفلاك ، والنفس الإنسانية تفيض عن هذه النفس الكلية ، وهى تتصل بالجسد ، ولكنها تظل فى جوهرها مستقلة عنه ، حتى إذا فارقته التذت لذة كبيرة ، وقال إن الكواكب لا تؤثر فيها ، لأنها إنما تؤثر فى الأمور الطبيعية . وله بحوث فلسفية فى الرياضة ، ولكنها دون بحوثه الطبيعية وفيما وراء الطبيعة . وربما كانت أهم نظرية فلسفية له طبع بها الفلسفة الإسلامية هى نظريته فى أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه له إلى عقل فاعل هو الله ، وعقل

= ١٩٣٣ ودى بوز ص ١٧٦ وألدوميلى ص ١٤٩ ، ١٥٣ ومقدمة الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة لرسائل الكندى الفلسفية . طبع مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، وكذلك مقدمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى لمجموعة أخرى من رسائله ، وكتاب دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى لعبد الرحمن بدوى (طبع دار الآداب ببيروت) .

بالقوة يكمن فى داخل الإنسان ، وعقل بالملكة هو العقل المنفعل بعد حصول المعقولات فيه ، وعقل مبين يؤدى للغير معقولاته . ومما قرره أن الحواس تُدْرك الجزئيات والصور المادية فى حين أن العقل يُدْرك الكليّات وما يتصل بها من الأنواع والأجناس . وذهب إلى تناهى الجسم والزمان والحركة من جهة الفعل لا من جهة القوة ، وهاجم الكيمياء هجومًا عنيفًا ، وأكبر الظن أنه إنما كان يقصد ضربًا خاصًّا من الكيمياء شاع فى عصره ، هو المتصل بالسحر والخرافه وكشف الأسرار .

وإذا كان العصر قد افتُتح بفيلسوف هو الكندى فإنه اختُتم أيضًا بفيلسوف له مكانة كبيرة فى الفلسفة الإسلامية هو الفارابى [1] أبو نصر محمد بن محمد ابن طرخان المتوفى سنة ٣٣٩ ويقال إنه من أصل فارسى ، وُلد فى فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر . ويبدو أنه تلقن فى نشأته ما كان فى خراسان من علوم الأوائل وسرعان ما مضى يطلبها فى بغداد ، وأكبَّ على الرياضيات والطبيعيات والإلهيات واستوعب ذلك كله استيعابًا منقطع القرين ، وسرعان ما أخذ يوفق بينه وبين الدين الحنيف من جهة وبينه وبين العقل الذى أكبره الكندى من جهة أخرى ، واستطاع أن ينفذ من خلال ذلك إلى تشكيل الفلسفة الإسلامية فى صورتها المبكرة ، بحيث عُدَّ فيلسوف المسلمين غير مدافع . ولعل أول ما يلاحظ على فلسفته أنها تعنى بالإلهيات ، فهو لا يعنى بالطبيعيات ، وهو يرغب عن فيثاغورس وأضرابه من الرياضيين . ويتضح إكباره العقل فى اهتمامه بالمنطق وما يؤدى إليه من استنباطات كلية مما جعله يُعْنَى بشرح كتبه عند أرسطو وتفصيل مسائله من تصور وتصديق وقضايا وبراهين وأقيسة ومراتب ظنّ متفاوتة ، ويتعمق فى بحث الكليات . وفى كل جانب من فلسفته الإلهية يتضح فكره العقلى المنطقى ، من ذلك ذهابه إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن ، وبذلك جعل أول صفة لله هى أنه

---

(١) راجع فى الفارابى الفهرست ص ٣٨٢ والقفطى ص ٢٧٧ وابن أبى أصيبعة ص ٦٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى الجزء السابع من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق وذى بورص ١٩٢ ومقدمة ديتريصى لرسائله (طبعة ليدن) ، وانظر مجموعة أخرى طبعت فى حيدر آباد وظهر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ٢ : ١٣١ .

الموجود الواجب الوجود فى حين أن كل ما عداه ممكن الوجود أو بعبارة أخرى حادث فهو القديم وحده . وصلة هذه الفكرة بالدين الحنيف واضحة ، وهو عنده الموجود الأول الفرد بالذات ولاجنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حدّه ، إذ هو لا يتحيز فى مكان ، وهو أكمل الموجودات ويجب أن تكون معرفتنا به أكمل معرفة . وإذا كانت معرفتنا بالرياضيات أكمل من معرفتنا بالطبيعيات للتعميم السارى فى قضاياها وجب أن تكون معرفتنا به فوق معرفتنا بالرياضيات والطبيعيات جميعًا . ويقبس من الفلسفة قبسًا يمزجه بقبس آخر من التصوف لعصره ، فإذا هو يذهب إلى أن الله يفيض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذى يحرّك الفلك الأكبر ، وتلى هذا العقل عقول الأفلاك الثمانية ، وهى التى تصدر عنها الأجرام السماوية ، والعقول التسعة مجتمعة هى ملائكة السماء ومرتبتهم فى الوجود مرتبة ثانية ، وفى المرتبة الثالثة العقل الفعّال فى الإنسان وهو روح القدس الذى يصل العالم العلوى بالعالم السفلى . وفى المرتبة الرابعة النفس الكلية ، ومنها ومن العقل تتكاثر أفراد الإنسان . وفى المرتبة الخامسة الصورة . وفى السادسة المادة . والمراتب الثلاث الأولى : الله وعقول الأفلاك والعقل الفعال ليست أجسامًا ، أما المراتب الأخرى فتلابس الأجسام . وواضحٌ الأثرُ الإسلامى فى هذا التفلسف ، فقد ذُكر الله وهو العلة الأولى عند الفلاسفة وذكرت الملائكة وروح القدس مع محاولة وضع تفسير جديد لهما . وكان يذهب إلى أن النفس كمال الجسم ، أما كمال النفس فهو العقل . وبحث فى السعادة مبحثًا تأثر فيه أيضًا بالتصوف تحدث فيه عن شروطها ودرجاتها ، وصرّح فى قوة بأن اللذات العقلية والروحية تفوق اللذات المادية الجسمية ، وأن السعادة لا تُطْلَبُ لغاية وراءها وإنما تُطْلَبُ لذاتها ، وأداتها فى رأيه الأفعال والأخلاق الجميلة ، وهى لا تُدْرَكُ إلا إذا تحررت النفس الناطقة من أغلال المادة والشهوات . ويصرّح فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة بأن الحاكم ينبغى أن يكون متحليًا بكل الفضائل الإسلامية والفلسفية متجنبًا اللذات الجسمية ، إذ فيه تتمثل المدينة بخيرها وشرها ، فإذا كان خيراً فاضلا كانت المدينة فاضلة ، وإذا كان شرّيراً فاسقًا انهارت المدنية وفسد الحكم فيها فساداً شديداً . وهو يذكر النبوة كثيراً ، وهى عنده أعلى مرتبة يبلغها الإنسان فى العلم والعمل ، وهو يضعها — كى يوضحها — فى مرتبة وسطى بين الإدراك الحسى

والمعرفة العقلية الخالصة . ونحن إنما لمسنا السطح فقط لنصور فلسفة الفارابى ، وهى فلسفة إسلامية عقلية استمدّت من روحانية الإسلام ومن نظريات العقل ومن أفكار الفلاسفة وخاصة أرسطو وأفلاطون مازجة بين هذه العناصر جميعًا ، مستخلصة منها فلسفتنا الإسلامية الوسيطة وأصولها السديدة .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول مدى التنافس الذى نشب بين علماء البصرة والكوفة فى جمع اللغة وكيف كانوا يرحلون إلى نجد والبوادى ومعهم فوارير المداد وأحمال الصحف ليدوّنوا كلمات اللغة من ينابيعها الأصلية. وقدمضى كثيرون من علماء البلدتين وتلاميذهما ببغداد فى هذا العصر يخرجون إلى البادية ونجد لمشافهة الأعراب والسماع منهم لما يجرى على ألسنتهم من أقوال وأشعار وأضافوا إلى ذلك ما سمعوه من أساتذتهم الأصمعى والمفضل الضبى وأبى زيد وأضرابهم . وأخذ تلاميذهم يحملون عنهم رواياتهم ، وسرعان ما تكوّن فى هذا العصر السند ، إذ يقول العالم اللغوى مثل الأشناندى أبى عثمان سعيد بن هرون المتوفى سنة ٢٨٨ : عن التوّزى أبى محمد عبد الله بن محمد بن هرون المتوفى سنة ٢٣٣ عن أبى نصر أحمد ابن حاتم الباهلى عن الأصمعى . ومعروف أن علم الأصمعى حمله مع أحمد بن حاتم جماعة منهم الأثرم أبو الحسن على بن المغيرة المتوفى سنة ٢٣١ والزيادى أبو إسحق إبراهيم بن سفيان المتوفى سنة ٢٤٩ والرياشى العباس بن الفرج المتوفى سنة ٢٥٧. وكل أولئك وأضرابهم من رواة اللغويين القدماء كانوا يعتمدون قبل كل شىء على الإملاء ، وكان تلاميذهم يحرصون عليه مخافة دخول غلط عليهم فى قراءة النصوص. ومع ذلك كان منهم من يأخذ أحيانًا عن الكتب ، وكانوا يميزونه من سواه ، خشية أن يكون قد صحّف فيما قرأ ، واتسع التصحيف حتى ألف فيه العلماء كتبا مفردة . وجعلهم الاهتمام بالسند يتأثرون برجال الحديث فى تجريح الرواة وتعديلهم ، وكان علماء البصرة فى ذلك أشد تحرجًا من علماء الكوفة وبغداد ، وبالمثل تأثروا بهم فى تلقيب بعض الروايات بألقاب الجودة والضعف ، ويُؤْثَرُ عن ابن الأنبارى

هو يضع لبعض الأخلاق الذميمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر (١) والأكول (٢) والثقيل (٣)، وبالمثل الأخلاق المحمودة كالصبر والتجلد، وقد مثلنا فى الفصل الماضى لهما بقطعة من شعره.

وكان ابن الرومى لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً. فكان طبيعياً أن يكون فى أشعاره ما يهبط درجات عما حوله، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يدنو إلى الآفاق الدنيا، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروى عن تلميذه أبى عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويلة لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسوَّدتها ؟. فأجابه: هى هذه، فقال له الناجم: ما فيها حرف مصلح، فقال: قد استوت بديهتى وفكرتى فما أعمل شيئاً فأكاد أصلحه. وليس معنى ذلك أنه يوجد فى أشعاره غثٌّ كثير، فقد تلافى ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة فى أشعاره وخاصة الجناس، وكانت له أذن موسيقية رائعة. وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبى، لشعبية كانت متأصلة فى ذات نفسه. والحق أنه كان شاعراً بارعاً، بل لا شك فى أنه أبرع شعراء العصر، لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعانى والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجاباً متصلا به وبأشعاره.

٤

ابن المعتز (٤)

وُلد عبد الله لأبيه المعتز بسامرَّاء قبل مقتل جده المتوكل فى سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يوماً، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صُرِع جده هذا المصرع الخطير،

---

(١) الديوان ص ٩٥.
(٢) الديوان ص ١٧٥.
(٣) الديوان ص ٧٣.
(٤) انظر فى ابن المعتز وحياته وشعره كتاب الأوراق: أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠/٢٧٤ والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ١٠/٩٥ ومروج الذهب ٤/٢٠٣ والطبرى ١٠/١٤٠ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان =

صرَعه جنده وقواده الأتراك الذين فَسَحَ لهم فى الحكم والسلطان والتسلط ، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عَهْداً ولا ذِمَّة . وسرعان ما يتوفَّى ابنه المنتصر الذى خلفه ، ويصبح الخلفاء لعبة فى أيديهم ، فيولّون المستعين ويخلعونه ويقتلونه ، ويولّون المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) وكان لا يزال فى نحو العشرين من عمره ، وكان جميل الوجه ؛ وكأنما ورث جمال أمه الرومية التى سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها ، من أسماء الأضداد ؛ وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر ، مما أنطقه بالشعر المصفَّى . وكان يعكف على اللهو والصيد ؛ فمجالسه لا تزال غاصة بشارية وعَريب وزُنام وابن بنان وغير هؤلاء من المغنيات والمغنين ، ومواكبه لا تزال ذاهبة آيبة من الصيد . وفى مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابشتى نرى قصفه وشرابه وسماعه للغناء فى قصره وفى بعض الأديرة [١] ، ونطلع على جانب من ترفه فى قصريه « الزوّ » و « الكامل » بسامراء ، ومَرَّ بنا وصف البحترى للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه ، ولعله نفس البستان الذى كان يزخر بالحيوانات ، والذى كان يتسلَّى بالفرجة فيه هو وأصدقاؤه على السبع والفيل كيف يتواثبان [٢] .

وكانت أم عبد الله بدورها من الجوارى ، ولعلها كانت أيضًا رومية الأصل مثل جدته ، فقد كان جميل المحيَّا ، وورث عن أبيه كل طباعه ، فهو مثله جميل السجايا رقيق المشاعر . وكان ذكى القلب صافى العقل ، فأضاف إلى ترفه الذى نشأ منغمسًا فيه إقبالا متصلا على الدرس منذ نعومة أظفاره ، حتى ليلفت ذلك البحترى ، وهو لا يزال فى التاسعة من عمره ، فيمدحه قائلا [٣] :

أبا العباس بَرَّزْتَ على قَـوْم ... لك آداباً وأخلاقاً وتبريزا

فأما حَلْبَةُ الشعر فتستولى ... على السبق بها فَرْضاً وتمييزا

= وفوات الوفيات ١ / ٢٤١ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ٢٢٥ وشذرات الذهب ٢ / ٢٢١ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٦٤ وفى مواضع مختلفة وعبد الله بن المعتز العباسى لمحمد عبد العزيز الكفراوى (طبع مكتبة نهضة مصر) بالقاهرة وديوانه طبعة بيروت ، وهى التى نرجع إليها وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المستشرقين منه جزءين فى إستانبول . وتوجد منه مخطوطة برواية الصولى بدار الكتب المصرية .

(١) الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤ .

(٢) الديارات ص ١١١ .

(٣) ديوان البحترى ٢ / ١١١٩ .

وقد يكون فى ذلك مبالغة على عادة الشعراء فى المديح ، لكن على كل حال فى البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكبُّ على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ فى نفسه فى هذه السن الصغيرة . ويبدو أن أباه كان معجبًا به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير . ويسجل ذلك البحترى فى مدحة [1] طويلة له ، يصور فيها جمال طلعته وشمائله الكريمة ، ثم يقول :

وأبهجنا ضَرْبُ الدنانير باسمِه وتقليده من أمرنا ما تقلَّدا

وفى الشطر الثانى ما يصور إرهاص البحترى للمعتز بأن يولىَّ عبد الله العهد ، ومضى يصرّح بذلك ويطالب به ويهتف فى وضوح . ونراه فى قصيدة [2] ثالثة يتشفع لعبد الله بأبيه كى يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام ، وفى ذلك يقول فى قصيدة رابعة [3] :

ومُلِّيتَ عبدَ الله إنَّ سَماحَهُ هو القَطْرُ فى إسْباله وأخو القَطْرِ
شفعتُ إليه بالإمام وإنما تَشَفَّعْتُ بالشمس اقتضاءً إلى البَدْرِ

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المجن للمعتز وابنه ؛ فإن جند الأتراك طالبوه فى السنة الرابعة من خلافته برواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال ، فاعتذر . ولم يقبلوا عذره ؛ وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفًا ، ولكنه لم يجدها ، فصمموا على خلعه ؛ وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس ؛ ثم جعلوه فى بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه . وصادروا أموال أمه قبيحة كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ونفوها إلى مكة ونفوا معها عبد الله ابنه وابنى عميه قُصَىّ بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد . وهما محنتان قاسيتان أثَّرتَا فى نفس الصبى آثاراً بعيدة ؛ محنته التى امتُحن بها فى أبيه الذى منحه الحياة والذى كان يغمره ببرّه وحنانه وعطفه ، ومحنته بالنفى وعذابه ونكاله وعنائه ، وما مرَّ به فى أثناء ذلك من أمل ويأس ورجاء وقنوط ، مع ما صَلِىَ به من حزن عميق على أبيه ، مما ظل له أثر بعيد فى نفسه ، وهو أثر يتراءى بوضوح فى أشعاره ، إذ يُطالعنا

---

(١) الديوان ٢ / ٦٧٠ .
(٢) الديوان ، ٢ / ١٣٠٩ .
(٣) الديوان ٢ / ١٠٠٧ .

فيها دائمًا الإحساس بآلام الحياة وما تكتظ به من كوارث وفواجع ، كبَّرها فى نفسه وخياله ما كان ينعم به فى صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حفَّتْ بها الدماء المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حفَّ بها النفى والتشريد ، فإذا النعيم يصبح جحيمًا ، وينقضى عهده إلى غير مآب ، وفى ذلك يقول ابن المعتز باكيًا صباه بدموع غزار[1] :

لَهْفى على دهر الصِّبا القصيرِ وغُصْنه ذى الورَقِ النَّضيرِ
وسُكْرِهِ وذَنْبه المغفورِ ومرَح القلوب فى الصُّدُورِ
وطول حَبْل الأَمَلِ المجرورِ فى ظِلِّ عَيْشٍ غافلٍ غريرِ

ودار عام وتولَّى المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل فى طلبه وطلب جدته وابنى عمه وردَّهم إلى سامرَّاء ، وكانت شئون القصر أخذت تستقيم ، فلم يعد للترك تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء ، إذ جعل المعتمد الأمر والنهى والسلطان لأخيه الموفق طلحة ، وكان من أحزم بنى العباس وأشجعهم وأنبغهم فى إدارة السياسة والحرب وهو الذى قضى على ثورة الزنج وثورة الصفّاريين كما أسلفنا فى غير هذا الموضع . فاطمأن الغلام المروَّع وأخذت جدته قبيحة تُعْنَى بتربيته ، وأحضرت له المعلمين فى الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزى الإخباريين ، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء ، ويبدو أنه كان يلقى المبرد وثعلبًا فى أثناء زياراتهما لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦ . وفى المختار من شعر بشار أن ثعلبًا كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتًا ، فكتب إليه من قصيدة طريفة[2] :

يا فاتحاً لكل علم مُغْلَقِ وصَيْرَفِيًّا عالمـاً بالمنطقِ
إنا على البعاد والتفرُّقِ لنلتقى بالذكر إن لم نَلْتَقِ

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم[3] . وأهم معلميه أحمد بن سعيد الدمشقى المحدّث الإخبارى ، ويُرْوَى أن البلاذرى المؤرخ سعى عند جدته كى يصبح من معلميه ومؤدبيه ، فغضب ابن سعيد ولزم بيته ، وكانت سن ابن المعتز

---

(١) ديوان المعانى ١٥٣/٢ .
(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٥٤ .
(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

حينئذ ثلاثة عشر عامًا ، وعلم بغضب أستاذه فكتب إليه أبياتًا يترضاه بها ، وهى تصور ثقافته تصويراً دقيقًا ، إذ يخاطبه بقوله[١]:

أصبحتَ يابن سعيدٍ حُزْتَ مكرمةً ... عنها يقصِّر مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ
سَرْ بَلْتَنِى حكمةً قد هذّبتْ شِيمَى ... وأَجَّجَتْ غَرْبَ ذهْنى فهْوَ مُشْتَعِلُ
أكون إن شئتُ قُسًّا فى خطابتهِ ... أو حارثاً وهْوَ يوم الفَخْر مُرْتَجِلُ
وإن أَشَأْ فكزَيْدٍ فى فَرائضِهِ ... أو مثل نعمانَ ما ضاقتْ بِىَ الحِيَلُ
أو الخليل عروضيًّا أخا فِطَنٍ ... أو الكسائىَّ نحويًّا نه عِلَلُ
عُقْباك شكرٌ طويلٌ لا نفادَ لهُ ... تَبْقَى مَعَالِمُهُ ما أَطَّتِ الإبلُ[٢]

وهو يقول إن ابن سعيد خرَّجه خطيبًا فصيحًا لا يقل عن قُسّ فى خطابته التى اشتهر بها بين الجاهليين، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلى الحارث بن حلزة فى شعره وبداهته ، ولا عن زيد بن ثابت فى عمله بالميراث ، ولا عن أبى حنيفة فى علمه بالفقه ، ولا عن الخليل بن أحمد فى علمه بالعروض ، ولا عن الكسائى فى النحو واستنباط علله . وهذه هى مواد ثقافته فى سن الثالثة عشرة ، ولم يذكر بينها فلسفة ولا منطقًا ، غير أنه ينبغى أن نحذر التعميم فى الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه فى تلك السن المبكرة ، ومن الطبيعى — وكان نهما بالقراءة — أن يكون قد اطلع على شىء من الفلسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، ففى أشعاره إشارات لهما[٣]. وإن كنا نظن ظنًّا أنه لم يلمّ بذلك فى مطالع حياته . ولعل من الطريف أن نجده يقول[٤]:

ولا تفزعنْ من كل شىءٍ مفزِّعٍ ... فما كل تربيع النجوم بضائرِ

وكأنه كان يتشكك فى حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوالع السعد والنحس. ومضى يمنح أوقاته للشعر والأدب ، وكأنما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان ، فقد بلا منهما فى جده المتوكل وأبيه المعتز ما جعله يقرر فى حزم

---

(١) معجم الأدباء ١ / ١٣٣ .
(٢) أطت : أنّت تعباً أو حنينا .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة) ص ٢٦٣ .
(٤) الديوان ص ٢٤٩ .

الفراغَ للحياة الأدبية ، وأنفق فى ذلك أعواماً كثيرة . وكان يقرأ كتابات سابقيه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محللا ، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنف كتابه « البديع » محاولا أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعاً علميا دقيقاً ، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة فى الأدب العربى وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار ، أما بعد ذلك فهى منثورة فى القرآن الكريم والحديث النبوى وأشعار الجاهليين والإسلاميين . وألف كتباً أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب فصول التماثيل فى الشراب وآدابه ، وكتاب السرقات ، وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر العباسى الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقاً مهذباً صافياً . وكان يُعْنَى منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى ، وفى ذلك يقول أبو الفرج الأصبهانى : « كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها ، وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرتْ بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بنى حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه[1] » . ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز ، ومنها نعرف أنه كان يميل فى الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم ، ثم يورد أبو الفرج من صنعته بعض أصوات أو أدوار تدل فى وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دَوْرَ المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه إنتاجاً ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده ، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغنونه فيما يصنع من الشعر . ومن الجوارى اللائى كن يكثرن من الاختلاف إليه والغناء فى شعره زرياب وبنت الكُرَاعة وخزامى ، على نحو ما يحدثنا عنهن أبو الفرج فى ترجمته .

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة [2] ، وكأنه ورث عن أبيه كل مزاجه ، أو قل هى حياة القصور المترفة التى تدفع من يعيشها إلى اللهو ، مما جعله يفتح بيته للندماء فى بعض الأيام وبعض الليالى يسمعون ويشربون ، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النميرى ، وبينهما مراسلات شعرية طريفة ، وعلى بن مهدى

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٦ .

(٢) الديارات ص ٧٢ .

الأصبهانى الكسروى وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات[١] وجَحْظَة وهو الذى أعطاه لقبه الذى اشتهر به . وكان شغوفًا مثل أبيه بالصيد ، وسنعرض لبعض أشعاره فيه . وينبغى أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن لهواً خالصًا ، فقد كان يختلف إليه نابهون كثيرون من علماء اللغة والأدب وفى مقدمتهم المبرد وثعلب أستاذاه وصديقاه ، ويقول الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق : « كانت داره مَغاثًا لأهل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة » .

ومرَّ بنا أن أباه وهبه إقطاعًا كبيراً بالشام ، ولا بد أن يكون قد وهبه إقطاعًا أو إقطاعات أخرى فى العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش فى إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة وإن كان القائد التركى صالح ابن وصيف صادر أموالها ، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتى توفيت سنة ٢٦٤ . ولا بد أنه كان ينال راتبًا كثيراً أو قليلا من الدولة لعهد عمه المعتمد الذى امتد حتى سنة ٢٧٩ ، ويروى الصولى قصيدتين له مدحه بهما ، وفى إحداهما يقول[٢] :

أهلا وسهلا بالإمام ومرحباً لو أستطيع إلى اللقاء سبيلا

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن ردَّ الموفق أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموفق الظنون وعزم على اللحاق بمصر . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفًا من غضب أخيه وبطشه . وفى أخبار ابن المعتز أنه كان يروى أشعار عمه المعتمد ، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه ، وكان عاكفًا على الملاذ والملاهى ، فكان طبيعيًا أن يتصل الودّ بين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخباريًا ظريفًا . ونراه يسوق إلى عمه الموفق الذى أبلى بلاء عظيمًا فى محاربة الزنج والقضاء على صاحبهم قضاء مبرمًا غير مدحة ، ويبدو أنه

---

(١) معجم الشعراء ص ١٤٩ . الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .

(٢) الديوان ص ٣٧٦ وفى أشعار أولاد

أكثر حينئذ من تهانيه بظفره . من مثل قوله[١] :

ولما طغى أمُر الدعىّ رميتَهُ بعَزْم يردُّ السيف وهو كليل
وأعلمته كيف التصافح بالقَنَا وكيف تروّى البيض وهْى مُحول[٢]

ويتوفى الموفق فى سنة ٢٧٨ ويخلفه ابنه المعتضد وكان لا يقل شجاعة وحزمًا عنه وكان عونه وظهيره فى حرب الزنج ، ويسلم عمه المعتمد مقاليد الأمور إليه ، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد ، وكان مهيبًا شديد الوطأة ، فخافه قواد الترك ، وظلوا كما كانوا فى عهد أبيه خانعين . وتتحول الخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة ، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من مثل قوله[٣] :

لعمرى لئن أمسى الإمامُ ببلدةٍ وأنت بأُخرى شائقُ القلب نازعُ
وما أنا فى الدنيا بشىءٍ أناله سوى أن أرى وجه الخليفة قانع

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد ، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء ، ويُكثر المبرد من الاختلاف إليه فيها ، وتَروْى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات فى الشعر والشعراء[٤] . ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء ، وتُقْبل الدنيا عليه ، وتنعقد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه ، ويهنئه باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلا[٥] :

فرحتُ بما أضعافه دون قدركم وقلت عسى قد هَبَّ من نومه الدَّهْرُ
فترجعَ فينـــا دولةٌ طاهريّةٌ كما بدأتْ والأمر من بعده الأمر

وتتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتمد ، وهو يكثر من مدحه وشكره

---

(١) زهر الآداب للحصرى ٣ / ١٩٣ وفى أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .
(٢) البيض : السيوف — محول : مجدبة .
(٣) الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢٨ .
(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١٦٤ .
(٥) أغانى ١٠ / ٢٨٦

على ما يصله به من أعطيات الدولة ، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذى وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة ، وفى ذلك يقول منوّهًا بتلك الأسرة[١] :

لآل سليمان بن وهبٍ صنائعٌ إلىَّ ومعروف لدىَّ مُقدَّمَا
همُ علَّموا الأيام كيف تبرُّنى وهم غسلوا عن ثوب والدىَ الدّما

ويتوفَّى المعتضد سنة ٢٨٩ ، وكان ابنه المكتفى غائبًا ، ويُضْطر رئيس الحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتفى ، وتمضى بسلام ؛ ويَسْلك فيهم ابن المعتز ، ونراه يجأر إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطرارى وسرعان ما يَرُدُّ إليه القاسم حريته ، كما يرد إليه أعطياته ويوالى له العطاء ، فيُكْثر ابن المعتز من مدحه ، معترفًا له بصنيعه من مثل قوله[٢] :

أصلح بينى وبين دهرى وقام بينى وبين حَتْفِى

ولا يلبث القاسم أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتفى يفسح لابن المعتز فى مجالسه ، وابن المعتز يكثر من مدائحه ، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زَكْرَوَيْهِ القرمطى المعروف بصاحب الشامة ، وينادمه ويحضر مجالس سماعه وشرابه .

ويتوفَّى المكتفى لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقتدر وسنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ، فيكثر اللغط حوله ويتكلم الناس فى شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحُلُمَ ، كما يقول كثيرون ينبغى خلعه . وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافى شهر ربيع الأول حتى يزداد اللغط والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا فى غير هذا الموضع ولقصوره الواضح عن تدبيره شئون الخلافة . وفى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة واتفقت على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز وبايعته فى اليوم التالى[٣] ، وكان الرأس المدبر لذلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب ،

---

(١) مروج الذهب ص ٢٠٤ .
(٢) الديوان ص ٣١٩ .
(٣) انظر فى بيعة ابن المعتز ومقتله الطبرى ١٠ / ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٤ وذيل زهر الآداب ص ٢٠٤ .

وقلّده ابن المعتز الوزارة وتكلم فى المقتدر قائلا: إنه لم يبلغ الحلم وإنه لا تصح للناس صلاة معه ولا حج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح . ولم يكد يمر يوم على هذه البيعة حتى هبّ مؤنس الخادم فى جند كثيرين فنقضها وجدّد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد فى الأعطية . ولم يبق مع ابن المعتز أحد فهرب إلى دار ابن الجصاص تاجر الجواهر المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله ، وبذلك لم تتم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب. وما كان أحراه أن يبتعد عنها ، متعظاً بما أصاب أباه منها ، ولكن النفس أمارة بالسوء .

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التى كونت شخصية ابن المعتز الأدبية ، فهو عربى عباسى يعتز بعروبته وأسرته ، وُلد فى القصر العباسى وفى كل ما انبثّ فيه من لهو وطرب ، على نحو ما هو معروف عن آبائه : الرشيد والمتوكل والمعتز ، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتيح لهم الفراغ ، وقد يكون فى ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادى للأشياء، أو قل على وصفها وصفاً ماديًّا، إذ كان هذا الوصف هو الذى يلائم مزاجه المترف، كما كان يلائم عقله الذى يعيش فى النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسى المكشوف، وقديماً أشار ابن الرومى إلى تأثير بيئته المترفة فى شعره ، وإن كانت إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقى بما قدمنا ، فقد سأله شخص : لِمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدْنى شيئاً من شعره أعجز عن مثله ، فأنشده وصف ابن المعتز للهلال :

انْظُرْ إليه كَزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ قد أثقلتْه حمولةٌ من عَنْبَرِ

فقال ابن الرومى له : زِدْنى ، فأنشده :

كأَن آذَرْيُونَهـا والشمسُ فيه كالِيَهْ [1]

مداهنٌ من ذهب فيها بقايا غالِيَهْ [2]

وصاح ابن الرومى : واغَوْثاه ! لا يُكلّف الله نفساً إلا وُسْعها ، ذلك إنما

---

(١) الآذريون : زهر أصفر فى وسطه حمل أسود. (٢) الغالية : المسك ، وهو أسود.

يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف فى الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرّة وأهجو هذا كرّة . وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طوراً[1] . وابن الرومى يلاحظ التأثير المادى المترف للبيئة على ابن المعتز . وعنصر آخر اشترك فى تكوين شخصيته الأدبية بقوة ، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية ، وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين ، حتى إذا انقسمت بيئات النقاد فى عصره إلى مجددين مسرفين فى التأثر بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها فى الشعر العربى من جماعة المترجمين ومن التف حولهم ، ومحافظين مسرفين فى رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الخالصة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحترى من الشعراء ، ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية فى المقاييس الأجنبية من أمثال أبى تمام وابن الرومى وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبته وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية فى نفسه ، ويصرّح بذلك فى كتابه البديع الذى أنشأه ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثاً فى حقيقته ، بل هو يستمد من أصول قديمة فى الشعر الجاهلى والإسلامى والقرآن الكريم والحديث النبوى . وخصّ أبا تمام برسالة احتفظ بها فى ترجمته كتاب الموشح للمرزبانى ، وهى تحمل كل الأسس التى كوّن منها الآمدى حملته على أبى تمام . ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرهف وحسه الرقيق كان ينحو نحو المحافظين فى فهم الشعر ونقده ونظمه . وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسى ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده ؛ إذ سخرها كما يتضح فى كتابه « البديع » لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشىء ذى بال ، وأن كنوز الشعر العربى القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليشتق منها العباسيون كل بارع طريف .

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسياً أثر فيه وفى شخصيته وشعره آثاراً عميقة ، ونقصد به مقتل أبيه وجده من قبله ، مما آذى نفسه إيذاء شديداً ، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب ، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٦ .

إذ يجلل شعره أسى عميق، وحقًا كان يُكِبُّ كثيراً على اللهو يُغْرق فيه أحزانه، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحى من نفسه، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عمومته وأبناءهم خوفًا على حياته وإيثاراً لعافيته.

وتلك هى مكونات شخصيته، بيئة مترفة ينغمس مَنْ فيها فى ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة، وثقافة عربية إسلامية محافظة، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلمّ به مبكراً، وتدلهم من حواله الخطوب، فيفكر فى الحياة والموت وما فى الدنيا من بؤس وآلام، وكأنما كُتب عليه ألا يشرب كئوس الترف واللهو صافية، فدائمًا أو قل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونُكْر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم، وابن المعتز مع ذلك كله غزِل ظريف حلو الدعابة جميل المحضر يألفه كثير من الأدباء.

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحترى، فقد رُوِىَ عنه أنه قال: كان مما حبّب الشعر إلىّ أنى سمعت البحترى يُنْشد الماضى (يريد أباه المعتز) شعراً تشوّقه الناس واستحسنوه ووصفوه، تصرّف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر، وعدّد أصناف ما أخذ، وطلب خاتمَ ياقوتٍ، وهو عندى من أحسن شعره، وهو:

بودِّىَ لو يَهْوَى العَذولُ ويَعْشَقُ فيعلم أسباب الهوى كيف تَعْلَقُ [1]

والبحترى يستهل القصيدة بغزل ملىء بالشوق إلى علوة صاحبته الحلبية، ويصف طيفها الذى ألمّ به فى حلمه ولهفته على لقائها، وعناقها وصبابته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خددوهما حين يلتقيان، حتى ليقول:

فلو فهم الناسُ التَّلاقى وحُسْنَهُ لحُبِّبَ من أجـل التلاقى التفرُّقُ

ويُفيض فى مديح المعتز وما أضفى عليه من عطايا، ويستوهبه فى رقة ولطف خاتمًا. ويلفتنا إعجاب ابن المعتز بهذه القصيدة التى أنشدها البحترى أباه وسنه

---

(١) أخبار البحترى ص ١٠٨ والتحف والهدايا للخالديين نشر الدكتور سامى الدهان ص ٧٣ وانظر الديوان ٣ / ١٥٣٤

لا تتجاوز التاسعة ؛ وتذوقه لها فى هذه السن الباكرة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر ، حتى تكوّن له ذوق يستطيع به أن يفقه ما فى الشعر من جمال . ومرّ بنا وصف البحترى له فى حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد فى الثامنة أو التاسعة من حياته .

ولم يكن البحترى وحده أستاذه فى مطالع حياته ، فأهم منه أبوه المعتز إذ كان شاعراً بارعاً ، ولو قُدّر له أن تمتد حياته لشغل النقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه ، وكان ينفق كثيراً من أوقاته فى اللهو والمجون والصيد ، وينظم فى ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المغنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم ، وكل ذلك ورثه ابن المعتز عن أبيه . وبذلك كان له فى أوائل حياته أستاذان : أستاذ من بيته هو أبوه الذى كان يدرّبه على نظم الشعر ، وأستاذ من غير بيته هو البحترى .

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع فى متانته وجزالته إلى مرتبة صياغة البحترى ، حقاً كثيراً ما يرتفع ، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة ، مما جعل كثيرين فى عصره وبعد عصره يحملون عليه ، وتصدى لهم أبو الفرج ملوّحاً فى وجوههم بقوله : « شعره إن كان فيه رِقّة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفةً من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفاً لصَبوح فى مجلس شَكِلٍ ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من النَّوْرِ والبَنَفْسَج والنَّرْجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السَّبْط (السهل) الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جَعْد الكلام ووَحْشِيِّه وإلى وصف البيد والمهامه والظَّبْى والظَّليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسىء ؛ ولا أن يُغْمَط حقُّه كلَّه إذا أحسن الكثير وتوسّط فى البعض وقصّر فى اليسير ويُنْسب إلى التقصير فى الجميع لنشر المقابح وطىِّ المحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كلُّ أحد بمن تقدّم لوجد مَسَاغاً[1] » . وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتز ، ووضعه فى مكانه الصحيح ، فهو فى أكثر شعره محسن ، وهو فى بعضه متوسط الإجادة ، وفى اليسير

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٤

منه مقصّر ، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان فى أثناء سمره أو فى أثناء سماعه للغناء وشربه. على أنه لا بد أن نشير إلى مهارته فى الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الآذان الدقيقة التى تزن جرس الكلام ، ولذلك كنا نحس عنده دائمًا بأنه لا يهمل الأسماع فى شعره ، إذ كان يحاول أن يلذّها بأنغامه وألحانه . وظاهرة ثانية فى أشعاره هى عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهى ظاهرة طبيعية ، إذ كتب فى هذه الفنون كتابه « البديع » ونوّه بها ، غير أنه لم يفرط فى الجناس والطباق إفراطًا بعيداً ، وقد عاب أبا تمام بذلك فى كتابه ، لأنه يخرج فيه على طريقة القدماء . والمحافظون من أمثاله وأمثال البحترى كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء ، فلم يكونوا يُسْرفون فيه مثل أبى تمام ومسلم ابن الوليد .

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده ، لتتضح لنا شاعريته ، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح ، ومرّ بنا أنه مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر ، ونحس ببهجة حقيقية ومشاعر صادقة فى مديحه لابن عمه المعتضد ، أما مديحه فى غيره ففاتر ، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلا مغواراً واستطاع — كما استطاع أبوه الموفق — أن يخضد شوكة الترك ، بل أن يقلم أظفارهم ، وكأنما كان يشفى غليل ابن المعتز وضغنه القديم عليهم ، إذ هم قتلة أبيه وسافكو دمه ، وليس ذلك فحسب هو الذى جعل المعتضد يقرب من نفسه ، فقد اتخذه نديمًا وجليسًا وتوالت عطاياه عليه ، فكان إذا مدحه انبعث فى مديحه عن عاطفة صادقة حارة ، وربما كانت خير مدائحه فيه رائيته التى يستهلّها بقوله[1] :

سلمتَ — أمير المومنين — على الدَّهْر ولا زلتَ فينا باقياً واسعَ العُمْر
حللت الثريّا خير دارٍ ومنزلٍ فلا زال معموراً وبورك من قَصْرِ
فليس له فيما بَنَى الناسُ مشبهٌ ولا ما بناه الجنُّ فى سالف الدَّهْرِ

والثريا مجموعة من الدور والقصور بناها المعتضد ، ويقال — كما مر بنا فى غير

(١) الديوان ص ٢١٥ .

هذا الموضع — إنه أنفق عليها أربعمائة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، ومن حولها البساتين والرياض ، وقد صوَّرها ابن المعتز تصويراً رائعاً ، إذ يقول فى نفس القصيدة :

وأنهارُ ماءٍ كالسلاسل فُجِّرَتْ لتُرْضِعَ أولادَ الرياحين والزهر
جِنانٌ وأشجارٌ تلاقت غصونُها فأَوْرَقْنَ بالأثمار والورق الخُضْرِ
تَرى الطير فى أغصانهنَّ هواتفاً تَنَقَّلُ من وَكْرٍ لهنَّ إلى وَكْرِ

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراءته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذى يجرُّ إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحْش أو ذبيحاً من البشر ، والذى ما يزال يُفْزِع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويَقْضمه قضماً . وكان المعتضد حقاً شجاعاً شجاعة خارقة ، ويُصور ابن المعتز ما بسط فى البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد بمثل قوله فى القصيدة :

حكمتَ بعَدْلٍ لم يَرَ الناسُ مِثْلَهُ وداويتَ بالرِّفق الجُمُوحَ وبالقهر

وليس فى أشعاره مديح أو تهنئات لولاة أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا ، وخير مدائحه فيهم جميعاً ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وهو على كل حال لا يبالغ فى إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم ، إنما هى أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله[1] :

أيا موصل النُّعْمَى على كل حالةٍ إلىَّ قريباً كنتَ أو نازحَ الدَّارِ
كما يلحق الغيثُ البلاد بِسَيْلِهِ وإن جاد فى أرضٍ سواها بأمطارِ
لقد عمر الله الوزارةَ باسمه وردَّ إليها أهلها بعد إقْفارِ
وكانتْ زماناً لا يَقِرُّ قرارُها فلاقتْ نصابا ثابتاً غير خوَّارِ

(١) الديوان ص ٢١٧ .

وفى ديوانه وبين أشعاره مراث قليلة وأهمها ما نظمه فى ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزنًا شديداً ، إذ أحسّ كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه ، كما أحسّ أن أيام أنسه عادت ظلامًا ، فقد طوت المنية صديقه الحميم ، وطار قلبه فزعًا ، واسودّت الدنيا من حوله ، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله فى حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس له شديد ، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقًا[1] :

يا ساكنَ القبر فى غَبْراءَ مظلمةٍ ... بالطاهريَّة مُقْصَى الدَّار منفردا[2]

أَين الجيوش التى قد كنت تَسْحَبُها ... أَين الكنوز التى لم تُحْصِها عَدَدَا

أَين السرير الذى قد كنت تملؤه ... مهابةً ، مَنْ رأَتْه عينُه ارتَعَدَا

أَين الرِّماح التى غَذَّيْتَها مُهَجًا ... مُذْ مِتَّ ما وردتْ قلباً ولا كبدا

ويتحسر على قصره الثريا ووصائفه وملاهيه، وكأنما أصبح طللا مهجوراً ، ولا أثر ولاعين ، كأنما لم يكن به المعتضد يومًا . ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب ، ولكنه لا ينظم فيه قصائد إنما ينظم أبياتًا قليلة يبكى فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية فى الحكم والتدبير من مثل قوله[3] :

هذا أَبو القاسم فى نَعْشِهِ ... قوموا انظروا كيف تسير الجبالْ

يا ناصر الملك بآرائِهِ ... بعدك للمُلْك ليالٍ طِوَالْ

وطبيعى ألا نجد عند ابن المعتز هجاء، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذى يستحيل فى أيدى الشعراء سهامًا يسددونها إلى خصومهم ، ولم يكن له خصوم ، ولا كان يكنّ لأحد خصومة إلا ما قد يقوله تندُّراً ودعابة من مثل قوله لعلى بن بسام هجّاء عصره[4] :

يا قَذًى فى العيون يا حرقةً بيـ ... ـنَ التراقى حزازةً فى الفؤادِ

يا طلوع العذول ما بين إلفٍ ... يا غريماً وافى على ميعادِ

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .

(٢) الطاهرية : الدار التى دفن بها المعتضد غربى بغداد .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(٤) ذيل زهر الآداب ص ١٨١ .

يا ركودًا فى يوم غيم وصيفٍ يا وجوه التجار يومَ الكسادِ
خَلَّ عنا فإنما أنتَ فينا واو عمرو أو كالحديث المعاد

ويُكثر ابن المعتز فى شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه فى الحروب وفروسيته ، وهو يحاكى فى ذلك القدماء فى حماستهم ، فهو فخر مصطنع متكلَّف فى جمهوره ، ويفخر طويلا بأسرته وبجده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وبلائه فى موقعة حنين ، وبشجاعة آبائه وعمومته وبلاغتهم . وفى ذلك يقول[1] :

إنا لننتاب العُداة وإن نأَوا ونَهُزُّ أحشاء البلاد جموعا
ونقول فوق أسرَّةٍ ومنابرٍ عجباً من القول المصيب بديعا
قومٌ إذا غضبوا على أعدائهم جَرُّوا الحديد أزِجَّةً ودروعا
وكأن أيدينا تنفِّر عنهمُ طيرًا على الأبدان كنَّ وقوعا

والصورة الأخيرة بديعة ، فهو يتصور رءوس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيوف مزايلا لمكانه من أبدانهن . ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة ، وهى شكوى مردُّها إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ ألمت به محنته فى مقتل أبيه ، على نحو ما مرَّ بنا آنفًا ، فقد خلَّفت هذه المحنة فى نفسه ضيقًا شديداً ولعل ذلك ما جعله يشكو من إخوانه أحيانًا .

وكان كثيراً ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين ، مبينًا أن بيته أحق بالخلافة من بيتهم ، وقد ظلت ثوراتهم مشتعلة لا تخمد طوال عصره ، مما جعله يكثر من وعيدهم وتهديدهم ، مذكراً لهم بأن بيته هو الذى استطاع أن يثأر لهم من الأمويين قتلة الحسين وزيد حفيده[2] ، ويحاول فى مقطوعات وقصائد مختلفة أن يستلَّ البغض والإحَنَ من نفوسهم على شاكلة قوله[3] :

بنى عَمِّنا عودوا نَعُدْ لمودَّةٍ فإنَّا إلى الحسنى سِراعُ التعطُّفِ
لقد بلغ الشيطان من آل هاشمٍ مبالغَه من قبلُ فى آل يوسف

(١) الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ص ٥٠ .
(٣) الديوان ص ٣٢٧ .

فهم فى رأيه بيت واحد وإخوة وينبغى أن يتحابوا لا أن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبينه ، حتى باعوه لسيارة بثمن بخس دراهم معدودة . ويبدو أن بعض معاصريه لامه على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبى طالب ، فنظم قصيدة طويلة فى مديحه والثناء عليه ، يقول فى مطالعها[1] :

أآكل لحمى وأحسو دمى ... فيا قوم للعجب الأعجب[2]
علىٌّ يظنّون بى بُغْضَهُ ... فهَلاَّ سوى الكفر ظَنّوه بى

ومضى يقول إن الذى يُشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادّة الدين باسم التشيع لعلى وهو منهم برىء وفضله لا ينكره أحد ، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوّته للرسول عليه السلام ونفوذ بصيرته فى الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول ، وسمّاه بحر العلوم ، وذكر مواقفه العظيمة ، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة ، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره . ولا بد أن نفصل بين شعر ابن المعتز الموجّه إلى العلويين ، والآخر الموجه إلى القرامطة والروافض ، فهو فى الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما فى الثانى فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة ، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة .

وتلقانا فى ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة ، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقى كان يكتوى بناره ، فهى مقطوعات وقد تكون استهلالات لقصائد ، لا تصدر عن وجد شديد ، وإنما تصدر غالبًا عن ود ، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ، ولذلك كنا نفقد عنده الإلحاح فى الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار ، وكل ما نجد إنما هو حب الشباب المترف الذى لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هى أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الجوارى أمثال نشر وشِرّة على سبيل الدعابة من مثل قوله[3] :

---

(١) الديوان ص ٦٧ .
(٢) أحسو : أشرب .
(٣) الديوان ص ٥٢ وأشعار أولاد الخلفا ص ٢٢١ والأغانى ١٠ — ٢٧٨ .

وابلائى من محضر ومغيبِ وحبيب منى بعيد قريب
لم تَرِدْ ماءَ وَجْهه العينُ إلا شَرِقَتْ قبل رِيِّها برقيبِ

وقوله[١] :

زاحم كُمِّى كُمَّهُ فالْتَوَيَا وافق قلبى قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قُرَّةَ العين وياهمى ويا

وهى أبيات لا تصور عذاباً فى الحب ولا ألماً من ناره المحرقة، إنما هى أقرب ما تكون إلى الدعابة ، وختم البيت الرابع بقوله : « ويا » كما يقول الناس : يا أختى ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح . وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سَمَّاه المتأخرون باسم الاكتفاء . واقرأ فى ابن المعتز فإنك لن تقف على حب لاهب ، إنما تقف على دعابات وصوروفَنٌ من مثل قوله[٢] :

تقول العاذلات تعزَّ عنها واطفِ لهيبَ قلبك بالسُّلُوِّ
وكيف وقُبْلَةٌ منها اختلاساً ألَذُّ من الشماتة بالعدوِّ

وقوله[٣] :

إذا اجتنى وَرْدَةً من خَدِّها فمهُ تكوَّنتْ تحتها أخرى من الخَجلِ

وكان — كما أسلفنا — يُنْفق على شاكلة أبناء القصور — كثيراً من أوقاته فى اللهو والخمر ، وديوانه طافح بكئوسها ودنانها وسُقاتها وأديرتها ، فهو لا يشربها فى بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب ، بل يشربها أيضاً فى أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون ، وهو يصرّح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول[٤] :

وليس للهمِّ إلا شُرْبُ صافيةٍ كأنها دمعةٌ من عين مهجور

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٩ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٣ .
(٣) مروج الذهب ٤ / ٢٠٥ .
(٤) الديوان ص ٢٣٠ .

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه ، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها ، وليتسلى ويتعزّى عن مقتل أبيه الذى لم ينسه يوما ، ومثله فى الخمر مثله فى الحب ، فهو لا يتعبّد لها كما كان يتعبد أبو نواس ولا يسبّح بآلائها متقدّمًا إليها قرابينه من الشعر ، إنما هو يتسلّى بها ويتسلّى بما ينظمه فيها بمثل قوله فى مديح الصبوح [1] :

اسْقِنِى الراحَ فى شباب النهارِ ... وانْفِ هَمِّى بالخَنْدَرِيس العُقارِ [2]
قد تولَّتْ زُهْرُ النجوم وقد بَشَّـ ... ـرَ بالصُّبْح طائرُ الأَسحارِ
مـا ترى نعمةَ السماء على الأَرْ ... ضِ وشكرَ الرياض للأَمطارِ
وغنـاء الطيور كلَّ صباحٍ ... وانفتـاقَ الأَشجار بالأَنوارِ
فكـأَنَّ الربيع يجلو عروساً ... وكأَنا من قَطْرِهِ فى نِثار [3]

وهى أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحًا فى الربيع ، ولكنها لا تصور حبًّا ولا تهالكًا على الخمر ، ولا عاطفة جامحة أو متقدة ، إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويُظْهر مقدرته على النظم فى الخمر ، ولذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المدح للصبوح ويضع قصيدة بل قل مزدوجة [4] فى ذمه امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتًا وفيها يقول :

فأَىُّ فَضْل للصَّبُوح يُعْرَفُ ... على الغَبوق والظلامُ مُسْدِفُ [5]

ويطيل فى الأسباب التى من أجلها يذمه ذمًّا قبيحًا ، كأن يعرّض المصطبحين للبرد القارص شتاء والحر اللافح صيفًا . وقد يكون مصدر هذا الذم شيوع المناظرات لعصره وبيان محاسن الشىء ومساوئه ، كما مرّ بنا عند ابن الرومى فى ذمه للورد ، ولكن من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور فى ذلك عاطفة ، وإنما صور عبثًا عقليًّا ، وقد

---

(١) الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٩٠ .
(٢) الخندريس العقار : الخمر .
(٣) النثار : ما ينثر على العروس من الدراهم الفضية .
(٤) الديوان ص ٤٧٣ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٥١ .
(٥) مسدف : مرخى الستور .

يكون أهم من هذا العبث وصفه للبستان فى مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وياسمينٌ فى ذُرَى الأغصانِ منتظمٌ كقطَع العِقْيانِ
والسَّرْوُ مثل قضب الزبرجدِ قد استمَدَّ العَيش من تُرْبٍ نَدِى
على رياضٍ وثَرًى ثَرِىٍّ وَجَدْولٍ كالمِبْرَدِ الجَلِىِّ
وجُلّنارٌ كاحمرار الخــدِّ أو مثل أعراف ديوكِ الهندِ

ويستمر فى رصف مثل هذه التشبيهات والصور ، وكانت لديه مهارة خارقة فى اجتلابها ، والملاءمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الرومى آنفًا . وقد لا يستمدها من ماعون بيته ، ولكن نحس كأنما عقله كان كنزاً زاخراً بالتشبيهات والصور . وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهى تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده ، فتارة يشبه الظلام بحبشى أسود والصباح يفترّ عن أسنانه ضاحكًا من فراره ، أو يشبهه بغراب قوادمه بيضاء أو مقصوص الجناح ، أو بأسود عريان يمشى فى الدجى بسراج ، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر ، ومن بديع تشبيهاته له تصويره بقوله[1] :

كمنْجَلٍ قد صِيغَ من فضَّةٍ يَحْصُدُ من زهر الدُّجَى نَرْجِسَا

وتكثر فى الديوان مثل هذه التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة ، ولم يقف عند الطبيعة المتحضرة وحدها فقدكان يلم بالطبيعة الصحراوية . ولعل أبا الفرج الأصبهانى لم يرد فى دفاعه عنه الذى مرَّ بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره فى الأطلال والبيد وحيواناتها ، إنما أراد الإكثار من النظم فى الصحراء إذ له أشعار مختلفة فى وصفها ، وقد مرت بنا فى غير هذا الموضع أبيات طريفة له فى وصف الأطلال والديار الخالية ، وأخرى فى وصف ثور الوحش وبقره ، ومن طريف ماله فى وصف الإبل قليلة اللبن وهى تُحْلَبُ قوله[2] :

رأيت انهمار الدرِّ بين فروجها كما عصرتْ أيدى الغواسل أثوابا

---

(١) الديوان ص ٢٧٨ .

(٢) الديوان ص ٣٦ .

وقوله فى أخرى وسُراه عليها طوال الليل . كأنها هائمة تطلب شيئًا ضالا منها[١] :

فكأن أيديهن دائبةً يَفْحَصْنَ ليلتهن عن صُبْح

وله فى الخيل أشعار مختلفة ، وطبيعى أن يُعْنَى بها ، إذ كان شغوفًا بالصيد ، حتى ليحتل الطَّرَدُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعته بها قوله فى مقدمة إحدى طردياته يصف فرسًا له[٢] :

قد أغتدى والصبح كالمشيبِ فى أفقٍ مثل مداك الطيبِ[٣]
بقارحٍ مسوَّمٍ يَعْبُوب ذى أذن كخُوصة العَسِيب[٤]
أو آسة أوفتْ على قضيب يسبق شَأْوَ النظرِ الرحيب[٥]
أسرعُ من ماءٍ إلى تصويب ومن رجوع لحظة المريب

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أداته فى تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته فى تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يخزها ويطعنها مسيلا لدمائها مزهقًا لأرواحها ، يقول :

وأجدلٍ أحْكم بالتأديبِ سَوْطِ عذاب واقعٍ مجلوبِ[٦]
يَهْوى هُوِىَّ الماء فى القَلِيب ما طار إلا لدمٍ مصبوب[٧]

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة فى طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرهفة كالأسنة المُشْرعة ، ومن طريف ماله فى تصوير عين باز قوله[٨] :

ومقلة تَصْدُقه إذا رَمَقْ كأنها نَرْجِسَةٌ بلا وَرَقْ

---

(١) الديوان ص ١٤٠ .
(٢) الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢ / ٢٣ وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩ .
(٣) المداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب .
(٤) قارح : مكتمل الخلق . مسوم : معلم حسن الخلق . يعبوب . سريع الجرى .
(٥) أوفت : أشرفت .
(٦) أجدل : صقر .
(٧) القليب : البئر .
(٨) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢١٨ وديوان المعانى ٢ / ١٤٠ .

٩٦

الفصل الثامن

نشاط النثر

١

تطور النثر

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن النثر العربى تطوَّر تطوراً خطيراً ، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حَمْلاً لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان فى اللغة العربية طاقات مستكنَّة لكى تحمل فى يُسْر هذه الثقافات ولا تتأبَّى عليها ، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفى مقدمتهم ابن المقفع . ثم رَعَت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس فى الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمَّى العصر العباسى الأول عصر النقل والترجمة . وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر ، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر فى كثير مما تُرْجم فى العصر الماضى ، وكانت عامةُ الترجمة فيه حرفية ، فالفقرة من الفقر فى كتاب تُتَرْجَمُ حرفيًّا ، اللفظة مقابل اللفظة ، مما قد يصيب الكلام بشىء من الالتواء أو التعثر أو الاضطراب فى التعبير . وكان ذلك دافعًا للمترجمين أن يعيدوا النظر فى كثير مما تُرْجم وأن يترجموه ثانية على أساس جديد ، هو ترجمة المعانى لا الترجمة الحرفية ، بمعنى أن المترجم يقرأ الفقرة وينقل معناها كما ارتسم فى ذهنه دون التقيد الحرفى حتى يطَّرد نسق الكلام ولا يظهر فيه شىء من الاختلال الذى كثيراً ما تدفع إليه الترجمة الحرفية . وحقًّا من المترجمين الأوائل من استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه الطريقة الثانية للترجمة مبكرين ، على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجماته ، ولكنه كان يُعَدُّ شاذًّا وعُدَّ فى الوقت نفسه من بلغاء العربية ، لأننا قلما نحس عنده نشازاً أو التواء أو انحرافًا من شأنه إفساد التعبير ،

إلا ما قد يكون أصاب بعض رسائله لطول المسافة بيننا وبينه ، وما أدخلته أيدى النسّاخ على مر العصور فى كتاباته، من بعض الخلل . وهو على كل حال خلل قليل جداً، وبين أيدينا ترجمته لكليلة ودمنة ، وهى من أروع الترجمات القديمة ، وتدلُّ بحق على أنه كان أحد بلغاء العربية لعصره . ولكن ابن المقفع يُعَدّ شخصية نادرة بين مترجمى العصر العباسى الأول ، إذ لم يكن لكثرتهم بلاغته ولا فصاحته ، لذلك أحسّ المترجمون فى العصر العباسى الثانى عندهم غير قليل من الانحراف فى التعبير ، وتنبّهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية ، فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه . وكان هذا كَسْبًا للنثر العربى فإن الضَّيْمَ الذى كان يداخل الترجمات أخذ يزايلها . واتبع حنين بن إسحاق — أكبر مترجمى العصر — منهجاً فى ترجمته أن يجمع للكتاب المترجَم كلَّ ما يمكنه من مخطوطاته ، وأن يعارضها بعضها على بعض مقابلا بين عباراتها ، محاولا أن يستخلص منها المعانى بكل دقة . وهو أستاذ المترجمين والترجمة فى العصر العباسى الثانى الذى وضع بقوة فكرة ترجمة المعانى لا ترجمة الألفاظ أو الترجمة الحرفية . وكان يَعْمَلُ بين يديه كثير من الشباب فى مقدمتهم ابنه إسحق وابن أخته حبيش ، يترجمون حسب منهجه ، وهو يراجعهم ويُصْلح لهم بعض ما ترجموه على هدى طريقته الجديدة . وكان من الكتب التى أعادت ترجمتها هذه المدرسة كتابُ الخطابة لأرسطاليس ، ترجمه إسحق بن حنين ويَنصُّ ابن النديم فى الفهرست على أنه كان قد نُقل قبل ذلك نقلا آخر ، ولا يعيّن صاحبه ، غير أنه يسميه « النقل القديم » . وقد يقال إذا كانت الترجمة فى هذا العصر أصلحت الترجمات القديمة ، وبَدَتْ فى أسلوب عربى مستقيم ، فلماذا يبدو الخلل والاضطراب الشديد فى ترجمة متّى بن يونس لكتاب أرسطاليس عن الشعر ؟ وأكبر الظن أن هذا الاضطراب والخلل مصدرهما أن موضوع الكتاب وهو المأساة وما اتصل بها من الشعر القصصى لم يرتسما فى ذهن متّى رسما بيّنًا ، إذ كان السريان — مثل العرب — لا يعرفون شيئًا عن الشعر اليونانى وفنونه التى ظهرت عندهم القصصية والغنائية والتمثيلية ، وهذا هو السبب فيما أصاب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو عند متّى من تعثر وخلل . وقد يكون الخلل والتعثر موجودين فى الأصل السريانى الذى نُقل عنه الكتاب .

على كل حال انتقلت الترجمة فى هذا العصر نقلة واسعة ، فقد أخذ المترجمون يتمثلون المعانى التى ينقلونها ويُسيغونها ثم يترجمونها إلى لغة عربية فصيحة لا تشوبها شوائب الترجمة الحرفية القديمة . والذى لا ريب فيه أن معرفتهم بخصائص العربية كانت أدق من معرفة أسلافهم ، إذ ذلّلها لهم علماء اللغة والبيان ، وكانت قد ألفّت كتب كثيرة فى بيان طوابعها ومقوماتها ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع ، فطبيعى أن يتقنها غير مترجم . وهذا نفسه يُلاحَظُ فيما أخذ ينشأ منذ العصر العباسى الأول من الأساليب الفلسفية والعلمية ، فإن هذه الأساليب لانت وأخذ يزايلها الالتواء ، بل أخذ يجرى فيها الاستواء والتناسق ، وكأن الفلاسفة والعلماء أخذوا أنفسهم بإرادة قوية فى التثقف بالعربية . وليس ذلك فحسب ، بل أيضًا بالسيطرة على أساليبها سيطرة تقيم تلاؤمًا وتوازنًا دقيقين بين الألفاظ والمعانى التى تؤدّيها ، بل إن منهم من شارك فى الشعر والنثر مثل الكندى أول فيلسوف بالمعنى الكامل ظهر عند العرب ، فقد أثرت عنه بعض أشعار ، كما أثرت عنه بعض رسائل جيدة ، سنعرض لها فى موضع آخر ، فهو قد أتقن العربية وفَقِهَ أسرارها وخصائصها فقهًا جيداً ، ونضرب لذلك مثلا من أسلوبه الفلسفى ، وفيه يتحدث عن صانع الكون ومدبره والشواهد العقلية على وجوده ، يقول[1] :

« إن فى الظاهرات للحواس ، أظهرَ الله لك الخفيات ، لأوضحَ الدلالة على تدبير مدبِّر أول ، أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكوّنًا لكل مكوّن ، وأولا لكل أولا ، وعلة لكل علة ، لمن كانت حواسه الآلية موصولة بأضواء عقله ، وكانت مطالبه وجدانَ الحق وخواصه [معرفة] الحق وغرضه الإسنادَ للحق واستنباطَه والحكمَ عليه . والمُزكّى عنده — فى كل أمر شَجَرَ بينه وبين نفسه — العقل . فإن مَنْ كان كذلك انهتكت عن أبصار نفسه سُجوفُ[2] سُدَفِ الجهل ، وعافت نفسه مشارب عَكَرَ العُجْب ، وأنِفَتْ من ركاكة معالجة الزهو ، واستوحشتْ من تولُّج[3] ظُلَمِ الشبهات ، وخرجت من الرَّيْب على غير تبين ، واستحيت من الحرص على

(١) رسائل الكندى الفلسفية تحقيق الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة (طبع مطبعة الاعتماد بمصر) ص ٢١٤ .

(٢) سجوف : أستار . سدف : ظلمات.

(٣) تولج : دخول .

اقتناء ما لا تجد ، وتضييع ما تجد، فلم تضاد ذاتهَا ولم تتعصب لأضدادها . فَكُنْ كذلك ، كان الله لك ظهيراً ، أيها الصورة المحمودة والجوهر النفيس يتضحْ لك أن الله ، جلّ ثناؤه ، وهو الإنيّة (الموجود) الحقّ التى لم تكن لَيْسًا أبداً ، لم يزَلْ — ولا يزال — أيْسٌ أبداً ، وأنه هو الحى الذى لا يتكثَّر بتَتَّةٍ ، وأنه هو العلة الأولى التى لا علة لها ، الفاعلة التى لا فاعل لها ، المتممة ، التى لا متمم لها . . . وإن فى نظْم (انتظام) هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه فى بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته على الأمر الأصلح فى كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير » .

والقطعة تدل بوضوح على مهارة الكندى البيانية ، وأنها لا تقف عند فصاحة التعبير ، بل تتعدى ذلك إلى إدخال تلاوين من التكرار ومن الصور البيانية ، وما المعنى الذى يريد أن يوضحه الكندى ؟ إنه يريد أن يقول إن ما يبصره الإنسان من ظواهر الكون ويحسه من مشاهده ويراه من نظامه واتساق أجزائه دليل على أن هناك مدبراً أعلى للكون ، وضع له قوانينه ، التى تحول بينه وبين أى اختلاط أو اضطراب ، كما يشهد بذلك نظامه الذى يخلو من كل عوج وخلل وفساد ، ولكنه أخرج هذه الفكرة فى صورة فلسفية مُطْمَئِنَّة ، وهو فى إطنابه لا ينسى خصائص الأسلوب الأدبى وجمال الترادف فيه على نحو ما نرى فى قوله : « أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكوّنًا لكل مكوّن ، وأولا لكل أول ، وعلة لكل علة » ، فقد عبَّر عن معنى واحد بخمس كلمات متوالية ، ليقوّى المعنى ، وليضيف إليه شيئًا من الجمال الذى يلاحَظ فى التكرار الصوتى . وهو لا ينسى أيضًا ما فى الأسلوب الأدبى من روعة التصوير التى تخلب ألباب السامعين ، على نحو ما نقرأ فى قوله : « فإن من كان كذلك انهتكت عن أبصار نفسه سُجوف سُدَف الجهل ، وعافَت نفسه مشارب عكر العُجْب ، وأنفت من ركاكة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولُّج ظُلَم الشبهات » ، والصور متلاحقة فى هذه العبارات ، وكأننا بإزاء كاتب أدبى لا كاتب فلسفى . وفى ذلك ما يدل بوضوح على التقاء الفلسفة بالأدب بل على امتزاجهما ، فهذا الكندى الفيلسوف يعرض فلسفته فى أسلوب أدبى يشتمل على غير قليل من الروعة البيانية . وتلقانا فى أسلوبه اصطلاحاته الفلسفية كاصطلاح (الإنيّة) بمعنى

(الموجود) واصطلاح (ليس) بمعنى المعدوم و (أيْس) بمعنى الموجود. وهذه الاصطلاحات لا تجور على العبارات فى الأسلوب ؛ بل يندمج فيها لقدرة الكندى كما قلنا آنفًا على المزج بين العبارة الفلسفية والعبارة الأدبية .

وحقًا لم يكن مَنْ وراء الكندى من المتفلسفين يبلغون مبلغه فى العربية والوقوف على أسرارها وخصائصها الأدبية ولكن من الحق أنهم جميعًا عُنوا بفصاحة عباراتهم وسلامتها بقدرما استطاعوا حتى عند من كان منهم ينادى باتخاذ مقاييس البلاغة اليونانية معياراً للفن البيانى فى النثر. ومَرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه كانت هناك ثلاثة أذواق: ذوق ينادى بالرجوع إلى اليونان ومعاييرهم البلاغية، وكان يمثله المترجمون السريان ومن التفَّ حولهم من الكتّاب الذين كانوا يعكفون على النظر فى علم النجوم وفى المنطق والفلسفة والذين كانوا يتحدثون دائمًا عن الكَوْن والفساد ، وسَمْع الكيان ، والكيفية والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم مما كانوا يقرءونه فى الكتب المترجمة ، على نحو ما يصور ذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب ». وكان يقابل هذا الذوقَ المجدد إلى أبعد حدود التجديد حتى ليرفض المقاييس العربية ذوقٌ كان يرتضى هذه المقاييس، بل كان يرى خَطَل الاحتكام إلى سواها ، فالأدب أدب عربى له ملكاته الراسخة ، وله أساليبه الموروثة المصفّاة . وينبغى ألا نعدل عن معاييره الذاتية إلى معايير أخرى ليست من طبيعته ولا من بيئته . وكان يمثل هذا الذوقَ علماء اللغة المحافظون ومن سار فى فلكهم . وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل ، لا يغلو غلو الأولين فى رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين فى رفض المقاييس الأجنبية ، بل يقف موقفًا وسطًا بين الطرفين المتعارضين ، فهو يعتدّ بالمقاييس العربية ويأخذ منها ما يوافق العصر ويلائمه ، وهو ينظر فى المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربى . وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحَظ فى كتاب « البيان والتبيين» للجاحظ ، وهو فيه يَعْرض ملاحظات العرب منذ الجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لخطيب عربى إلا ويسجّلها ، وينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم — التى استطاع الحصول عليها — فى البلاغة دون أن يُعْلى فريقًا على فريق أو ينصر فريقًا ضد فريق .

وكانت بيئة المتكلمين أسبق من البيئتين الأخريين فى وضع قواعد البلاغة النثرية ، إذ أخذت تحاول منذ العصر العباسى الأول وضع هذه القواعد ، وكان من أهم ما دفعها إلى ذلك تدريبُ الشباب على المهارة فى الخطابة والبيان وكيف يتغلب على الخصوم فى حِجاجه وجدله . وكانت المناظرات مندلعة بينها وبين أصحاب الفرق الأخرى ، وكانت تندلع أحيانًا فيما بين أفرادها ، فكثر كلامهم عن صفات الخطيب وجهارة صوته ووضوح عبارته وخلابتها وملاءمة كلامه للسامعين وما يحسن من حركاته وإشاراته ودقة أدلته وبراهينه ، وكيف يَقْرع حجة الخصم بالحجة الناصعة وكيف ينقض كلامه نقضًا . وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربى ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية وما ينبغى فى ألفاظ العبارات أحيانًا من رشاقة وعذوبة وأحيانًا أخرى من جزالة ورصانة ، وما ينبغى للمعانى من وضوح مهما دقّت مسالكها . وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هى التى فَرَقت بين الحقيقة والمجاز وأعدّت لمباحث البيان العربى المعروفة[1] . ويلقانا فى هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذى ذكرناه آنفًا ، وهو يشتمل على كل الملاحظات البيانية والبلاغية التى أوصى بها المتكلمون الأدباء ، حتى يحوزوا لأنفسهم بيانًا ناصعًا رائعًا . وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه ، لأنه هو الذى عايش العصر ، وترك آثاراً واضحة فيه ، ومن أهم ما ردّده طويلا فكرة مطابقة الكلام للسامعين ، فلا يصح لمتكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماء الكلام بكلام الأعراب الممتلئ بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسف يقول : « قبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة أو فى مخاطبة العوام أو فى مخاطبة أهله . أو فى حديثه إذا حدث أو فى خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام فى صناعة الكلام ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل[2] » . ولا يمل الجاحظ من الدعوة إلى الوضوح ، وألا يوجز كاتب ولا عالم فى كلامه حتى يصبح ألغازاً ، وقد حمل على كتب الأخفش لما فيها من صعوبة وغموض ، كما حمل على كل تكلف ، يقول : « متى شاكل — أبقاك الله — اللفظُ معناه ، وأعرب عن فَحْواه ، وكان لتلك الحال وَفْقًا ، ولذلك القدر

---

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤ .

(٢) الحيوان ٣/٣٦٨ والبيان والتبيين ١/١٤٤ .

لفظاً ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع »[١] . وتحدث كثيراً عن جزالة الألفاظ وعذوبتها وعن تلاحمها وتنافرها وعن حسن موقعها فى مكان وسوئه فى مكان آخر ، كما تحدث عن دقة استخدام الكلمات ، يقول : « قد يستخف الناس ألفاظاً يستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السَّغب ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى مواضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث »[٢] . ويتوقف مراراً ليشيد بجمال اختيار الألفاظ وجودة الصياغة والسبك وحسن الرَّصْف والنظم ، ونراه ينوّه بالسجع وأثره فى نفوس السامعين[٣] ، كما ينوه بالازدواج وما فيه من جمال[٤] صوتى ، وكأنه هو الذى أعدّ لهذين الأسلوبين كى يشيعا على ألسنة الأدباء منذ عصره ، وكان هو نفسه يستخدم الازدواج كثيراً فى أسلوبه ، واستخدم السجع قليلا ، وتردّدت على لسانه فنون بديعية وبيانية كثيرة ، مثل : الأسلوب الحكيم والاحتراس ، وكان يسميه إصابة المقدار ، والاعتراض ، والكناية والحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل . وبذلك هيّأ فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصوراً فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسّنات محسّنا عقليّاً هو « المذهب الكلامى » ويريد به الجاحظ دقة حِيَل المتكلمين فى الغوص على الحجج والعلل والمعاذير . وظلت كتابات الجاحظ فى البيان والتبيين وكذلك فى الحيوان مخازن لا تنفد للبلاغيين المتأخرين ، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية .

وقدّمت بيئة اللغويين كتباً مختلفة ، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغريبة وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب ، ومنها ما يُعْنَى بضبط ألفاظ وتفسيرها مثل كتابه « الفصيح » ، وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد ، وهو معرض جيد لنماذج من الشعر والنثر ، لا تبلغ فى الغرابة مبلغ نماذج ثعلب فى

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٧ .
(٢) البيان والتبيين ١ / ٢٠ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٨٤ ، ٢٩٧ ، ٤٠٨ .
(٤) البيان والتبيين ٢/ ١١٦ .

مجالسه ، ولذلك شُغف الأدباء فى عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب ، وعدُّوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية . ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان ، فيشير إلى الحقيقة والمجاز والاستعارة ، ويتحدث عن الكناية ويوزّعها على ثلاثة أنواع ، فهى إما للتعمية وإما لتحاشى اللفظ الخسيس وإما للتفخيم[١] ، ويجعل التشبيه أربعة أضرب ، فهو إما تشبيه مفرط ، وإما تشبيه مصيب ، وإما تشبيه مقارب ، وإما تشبيه بعيد[٢] . والكتاب يمثل ذوقًا محافظًا ، فليس فيه أى شىء يتصل بآراء الأجانب فى البيان والبلاغة ، وليس فيه أىُّ استضاءة بهذه الآراء . ومن الغريب أن نجد ابن قتيبة ، وسنعرف فى موضع آخر أنه كان مثقفًا بالثقافات الأجنبية المعاصرة ، يجنح فى ذوقه إلى هذه البيئة اللغوية المحافظة فى كتابه « أدب الكاتب » وقد مضى فيه يعرّف الكُتّاب بالاستعمالات اللغوية الصحيحة للكلمات ، فمن ذلك الطَّرَب يذهب الناس إلى أنه فى الفرح دون الجزع ، وليس كذلك إنما الطرب خفّةٌ تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع[٣] ، ومن ذلك المأتم يذهب الناس إلى أنه المصيبة ، يقولون كنا فى مأتم ، وليس كذلك إنما المأتم النساء يجتمعن فى الخير والشر ، والجمع مآتم ، والصواب أن يقولوا كنا فى مناحة ، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء[٤] . ويظل يفتح نحو خمسين بابًا لتعليم الكُتّاب ألفاظًا يجب أن يعرفوا دقة استخدامها ، منها ما يتصل بأسماء الحيوان ومنها ما يتصل بأسماء الأفلاك ، ومنها ما يتصل بأسماء النبات ، ومنها ما يُعْرَفُ واحده ويُشْكل جمعه ، ومنها ما يتصل بالطعام أو الشراب أو الثياب أو السلاح . ويخرج من ذلك إلى أبواب تتصل بكتابة الكلمات من ذوات الألف أو الواو أو الياء إلى غير ذلك . وينتقل إلى أبواب تقويم اللسان ناصًّا فيها على ما يسبّبه السماع للعامة من الوقوع فى الخطأ كأفعال تُهْمَزُ والعامة تدع حذفها وما هو بالسين ويقولونه بالصاد وما جاء مفتوحًا وهم يكسرونه إلى جَمّ من مثل هذه المسائل . ويمضى إلى أبنية الأفعال ومعانيها وأبنية الأسماء ومعانيها ، وفى أثناء ذلك يعقد بابًا طريفًا[٥] لما يتكلم به العامة من الكلام الأعجمى ، سواء

---

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٤١٢ .
(٢) الكامل ص ٥٠٦ .
(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن) ص ٢٢ .
(٤) أدب الكاتب ص ٢٤ .
(٥) أدب الكاتب ص ٥٢٦ .

أكان أصله روميًّا أم نبطيًّا أم فارسيًّا أم سريانيًّا . والذوق العام فى الكتاب ذوق لغوى محافظ شديد المحافظة .

ونلتقى بكاتب بغدادى تخرَّج على يد كتَّاب بغداد العظام ورحل إلى قرطبة ثم إلى القيروان والتحق بدواوين الدولة الأغلبية ورأس ديوان الإنشاء بها هو أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيبانى المتوفى سنة ٢٩٨ وقد صنَّف على ضوء الذوقين اللذين ,صفناهما للبيئتين السالفتين رسالة[1] بديعة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، سماها الرسالة العذراء ، وهى أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر ، وهو يُشيد بهذه الصناعة ، ويطلب ممن يريد حِذْقها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعانى العجم وحدود المنطق وأمثال الفُرْس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ، مع التزود بالنحو والتصريف واللغة والفقه . وأبو اليسر بذلك كله يلتقى بذوق علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاه من الثقافات الأجنبية ، كما يلتقى بعلماء اللغة والتصريف ، فهو يستضىء بهم جميعًا . ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر فى نَزْع آى القرآن الكريم ووضعها فى مواضعها ، وكذلك الأمثال والأشعار وإن كانت الأخيرة لاتُسْتَحَبُّ فى مخاطبة الخلفاء ، وهو فى هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة[2] وقد استمد منه كثيراً فى رسالته . والمهم أنه يشيد فى تكوين ثقافة الأديب بالثقافة العربية ، ويضعها جنبًا إلى جنب مع الثقافات الأجنبية ، مما يدل بوضوح على أنه كان يتأثر ببيئة المتكلمين تأثراً عميقًا . ويتحدث عن زِىِّ الكاتب وحسن هندامه ، ويطالب — فى إلحاح — كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء والكُتَّاب وولاة الثغور وقواد الجيوش

---

(١) فى الطبعات السابقة من هذا الجزء الخاص بالعصر العباسى الثانى نسبت هذه الرسالة إلى الكاتب إبراهيم بن المدبر متابعة للأستاذ محمد كرد على الذى نشرها فى كتابه : « رسائل البلغاء » ونسبها إليه . وتبين لى أخيرًا أن نسبتها إليه مخطئة وأن الرسالة من صنع أبى اليسر الشيبانى المذكور ، بشهادة نصوص منها اقتبسها القلقشندى فى صبح الأعشى ٢ / ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٣ / ٢ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١١٨ .

والقضاة والعلماء وذوى النباهة والظُّرْف . ولابد - كما قال الجاحظ مرارًا وتكرارًا - من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعانى ، حتى توضع الألفاظ فى مواضعها وتنزل مواطنها . ثم يتوقف — مهتديًا بابن قتيبة — إزاء أبنية ينبغى تركها واستعمال أبنية أخرى ، فمثل الدعاء : « أبقاك الله طويلا » ليس مُسْتَحَبًّا ، إنما المستحب « أطال الله بقاءك » مع أنه لافرق فى المعنى بين العبارتين ، ولكنهم جعلوا الثانية أرجح وزنًا وأنبه قدرًا .

ولابد أن يعرف الأديب لكل كلمة مكانها ، ويضرب مثلًا لذلك أن شخصًا كتب إلى داود بن خلف الأصبهانى معاصره صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر على هذا النمط : « وإن قال كذا فقد خرج عن الملّة . والحمد لله » وردّ عليه داود متعجبًا عن وضع الحمد فى هذا المكان قائلا : « تحمد الله على أن تُخْرج امرءاً مسلمًا من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ؛ وإنما يقال فى المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » . ويَطْلُبُ أبو اليسر أن يوضع مع ذكر الشكوى مثل : « والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، ومع ذكر البَلْوَى : « نسأل الله دفع المحذور ، ونسأل الله صَرْفَ السوء » ومع ذكر النعم مثل : « الحمد لله خالصًا ، والشكر لله واجبًا » . ويمضى فى إثر الجاحظ ، فيقول إنه لا يجوز فى الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولا محاكاة الشعر فيما يجرى فيه من حذف أو ضرورات . ويحذّر من استعمال كلمة « إياك » ويحسُّ ثقلها فى مثل « كلمت إياك » . ويُبْدئ ويُعيد — على ضوء الجاحظ — فى أن الألفاظ ينبغى أن توضع فى مواقعها بدقة . ويدعو إلى الاستهلال فى مقدمات الرسائل بحيث تشير فى صدرها إلى المراد منها ، ويوصى بعدم إطالة المقدمات فى الكتابة ، ويقول إنها ينبغى ألا تزيد عن سطرين أو ثلاثة . ثم يُفيض فى أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة بَرْيه وأنواعه وأجودها ، ويوصى بعدم إغفال الصلاة على الرسول عليه السلام . ويَلْفت إلى كيفية كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر ، فإن كان الماضى أقل من نصف الشهر قال الكاتب : لكذا ليلةً مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف قال : لكذا ليلةً بقيت . ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطَيِّها . ويشير — على هدى ابن قتيبة — إلى العناية

بميزان التصريف . ويعود إلى وضع الألفاظ فى أماكنها ، ويَنْهَى — كما نهى المتكلمون من قبل — مَنْ ليست له موهبة أدبية عن محاولة الانتظام فى هذه الصناعة . وينقل عن أحد المتكلمين ، وهو العَتَّابى ، رأيه فى اختيار الألفاظ وصعوبته . وينصح الكاتب بعَرْض ما يكتبه فى باكورة حياته على المختصين ليروا مقدار صلاحيته للصناعة . ويَنْهى — على هدى الجاحظ عن الألفاظ الحوشية والمبتذلة ، وينقل عنه إعجابه بالكتّاب إذ قال: « ما رأيت قوماً أمثل طريقة فى البلاغة من الكُتّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّراً وحشيًّا ولا ساقطاً سوقيًّا » . ويعود إلى فكرة الوضوح الجاحظية ، وينقل عنه بعض كلامه . ويذكر أرسطو وينقل عنه بعض ما قاله فى النَّصْبة التى تدل على اللفظ والإشارة والخط والعقد كأعلام الأفراح ، وينقل أيضاً عنه حَدَّه للإنسان وأنه الحى الناطق ، وهو بذلك يقترب من ذوق المتكلمين وانتفاعهم ببعض ما تُرجم دون النوبان فيه . ويبيّن أهمية الكتب المحبَّرة تحبيراً جيداً فى استنزال الجبابرة وأنها قد تصنع ما لا تصنعه الجيوش اللَّجبة . ثم يسوق صفحات جَلَبها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة . ولا يكتفى بذلك بل ينقل أيضاً الصحيفة التى دوّنها الجاحظ عن الهنود فى البلاغة ، ويتلوها بما دوّنه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخليل بن أحمد ، وكل ذلك دليل واضح على أن أبا اليُسْر وضع نُصْبَ عينه فى كتابته لرسالته العذراء ابن قتيبة والجاحظ ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى وأعمق أثراً .

وحتى الآن لم نتكلم عن كتاب يمثل بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم فى الدعوة لمعايير البلاغة اليونانية ، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة فى مجال النثر والكتابة هو الكتاب الذى نُشر باسم نقد النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد تبيّن فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان فى وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سليمان ابن وهب ، وهو من أسرة ظلت تعمل فى دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون ، وكان جده وزيراً للمهتدى والمعتمد ، وتوفى سنة ٢٧٢ فبينه وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بأخرة من هذا العصر . ونراه فى مستهل كتابه يُزْرى على كتاب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، وهذا طبيعى لأنه يمثل بيئة المتفلسفة

والمترجمين التى كانت تعارض المتكلمين فى مقاييسهم البلاغية ، لأنهم لم يستوعبوا فى رأيه كتابات أرسطو فى المنطق والجدل والخطابة . وهو يفتتح كتابه بمباحث فى العقل تدل على أنه شيعى إمامى ، ويعقد فصلا للقياس يحلله فيه على طريقة أرسطو ، ويقول إنه جُعل عماداً وعياراً على العقل كما جُعل البركار لتقويم الدائرة والمسطرة لتقويم الخط . ويفيض فى مباحث تتصل بالأخبار وبالفقه . ويتكلم عن بعض خصائص التعبير كما يتكلم عن الرمز ويقول إنه أتى منه كثير فى كتب المتقدمين من الفلاسفة وكان أكثرهم استعمالاله أفلاطون . ويعود إلى الحديث عن بعض خصائص العبارات وعن الأمثال والالتفات وعن المبالغة ويرتضيها متأثراً بأرسطو ، ويعرض لمبحث الفصل والوصل بين العبارات وكذلك لمبحث التقديم والتأخير . ويقسم الكلام المنثور إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وينوّه بالإيجاز الذى حذرَ الجاحظ منه ، ويقول إن أرسطو وإقليدس كانا شديدى الإيجاز ، بينما امتاز بالإطناب جالينوس ويوحنا النحوى . ويعقد فصلا فى نحو عشرين صحيفة ، أجمل فيه كتاب الجدل لأرسطو . وواضح أنه توسَّع فى تشريعه للنثر العربى ووضْعه لمعاييره فى الأخذ عن كتابى أرسطو فى المنطق والجدل . وهو أخذٌ يبدو فيه الجفاف وأنه ينبو عن الذوق العربى ، ولذلك لم يَلْقَ هذا الكتاب ترحيباً من المتأدبين . وكان لذلك أثره فى أن نقاد العرب لم ينقلوا عنه شيئاً فى كتاباتهم عن الخطابة والنثر ، إذ رأوه يحتكم إلى أشياء غير وثيقة الصلة بأدبهم ، ومن أجل ذلك ظل الكتاب وصاحبه مجهولين من عامة النقاد . ولا نبعد إذا قلنا إن بيئة المتكلمين هى التى سيطرت بما وضعته من معايير على أذواق الكتاب والأدباء فى العصر ، وظل ذلك حقباً متطاولة . وهى كما قلنا بيئة معتدلة كانت تزاوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقوّماتها حيّةً ، مقومات تعتمد على التراث القديم وتتطور بما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطوراً لا يَجْنِى على العربية ، بل تجنى منه ثماراً رائعة ، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح .

وعلى هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبى العام ، وكان لذلك أثره فى أن ازدهر النثر العربى وأخذت موضوعاته تتنوَّع تنوعاً واسعاً ، وقاد هذا الازدهارَ الجاحظُ المتكلم المشهور ، إذ نراه يُعْنَى بتصوير الطبقات فى مجتمعه ، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالى والعرب والنصارى واليهود ، ويَفْسَحُ

للطبقات العامة ، فيكتب عن اللصوص والمُكْدين وحِيَلِهِم والقيان والمرأة . وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السَّمَر التى كانت تُقَرَّأ فى كل مكان . وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية وقصص البطولة والإسرائيليات . وظل الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية قائمًا ، وكان أهم ما تُرجم فى هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية هزار أفسان أى ألف حكاية . ويُفْهَمُ من كلام المسعودى عنه أن حكايات السِّنْدباد لم تكن جزءاً منه فى عصره ، بل كانت مستقلة . ويقول إن مؤلفها حكيم هندى يسمى السندباد ، وهى تشتمل على كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام ، وامرأة الملك . ويذكر المسعودى أنه كانت هناك حكايات مماثلة تُرْجمت عن الرومية[1] . ومما تُرجم حينئذ أو قل مما استمدَّ من أصول فارسية كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ، وقد ألَّفه أحد معاصريه وقدَّمه إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وهو يصور نُظُمَ الساسانيين حُكَّام الفرس قبل الإسلام وتقاليدهم . ومعنى ذلك أن النقل عن الفارسية ظل محتدمًا فى هذا العصر ، ولكن أخذت الشخصية العربية تُثْبت وجودها فى قوة ، فبمجرد أن تُرْجم كتاب ألف ليلة وليلة ألف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتاباً على نسقه به ألفُ حكاية من حكايات العرب وغيرهم . وظهرت فى العصر كتب أسمار كثيرة ، كانت تتلهف عليها العامة ، وخاصة ما دار منها حول الحب وأقاصيصه أو حول الجن أو حول بعض النساء . وكثرت كتب النوادر والكتب التى تصوّر أحوال الحمقى وأقوالهم وأفعالهم ، وكتب الندماء والمنادمة ، وكذلك الكتب التى تصور أخلاق العامة مثل كتابات مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغتام للصَّيْمَرى .

وكثرت كتب الأدب التهذيبى ، وممن أكثر منها ابن أبى الدنيا المتوفى سنة ٢٨١ وقد نُشر فى القاهرة مختصر صنعه السيوطى لكتابه الفرج بعد الشدة ، وكانت له كتب مختلفة فى مكارم الأخلاق . ومثله محمد بن خلف بن المرزبان

---

(١) انظر فى ذلك كله مروج الذهب ١/ ٩٧ ، ٢/ ٢٥١ .

المتوفى سنة ٣٠٩ وقد ترجم كتباً كثيرة عن الفارسية وله تصانيف حسان فى الأخا وأحوال الناس ، منها كتابه : « تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب . ومثلهما أبو بكر الخرائطى السامرى المتوفى سنة ٣٢٥ ، وله مكارم الأخلاق ومعالى ومحمود طرائقها ومراضيها ، نُشر بالقاهرة .

وبجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعاً جديداً ، هو وصف البلدان ، إذ ألّف كتاباً فيه سماه كتاب الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة ، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها[1] . ويبدو أنه اعتمد فى وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ فى جوانب من كلامه على نحو مالاحظ المسعودى إذ يقول : « وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذى هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، ولست أدرى كيف وقع له هذا الدليل ، ذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان . . . لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . إنما كان ينقل من كتب الورّاقين[2] » . وملاحظة المسعودى صحيحة ، ولكنها لا تغض من أهمية هذا الكتاب الذى فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعاً جديداً للكتابة ، وكان ممن تابعه فيه معاصره اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ، وكتابه البلدان منشور . وتعاقبت بعد ذلك الكتب فى هذا الموضوع . والمهم أن الجاحظ أثار فى كتابه بقوة فكرة البيئة وطوابعها فى السكان ، وقد كتبه بأسلوبه الأدبى البارع .

٢

الخطابة والمواعظ والنثر الصوفى

ضعفت الخطابة السياسية فى هذا العصر ، كما ضعفت الخطابة الحفلية ، فكلاهما أصبح شيئاً نادراً ، وحتى ما بقى منهما إنما هو شظايا قليلة كتلك الشظايا

---

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور طه الحاجرى (طبع دار المعارف) ص ٣٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر مروج الذهب ١/١١٤ .

التى حكاها الطبرى عن صاحب الزنج، بل لقد أجمل ما رواه من خطبه[1] بحيث لا نكاد نتبينها فى وضوح . وضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة فى المساجد وفى خطب الجمع والعيدين ، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتدى الورع الذى ظل فى الحكم نحو عام ، فإنه كان يذهب إلى المسجد الجامع بسامرّاء فى كل جمعة ويخطب الناس ويؤمّهم[2] ، ويُروَى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب فى بعض الأعياد ، فأُرتِجَ عليه ولم تُسْمَعْ خطبته[3] ، ولم يخطب خليفة بعده فى العصر سوى الراضى ، ولم تُؤْثَرْ خطبه .

ولكن الخطابة الدينية إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطًا عظيمًا فى المساجد فقد كانت تُعْقَدُ حلقات للوعاظ والقُصَّاص وكان الناس يتحلقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد ، وكان منهم الرسميون الذين تعيّنهم الدولة للخطابة فى أيام الجمع ومنهم غير الرسميين ، وهم الجمهور الأكبر . وكانوا يستمدُّون فى وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوى وقصص الأنبياء والمرسلين ، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره ، وكانوا يُعْنَوْنَ بعَوْن الضعفاء والمساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين فى ذلك بأعمال البرّ . وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ فى الحرب وبثّ روح الحماسة الدينية فى نفوس المجاهدين من مثل أبى العباس الطبرى الذى مرّ ذكره والذى كان يعظ ويقصّ على المجاهدين فى طَرَسُوسَ . ولم يكن يخلو يوم من أيام رمضان من واعظ أو قاصّ بعد الصلاة . وكانت العامة تشغف بهم شغفًا شديداً ، حتى ليُحكى عن الطبرى أنه تعرَّض لقاصّ ببغداد يُنكر عليه بعض ما يقوله ، فصاحت به العامة ورموا باب داره بالحجارة . ولا بد أن نفرق بين هؤلاء القصاص الوعاظ وبين قُصَّاص آخرين كانوا يجلسون للشباب والغلمان فى الطرقات ببغداد ويقصُّون عليهم نوادر الأخبار والحكايات الهزلية ، وكانوا يُسْلَكون فى المشعوذين ، ويضطرب بعض المستشرقين فيخلط بينهم وبين القصَّاص الوُعَّاظ ،

---

(١) الطبرى ٩ / ٤١٤ وما بعدها .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٩٦ .

(٣) طبرى ١٠ / ٣١ .

ولا صلة بين الطرفين إلا فى الاسم ، وهؤلاء هم الذين كانت الدولة تطاردهم أحيانًا كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، أما قُصَّاص المساجد الوعّاظ فكانوا موضع رعاية الدولة منذ عصر بنى أمية ، وظل ذلك بعدهم ، حتى لنجد بعض من يُسْنِد إليهم القصص فى المساجد يُسْنَدُ إليهم القضاء[1] . أما الوعّاظ فكان منهم دائمًا خطباء المساجد فى الجمع والأعياد وأئمتها فى الصلاة ، وكان منهم كثيرون فُصَحَاءَ بُلَغَاءَ ، فكان الناس يحتشدون حولهم ، مُكْبِرين لهم إكباراً عظيمًا .

وكانت المساجد دائمًا مفتوحة ليلا ونهاراً ، ودائمًا يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس ، فكان الواعظ يختار أى وقت يشاء لموعظته ، وإن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات . ومن كبار الوعاظ الذين شهدتهم بغداد فى العصر أبو الحسن على بن محمد الواعظ المصرى المتوفى سنة ٣٣٨ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء .

وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعّاظ ، كانوا يسمَّون بالمذكِّرين ، ويسمَّى مجلسهم باسم مجلس الذكر أى ذكر الله وتسبيحه ، وكانوا من الصوفية ، بل كانوا خطباءهم ووعّاظهم الممتلئين صلاحًا وتقوى وورعًا ، وكانوا يعظون الناس فى المساجد وفى الزوايا ، خالطين الخوف بالرجاء ، مستشهدين ببعض آى القرآن وبعض الحديث ، وقد يفسرونهما ويعلقون عليهما ، مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التى تأسِرُ العقول والقلوب . ومن وعّاظهم فى العصر يحيى بن معاذ الرازى المتوفَّى عام ٢٥٨ ويُرْوَى أنه جاء إلى شيراز ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

مواعظُ الواعظِ لَنْ تُقْبَلاَ حتى يَعِيها قَلْبُهُ أَوَّلاَ

وانهال الناس عليه بعد ذلك انهيالا . ومن أكبر وُعّاظهم فى العصر أبو حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ وهو — كما مرَّ بنا فى الفصل الثانى — أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد خالطًا مواعظه باصطلاحات

---

(١) الولاة والقضاة للكندى (طبعة جيست) ص ٤٢٧ .

٢

الجاحظ [١]

اشتهر بلقبه الدال على نتوء حدقتيه وجحوظهما ، واسمه أبو عثمان عمرو بن بحر . وقيل إنه من كنانة ، وقيل بل هو كنانى ولاء وإن جدّه فزارة كان عبداً أسود جمّالا لعمرو بن قلع الكنانى . واختُلف فى السنة التى وُلد فيها ، على حين اتفق الرواة على أنه توفى سنة ٢٥٥ للهجرة ، والمظنون أنه وُلد فى العقد السادس من القرن الثانى للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويُروَى عنه أنه قال فى أواخر حياته يشكو من الفالج (الشلل) والنقرس (الروماتزم) : « أنا فى هذه العلل المتناقضة التى يتخوّف من بعضها التلف ، وأعظمها ست وتسعون سنة »[٢] . وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة ممسقط رأسه ، وفى مطالع الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع لِداته من الصِّبْية ، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئًا من النحو والفقه والحساب ، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار ، حتى إذا شَبَّ عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، وكانوا يحاضرون فى كل فن ، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس . وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات ومحاورات بين المتكلمين من كل الفرق . وكان يختلف إلى المِرْبد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة بعض ما ينشدونه من الأشعار ، وكان المِرْبَدُ سوقًا تجارية وأدبية كبيرة منذ

---

(١) انظر فى الجاحظ وحياته وأخباره وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد ١٢ / ٢١٢ ومروج الذهب ٤ / ١٠٩ ومعجم الأدباء ١٦ / ٧٤ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان فى عمرو ومرآة الجنان اليافعى ٢ / ١٥٦ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤ ولسان الميزان ٤ / ٣٥٥ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان الاعتدال ٣ / ٢٤٧ وضحى الإسلام لأحمد أمين ١ / ٣٨٦ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٥٤ والجاحظ لطه الحاجرى (طبع دار المعارف) والجاحظ لشارل بلات (طبع دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر) .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ / ٢١٩ ومعجم الأدباء ١٦ / ١١٣ .

العصر الأموى . وفى أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان[١] أحد نهيرات البصرة ، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة ، وأنه كان فى حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويُرْوَى أن أمه ضاقت بانهماكه فى الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق ملىء بكراريس أودَعها البيت ، وقالت له : ليس عندى من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكسب . فذهب إلى الجامع مغتماً ، ولقيه مُوَيْس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء فى الدرس ، فسأله ما شأنك ؟ فحدّثه بحديث أمه ، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ، ودخل السوق ، واشترى الدقيق وحمله الحمّالون إلى داره ، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التى قدّمتِها إلىّ[٢] . وكأن مُوَيْس بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء .

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمِرْبَد وما كان يأخذه عن جِلّة العلماء أمثال الأصمعى وأبى زيد والأخفش وأبى عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبى الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس والنظّام من المعتزلة ، ولا عند كبار الفقهاء والمحدّثين فى عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة ، عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلّف أو يترجم فى البصرة أو فى بغداد تتكاثر نسخه فى أيدى الورّاقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسطاليس ، وبهذه الثقافة العلمية التى حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع علم النحو وقوانينه النهائية ، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزلة أصحاب الفكر الحر فى الدراسات الدينية ، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقرّرة معروفة ، لذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا فى بغداد[٣] بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون ، فقد كانت تحت بصره فى دكاكين

---

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠ .

(٣) الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفى مواضع متفرقة .

الوراقين ، ولم يكن يكتفى بقراءة كتاب أو كتب فى اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للقراءة والنظر[١] . ويقول أبو هِفّان : « لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان »[٢] . وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرتسم فى ذهنه ، ويظل فى ذاكرته آماداً متطاولة . ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدّمة الطويلة التى وضعها بين يدى كتابه الحيوان ، وهى نحو مائة صفحة فى تمجيد الكتب ، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التى صنّفها قبل الحيوان .

وكان من أهم ما شُغف به الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته فى عصره ، ويستوعب كل ما كان عندهم ، بادئاً بأبى الهذيل العلاّف ، وكلما اشتهر معتزلى لزم حلقته ، وكان من أهم من لزمهم النظام[٣] ، وكان لا يبارَى فى المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة ، فتلقّن ذلك عنه ، وسنراه يطبقه فى كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة ، وفيه يقول : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحَل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة »[٤] وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة ، وكأنه هو الذى دفع الجاحظ دفعاً للتزود من جداولها بكل ما استطاع . ويبدو أنه هو الذى غرس فى نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه فى كتابه « الحيوان » يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات فى عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهداه طول تفكيره فى آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كوّنت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه ، ويعرض الخياط المعتزلى فى كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء ، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلا[٥] . ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته

---

(١) الفهرست ص ١٧٥ .
(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .
(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .
(٤) الحيوان ٤ / ٢٠٦ .
(٥) الانتصار ص ١٠٣ وانظر فى آراء الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٥ .

ويبدو أنه كان يَلْقَى كثيراً من الإهمال فى أول أمره ، حتى كان يُضْطر حين يؤلف كتاباً أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابهين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العَتَّابى أو سَلْم صاحب بيت الحكمة ، حينئذ كان الكتاب يروج ، ويأتى الناس لروايته[1] عنه . وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله ، وفى مقدمتهم بشر بن المعتمر وثُمامة بن أشرس ، حتى إذا شُغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مَرْو إلى بغداد أشار عليه ثُمامة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة فى هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حَدَّ له بما كتب [2] ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد ، ولكن لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة ، ونظن ظناً أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ ، ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام[3] ، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، مكتفيا — فيما يبدو — براتبه . وربما كان قبحه الذى عُرف به هو السبب الحقيقى فى أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه . وفى بغداد طاب له المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية فى النوادى والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتتحول الخلافة إلى سامرّاء فى عهد المعتصم ، ويتحوّل معها الجاحظ ، ويتخذ سامرّاء دار مُقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور ، وفيها يتعرّف على كثير من الأدباء ، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثال أبى العَيْناء والجَمّاز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء ، وجعلته صلته بابن الزيات يقف فى صفه ضد خصمه أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، ولا يلبث المعتصم أن يتوفّى ويتبعه ابنه الواثق وتصير الخلافة إلى المتوكل ، وكان يَضْطَغِنُ على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذّبه فى تَنُّور محمىّ بالنار حتى يموت . ويقرّب المتوكل فى هذه الأثناء ابن أبى دؤاد ، ويُرْسل فى طلب الجاحظ ، ويأتونه به مقيّداً ، ويأخذ فى تعنيفه ، ويقول له الجاحظ :

---

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨.

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٨ .

« خَفَّض عليك — أيَّدك الله — فوالله لأن يكون لك الأمر علىّ خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أسيءَ وتحسن أحْسَنُ من أن أحسن فتسيءَ ، وأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجملُ من الانتقام منى » . وعفا عنه ابن أبى دؤاد[1] . ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفًا به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر من المتوكل أن يصنف رسالة فى الرد على النصارى[2] ، ويغلب أن يكون هذا التكليف فى سنة ٢٣٥ ، وهى السنة التى أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالس كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وكأن مهمته كاتبًا رسميًّا للدولة ظلت قائمة منذ مطالع القرن الثالث الهجرى حتى هذا العام . ولا بد أن الدولة كانت تكفيه عيشه كما كانت تكفى كثيرين من العلماء والشعراء ، وكان حين يُهْدى الوزراء والقُوَّاد وكبار الكتَّاب بعض كتبه يُهْدونه بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدَّمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبى دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولى حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسدُّ حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد ، إنما هو وجاريتان ، وهذا كل ماهناك . ويظهر أن مرض الفالج (الشلل) ألمّ به مبكراً ولكنه لم يُقْعده عن الحركة ولا عن الكتابة ، فقد ألّف كتاب الحيوان الذى قدَّمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ للهجرة وهو مفلوج[3] ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقْرس وطال به العُمر ، وإذا صح أنه صحب الفتح بن خاقان فى زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظًا بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ . وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه . فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون مَنْ نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ما شَعَر به ، ونصفه الآخر منقرسٌ لو طار الذباب بقربه لآلمه » . ووجَّه إليه المتوكل فى سنة ٢٤٧ شخصًا يحمله إليه ، فقال : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شِقّ مائل ، ولُعاب سائل ، وعَقل حائل[4] ؟ ! » .

---

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩
(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٩٩ وما بعدها ونراه فى كتابه إليه يشير إلى راتب شهرى معلوم كان يجرى على الجاحظ .
(٣) ذيل زهر الآداب للحصرى ص ١٦٥ .
(٤) انظر فى الخبرين السابقين معجم الأدباء ١٦ / ١١٣ .

ويُعَدُّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر فى العصر العباسى ، وهو فى الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التى نهض بها المعتزلة ، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوليد للمعانى ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفد ، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامى فى كتاباته[1] ، ويريدون به قوة الحجة المنطقية والقدرة على التسبيب والتعليل ، وكأنما يأخذ من نهر لا ينضب ، نهر لايزال يجلب منه الحجة ونقيضها ، تُسْعفه فى ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيًا » بما يستنبطه من خفيات المعانى وما يثيره من دقائق الفكر فى الروح والجسم والحواس والخير والشر والجوهر والعرض ، بل أيضًا من خفايا المجتمع الذى عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومُكدين ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين فى الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهـــل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وما يتصل بالحيوان وبالنبات وبالعرب والعجم وفضائل الشعوب ، وكأنك تدور فى كتاباته بمتحف لاتزال تفجؤك فيه الطرف والصور . وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة ، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية فى البصرة أو فى بغداد أو فى سامراء ، ومرة يطوف بك فى ردهات الفكر العميق أو فى بعض آى القرآن ، ومرة يطوف بك فى شارعات المدن السابقة وأزقتها وحوانيتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الجوارى ، وهو فى هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس .

وبجانب هذا الفكر المنطلق فى البحث وفى الوصف وفى الرواية الذى ينقل لك الواقع بكل شياته وسماته ، وكأنك بإزاء أشرطة سينمائية تعرض عليك كل ما فى مدن العراق الكبيرة من صور الحياة فى أشدها ترفًا ونعيمًا وأشدها بؤسًا وضنكًا ، حتى لكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق . ويبلغ من نقله لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أى شىء حتى

(١) كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشقوفسكى) ص ٥٣ .

العورات أحياناً ، ويعلن ذلك فى صراحة صريحة دون أى مواربة إذ يقول : «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر (العورات) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة .[1]»

وبجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطرافك بالنوادر المضحكة ، وكان القدماء يلاحظون ذلك بوضوح ، حتى ليقول المسعودى : «كتبُ الجاحظ مع انحرافه المشهور (يريد خصومته للشيعة ، وكان المسعودى متشيعاً) تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف مال القارئ وسآمة السامع خرج من جدّ إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»[2] ويصوّر ذلك الجاحظ نفسه فيقول : «وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضات أن يُحْمَلَ أصحابها على الجد الصِّرْف وعلى العقل المحض وعلى الحق المرّ وعلى المعانى الصعبة التى تستكدّ النفوس وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب موشّحاً ببعض الهزل»[3] . وخصّ الهزل والنوادر بكتابه المشهور «البخلاء» وهو مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكهة عن الأشحاء البخلاء فى عصره . وبنى رسالة له فى هجاء أحد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب ، وهى رسالة التربيع والتدوير ، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئاً ، فجعل يصفه فى رسالته وصفا مضحكاً ، ثم حوّله إلى دراسة واسعة فى الجمال ، وهل يكون فى القصر أو يكون فى الطول أو يكون فى النحافة أو يكون فى الامتلاء أو يكون فى التربيع والتدوير ، وهى تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلئ بالدعابة تارة وبالسخرية تارة أخرى ، وفيها يقول مدافعاً عن المزاح : «ولو استعمل الناس الرصانة فى كل حال والجد فى كل مقال . . . لكان السفه الصُّراح خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم . . . ولكن لكل شىء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه»[4] .

---

(١) الحيوان ٣ / ٤٥ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ١٠٩ .
(٣) رسالة فى النساء مجموعة رسائل الجاحظ. نشر السندوبى ص ٢٦٦ .
(٤) رسالة التربيع والتدوير (طبعة شارل بلات بدمشق) ص ٥٣ .

وجرَّتْ رغبةُ الجاحظ فى أن يتخلَّل كتاباته بالنوادر وما يُطْرِف القارئ رغبةً مماثلة فى أن يورد فى تضاعيف كتاباته بعض آى القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم ، مما أشاع فى رسائله وكتبه كثرة الاستطراد ، وكان يقصد إليه قصداً ويتخذه مذهبًا فى كتابته ، حتى لا يملَّ القارئ ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه ، وهو يعلن ذلك مراراً فى كتبه ، كقوله فى كتاب الحيوان : « قد عزمتُ — والله الموفِّق — أنى أرشِّح هذا الكتاب وأفصِّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أو رثت الغفلة »(١) . ويقول فى موضع آخر : « ومتى خرج (القارئ) من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سِداد ... حتى يُفْضى إلى مزْح وفكاهة ، وإلى سُخْف وخرافة »(٢) .

ودائمًا يُعْنَى الجاحظ بصياغته ، باذلًا بموادّها من الألفاظ ، فهى تارة ألفاظ جزلة رصينة ، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة ، ولكل لفظة موضعها من الكلام ومن المعنى الذى تؤدّيه ، وهو يصيح فى البيان والتبيين وغيره من كتاباته : التلاؤمَ التلاؤمَ ومطابقةَ الكلام لمقتضى الحال ، أو بعبارة أخرى لسامعيه ، يقول : « وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميًّا وساقطًا سوقيًّا فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبًا وَحْشِيًا إلا أن يكون المتكلم بدويًّا أعرابيًّا ، فإن الوَحْشِيَّ من الكلام يفهمه الوحشىُّ من الناس ، كما يفهم السوقىُّ رطانة السُّوقىّ »(٣) . ودائمًا يُبْدئ ويُعيد فى أن الأسلوب ينبغى أن يكون وسطًا بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشفّ الألفاظ عن المعانى حتى تَلَذَّ الأسماع والقلوب ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يُغْنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه . . . وإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا . . . صَنَعَ فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة »(٤) . وأكثر من

---

(١) الحيوان (طبعة الحلبى) ٣ / ٧ .
(٢) الحيوان ١ / ٩٣ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

الحديث فى البيان والتبيين عن حسن الصياغة وجمال العبارات ، وهو بحق الذى أعدّ فى قوة لشيوع أسلوب جديد فى الكتابة ، هو أسلوب الازدواج ، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق فى صفوف متقابلة ، دون أن تتحد نهاياتها على نحو ما هو معروف فى السجع . هى تتقابل وتتعادل صوتياً ، ولكن دون أن تحقق التوازن الصوتى المألوف فى السجع ، ومع ذلك تحقق ضروباً من الإيقاع . فالكلمات تتوازن وتتعادل ، وكأن كل كلمة فى عبارة تقابلها كلمة فى العبارة التالية على شاكلة قوله : « لا أعلم قريناً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ولا أحضر معونة ، ولا أخفّ مئونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ؛ ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب مُجْتَنًى ، ولا أسرع إدْراكاً ، ولا أوْجَدَ فى كل إبّان من كتاب ، ولا أعلم نِتاجاً فى حداثة سِنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب »[1] . وبمثل هذا الأسلوب المتدفق الذى يحفّ به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنّف الكتبَ الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات ، دون أن تتأبّى عليه كلمة أو صيغة ، فقد أصبحت اللغة مرنة فى لسانه وعلى قلمه إلى أقصى حد ، لغة شفّافة يَشيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصفّى الذى يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره .

ودائماً تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ ، إذ يُعْنَى دائماً بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاءمتها لمعانيها وموضوعاتها وقرائنها ، كما يُعْنَى بِسَرَيان روح الدُّعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية إلى نادرة إلى بيان سِمَة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يُحْصَى من المعارف

---

(١) الحيوان ١ / ٤٢ .

وأحوال مجتمعه . وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل ادبه أدبًا واقعيًا يصوّر مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائمًا تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأدلة ودقائق المعانى والأفكار خائضًا بك فى أعمق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقات أو الكلام عن صفاته أو فى المعرفة أو فى الاستطاعة ، مع ذكر أطراف مما يجرى فيه الناس ويخوضون فيه ، ومع التنقل فى كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات .

ولسنا بصدد البحث العام فى الجاحظ ، إنما نريد أن نقف قليلا عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصى ونوادر ، ومرّ بنا أنه طبع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار فى مدح الشىء وذمه ، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومعبد فى الكلب والديك أيهما أفضل ، إذ شغلت نحو مجلّد ونصف من كتاب الحيوان ، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدبيره فى الكلب والديك ، يقول : « إنما نتنظّر (نجادل) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صُنْعه وعلى عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسخّر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلّ بهما على أن الذى ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكّر فيهما ويُعْتبر بهما ويسبّح الله عز وجل عندهما » . وهو يردّد ذلك فى جوانب من المناظرة ليبين الغاية منها والغرض . وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله النظام ومعبد فى ذمّه ومدْحه ، ولخّص ذلك يقول[1] :

« باب ما ذكر صاحب الديك من ذمّ الكلاب وتعداد أصنافها ومعايبها ومثالبها من لؤمها وجبْنها ، وضعفها وشرّهها ، وغدْرها وبذائها ، وجهلها وتسرّعها ، ونتْنها وقذرها ، وما جاء فى الآثار من النهْى عن اتخاذها وإمساكها ومن الأمر بقتلها وطرْدها ، ومن كثرة جناياتها وقلة ودّها ، ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها ، وقبحها وقبح ملازمتها ، ومن سماجة نُباحها وكثرة أذاها ، وتقذّر المسلمين

---

(١) الحيوان ١ / ٢٢٢ .

من دنوّها وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها كالخلق المركب، والحيوان الملفق: كالبغل فى الدوابّ وكالراعىّ فى الحمام، وأنها لا سبع ولا بهيمة، ولا إنسية ولا جنّية، وأنها من الجنّ دون الجنّ، وأنها مطايا الجنّ ونوع من المسخ وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى؛ وأنها يعتريها الكَلَبُ من أكل لحوم الناس. فإذا حكينا ذلك حكينا قول مَنْ عَدَّد محاسنها، وصنّف مناقبها: وأخذنا فى ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها، وتفدية الرجال إيّاها، واستهتارهم بها، وذكر كَسْبها وحراستها، ووفائها وإلفها وجميع منافعها، والمرافق التى فيها، وما أودِعتْ من المعرفة الصحيحة، والفِطَن العجيبة، والحِسّ اللطيف، والأدب المحمود. وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم؛ وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصَبْرها؛ ومعرفتها بحقوق الكرام، وإهانتها اللئام، وذكر صبرها على الجَفَاء، واحتمالها للجوع، وذكر ذمامها وشدة مَنْعها معاقد الذّمار منها، وذكر يقظتها وقلة غفلتها، وبُعْد أصواتها، وكثرة نسلها وسرعة قبولها... مع اختلاف طبائع ذكورها... وتردّدها فى أصناف السباع، وسلامتها من أعراق البهائم، وذكر لغتها وحكايتها، وجودة ثقافتها ومَهْنها وخِدْمتها، وجِدّها ولِعْبها فى جميع أمورها، بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة، وبالكتب المنزلة، والأمثال السائرة، وعن تجربة الناس لها وفِراستهم فيها، وما عاينوا منها، وكيف قال أصحاب الفأل فيها وأخبار المتطيرين عنها، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها، وعدد جِرائها، ومدة حملها وعن سِماتها وشياتها، وعن دوائها وأدوائها وسياستها، وعن اللاتى لا تَلْقَحُ منها، وعن أعراقها والخارجىّ منها، وعن أصول مواليدها ومخارج بُلْدانها».

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التى تُذَمُّ بها الكلاب، فيذكرها على لسان صاحب الديك وينقضها على لسان صاحب الكلب، ثم يأتى بمحاسنها ومحاولات صاحب الديك فى نقضها، وفى أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآى القرآن والحديث ومعارف العرب، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادرهم ونوادر اليونان. مع الرجوع دائمًا إلى التجربة. وهو فى تضاعيف ذلك سنطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضًا من عادات العرب . والمناظرة فى رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يُرَى فى قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم فى منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزليين اسمان اختارهما الجاحظ ليقيم مناظرته ، أما فى حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التى تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد فى حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والفيل[1] ، فدائمًا الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجّن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رصداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذى أهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولى ، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، فى كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلا وفى كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته ورَدّ صاحب الكلب عليه ، وهى تجرى على هذه الصورة[2] :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللصُّ بالنهار كِسْرةَ خُبْزٍ خَلاَّه ، ودار حوله ليلا ، فهو فى هذا الوجه مُرْتَشٍ وآكلُ سُحْتٍ ، وهو مع ذلك أسمجُ الخلق صَوْتًا ، وأحمق الخلق يقظة ونومًا ، ينام النهار كله على نفس الجادّة (الطريق) وعلى مَدَقّ الحوافر ، وفى كل سُوق وملتقى طريق . . . وقد سَهِرَ الليل كله بالصياح والصخَب ، والنَّصَب والتعب ، والغيظ والغضب ، وبالمجىء والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وَطِئته دابة فأسوأ الخلق جزَعًا ، وألأمه لؤمًا ، وأكثره نُباحًا وعُواءً ، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وَطِئه إنسان فليست تتم له السلامة ، لأنه فى حالِ متوقعٍ للبليّة ، ومتوقعُ البليّة فى بليّة : فإن سلم فليس على ظهرها مبتلًى أسوأ حالا منه ، لأنه أسوأهم جزعًا وأقلهم صبراً ، لأنه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الخالية له معرَّضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلَّ خُلُق فارق أخلاق الناس فإنه

---

(١) الحيوان ٧ / ١٩٣ .

(٢) الحيوان ١ / ٢٨٢ وما بعدها .

من دنوّها وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها كالخَلْق المركب ، والحيوان الملفق : كالبغل فى الدوابّ وكالراعبىّ فى الحمام ، وأنها لا سبع ولا بهيمة ، ولا إنسية ولا جنّية ، وأنها من الجِنّ دون الجِنّ ، وأنها مطايا الجِنّ ونوع من المسْخ وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى ، وأنها يعتريها الكَلَبُ من أكل لحوم الناس . فإذا حكينا ذلك حكينا قول مَنْ عَدَّد محاسنها ، وصنّف مناقبها ، وأخذنا فى ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها ، وتفدية الرجال إيّاها ، واستهتارهم بها ، وذكر كَسْبها وحراستها ، ووفائها وإلفها وجميع منافعها ، والمرافق التى فيها ، وما أودِعتْ من المعرفة الصحيحة ، والفِطَن العجيبة ، والحِسّ اللطيف ، والأدب المحمود . وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم ، وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها ، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصَبْرها ، ومعرفتها بحقوق الكرام ، وإهانتها اللئام ، وذكر صبرها على الجَفَاء ، واحتمالها للجوع ، وذكر ذمامها وشدة مَنْعها معاقد الذّمار منها ، وذكر يقظتها وقلة غفلتها ، وبُعْد أصواتها ، وكثرة نسلها وسرعة قبولها . . . مع اختلاف طبائع ذكورها . . . وتردّدها فى أصناف السباع ، وسلامتها من أعراق البهائم ، وذكر لغتها وحكايتها ، وجودة ثقافتها ومَهْنتها وخِدْمتها ، وجِدّها ولعْبها فى جميع أمورها ، بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة ، وبالكتب المنزلة ، والأمثال السائرة ، وعن تجربة الناس لها وفِراستهم فيها ، وما عاينوا منها ، وكيف قال أصحاب الفأل فيها وأخبار المتطيرين عنها ، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها ، وعدد جِرائها ، ومدة حملها وعن سِماتها وشياتها ، وعن دوائها وأدوائها وسياستها ، وعن اللاتى لا تَلْقَحُ منها ، وعن أعراقها والخارجىّ منها ، وعن أصول مواليدها ومخارج بُلْدانها » .

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التى تُذَمُّ بها الكلاب، فيذكرها على لسان صاحب الديك وينقضها على لسان صاحب الكلب، ثم يأتى بمحاسنها ومحاولات صاحب الديك فى نقضها، وفى أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآى القرآن والحديث ومعارف العرب، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادرهم ونوادر اليونان. مع الرجوع دائمًا إلى التجربة. وهو فى تضاعيف ذلك ستطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضًا من عادات العرب . والمناظرة فى رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يُرَى فى قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم فى منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزليين اسمان اختارهما الجاحظ ليقيم مناظرته ، أما فى حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التى تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد فى حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والفيل[1] ، فدائمًا الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجّن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رصداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذى أهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولى ، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، فى كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلا وفى كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته ورَدّ صاحب الكلب عليه ، وهى تجرى على هذه الصورة[2] :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللصُّ بالنهار كِسْرةَ خُبْزٍ خلاَّه ، ودار حوله ليلا ، فهو فى هذا الوجه مُرْتَشٍ وآكلُ سُحْتٍ ، وهو مع ذلك أسمجُ الخلق صَوْتًا ، وأحمق الخلق يقظة ونومًا ، ينام النهار كله على نفس الجادَّة (الطريق) وعلى مَدَقِّ الحوافر ، وفى كل سُوق وملتقى طريق . . . وقد سَهِرَ الليل كله بالصياح والصخَب ، والنَّصَب والتعب ، والغيظ والغضب ، وبالمجىء والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وَطِئتْه دابة فأسوأ الخلق جزَعًا ، وألأمه لؤمًا ، وأكثره نُباحًا وعُواءً ، فإن سلم لم تطأه دابة ولا وَطِئه إنسان فليست تتم له السلامة ، لأنه فى حال متوقع للبليَّة ، ومتوقعُ البليَّة فى بليَّة : فإن سلم فليس على ظهرها مبتلًى أسوأ حالا منه ، لأنه أسوأهم جزعًا وأقلهم صبراً ، لأنه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الخالية له معرَّضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلَّ خُلُق فارق أخلاق الناس فإنه

---

(١) الحيوان ٧ / ١٩٣ .

(٢) الحيوان ١ / ٢٨٢ وما بعدها .

مذموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا . قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلة ملوكية لقلنا . ولو كان خلاف ذلك ألذَّ لكانت الملوك بذلك أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية ، وعيبتموه به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلمُ بشأنه ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكُتَّاب من رَضِّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائماً فى طريق خال ليس بحضرته رجالٌ يُهابون ؛ ولا مشيخة يرحمون ويزجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتريه فى جوامع الأسواق لقلَّ خلافه عليك ولما رَقَدَ فى الأسواق . وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحُرَّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها ، وبَعْدُ فمن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباعَ أخلاقَ الناس وعاداتِ البهائم ؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتَسْرَحُ وتلتمس المعيشة ليلا ، لأنها تبصر بالليل . . . أما تركه الاعتراض على اللصِّ الذى أطعمه أيامًا ، وأحسن إليه مراراً ، فإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له . فإذا كان عهده ببرِّ اللصِّ أحدث من عهده ببرِّ أهله لم يكلَّف الكلب النظر فى العواقب وموازنة الأمور . والذى أضمر اللص من البَيَّات غَيبٌ قد سُتِر عنه ، وهو لا يدرى أجاء ليأخذ أم جاء ليعطىَ . . . ولعل أهله أيضًا أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضَّرْب والإجاعة ، وبالسبِّ والإهانة . وأما سماجة الصوت فالبغل أسمجُ صوتاً منه ، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به . وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من القمارىِّ والدَّباسىِّ وأصناف الشفانين (ضرب من العصافير) فأما الأسد والذئب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك ، وإنما لك أن تذم الكلب فى الشىء الذى لا يعمّ . . . وربما كان من الناس — بل كثيراً ما تجده — مَنْ صوته أقبح من صوت الكلب ، فلِمَ تَخُصُّون الكلب بشىء عامةُ الخلق فيه أسوأ حالا من الكلب . وأما عُواؤه من وَطْء النداية وسوء جزعه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عَذَبَة (طرف) السوط أسوأ من جزعه » .

٦٠٠

وواضح كيف أن صاحب الديك ثلبَ الكلب مثالب مختلفة فى وفائه لأصحابه وفى غلظ صوته وفى نومه بالنهار على الطرق وفى الأسواق ، وفى كثرة نباحه وعُوائه حين تطؤه دابّة . ويَنْقُضُ صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين ، وفى الأماكن الجامعة لما يلقى من السفهاء والصبيان ، حتى يزجرهم الناس ، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد فى الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة ، وهذا طبيعى لأن الأسواق دورها ومنازلها . أما أنه لا يفى لأصحابه حين يُلْقَى له لِصّ بكسرة خبز ، فإن محاسبته على ذلك لإحسانهم إليه ، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم ، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله ، ولا يدرى أجاء ليأخذ أوجاء ليعطى ، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة . وسماجة صوته ليست مثلبة ، فالبغل أسمج صوتاً منه ، وكذلك الطاووس الجميل المنظر ، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم . وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته فى القبح درجات عن صوت الكلب ، وذلك لا يعيبهم . أما جزعه من وطء والدوابّ ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه . وهكذا تسقط جميع المثالب التى وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها فى يده شىء . وهى براعة فائقة فى الحوار وفى الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتيال له بالعقل الثاقب ، مع التأنى والتمكين للحجج ؛ وهى توضع فى صورة أدبية بديعة ؛ هى صورة الأسلوب المزدوج الذى تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتعادل إيقاعاتها تعادلا محكماً . وتمتد المناظرة فى الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ فى الجزء الأول من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثانى فتشغل بذلك مجلداً ضخماً ، ثم تبدأ المناظرة فى مساوئ الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثانى . ومما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل فى الفجر وغير الفجر ، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذى يرصد الفلك ومنازل القمر ، ويردُّ عليه صاحب الكلب هذه المحمدة ، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه فى الأسحار ، يقول[1] :

---

(١) الحيوان ٢ / ٢٥٥ وما بعدها .

« لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل فى الجهل يقوم فى الصباح وفى ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولا ومذهبًا غير مردود ، ولو أن متفقداً تفقد ذلك من الحمار لوجده منظومًا يتبع بعضه بعضًا على عدد معلوم ، ولوجد ذلك مقسومًا على ساعات الليل ، ولكان لقائل أن يقول فى نهيق الحمار فى ذلك الوقت : ليس تجاوباً إنما ذلك شىء يستَوافى معًا ، لاستواء العلة ، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار . . . والحمار أجهل الخلق . فليس ينبغى للديك أن يُتَمَضَّى له بالمعرفة ، والحمار قد ساواه فى يسير علمه » .

وعلى هذا النحو لايَدْلى صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه صاحب الكلب نقضا، وبالمثل ينقض صاحب الديك محامد الكلب. ويشتد الحوار بين المتناظرين، ونُصْبح وكأننا بإزاء بانيين لحصون من الأدلة والبراهين لاتلبث حين تقوم أن تنقضّ. وكما قلنا ليس البانيان والناقضان سوى الجاحظ نفسه، فهو الذى أقام تلك المناظرة التى ظاهرُها كلب وديك وباطنها عرب وشعوبية، وكان يتعصب للعروبة فى أعماقه، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامّه ومثالبه ويُضْفى عليه كثيرًا من المحامد والمحاسن فى حماسة بالغة.

وهذا لون من ألوان أدبه . ولون ثان هو رسائله الإخوانية ، وهى تموج بطُرف فكره وبلاغته ، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلوَّن له وتنكَّر فترةً إذ أحسَّ انشغاله عنه ، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية [1] :

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سَرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجَّح فى قلبك إيثار الأناة (الحلم) فقد خفتُ — أيَّدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإنَّ امْرَأً أمْسَى وأصبح سالماً من الناسِ إلا ماجَنَى لَسَعيدُ

وقال الآخر :

ومَنْ دَعَا الناسَ إلى ذَمِّهِ ذَمّوه بالحق وبالباطلِ

---

(١) زهر الآداب ٢/١٠٨ .

فإن كنتُ اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعَفْوُ المتتابع يُؤْمن من المكافأة (المجازاة) ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك : أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى — أيَّدك الله — لحُرْمة ، فهَبْه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلاَّ تفعلْ ذلك لذلك فَعُدْ لحسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فَأْتِ ما أنت أهله من العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان مَنْ جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المُصِرِّ ، حتى إذا صرتَ إلى مَنْ هفوته بِكْرٌ (أولى) وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا الإنعام إلا منك هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم — أيَّدك الله — أن شَيْن غضبك علىَّ كزَيْن صَفْحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سَبَبِى منك ، كحياة ذكرى مع اتصالى سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام » .

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية ، ففيها شعر وخبر ، وفيها المهارة العقلية على التدليل واستنباط الأفكار ، فابن الزيات هو الذى طال تغافله عن الجاحظ ويشبِّه التغافل بالإهمال ضرباً من القياس ليصل إلى إغفاله له ، ويسوق دليلا ملزماً ، فهو دائماً يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل المعفوَّ عنه آمناً من المجازاة وأن يصاب بسوء . ثم مضى يُلْزمه الرضا عنه ، بمنازل متعددة منه ، إما لمنزلة حرمته منه ، وإما لما تتابع عليه من أياديه ، والنعمة تشفع فى النقمة ، برهاناً ساطعاً ، وإما لحسن العادة ، وإما لحسن الأحدوثة ، وإما لأنه أهل للعفو عن المستحقين للعقوبة من أمثاله . ويتلطَّف له قائلا إنه أول ذنب لى وليس ذنبى إلا النسيان ، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإنعام إلا منك . فماذا يملك ابن الزيات إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام ؟ وتتقابل عبارات الرسالة فى صفوف ، وكأن كل كلمة فى عبارة سابقة تجذب قرينتها فى العبارة اللاحقة ، دون محاولة لسجع أو نغم متماثل فى نهايات الجمل المتلاحقة ، وهكذا الجاحظ دائماً يكتفى بجمال التوازن العام فى أسلوبه المزدوج. وانظر إلى التوازن الدقيق فى العبارات الأخيرة من الرسالة ، « فشين غضبك » توازن « زين صفحك » ، و« موت ذكرى

مع انقطاع سببى» توازن «حياة ذكرى مع اتصال سببى». وتكاملُ مثل هذا التوازن فى أسلوبه يتيح له وفرة فى النغم، مع ما يتسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة.

ولون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية، وهى تُعَدُّ بالعشرات، ويكفى أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمغنين غير ماله من رسائل فى حجج النبوة واستحقاق الإمامة وخَلْق القرآن. وكثير منها مكتوب بأسلوب الجدل والمناظرة، إن لم نقل إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفى بعرض رسالة منها ولتكن رسالته[1] فى فخر السودان على البيضان، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة فى شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذى قتله الحجاج وبلال الحبشى والمقداد الصحابى الجليل أول مَنْ عَدَا به فرسه فى الإسلام، ومثل مكحول الفقيه والحَيْقطان الشاعر الذى يفتخر بقومه، ويذكر قصيدة له تحتج بها العجم والحبش على العرب، ويشرح أبياتها، ومثل سُنَيْح بن رباح المعاصر لجرير ويَرْوى قصيدته فى الفخر بالزنج، ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنترة الفوارس. ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقيال (تابعة) حمير، ويذكر مشاركتهم فى بعض الأحداث والحركات السياسية فى العصرين الأموى والعباسى، ثم يقول:

«الناس مجمعون على أنه ليس فى الأرض أمة السخاءُ فيها أعم وعليها أغلب من الزنج ... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم. وليس فى الأرض أحسن حُلُوقاً منهم، وليس فى الأرض أخف على اللسان من لغتهم، ولا فى الأرض قوم أذرب (أفصح) ألسنة، ولا أقل تمطيطاً منهم ... والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بلَفْتة ولا بسَكْتة حتى يفرغ من كلامه. وليس فى الأرض أمة فى شدة الأبدان وقوة الأسْر أعم منهم فيهما، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذى تعجز عنه

(١) انظر الرسالة فى مجموعة رسائل الجاحظ.
(نشر مكتبة الخانجى) ١ / ١٧٧ - ٢٢٦.

الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هى خصال الشرف . والزنجى مع حسن الخُلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحوك السنّ حسن الظنّ ، وهذا هو الشرف » .

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالبة أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولا . ويقول لخصومهم إنكم أقررتم لهم بالسخاء وادعيتم عليهم ما لا يُعْرَفُ من ضعف العقل ، ولوكان هذا القياس صحيحًا لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشى الذى أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم :

« ونحن أهولُ فى الصدور وأملأ للعيون ... كما أن الليل أهولُ من النهار . . . ودُهْمَ الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السودَ أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى ، والحُمُرَ (ج حمار) السودَ أثمن وأحسن وأقوى ، وسودَ الشّاءِ أدْسَمُ ألبانًا وأكثر زبداً . . . وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، وأشد يبوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شيء ، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سُودَ الجذوع ... وأحسن الخضرة ما ضارع السواد ، قال الله عز وجل : (ومن دونهما جَنَّتان) ثم قال لما وصفهما وشوّق إليهما : (مُدْهامَّتان) قال ابن عباس : خضراوان من الرىّ سوداوان ، وليس فى الأرض عودٌ أحسن خشبًا ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً . . . ولا أجدر أن ينشب فيه الخَطّ من الآبنوس . . . والإنسان أحسن ما يكون فى العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم فى الجنة ، وأكرم ما فى الإنسان حدقتاه وهما سوداوان ، وأكرم الكحل الإثْمِد ، وهو أسود . . . وأنفع ما فى الإنسان له كبده » .

ونحس كأن الكلام سيول تتدافع ، وهى سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها محصية إحصاء دقيقًا مواقعه فى الطبيعة وفى الحيوان وفى الجماد وفى الثمار والأشجار وفى الزروع والأعواد والأخشاب وفى الإنسان وفى الجنة ونعيمها الخالد . وكل ذلك

يسوّى فى أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للآذان والأسماع . ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدة والصلابة والصرامة ، وأنه لا يوجد لون أرسخ فى جوهره من السواد ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من سادتهم سوداً دهماً . ويتحدث عن كثرة عدد الزنج ، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات . ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام . ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تشويهاً لخلقهم ، وإنما فعلت بهم ذلك البيئة ، ويسلك فيهم من العرب بنى سُليم بن منصور وكل من نزل الحرّة لسريان السواد فيهم ، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحرّة (حرّة بنى سليم) أن ظباءها ونعامها ، وهوامّها وذبابها ، وثعالبها وشاءها ، وحميرها وخيلها ، وطيرها ، كلها سود .

ونحس فى حرارة دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صحّ أن جده كان عبداً أسود . وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان فى عصره ، وكأنما أصبح لهم شىء من الخطر فى الحياة الاجتماعية العباسية ، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع .

ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصى ، إذ كان بارعاً فى تصوير الشخصيات والنفوس ، ولو أنه عرف الأدب التمثيلى لأسعفته ملكته فى المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو بحق لا يبارَى فى وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ، ومن خير ما يصوّر هذه النزعة القصصية عنده أقصوصته فى كتابه الحيوان عن « القاضى والذباب » وهى تجرى على هذه الصورة الرائعة [1] :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوّار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زميتاً [2] ولا ركيناً [3] ، ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك . كان يصلّى الغداة [4] فى منزله ، وهو قريب

---

(١) الحيوان ٣ / ٣٤٣ .

(٢) زميتا : وقوراً .

(٣) ركينا : رزينا .

(٤) الغداة : صلاة الضحى النافلة .

٦٠٦

الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه ، فيَحتبى ، ولا يتكئ ، فلا يزال مُنتصباً ، لا يتحرّك له عضو ولا يلتفت ولا يحلّ حُبْوته[١] ، ولا يحوّل رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيْه ، حتى كأنه بناء مبنيٌّ أو صَخْرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه فى طِوال الأيام وفى قِصارها ، وفى صيفها وفى شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرّك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفى السماطين[٢] بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المُكْثَ ، ثم تحول إلى مُؤْق[٣] عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عَضّه ونفاذ خُرْطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرْنَبته[٤] أو يغضّن وجهه أو يذبّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جَفْنه الأعلى على جَفْنه الأسفل ، فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن وَالَى بين الإطباق والفتح ، فتنحىّ ريثما سَكَنَ جفنه ، ثم عاد إلى مُؤْقه بأشد من مرّته الأولى ، فغَمس خُرْطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى . فحرّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى فتح العين وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحّى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلِحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بُدًّا من أن يذبّ عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحّى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطَرف كُمّه ، ثم ألجأه ، إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضره من أمنائه وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألَجّ من الخُنْفُساء وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبتْه نفسُه ، فأراد الله عزّ وجلّ أن يعرّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمت أنى عند الناس من أزْمتِ

---

(١) يحتبى : من الحبوة ، وهى أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) السماطين ؛ مثنّى سماط وهو الصف .

(٣) المؤق : طرف العين مما يلى الأنف .

(٤) أرنبته : طرف أنفه .

الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإنْ يَسْلُبْهم الذُّبابُ شيئًا لا يَسْتنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ) .

والأقصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة ، أما الجزء الأول فيصف فيه الجاحظ وقار القاضى عبد الله بن سَوَّار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة — التى لم يبلغها أحد — على نفسه وحركته . وهى سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من الغداة حتى صلاة المغرب ، بل لكأنما أصبحت له فطرةً ثابتة ، فإذا هو يجلس مُحْتبيًا غير متكئ فى المسجد ، منتصبًا كأنه سارية أو عمود من أعمدته ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنة ولا يَسْرة ، ولا يغيِّر وضعًا له فى جلسته ، حتى لكأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة . ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا فى يوم من أيام السنة ، بل فى جميع أيامها طوالها وقصارها ، وشىء منه لا يتحرك ، لا رجل ولا يد ولا رأس ، حتى إذا اجتمع الناس له فى سماطين وعظهم وعظًا بليغاً . وهذا هو الجزء الاول فى القصة أو الأقصوصة ، ويليه جزء ثان يصور فيه الجاحظ إلحاح الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانة وهو يسترسل فى العظة ، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة ، ثم تأخذ قواه فى الوهن شيئاً فشيئاً ، والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصوراً أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف تحول من أنف القاضى إلى مؤقه ، والقاضى يستشعر وقاره صابراً صبراً عظيمًا على عَضِّ الذباب لمؤقه ونفاذ خرطومه فيه دون أن يُغْمض طرفه أو يغضّن وجهه أو يذبّه . ويظل على وقاره صابراً يوجعه الذباب ويحرقه ، حتى إذا نفد صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنحّ الذباب وظل فى إحراقه وإيجاعه ، فوالى بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره . وتنحّى الذباب قليلا ثم عاد بأشد مما كان ، لأن المكان كان قد وهى ، فكان احتماله له أضعف ، فحرَّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى تتابع الفتح والإطباق . فتنحى الذباب عن المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه ، وما زال يلحّ على القاضى حتى نفد صبره ، فذبَّ عن عينيه بيده وعيون الجالسين أمامه ترمقه . وتنحى عنه بقدر مارَدَّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه . حينئذ خرج عن وقاره المألوف إذ لم يجد بدًّا أن يذبَّ عن عينيه بطرف كمه . وعاوده مراراً ، وهو يتابع ذبَّه بطرف الكم . وننتقل مع الجاحظ إلى الجزء الثالث من الأقصوصة وفيه يصوّر تعلق أعين السامعين ،

الذين شهدوا المنظر بالقاضى ، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة . ويبدأ ببيان إلحاح الذباب ، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله ، ويصرّح بأن الذباب غلبه وقهره وفضحه ، وأنه لا يختلف فى ذلك عن بنى جنسه بشهادة الآية القرآنية الكريمة . والأقصوصة محبوكة حبكاً دقيقاً بما أودعها الحاحظ من دقائق التصوير والتفاصيل ، وكأنها مشهد نراه بأعيننا إذ نقله لنا بحذافيره نقلا واعياً ، أو قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شىء فى الرؤية الحسية ولا فى الرؤية النفسية .

ولون خامس فى كتابات الحاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نوادر ترويحاً عن نفس القارئ وتنشيطاً له ، على نحو ما صوّر ذلك بنفسه فيما أسلفنا من الحديث عن خصائصه ، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغيّر ولا تبدّل صورتها اللفظية ، سواء جرَتْ على ألسنة البَدْو أو ألسنة العامّة ، يقول(١) :

« ومتى سمعتَ — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولّدين والبلديين خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلَحة من مُلَح الحُشْوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخيّر لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يُفْسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدتْ له ، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها » .

وطبّق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً ، فالنادرة تُرْوَى بألفاظها كما نَدَّت من ألسنة أصحابها ، وإذا كان لفظها عامياً أو أعرابياً مسرفاً فى البداوة ظلت كما اجتُلبت دون أى تعديل ، فإنها إن عُدّلت مُسخت وأصبحت مشوّهة الخلق ، وفارقتها طبيعتها ، ولم تعد مضحكة . وتكثر النوادر فى البخلاء بل كل الكتاب نوادر إن صح هذا التعبير ، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع الفذة الفلسفية والكلامية ومحركاته من شعوبية وغير شعوبية وكثيراً من تقاليده ومطاعمه وملابسه ، فكل ما فى المجتمع البصرى من صور حياة يعرض عرضاً دقيقا بكل شياته وسماته . وله فى المعلمين كتاب ملأه بنوادرهم ، ونسوق له هذه النادرة التى صوّر فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم لملازمتهم الصبْية ، قال :

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

« كنت ألّفت كتابًا فى نوادر المعلمين وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمتُ على تقطيع الكتاب ، فدخلت يومًا قرية ، فوجدت فيها معلمًا فى هيئة حسنة ، فسلّمت عليه فردّ علىّ أحسن رَدّ ، ورحّب بى ، فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن ، فإذا هو ماهر ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوّى عزمى على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يومًا لزيارته وطرقت الباب ، فخرجت إلىّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيّدك . فدخلتْ وخرجتْ ، وقالت : باسم الله ! . فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس كئيبًا ، فقلت : عظّم الله أجرك (لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوة حسنة) ، (كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت) ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى . فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس ، فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت مَنْ لم ترَ ؟ فقال : اعلمْ أنى كنت جالسًا فى هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق (النافذة) إذ رأيت رجلا عليه بُرْدٌ (ثوب) وهو يقول :

يا أمَّ عمرٍو جزاك اللهُ مكرُمةً ... رُدِّى علىَّ فؤادى أينما كانا

لا تأخذين فؤادى تَلْعبين به ... فكيف يَلْعَبُ بالإنسان إنسانا

فقلتُ فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ماقيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه ، وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمرٍو ... فلا رجَعتْ ولا رَجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنتُ عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست فى الدار ، فقلت : يا هذا : إنى كنت ألفت كتابًا فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قوّيتَ عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله » .

٢٣٧

مكتبة الدراسات الأدبية

١٩

الفنّ ومذاهبه

فى النثر العربىّ

تأليف

الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الرابعة عشرة

دار المعارف

٣٣٨

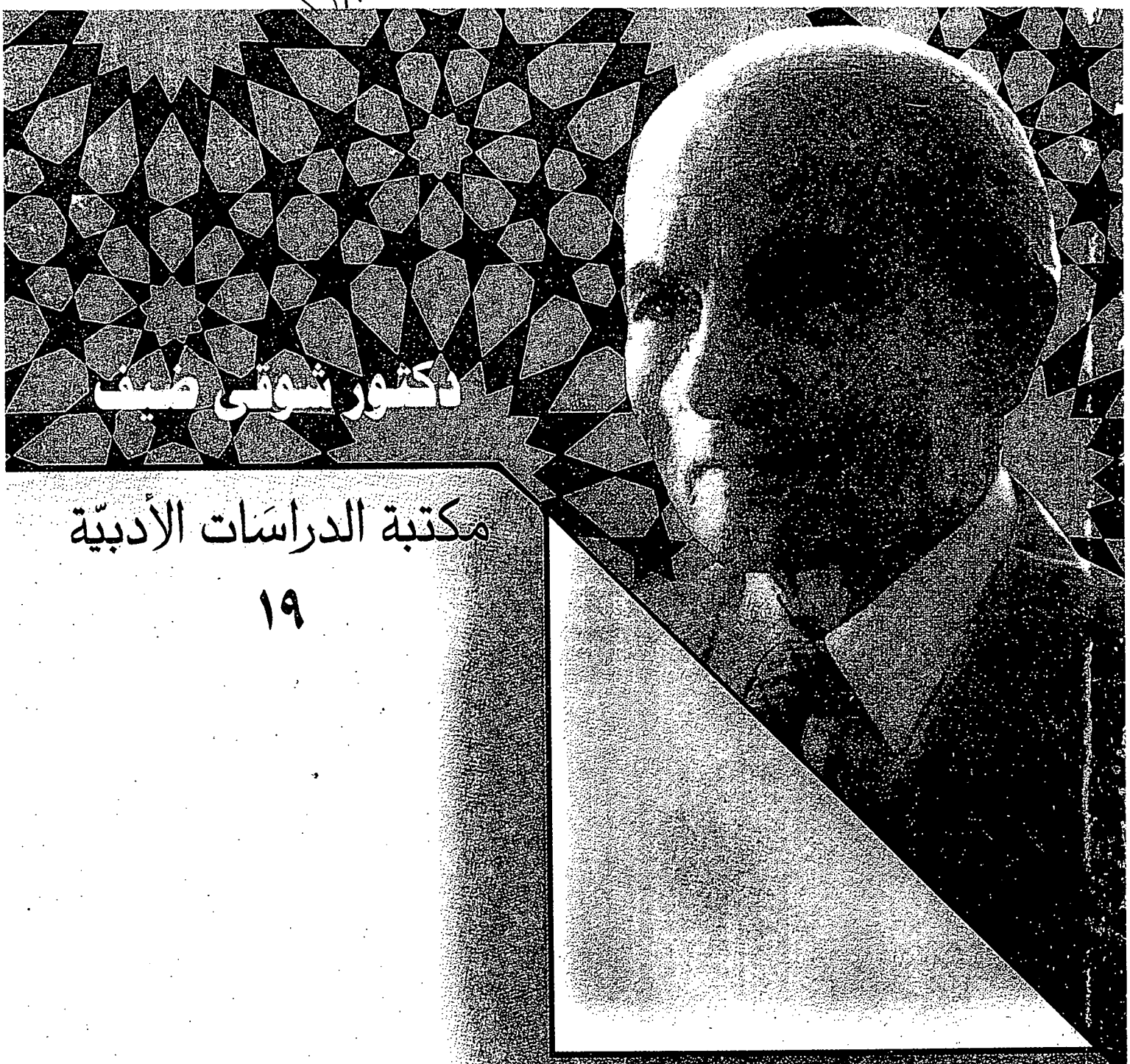

دكتور شوقي ضيف

مكتبة الدراسات الأدبيّة

١٩

الفن ومذاهبه

في النثر العربيّ

الطبعة الأصلية

دار المعارف

وقد لبى الدعوة البيرونى والخمار والعرّاق ، ورفضها ابن سينا وأبو سهل المسيحى . وغير محمود الغزنوى من ملوك السامانيين الذين سبقوا دولته وماوك البويهيين والزياريين والخوارزميين كانوا يعنون هذه العناية بحشد العلماء والأدباء فى بلاطهم وحول قصورهم ، وكان ذلك كله مبعث نهضة أدبية لا تغلو إذا قلنا إنها — من وجهة الكتابة والصناعة الديوانية — تعلو على كل نهضة سبقتها فى هذا الجانب ، وتتفوق على كل حركة تقدمتها ، إذ أترف الذوق الكتابى لهذا العصر بسبب ترف الملوك والأمراء الذين كانوا يقومون عليه ، وأصبحنا نجد أساس البلاغة أن تكون حلية وزينة ، فهى تستخدم استخداماً زخرفياً ، تستخدم كأداة من أدوات الترف والزينة ، وكل أمير يفخر بما حصل عليه من هذه الأدوات والطُّرَف الزخرفية . وبذلك يصل مذهب التصنيع إلى الغاية التى كان يَرْنُو إليها منذ القرن الثانى ، وهى غاية كلها زخرف وتصنيع ، وسنقف قليلا عند أهم كاتب أثر فى هذا الجانب ، وهو ابن العميد كاتب البويهيين ، فهو يعتبر أستاذ المذهب الذى خطا به نحو هذه الغاية من التجميل والزينة ، وعلى مثاله كان يَحْتذى الكتّاب فى عصره وبعد عصره .

٤

ابن العميد : حياته وثقافته

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، وهو فارسى من مدينة قُم [1] ، وهى مدينة شيعية ، ولذلك لا نعجب إذا رأيناه شيعياً على مذهب الإمامية . وقد نشأ فى بيت أدب وكتابة ، إذ كان أبوه كاتباً لما كان بن كاكى ، ولما قتله السامانيون فى بعض مواقعهم معه أخذوا كاتبه أبا عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكلّة والد صاحب الترجمة أسيراً معهم ، ثم أفرجوا عنه وأكرموه ، ورتبوه فى الدار

(١) انظر فيها معجم البلدان لياقوت .

السلطانية ، وسرعان ما تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ولُقِّبَ الشيخ كالعادة فيمن يلى ذلك الديوان كما لقب بالعميد ، ويقول أبو إسحق الصابى فى كتابه التاجى : إن رسائل العميد لا تقصر فى البلاغة عن رسائل ابنه أبى الفضل ابن العميد[١] . ويظهر أن العميد لم يأخذ ابنه معه إلى بلاط السامانيين ، بل تركه فى رحاب البويهيين . يقول صاحب اليتيمة : « ولم يزل أبو الفضل فى حياة أبيه وبعد وفاته بالرىّ وكُوَرِ الجبل وفارس يتدرج إلى المعالى ويزداد على الأيام فضلا وبراعة حتى بلغ ما بلغ واستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل »[٢] . وكان تقلده هذه الوزارة عام ٣٢٨ هـ وظل يتقلدها إلى وفاته عام ٣٦٠ هـ .

ولسنا نعرف شيئاً ذا قيمة عن أساتذة ابن العميد سوى ما عرفناه عن أبيه ، ثم ما ذكره صاحب الفهرست عن أستاذ له يسمى محمد بن على بن سعيد المعروف باسم سمكة[٣] ، وقد سماه صاحب اليتيمة ابن سمكة[٤] ، ويقول صاحب الفهرست إن له كتاباً فى أخبار العباسيين[٥] . على كل حال ليس بين أيدينا ما يدل دلالة واضحة على المنابع الثقافية التى نهل منها ابن العميد ، غير أننا لا نتابعه فى آثاره وفى حياته أثناء وزارته حتى نجده يلم بجميع ضروب الثقافة لعصره ، ولعله من أجل ذلك سمى باسم الجاحظ الثانى[٦] ، وألمع مسكويه قَيِّم دار كتبه فى كتابه (تجارب الأمم) إلى ثقافته فقال : إنه « أكتبُ أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام ، فأما القرآن وحفظُ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه فى أرفع درجة وأعلى رتبة » . ويقول

---

(١) اليتيمة طبع الصاوى ٣/١٣٨ .
(٢) اليتيمة ٣/١٣٩ .
(٣) الفهرست لابن النديم (طبع مصر) ص ٢٠٠ .
(٤) اليتيمة ٣/١٤٣ .
(٥) الفهرست ص ٢٠٠ .
(٦) وفيات الأعيان ٢/٥٧ .

مسكويه : « أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جَسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قَصْد التعلم » . ويروى مسكويه أن أبا الحسن العامرى الفيلسوف النيسابورى قصد إليه ، وقرأ عليه عدة كتب مستغلقة من كتب الفلسفة ، وليس هذا كل ما ذكره مسكويه عن ثقافة ابن العميد ، بل إنه يقول أيضاً : « كان ابن العميد يختص بغرائب من العلوم الغامضة التى لا يدعيها أحد كعلوم الحِيل (الميكانيكا) التى يُحْتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الثقيل ، ومعرفة مركز الأثقال ، وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل »[1] . وأكبر الظن أن هذا الإتساع فى الثقافة الفلسفية وما يتصل بها من علوم الطبيعة والهندسة والحيل هى التى جعلت الرازى يتقدم إليه بتفسيره للمقالة العاشرة فى أصول الهندسة من كتاب إقليدس بعد أن نسقها وجوّدها[2] وأكبر الشعراء فى ابن العميد هذا الجانب كما أكبروا فيه بلاغته وفصاحته ، وقد عبّر عن ذلك المتنبى تعبيراً بديعاً فى قصيدتيه الرائية والدالية ، ومن قوله فى الأولى :

مَنْ مبلغُ الأعرابِ أنى بعدهم ... شاهدتُ رَسْطاليسَ والإسكندرا

وسمعت بطليموس دارس كُتْبِهِ ... متملِّكاً ، مُتبدِّياً ، متحضرا

ولقيتُ كلَّ الفاضلين كأنما ... ردَّ الإلهُ نفوسَهم والأعصُرا

ويقول فى الثانية :

عربىٌّ لسانُه ، فلسفىٌّ رأيُه ، ... فارسيةٌ أعيادُه

خلق الله أفصح الناس طُرّاً ... فى بلادٍ أعرابُه أكرادُه

وهذا كله يؤكد أن ابن العميد أتاح لنفسه ثقافة واسعة . وكما عمل على تثقيف نفسه عمل أيضاً كل ما يستطيع فى خدمة ركن الدولة ثم ابنه عضد الدولة ، كان يقود الجيوش بنفسه ، واستطاع بمقدرته أن ينشر نفوذ عضد

---

(١) انظر فى هذه النصوص فصلا طويلا كتبه مسكويه عن ابن العميد فى كتابه تجارب الأمم الجزء الثانى من ص ٢٧١ — ٢٨٢ .

(٢) الفهرست ص ٣٧٢ .

الدولة على بغداد والعراق . وقد خرج فى أواخر حياته على رأس جيش لقتال الزعيم الكردى حسنويه ، ولكنه توفى فى الطريق فى صفر عام ٣٦٠هـ[١] . وقد نيّف عمره على ستين سنة[٢] .

٥

تصنيع ابن العميد

وهذا الوزير المثقف ثقافة واسعة يُعَدُّ أستاذ عصره فى فن التصنيع ، وقد أقرّ له ببراعته وفصاحته وامتيازه فى كتابته كل من تصدّوا لترجمته ، يقول صاحب اليتيمة : « هو عين المشرق ولسان الجبل ، وعماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر فى الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضرب فى الآداب بالسهام الفائزة ، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدْعَى الجاحظ الأخير ، والأستاذ والرئيس ، ويضرب به المثل فى البلاغة ، وينتهى إليه فى الإشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها ، إلى براعة المعانى ونفاستها ، وما أحسن وأصدق ما قال له الصاحب وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها : بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد ، وكان يقال : بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد »[٣] . وفى هذه الفقرة ما يدل دلالة واضحة على مدى ما وصل إليه ابن العميد فى عصره من مكانة أدبية ممتازة ، وهى مكانة لم يأخذها عن طريق مركزه السياسى ، وإنما أخذها عن طريق فنه الخالص إن كان ينحو نحواً بديعاً من التصنيع والزخرف فى كتابه ، وقد مر بنا فى غير هذا الموضع أن الكتاب اصطلحوا منذ عصر المقتدر على أن يعمموا السجع فى كل ما يكتبون ، واستمر ذلك من بعدهم ،

---

(١) انظر ترجمة ابن العميد فى دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ، المجلد الأول ص ٢٤٤ .

(٢) تاريخ ابن الأثير (طبع أوربا) ٤٤٦/٨

(٣) اليتيمة ١٣٧/٣ .

٢٠٩

وكان ابن العميد يسجع فى كتابته ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده، إنما الذى يلفتنا حقًّا هو أن مذهب التصنيع تماثل على يديه فى الصورة التى كانت تنتظره منذ القرن الثانى ، ونقصد صورة السجع من جهة والاحتكام إلى البديع فيما ينشئ الكاتب من جهة أخرى ؛ ومن أجل ذلك إذا قلنا : إن ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لم نُبعد ؛ لأنه أول كاتب — فيما نعرف — احتكم إلى السجع فى كتابته، كما احتكم إلى البديع من جناس وطباق وتصوير ، وقد هيأه لذلك أنه كان ذا عين تصويرية ، بل لقد كان ذا شغف بفن التصوير نفسه . يقول مسكويه : « لقد رأيته يتناول فى مجلسه الذى يخلو فيه بثقاته وأهل أنسته التفاحة وما يجرى مجراها، فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه ، وقد خطّها بظفره ، لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة ، وفى الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا تأتى له مثلها » . ولا شك فى أن هذه النزعة التصويرية فيه كان لها أثر مهم فى نثره ، إذ جعلته نثراً مصوَّراً يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم فى كتاباته ، كما جعلته يهتم بألوان البديع الأخرى من طباق وجناس وغيرهما ، وكأنه كان يحس بأن هذه الألوان جميعاً من تصوير وغير تصوير تقوم من نثره مقام الألوان الحسية من لوحة الرسام . وانظرْ إليه يكتب إلى ابن بليكا عنه استعصائه على ركن الدولة ، فيستهل رسالته على هذا النمط[1] :

« كتابى ، وأنا متأرجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حُرمة ، وتمتّ بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب حقًّا ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحديث غُلول[2] وخيانة ، وتتبعهما بآنف[3] خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحْبط أعمالك ، ويمحق كل ما يُرْعى لك . لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك أقدم رجلا لصدّك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك[4] واجتياحك ، وأثنى

(١) اليتيمة ٣/١٤٥ .
(٢) غلول : خيانة .
(٣) آنف : أشد .
(٤) الاصطلام : الاستئصال .

ثانية لاستبقائك واصطلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ، ضناً بالنعمة عندك ومنافسة فى الصنيعة لديك، وتأميلا لفيئتك [١] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغرُب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللبّ ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويُضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة فإلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك ، بما لم تحسبه أولياؤك فلا بدع أن تأتى من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت ، وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى فى الإبقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستيناء [٢] والمطاولة ما أمكن ، طمعاً فى إنابتك وتحكيماً لحسن الظن بك ، فلست أعدم فيما أظاهره من إعذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فإن يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظّك ويسدّدك » .

والرسالة كلها تمضى على هذا النحو من السجع والعناية بالبديع ، فكلها تحف من السجع وطرف من الجناس والطباق والتصوير ، فهى وشى خالص ، هى بديع وتطريز وترصيع ، إذ ما يزال ابن العميد يدمج وشى السجع فى وشى البديع من التصوير والطباق والجناس ، فإذا أساليبه وكأنها ثروة زخرفية هائلة ، وهل هناك عبارة فى هذه القطعة لم تُحلّ بلون من ألوان البديع ، وهو يضع هذه الألوان الرائعة على ألفاظه المسجعة فإذا هى تختال فى هذه المقدرة البديعة من الزخرف والتصنيع . وأكبر الظن أن ابن العميد قد تأثر فى صناعته بصناعة السجاد فى إقليمه ، فهو يعانى فى كل لفظة ما يعانيه صانع السجاد فى كل خيط ، ثم هو بعد ذلك يعنى بالوشى الذى تعبر عنه ألفاظه ، كما يعنى صانع السجاد بالوشى الذى تعبر عنه خيوطه . وعلى هذا النمط تحولت صناعة الكتابة عند ابن العميد إلى تطريز خالص ، وهو يختال على هذا التطريز

---

(١) الفيئة : الرجوع . (٢) الاستيناء : التأنى .

بحيل كثيرة ، ولم لا ؟ ألم يتعلم فن الحيل؟ وإذاً فلماذا لا يشفع فنه بكل ما يمكنه من حيل ، وقد استطاع أن يصل عن هذه الحيل إلى بِدْع طريف فى سجعه ، وذلك أنه كان يعمد إلى تقصير عباراته ، وهذا التقصير أو هذا القصر من أهم الفروق بين سجعه وسجع أصحاب الدواوين من قبله ، وقد نظرَ فرأى نفسه يضطر فى أحوال كثيرة إلى عبارات طويلة ، فكيف يوفق بين رغبته فى القصر وبين طول هذه العبارات ؟ لقد فكر طويلا فى هذه الصعوبة ، وسرعان ما هداه تفكيره إلى حيلة طريفة : هى أن يوازن بين كل لفظة وقرينتها فى العبارتين المتجاورتين ، وبذلك يرفع ما قد يحسه القارئ أو السامع من بعد الزمن فى موسيقى الجملتين ، وكأنى بابن العميد كان يعرف معرفة دقيقة أنه كلما طال الزمن الذى تنتظره الأذن فى سماع العبارات المسجوعة نقص التلاؤم الموسيقى . وهو لذلك يعمد كما ترى فى أول القطعة إلى السجع القصير الذى لا يأخذ من قارئه زمناً طويلا ، ولكن استمر فى القراءة تَرَهُ يضطر إلى الطول فى عباراته ، فماذا يصنع إزاء هذا الطول الذى يثقل على أذن سامعه؟ لقد وصل إلى حيلة طريفة من الموازنة بين العبارتين المتجاورتين موازنة تجعل ألفاظهما وكأنها جميعاً قد نُغِّمت وسجِّعت على نحو ما نرى فى مثل قوله : «فإنك تُدْلى بسابق حرمة ، وتمتّ بسالف خدمة» ، وقوله : « وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك » . وما من ريب فى أنها حيلة لطيفة تلك التى احتال بها ابن العميد على مثل هذه العبارات فإذا هى تصبح وكأنها قصيرة لما تكامل فيها من حلاوة الموسيقى . وما تلك الحلاوة إلا ما يتخذه من المعادلة بين ألفاظ عباراته معادلات تجعل فيها هذا الائتلاف الموسيقى الطريف ، فكل كلمة تتعادل مع قرينة لها فى الكلمة الأخرى وكأنما تطلبها لتعزف معها هذا العزف البديع الذى تمتاز به موسيقى ابن العميد . ولعل فى هذا ما يشهد بأن ابن العميد كان يصنِّع فى سجعه إلى أقصى حدود التصنيع التى يستطيعها وهو يحتال على ذلك بوشى البديع من جهة كما يحتال عليه بقصر الزمن فى سجعه من جهة أخرى ، فإن طال زمن العبارتين المسجوعتين قصره بهذه الحيلة

من إحداث المعادلات والموازنات بين ألفاظ العبارتين حتى لا تخرج الأذن من ألفاظ العبارة الأولى إلا وتحس براحة صوتية إزاء كل كلمة من كلمات العبارة الثانية لأنها تماثل قرينتها فى العبارة السابقة من الوجهة الصوتية تمام التماثل.

وهذه هى صورة التصنيع فى الكتابة الديوانية عند ابن العميد ؛ فهو يعمد إلى زخرف البديع يوشّى به لفظه ، وهو دائماً — كما تصوره يتيمة الثعالبى — يتخذ لفظاً مرصعاً بالسجع ، وإنه ليحتال فى تحسين سجعه والإكثار من وشى بديعه حيلا مختلفة ، أما سجعه فكان يحتال عليه بالقصر فإن كان طويلا قصره بما مرن عليه من المعادلة بين ألفاظه حتى لكأنها تتشابك تشابك توقيعات الراقصين ، وأما بديعه فإنه كان يكثر منه ، وكان ما يزال يحتال على اللفظة حتى يحمّلها وشى الطباق من جهة ووشى التصوير أو الجناس من جهة أخرى . ومن أجل هذه الحيل كلها وما اقترن بها من مهارة وتفنن كان ابن العميد زعيم مذهب التصنيع فى عصره غير مدافع ولا منازع ، ومع ذلك فسنقف عند الصاحب بن عباد تلميذه وخرّيجه لنرى هل استطاع أن يضيف من جديد إلى تصنيع أستاذه .

٦

الصاحب بن عباد وتصنيعه

هو كافى الكفاة إسماعيل بن عباد ، ولد فى إصطخر وقيل فى الطالقان بين قزوين وأبهر سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦ هـ وكان أبوه كاتب ركن الدولة وعضد الدولة البويهيين وكان شيعيًّا غير غال ، وتوفى فى السنة التى توفى فيها ابنه .

وابن عباد هو الوزير الثانى الذى لمع اسمه فى بلاط البويهيين ، وقد درس على أبيه وأخذ عنه مذهبه الدينى والسياسى ، وأخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوى المعروف وأكمل دراسته ببغداد . ولما عاد إلى وطنه فى الرّىّ خدم فى دواوين أبى الفضل ابن العميد ، ويظهر أنه أعجب به فقرّبه منه ، وما

لبث أن اختاره ليكون مربياً لمؤيد الدولة أخى عضد الدولة ، وكانت إقامة مؤيد الدولة بأصبهان فأقام معه فيها ولقب بالصاحب لصحبته له صغيراً . ولما تقلد شئون الدولة بعد أخيه عضد الدولة اتخذ الصاحب وزيراً له واستمر على وزارته حتى توفى ، فوزر من بعده لأخيه فخر الدولة ، وظل فى الوزارة حتى وافته منيته عام ٣٨٥ هـ . وقد قضى فى الوزارة نحو ثمانية عشر عاماً [١] ، ويقال إن أباه ألف كتاباً نصر فيه الاعتزال وكان محدثاً روى عنه ابنه وغيره [٢] ، ويظهر أن ابن عباد ورث هذه الجوانب فى أبيه ، فقد نشأ على الاعتزال [٣] كما نشأ على التشيع ومحبة العلم ، ويقال : إنه خرج يوماً — وهو وزير — متطلساً متحنكاً بزى أهل العلم لرواية الحديث وإملائه على الناس . وكما كان يولع بالحديث كان يولع باللغة ، وقد ألف فيها كتاب المحيط فى سبع مجلدات ، وله كتاب الإمامة يذكر فيه فضائل على بن أبى طالب ، وأيضاً رسالة صغيرة فى الكشف عن مساوئ المتنبى [٤] . وما من ريب فى أنه لو لم يشغل بالوزارة والكتابة لكان عالماً ممتازاً من علماء عصره ، ولعله من أجل ذلك كان يشجع على التأليف . كما كان يشجع على الشعر ، وكان يعجب بالكتابة الرفيعة ، ومدحه مكاتبةً الشريف الرضى وأبو إسحق الصابى « واحتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى وملك رقّ المعانى » [٥] . وحدّث ابن بابك قال : « سمعت الصاحب يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة شعر ، عربية وفارسية ، وقد أنفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقُصّاد » [٦] . وكان ينافسه فى هذه الحركة — على ما يظهر — سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، الذى فتح الثعالبى فى يتيمته فصلا لمُدّاحه من الشعراء ، وقد أنشأ داراً للعلم

---

(١) معجم الأدباء (طبع مصر) ٦/١٧١ .
(٢) نفس المصدر ٦/١٧٢ .
(٣) اليتيمة ٣/١٧٩ ومعجم الأدباء ٦/١٧٤ .
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٧٥ .
(٥) اليتيمة ٣/١٦٩ .
(٦) معجم الأدباء ٦/٢٦٣ .

فى الكرخ ببغداد، كل ذلك منافسة لإسماعيل بن عباد[١]. ويقول ابن خلكان عن تلقبه بلقب الصاحب، وهو « أول من لُقِّبَ بذلك اللقب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، وذكر الصابى فى كتاب التاجى أنه إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة ابن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به »[٢].

وقد كان الصاحب معجباً بفنه تياهاً به واستغل فيه هذا الجانب خصمه أبو حيان التوحيدى فثلبه أقبح ثلب[٣]، ومن ثلبه له ما يقصه من أن رجلا من أهل الشام « ورد إليه، فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُقْرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان ، قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى . وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن الرجل ، ورآه الصاحب ، فقال : تغمز حماراً لا يحسُّ »[٤]. ويقول التوحيدى أيضاً : إنه كان فى مجلسه شخص يسمى أبا طالب العلوى « وكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه ، وخبراً ينمقه ؛ ويرويه، يبلق عينيه، وينشر منخريه، ويُرِى أنه غُشِى عليه حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فإذا أفاق قيل ما أصابك ، ما عراك ، ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاى يروقنى ويونقنى حتى فارقنى لُبِّى وزايلنى عقلى وتراخت مفاصلى وتخاذلت عُرَى قلبى وذَهل ذهنى وحِيل بينى وبين رشدى، فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك وينتفش »[٥]. ويظهر أنه كان يسجع فى حديثه وكلامه ، ويقص الرواة طُرفاً له فى ذلك كثيرة[٦]. يقول أبو حيان : « وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقول ، عند الجد والهزل ، يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد ، قلت لابن المسيّبى : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عروة

---

(١) Nicholson, lit. Hist. of Arabs, p. 267.
(٢) وفيات الأعيان ١/٧٥ .
(٣) معجم الأدباء ٦/١٧٦ .
(٤) معجم الأدباء ٦/٢٥٨ .
(٥) معجم الأدباء ٦/٢٣٧ .
(٦) نفس المصدر ٦/٢١٣ .

الملك ويضطرب بها حبل الدولة ، ويُحتاج من أجلها إلى غُرْم ثقيل وكلفة صعبة وتجشم أمورٍ وركوب أهوال لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها »[1] . وكانوا يزعمون أن سجعة اضطرته إلى عزل قاضي مدينة قُم : فإنه قال يوماً : أيها القاضي بقم ثم حاول أن يكمل السجع فأعْنَته ذلك فقال : قد عزلناك ، فقم . ويبدو أن إغرامه بالسجع على هذا النحو كان قديماً فيه ، فقد روى الرواة عن ابن العميد أنه قال : « خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين . . فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا : كتابي هذا من النَّوبهار ، يوم السبت في نصف النهار »[2] .

ولعل أول ما يلاحظ فى سجع الصاحب أنه يمتاز بالخفة والعذوبة فهو فى لفظه أكثر صفاء وأكثر تنغيما من معاصريه من كتاب الدواوين ، واستمع إلى هذه الرسالة القصيرة التى كتب بها إلى أحد القضاة وقد وقف عليه فى الرى[3] :

« تحدثت الركاب بستين (أرْوَى) إلى بلدٍ خططتُ به خيامى

فكدتُ أطير من شوق إليها بقادمةٍ كقادمة الحمام

أفحقٌ ما قيل من أمر القادم ؟ أم ظنٌ كأماني الحالم ؟ لا والله ! بل هو درْك العِيان ، وإنه ونيل المنى سيان ، فمرحباً أيها القاضي براحلتك ورحلتك ، بل أهلا بك وبكافة أهلك ، وياسرعة ما فاح نسيم مَسْراك ، ووجدنا ريح يوسف من ريّاك ، فحيثُ المطيّ تنزل عُلَيّ برؤياك ، وتزج عليّ بلقياك ، ونُصّ على يوم الوصول نجعله عيداً مشرّفا ، ونتخذه موسماً ومعرّفاً ، وزُدّ الغلام ، أسرع من رجع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك الصبا فى عقال وأسْر :

سقى الله دارات مررتَ بأرضها فأدْنتك نحوى يا زيادُ بن عامر

أصائلُ قربٍ أرتجى أن أنالها بلُقياك قد زحزحن حرَّ الهواجر »

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٠٧ .

(٢) معجم الأدباء ٦/٢٢٠ .

(٣) اليتيمة ٣/٢٢٨ .

أرأيت إلى هذه الرسالة القصيرة وما فيها من عذوبة اللفظ وجمال النغم ؟ إن الصاحب حقًّا أستاذ ماهر من أساتذة فن التصنيع فى القرن الرابع ، وإنه ليتخذ فى هذا الفن جميع المفاتيح الموسيقية التى عثر عليها ابن العميد ، فهو من جهة يعنى بقصر سجعاته ، فإن طالت عادل بين ألفاظها معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القصر ، ثم هو من جهة أخرى يعنى بألوان البديع يحلّى بها جيد أساليبه ، وقد كان يعنى عناية خاصة بلونى التصوير والجناس ، ولعل ميله إلى الجناس هو الذى جعله يكثر فى رُقَع رسائله من الجناس الناقص . أما ميله إلى التصوير ، فقد جعله يبرع فى أوصاف الطبيعة حتى لتتحول جوانب من رسائله إلى ما يشبه الشعر المنظوم كقوله فى رسالة له : « كتابى هذا وقد أرخى الليل سُدوله ، وسحب الظلام ذيوله »[1] . وقوله فى أخرى يصف مجلس أنس : « قد قابلتنى شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقى ذماؤها ، وسامتنى أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكستها أبْرادها ، وحضرتنى نارنجات ككرات من سفن ذُهبت ، أو ثُدىّ أبكار خُلّقت »[2] . وهذا جانب واضح فى تصنيعه ، وقد استطاع به أن يطرف قراءه وسامعيه بضرب من الشعر المنثور الذى تمتلئ سجعاته بالرشاقة والخفة . وقد كان بهذا التصنيع وما يندمج فيه من وشى السجع والترصيع يأخذ مكانته فى عصره ، وهى مكانة جعلت أصحاب الإمارات الفارسية يحسدون أصحاب الرىّ والجبل من البويهيين عليه ، ويتمنون أن لو صار إليهم . روى الثعالبى أن نوح ابن منصور صاحب خراسان السامانى أرسل إليه رقعة يريده فيها على الانحياز إلى حضرته ، ليُلقى إليه مقاليد مملكته ، ويعتمد لوزارته ، فاعتذر له بأنه لا يستطيع الانتقال إليه لكثرة حاشيته وأثقاله ، وما لديه من كتب تحتاج فى نقلها إلى أربعمائة بعير[3] . وقد قالوا إنه لما توفى لقى من الإعظام والإكبار

---

(١) اليتيمة ٣/٢٢٧ .

(٢) اليتيمة ٣/٢٢٣ . وخلقت : من الخلوق وهو ضرب من الطيب .

(٣) اليتيمة ٣/١٧٣ وانظر معجم الأدباء ٦/٢٥٩ .

ما لم يلقه أحد من وزراء عصره ، فقد سار فخر الدولة فى جنازته ، وقام الناس بأجمعهم فقبلوا الأرض بين يديه وخرّقوا ثيابهم ولطموا وجوههم ، وبلغوا فى البكاء والنحيب عليه جهدهم[١] ، وقد رثاه الشعراء — على نحو ما يروى العتبى — رثاء حارًّا[٢] . والحق أن الصاحب بن عباد كان أحد أساتذة البلاغة فى عصره ، وبلغ بمذهب التصنيع مبلغاً عظيما من الزخرف والتنميق وما يتصل بذلك من الزركشة والتطريز .

٧

تصنيع أبى إسحاق الصابى

هو إبراهيم بن هلال الحرانى الصابى الذى اشتهر بالبيان والبلاغة لهذا العصر . ولد سنة ٣١٣ هـ ولاه الوزير المهلبى ديوان الرسائل ببغداد عام ٣٤٩ هـ[٣] ، فخدم بذلك الخلفاء كما خدم الأمراء من بنى بويه الذين استولوا على بغداد منذ عام ٣٣٤ هـ ، ويُحكى أن مولاه عز الدولة البويهى عرض عليه الوزارة إن أسلم فامتنع[٤] . ويقول الرواة : إنه كان حسن العشرة للمسلمين حتى قالوا إنه كان يصوم شهر رمضان مساعدة وموافقة لهم ، وقالوا إنه كان يحفظ القرآن حفظاً يدور على لسانه ، وبرهان ذلك واضح فى رسائله[٥] . وقد استمر على ديوان الرسائل حتى عام ٣٦٧ هـ إذ « ورد عضد الدولة إلى بغداد وكان نقم عليه أشياء من مكتوباته عن الخليفة وعز الدولة فحبسه ، فسُئل فيه ، وعُرِّف بفضله ، وقيل له : مثل مولانا لا ينقم على مثله ما كان منه ، فإنه كان فى خدمة قوم لا يمكنه إلا المبالغة فى نصحهم ، ولو أمره مولانا بمثل ذلك — إذا استخدمه — فى أبيه ما أمكنه المخالفة ، فقال عضد

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٥٩ .
(٢) انظر اليمينى للعتبى مع شرح المنينى ١/٢٠٢ .
(٣) معجم الأدباء ٢/٦٢ .
(٤) اليتيمة ٢/٢١٩ ومعجم الأدباء ٢/٢١ .
(٥) اليتيمة ٢/٢١٩ .

الدولة : قد سوّغته نفسه ، فإن عمل كتاباً فى مآثرنا وتاريخنا أطلقته ، فشرع فى محبسه فى كتاب « التاجى فى أخبار بنى بويه » . وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو فى تبييض وتسويد فى هذا الكتاب فسأله عما يعمله ، فقال : أباطيلُ أنمقها ، وأكاذيب ألفقها ، فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة ، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفيلة ، فأكبّ أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعان إليه فى أمره ، حتى أمر باستحيائه ، وأخذ أمواله واستصفائه ، وتخليد السجن بدمائه ، فبقى فى السجن بضع سنين إلى أن تخلص منه »[١] عام ٣٧١ هـ[٢] ، وتوفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ فعاد إلى العمل فى الدواوين حتى توفى عام ٣٨٤ .

وقد اتصل الصابى فى مطلع حياته بالثقافة الفلسفية ، فهم يرون أنه بدأ أمره بدراسة الطب ثم انصرف عنه إلى الأدب والكتابة[٣] ، ويقول القفطى : إنه كان عالماً بالهندسة والهيئة والرياضيات[٤] ، وهو إلى ذلك كان مثقفاً ثقافة واسعة باللغة والشعر قديمه وحديثه . واستطاع أن يحقق لنفسه قدرة بيانية جعلته يرتفع على أقرانه من المسلمين إلى رياسة ديوان الرسائل ، ولعل مما يدل على قدرته فى هذا الجانب أننا نرى كبار الأدباء فى عصره يعظمونه ويجلّونه . يقول ياقوت : « كان بينه وبين الصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد مراسلات ومواصلات ومتاحفات ، وكذلك بينه وبين الرضى أبى الحسن محمد بن الحسين الموسوى مودة ومكاتبات ، مع اختلاف الملل ، وتباين النِّحَل ، وإنما كان ينظمهم سلك الأدب مع تبدد الدين والنسب »[٥] . ويقول صاحب اليتيمة : إن شعراء العراق مدحوه فى جملة الرؤساء[٦] . وهم يروون عن الصاحب أنه كان يقول : « ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب أبا إسحق الصابى ، ويكتب عنى ، وأغيّر عليه »[٧] . وكل ذلك

---

(١) معجم الأدباء ٢/٢١ .
(٢) نفس المصدر ٢/٣٥ .
(٣) نفس المصدر ٢/٥٥ .
(٤) أخبار الحكماء ص ٥٤ .
(٥) معجم الأدباء ٢/٢٣ .
(٦) اليتيمة ٢/٢١٨ .
(٧) معجم الأدباء ٦/٣٠٦ .

لما كان من براعته ومهارته فى البيان والبلاغة ، وقد كان يعرف ذلك من نفسه وفنه ، فعبَّر عنه أجمل تعبير إذ يقول[١] :

وقد علم السلطان أنى أمينهُ وكاتبه الكافى السديدُ الموفَّقُ
فيمناىَ يمناهُ ولفظىَ لفظهُ وعينى له عينٌ بها الدهرَ يرمقُ
ولى فِقرٌ تَضْحَى الملوكُ فقيرةً إليها لدى أحداثها حين تطرُقُ

والحق أن الصابى كان علماً من أعلام البلاغة فى عصره ، ومن يرجع إلى رسائله يجده يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وصقل عباراته وتنقيح سجعاته ، وكان ما يزال فى تسويد وتبييض وتنميق حتى تخرج الرسالة مرصعة بكل ما يمكن من حلى ووشى . ولم يكن يأتى بحلى ووشى جديدين ، بل كان يخضع فى ذلك لما اصطلح عليه أصحاب مذهب التصنيع من السجع والتصوير والتجنيس وألوان البديع وإن كان لم يغرق فى استخدام هذه الألوان إغراق الصاحب ، ولا إغراق ابن العميد ، إذ كان همه الأول التسجيع والعناية به حتى يحصل من ذلك على طرف بديعة ، وانظر إليه يقول من رسالة كتبها عن معز الدولة بعد ظفره ببعض أعدائه[٢] .

« وكان الغامطَ لإنعامنا ، الجاحد لإحساننا ، المتردِّى من ذروة طاعتنا ، الهاوى فى هوّة معصيتنا ، الخالع ربقةَ ذمتنا ، النازع جُنَّةَ[٣] مشايعتنا ... ونحن نحمل أمره على ظاهره ، ونظن غائبه مثل حاضره ، وباطنه مثل عالنه ، حتى جذبنا بضَبْعه[٤] من المسقط المنحطّ ؛ إلى المرفع المشتط ، وانتهينا فى الإناقة[٥] بقدره ؛ والإشارة بذكره ، والتفخيم لأمره ، والتقديم لقومه ، إلى الغاية التى لا تسمح بها نفس باذل ، ولا تسمو إليها همة آمل ، فلما عز بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، وبَعُدَ صيته بعد الخمول ، وطلع سعده بعد الأفول ، وجمّت

---

(١) رسائل الصابى (طبع بعبدا بلبنان) ١/٨ .
(٢) رسائل الصابى ١/٣٣ .
(٣) الجنة : ما استترت به ، والربقة : العروة .
(٤) جذب بضبعه : نعشه ونوه به .
(٥) الإناقة : الارتفاع .

عنده الأموال ، ووطئت عقبة الرجال[١] ، وتضرمت بحسده جوانح الأكفاء ؛ وتقطعت بمنافسته أنفاس النظراء ، نزتْ به بِطْنته[٢] ، وأدركته شِقْوته ، ونزغ له شيطانه ، وامتدت فى الغىّ أشطانه[٣] ، فنصب أشراكه وحبائله ، وأعمل مكايده ومخاتله » .

وأول ما نلاحظ على هذه القطعة أن الصابى يعنى بتقصير سجعه ، فإن هو أطاله نغم العبارتين تنغيما يجعلك تظن أنهما قصيرتان ، فالألفاظ تتعادل وتتوازن على نحو ما مر بنا عند أستاذ المذهب ابن العميد ، وملاحظة ثانية هى أنه يعنى بالتصوير كما يعنى قليلا بالجناس . وهذه هى صورة كتابة الصابى ، فهو يشغف بحلية السجع ؛ وهو يوفر لها ضروباً مختلفة من النغم ، وإن هذا التوفير ليتمادى به فإذا هو يعنى بالمقابلة الدقيقة بين أول العبارتين حتى تتشابه السجعتان فى أطرافهما : فى أولهما وآخرهما ، وهو لا يعمم ذلك فى رسائله ولكنه يجنح إليه كثيراً على نحو ما نرى فى نفس هذه القطعة ، وكل ذلك ليستتم ما يريد من صوت ومرسيقى ، واستمعْ إليه يكتب إلى عضد الدولة يهنئه بسنة جديدة على هذه الشاكلة[٤] :

« أسأل الله تعالى مبتهلا لديه ، مادًّا يدىّ إليه ، أن يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات ، وبالزائدات الغامرات ، ليكون كل دهر يستقبله ، وأمد يستأنفه ، موفياً على المتقدم له ، قاصراً عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ؛ ومن العيش أعذبه وأرغده ، عزيزاً منصوراً ، محميًّا موفوراً ، باسطاً يده فلا يقبضها إلا على نواصى أعداء وحسّاد ، سامياً طرفه فلا يغضه إلا على لذة غمض ورقاد ، مستريحة ركابه فلا يُعملها إلا لاستضافة عز ومُلك ، فائزة قداحه فلا يُجيلها إلا لحيازة مال ومِلك ، حتى ينال أقصى ما تتوجّه إليه أمنيته جامحاً ، وتسمو إليه همته طامحاً » .

---

(١) وطئت عقبه الرجال : كثرت أتباعه .
(٢) البطنة : الامتلاء من الطعام .
(٣) أشطانه : حباله .
(٤) اليتيمة ٢/٢٢٢ .

وأنت تراه يعنى عناية شديدة بهذا الجانب الموسيقى من تصنيعه ، فما يزال يقابل ويعادل ويدقق فى مقابلاته ومعادلاته حتى تخرج عباراته متساوية فى أصواتها تمام المساواة ، وكأنه لا يؤلف نثراً ، وإنما يؤلف شعراً . والواقع أن ابن العميد وتلاميذه من أمثال الصابى وابن عباد رفعوا الحواجز التى كانت تفصل بين أسلوب الشعر وأسلوب النثر ، أو قل على الأقل إنهم رفعوا كثيراً من هذه الحواجز ، فقد أحالوا نثرهم إلى موسيقى خالصة ، فكله ألحان وأنغام ، وما الفارق الذى يفرق بين مثل هذا السجع والشعر ؟ إنه يعتمد مثله على الموسيقى كما يعتمد مثله على البديع ، وما يزال الكاتب به حتى يخرجه زخرفاً خالصاً ، فكله حلى وتنميق وتصنيع ، وهو من أجل ذلك لا يشبه النثر الذى كنا نألفه قبل ذلك عند كتاب الدواوين فى القرنين الثانى والثالث ، وإنه يشبه الشعر ، ففيه جميع شياته من موسيقى وبديع ، ولكنه مع ذلك نثر لأنه لا يجرى فى موسيقاه على أوزان الخليل ، ومن ثم كنا لا نستطيع أن نسميه شعراً ، ونحن أيضاً لا نستطيع أن نسميه نثراً خالصاً ، هو فى الواقع شىء بين الشعر والنثر ، ولذلك كان النقاد يسمونه شعراً منثوراً ، وتفنن ابن العميد وتلاميذه بصور مختلفة فى إنتاج هذا الضرب من الشعر المنثور ، وذهبوا يحققون له كل ما يمكن من زخرف وتصنيع . ومهما يكن فإن الصابى كان علماً من أعلام البيان فى عصره ، وقد أقرّ له معاصروه ومن جاءوا بعدهم بذلك ، يقول الثعالبى : « إنه أوحدُ العراق فى البلاغة ومن به تُثْنَى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة »[1] . ويقول ياقوت : إنه « أوحد الدنيا فى إنشاء الرسائل »[2] . ويقول ابن الأثير : « كيف أضع من الصابى وعلَم الكتابة قد رفعه ، وهو إمام هذا الفن والواحد فيه »[3] ولما توفى رثاه الشريف الرضى بقصيدة طنانة مطلعها[4] :

أرأيتَ من حَمَلوا على الأعواد ... أرأيتَ كيف خَبَا ضياءُ النادى

---

(١) اليتيمة ٢/٢١٨ .

(٢) معجم الأدباء ٢/٢٠ .

(٣) المثل السائر لابن الأثير ص ١٤٨ .

(٤) اليتيمة ٢/٢٨١ .

وما من ريب فى أن هذا كله يدل على ما كان للصابى من منزلة رفيعة بين معاصريه ومن جاءوا على إثرهم إذ كان أستاذاً ماهراً فى فن التصنيع لعصره ، وكان وما يزال يتقنن فى رسائله حتى يخرجها فى صورة بديعة من الزخرف والتنميق .

٨

التصنيع عام بين كتاب الدواوين

إذا تركنا الصابى والصاحب إلى من عاصروهما من كتّاب الدواوين وجدناهم جميعاً يذهبون هذا المذهب من التصنيع للسجع والبديع ، ومن ينظر فى كتاب اليتيمة للثعالبى وما عرض فيه من كتّاب الدواوين يعرف أنهم كانوا جميعاً يلتزمون هذا المذهب فى صناعة نثرهم ، إذ كان بدْعاً عاماً بينهم ، وكان كل منهم يحاول أن يكون له شأن أى شأن فى هذا البدع الجديد ، ويتضح من اليتيمة أن أشهر الكتّاب الذين عاشوا فى هذا العصر وكانوا امتداداً لهذا المذهب هم : عبد العزيز بن يوسف ، وأبو العباس الضبى ، وعلى بن محمد الإسكافى ، وأبو الفتح البُسْتى ، إذ كانوا جميعاً يعنون برسائلهم عناية شديدة .

أما عبد العزيز بن يوسف فقد تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة ، وتقلد الوزارة للبويهيين عدة مرات ، وفيه يقول صاحب اليتيمة : « أحد صدور المشرق ، وفرسان المنطق ، وأفراد الكرم الكبار ، والآثار والأخبار ، وأعيان الممدوحين المقدّمين فى الآداب والكتابة والبراعة والكفاية ، وجميع أدوات الرياسة »[1] . ساق الثعالبى جملة من نثره وهى جميعها موشحة بألوان التصنيع وأصباغه كقوله يصف رسالة كتبها إليه أبو إسحاق الصابى : « علمتُ كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتتلاقى طرق الخطابة ، وتتراءى أشخاص البيان ، وتمايل أعطاف الحسن والإحسان ، وقرأتُ لفظاً جليًّا ، حوى معنى خفيًّا ، وفصولا

---

(١) اليتيمة ٢/٢٨٧ .

متباينة ، كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأول منها على الثانى وتعلق العَجُز بالهادى فيها أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قُرْبى موصوله ، تتعاطف عيونها ، وتتناصف أبكارها وعُونها »[١] .

وأما أبو العباس الضبّى فهو خليفة الصاحب بن عباد وتلميذه ، وفيه يقول الثعالبى : « هو جذوة من نار الصاحب أبى القاسم ، ونهر من بحره ، وخليفته النائب مَنابه فى حياته ، القائم مقامه بعد وفاته ، وكان الصاحب استصحبه منذ الصبا ، واجتمع فيه الرأى والهوى ، فاصطنعه لنفسه ، وأدبه بآدابه ، وقدّمه بفضل الاختصاص على سائر صنائعه وندمائه ، وخرج منه صدراً يملأ الصدور كمالاً ، ويجرى فى طريقه ترسماً وترسلا ، وفى ذُرَى المعالى تَوَقُّلاً[٢] . . . وقد كانت بلاغة العصر بعد الصاحب والصابى بقيت متماسكة بأبى العباس ، فأشرفت على التهافت بموته ، وكادت تشيب بعده لِمَمُ الأقلام ، وتجفّ غُدُرُ محاسن الكلام »[٣] وقد روى الثعالبى له غُرراً من رسائله كقوله فى صدر أحد كتبه : « قد أتانى كتاب شيخ الدولتين فكان فى الحسن روضة حَزْن ، بل جنة عَدْن فى شرح النفس ، وبسط الأنس ، بل بَرْدَ الأكباد والقلوب ، وقميصَ يوسف فى أجفان يعقوب »[٤] .

وأما على بن محمد الإسكافى فكان كاتب الدولة السامانية ووزيرها ، وفيه يقول الثعالبى : « هو لسان خراسان وغُرّتها ، وعينها وواحدها ، وأوحدها فى الكتابة والبلاغة ، ومن لم تُخرج مثله فى البراعة والصناعة ، وكان تأدّب بنيسابور عند مؤدب بها ، يعرف بالحسن بن المهرجان ، من أعرف المؤدبين بأسرار التأديب والتدريس ، وأعلمهم وأدراهم بطرق التدريج فى التخريج ، ثم حرّر مُديدة فى بعض الدواوين ، فخرج منقطع القرين »[٥] . ثم يقول

---

(١) اليتيمة ٢/٢٩٥ . وعونها : جمع عوان وهى الثيب .

(٢) التوقل : الصعود فى الجبل .

(٣) اليتيمة ٣/٢٦١ .

(٤) اليتيمة ٣/٢٦٢ .

(٥) اليتيمة ٤/٩٠ .

الثعالبي : « إنه كان أكتب الناس فى السلطانيات ، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعى ، قصير الباع »[١] . وقد لاحظ ابن الأثير نفس هذه الملاحظة على الصابى[٢] . ويروى الثعالبي طائفة من نثر الإسكافى ، وهى كلها تنهج نهج التصنيع ، وما يُطْوَى فيه من سجع وبديع ، ويختم الحديث عنه بقوله : « إنه لما انتقل إلى جوار ربه غدتْ لفراقه الكتابة شعثاء ، والبلاغة غَبْراء ، وأكبرَ فضلاء الحضرة رزيته ، وأكثروا مرثيته ، وفيه يقول بعض الشعراء :

ألم تر ديوان الرسائل عطلتْ ... لفقدانه أقلامهُ ودفاترُهْ
كثغرٍ مضى حاميه ليس يسره ... سواه وكالكسر الذى عَزَّ جابره
ليَبْكِ عليه خطهُ وبيانهُ ... فذامات واشيه وذامات ساحره »[٣]

وأما أبو الفتح البُسْتى فكان — فى أول أمره — كاتباً لباى توز أمير مدينة بُسْت ، وهى من مدن أفغانستان ، فلما استولى عليها الأمير سبكتكين ألحقه بخدمته « وصار من بعد ينظم بأقلامه منثور الآثار عن حسامه ، وينسج بعباراته وشائع فتوحه ومقاماته ، وهلم جرًّا ، إلى زمان السلطان يمين الدولة وأمين الملة (محمود بن سبكتكين) فقد كتب له عدة فتوح إلى أن زحزحه القضاء عن خدمته ، ونبذه إلى ديار الترك من غير قصده وإرادته »[٤] . واشتهر البستى بكثرة الجناس فى كلامه ، يقول العتبى : « هو صاحب التجنيس »[٥] ، ويقول الثعالبي : « هو صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأسيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتى فيه بكل طريقة لطيفة »[٦] . ولم يَرْوِ الثعالبي شيئاً من رسائله ، وإنما اكتفى ببعض ما فى كتبه من أمثال وحكمة كقوله : « عادات السادات ، سادات العادات . من سعادة جَدِّك ،

---

(١) اليتيمة ٤/٩٢ .
(٢) المثل السائر ص ١٤٨ .
(٣) اليتيمة ٤/٩٤ .
(٤) انظر تاريخ اليمينى للعتبى مع شرح المنينى ١/٧١ .
(٥) نفس المصدر ١/٦٧ .
(٦) اليتيمة ٤/٢٨٤ .

وقوفك عند حدّك . الدعة رائد الضعة . إذا بقى ما قاتك ، فلا تأس على ما فاتك . الخلاف غلاف الشر ، عسى تحظى فى غدك برغدك » . وهى كلها أمثال مسجعة نمقت بوشى التجنيس ، وكأنما كان يعمد البستى إلى هذا الوشى عمداً كى يتفوق على معاصريه فى استخراج كل ما يمكن من بدائعه وطرائفه . وأكبر الظن أننا لا نغلو بعد ذلك إذا قلنا إن الكتابة الديوانية قد تحولت على أيدى هؤلاء الكتاب وأضرابهم إلى تحف فنية خالصة .

الفصل الثانى

التصنيع والتصنع

١

اشتداد موجة التصنيع

رأينا — فى الفصل السابق — كتّاب الدواوين فى القرن الرابع للهجرة، وكل منهم يحاول أن يبلغ من تصنيعه وتجميله لأساليبه ما لم يبلغه كاتب آخر من كتاب الحكام والأمراء المجاورين له، إذ كان هؤلاء الأمراء والحكام يعتدون بالكتابة المصنّعة التى شاعت فى تلك العصور، وكان كل منهم يحاول أن يكون فى بلاطه ودواوينه أهم كاتب فى عصره حتى تشتهر دولته بتلك الطرف الزخرفية التى يخرجها هذا الكاتب. وما من ريب فى أن هذه الحال دفعت الكتّاب إلى أن يصلوا بنثرهم وتنميقه إلى مرتبة تكاد ترفع الحواجز بينه وبين الشعر، فهو نثر منظوم أو هو شعر منثور، وماذا يفصل بينه وبين الشعر؟ إنه يعتمد على الموسيقى: موسيقى السجع، كما يعتمد على زخرف البديع، وإنهم ليبالغون فى ذلك حتى تتحول رسائلهم إلى ما يشبه الوشى الخالص؛ فهى حلى وتنميق، وبديع وترصيع.

وإن الإنسان ليخيّل إليه كأنما تحولت صناعة النثر فى تلك العصور عن طبيعتها الأولى تحولا تامًّا، إذ أصبحت أشبه ما تكون بصناعة أدوات الترف والزينة فهى تحف تنمّق فى أروع صورة للتنميق، وكل كاتب يتوفر على إحداث هذه التحف توفراً يتيح له أن يشارك فى آياتها وبدائعها، وإنه ليُعنت نفسه فى سبيل ذلك إعناتاً بعيداً. ونحن — فى الواقع — لانكاد نتصور الآن ما كان يحدث فى تلك العصور فى أثناء صناعة هذه التحف والطرف لبعد العهد

الفصل الثانى

مصر والمذاهب الفنية

١

مصر

تمتد مصر على ضفاف النيل من مشارف أسوان إلى تخوم بحر الروم ، مطلّة عليها من الغرب الصحراء الغربية ومن الشرق الصحراء الشرقية ، وقد استطاعت أن تنهض نهضة واسعة فى العالم القديم ، بل لقد استطاعت أن تلعب أقدم دور فى تأسيس الحضارة الإنسانية ، وهو دور لا تزال أهراماته وصروح آثاره ماثلةً تحت أعيننا تعبر أروع تعبير عن مدى ما بلغته مصر من مدنية ، وقد أخذت تنشر هذه المدنية فى الأمم المجاورة متخذةً ضمّها إلى ممتلكاتها سبيلها إلى ذلك ، فضمّت فى أطوار مختلفة الشام وأجزاء من بابل وآشور ، وتمضى أحقاب متطاولة ولمصر المكانةُ الأولى بين الأمم القديمة ثم يدور الزمن دورةً ، فيغزوها الرعاة الهكسوس ، ولكن سرعان ما تعود إلى نفسها فتطردهم منها ، وتخرج مرة أخرى إلى آسيا فتستولى على بعض أجزائها ، ولكن الزمن يدور دورة بل دورات فإذا مصر يغير عليها الحيثيون ثم الأشوريون ثم الفرس ، وتستمر تابعة لهم منذ عام ٥٢٥ ق.م ، حتى يخرجهم منها الإسكندر المقدونى عام ٣٣٣ ق.م ، وبذلك تنتقل إلى حكم الإغريق ويختطُّ بها الإسكندر مدينة الإسكندرية ، كما يختطُّ بها بطليموس أحد قواد الإسكندر دولة كبيرة استطاعت أن تنهض بها نهضة واسعة ، وهى دولة البطالسة التى أقامت فى الإسكندرية داراً كبيرة للكتب ، كما أقامت داراً أخرى سمتها دار المتحف ، وكانت جامعة كبيرة أضاءت منها أنوارُ الثقافة اليونانية وخاصة بعد أن استولى الرومان على أثينا ، فإن كثيراً من أساتذتها فرّوا ومعهم ما تبقى من مصابيح تلك الثقافة إلى

الإسكندرية ، وقد رجعت هذه المصابيح تضيء متوهجة بمصر طوال عصر البطالسة ، وبعد البطالسة ، فإن جامعة الإسكندرية ظلت قائمة فى عهد الرومان الذين استولوا على مصر منذ عام ٣١ م ، ونحن نعرف أن روما لم تحاول أن تبعث فى مصر نهضة ثقافية إذ كانت تتخذها مخازن لما يلزمها من قمح ، وكم أثارتْ فيها من حروب وسفكت من دماء وأزهقت من أرواح !

وتدور عجلة الزمن دورة فإذا عمرو بن العاص يأتى على جيش عربى كبير عام ٦٤٠ م متخذاً طريقة تلك الدروب والمسالك التى كانت تشق طور سيناء إلى مصر ، ويتعقب الروم فى غير موقع ، ويستطيع — بما أوتى من قوة — أن يطردهم منها ، وبذلك تدخل مصر فى عصر جديد هو عصر الإسلام والعروبة ؛ وهو عصر امتاز منذ أوائله بالعدل وأن يكون الناس سواسية أمام حاكمهم فلا يُضْطهد أحدٌ فى نفسه ولا فى ماله ولا فى دينه ، وقد أخذ المصريون يدخلون فى دين الله أفواجاً ، وهاجر إليهم كثير من قبائل العرب ونزلوا ريف مصر ، فكان ذلك عاملا من عوامل الاندماج بين المصريين والعرب . على أنه ينبغى أن لا يُفْهَم من ذلك أن المصريين تقبَّلوا الحكم العربى وخضعوا له خضوعاً ، بل كانوا كثيراً ما يثورون[1] ، وخاصة من أجل الضرائب التى كانوا يؤدونها ، ولولا أن موجة الإسلام كانت حادة ما استطاع العرب أن يستمروا بمصر ، فإن المصريين نزعوا عن دينهم أو قل نزعت كثرتهم عن دينها إلى الدين الجديد ، وحتى من بقى منهم على دينه أخذ يهجر لغته القبطية وما كان يعرف من اليونانية إلى اللغة العربية بحيث لا نصل إلى القرن الرابع حتى نجد أسقف أشمون يشكو من انعدام اللسانين القبطى واليونانى فى قبط مصر[2] ، وما من ريب فى أن ذلك يؤكد اندفاع مصر اندفاعاً شديداً نحو التعرب واتخاذ العربية لساناً لها ، فقد نزعت عنها ثيابها اللغوية القديمة واتخذت مكانها ثياباً عربية جديدة .

---

(١) Stanley, Lane-poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 28, 32

(٢) انظر كتاب سير البطاركة لساويرس (طبع بيروت) ص٦ وهو مؤلف بعد عام ٤٠٠هـ بقليل .

٢

شخصية مصر

من يبحث مصر فى مختلف عصورها يجدها أشبه ما تكون بمعبد كبير أغلقت أبوابه على طائفة من الرسوم والطقوس لا تتغير ولا تتبدل ، بل دائماً تظل كما هى فى كل حكم وفى كل عصر . وهذا المعبد الكبير أتيحت له أسباب طبيعية جعلته يعيش معيشة مستقلة فى عاداته وتقاليده ، ونقصد بتلك الأسباب ما قام على أسواره من الصحراء الشرقية والغربية ، فإنهما عزلتاه عن الاختلاط والانسياح فى الأمم الأخرى ، وحقاً قد مرّ بهذا المعبد العظيم عاصفة هوجاء فتفتح أبوابه ويدخل جيش فاتح على رأسه قائد مظفر ، ولكن سرعان ما يذوب هذا الجيش ويفنى فى أبناء المعبد وطقوسهم وعاداتهم . وفى هذا المعبد يجرى نهر النيل نافثاً لعابه من حوض إلى حوض فى أوان « يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه » ، وحول هذا النهر يعيش المصريون من عصر الفراعين إلى العصر الحديث « يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحبّ ، يرجون بذلك النماء من الربّ » ، وقد ظلوا يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وجيلا بعد جيل يعملون على وتيرة واحدة ، ينقلون الماء من هنا إلى هناك بهذه الأوانى من الطوابير وما يتصل بها ، يبعثون الحياة فى وديان مصر وأحواضها « فبينما مصر لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضرة ، فإذا هى ديباجة رقشاء » . وهكذا مصر دائماً : كتاب أحكمت سطوره ونقوشه منذ أقدم الأزمنة ، وما تزال هذه السطور والنقوش واضحة غير مطموسة ، فالناس يعيشون كما كان يعيش آباؤهم وأسلافهم يربضون فى وديان النيل فى تلك المياة المشبعة بالطمى ، يديرون آلات لا تكاد تختلف فى شىء عن آلات أجدادهم ، وإنهم ليحيون بطرق لا تختلف أيضاً كثيراً عن طرق أسلافهم . ومن ثمّ كانت مصر بلداً محافظاً يحتفظ بشخصيته ومقوماتها على مر العصور ، وقد كان لذلك أثر جليل

فى تاريخ مصر ، فإنها استطاعت أن تحتمل الفتوح المختلفة ، وأن تصمد لها دون أن يُطْمَس شىء مهم من معالمها لما لديها من امتناع عن التحول وقدرة على الإساغة والهضم ، فإذا هى تهضم ما يدخل إليها من عناصر أجنبية ، هضمت قديماً الرعاة الهكسوس وما دخلها من عناصر الأشوريين والحيثيين والفرس واليونان والرومان ، بل لقد هضمت عناصر العرب أنفسهم مع اتساع تأثيرهم فيها من الوجهتين الدينية واللغوية .

وهذه المحافظة فى مصر وما يطوى فيها من مقدرة على الاستمرار ليس معناها أن مصر تستعصى على العناصر الثقافية عند الأمم الأجنبية ، فكثيراً ما تقبّلت قديماً وحديثاً هذه العناصر وحاولت أن تهضمها وتُعيدها فى صورة جديدة تلائمها ، ولعل أوضح ما يفسر ذلك ما كان من استقبالها فى الإسكندرية للثقافة اليونانية ، فقد استطاعت أن تستوعبها ، وأن تنفذ من ذلك الاستيعاب إلى مذهب جديد فى الفلسفة هو مذهب الأفلاطونية الحديثة ، وهو مذهب يعتمد على العناصر اليونانية من جهة والعناصر المصرية وما يتصل بها من معتقدات من جهة أخرى . ولم تحاول مصر الاتصال بثقافة اليونان الذين فتحوها فقط ، بل نراها تحاول الاتصال بثقافات أخرى لم يكن لأهلها نفوذ سياسى بها ، ولعل خير مثال لذلك اتصالها بالثقافة السريانية فى أثناء الحكم الرومانى ، وخاصة فيما يتصل بدراسة الطب ، يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب ، وإنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب فى القرنين السادس والسابع كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرس فى الإسكندرية حتى قبل أن تفد جموع العلماء إلى مصر من سوريا عند غزو الفرس لها »[1] ومن هذه اللغة تُرجم لعمر بن عبد العزيز كتاب أهرون القسّ فى الطب[2] ، ولم تنس مصر لغتها القبطية ، فقد كانت تتخذها فى طقوسها الدينية كما كتبت

---

(١) فتح العرب لمصر (الترجمة العربية) ص ٨٤ .

(٢) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليبزج ص ٣٢٤ .

بها بعض كتابات تاريخية[١]. على أنه ينبغى أن نعرف أن جامعة الإسكندرية اليونانية هجرها أساتذتها إلى مدرسة أنطاكية فى عهد عمر بن عبد العزيز ، ولذلك لا نسمع بعد عصره عن خليفة أو أمير يطلب علماء الإسكندرية على نحو ما طلب خالد بن يزيد بن معاوية جماعة منهم لترجمة ما عندهم من كتب فى الكيمياء[٢] . ومع ذلك فإغلاق هذه الجامعة إنما اقتصر تأثيره على الجانب الإغريقى ، أما الجانب السريانى وما يتصل به من الطب فقد استمر فى مصر ، إذ كان العلماء السريان منبثين فى الأديرة ، فكان يقصد الطلاب إليهم ، وكان الطب يتوارث فيهم ، ولذلك ظلت مصر تشتهر بأطبائها حتى عصر متأخر ، وممن اشتهروا فيه سعيد بن توفيل النصرانى طبيب ابن طولون[٣] ، وسعيد بن البطريق : « وكان طبيباً نصرانياً من أطباء فسطاط مصر . وقد عُيِّن بطريركاً على الإسكندرية سنة ٣٢٨هـ ، وله كتب فى الطب والجدل »[٤].

ومهما يكن فقد استمرت بمصر بقايا من التراث اليونانى ، حتى بعد إغلاق جامعة الإسكندرية ، إذ ظلت بها رواسب من علم إقليدس فى الفلك ومن علم الكيمياء ومن الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من غنوسطية ودراسات لاهوتية ، وما من ريب فى أن الحركة الصوفية التى ظهرت بمصر فى القرن الثالث وعلى رأسها ذو النون المصرى الإخميمى كانت تتأثر تأثراً مباشراً بما بقى من هذه الجامعة ، وخاصة إذا عرفنا أن أول انبعاث لهذه الحركة كان فى الإسكندرية عام ٢٠٠ هـ[٥] ، وأيضاً فهم يقولون إن ذا النون المصرى كان عالماً فى الكيمياء ، وقد ردوا كثيراً من آرائه إلى مذهب الأفلاطونية الحديثة . وكما تأثر التصوف بالأفلاطونية والغنوسطية الإسكندرية تأثر كذلك التشيع بهما فى العصر الفاطمى ولعله من أجل ذلك كان الفاطميون يدعون إلى التثقف بالثقافة الفلسفية ،

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٨٥ .
(٢) الفهرست لابن النديم (طبع مصر) ص ٣٣٧ ، ٥٠٧ .
(٣) النجوم الزاهرة طبع دار الكتب ٣/١٧ .
(٤) طبقات الأطباء ٢/٨٦ .
(٥) الولاة والقضاة للكندى ص ١٦٠ وانظر أيضاً ص ٤٤٠ .

إذ كانت هذه الثقافة فعلا مؤثرة آثاراً عميقة فى عقيدتهم الشيعية .

وقد سارعت مصر بعد إسلامها إلى العناية بالدراسات الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات ، كما سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية من نحو وعروض ولغة وأدب ، فكان منها اللغويون والنحويون ، كما كان منها الفقهاء والمحدثون والقراء ، وأيضاً كان منها المؤرخون الذين أرخوا لفتوحها . وكان جامع عمرو بن العاص هو الجامعة الكبرى التى تدرس فيها العلوم الإسلامية ، وهى دراسة كانت تنساق نحو تقليد بغداد فى علمها وما وصلت إليه فى الدراسات المختلفة ، ومصر من هذه الوجهة تشبه الأندلس تمام الشبه ، فكما أن الأندلس قلدت المشرق فى علومه الدينية واللغوية ، أو قل بعبارة أدق إنها نقلت هذه العلوم منه ، كذلك مصر فإنها اعتمدت على النقل أكثر مما اعتمدت على الابتكار ، ولم يكن هذا شأنها فقط فى العلوم الدينية واللغوية ، بل كان شأنها أيضاً فى حركتها الأدبية ، فإنها كانت تصوغ نماذجها على مثال النماذج البغدادية ، إذ كان الأدباء يعجبون فى مختلف الأقاليم العربية بهذه النماذج ، وهو إعجاب طبع أدبهم من شعر ونثر بطابع أصيل من التقليد ، وسنرى هذا الطابع يستمر فى جميع ما أنتجت مصر من نثر فى أثناء عصورها الوسيطة ، ومن ثم لم تستطع أن ترفد مجرى النثر العربى العام بجدول جديد تتميز مياهه من مياه المجرى العام ، فليس هناك مذهب جديد ، وإنما الذى هناك دائماً هو التقليد والمحاكاة على نحو ما رأينا فى الأندلس ، وكان ذلك سمة الأقاليم جميعاً ، فهى تقرأ نماذج المشرق التى صُنعت داخل مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع ، ثم تحاول أن تصوغ نماذج مشابهة لتلك التى تقرؤها ، ذاهبة أحياناً مذهب أهل الصنعة ، وأحياناً أخرى مذهب أهل التصنيع أو التصنع فى غير نسق ولا نظام مطرد ، وإن الإنسان ليعجب إذ يرى هذه المذاهب التى صنعها المشرق تكتسح أمامها جميع الحدود القومية فى الأقاليم العربية دون أن يعترضها حاجز أو يقف أمامها عائق ، ومن العبث حقاً أن تبحث عن مذهب جديد يحدثه أى إقليم ، وكأنما ضاقت أبواب التجديد أمام الأدباء فهم

يُولَّون وجوههم دائماً شطر بغداد يتعبدون أمثلتها ويحتذون على ما أخرجته من نماذج فى الشعر والنثر .

٣

النثر المصرى

إذا أخذنا نبحث عن وثائق الكتابة الأدبية فى مصر فى أثناء الفترة الأولى ، ونقصد فترة الولاة من عمرو بن العاص إلى أحمد بن طولون لم نكد نتبين شيئاً واضحاً ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن فى مصر كتابة ولا كتّاب ، فالمقريزى يقول : « لما كانت مصر إمارة كان بها ديوان البريد . ويقال لمتوليه صاحب البريد . وهو الذى يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء مصر كُتّاب يُنشئون عنهم الكتب والرسائل »[1] ، وبجانب ديوان البريد الذى يشير إليه المقريزى كان بمصر ديوان للخراج ، وكانوا يكتبون فيه أولا باليونانية ثم كتبوا فيه منذ عهد عبد الملك أو ابنه الوليد بالعربية ، ومن يستعرض ما جاء فى كتاب الوزراء والكُتّاب للجهشيارى عن دواوين مصر وكُتّابها فى العصر الأموى وأوائل العصر العباسى يلاحظ أن الكتاب الرسميين الذين يتصلون بديوان البريد وديوان الخراج كانوا غالباً من غير المصريين ، فهو يروى أن عبد العزيز بن مروان والى مصر كان يكتب له يناس بن خُمايا من أهل الرُّها[2] ، كما يروى أن سليمان بن عبد الملك ولّى رجلا من موالى معاوية الخراج بمصر[3] . هذا فى العصر الأموى ، أما فى العصر العباسى فيروى الجهشيارى أن هرون الرشيد ولى على مصر عمر بن مهران كاتب الخيزران ، فأخذ معه رجلا استكتبه على الديوان[4] ، وكذلك يروى أن الحصيب استكتب جابر بن داود جدّ البلاذرى ،

---

(١) خطط المقريزى طبع بولاق ٢/٢٢٦ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٥١ .

(٤) الوزراء والكتاب ص ٢١٧ .

المؤرخ المشهور[١] ، وهو فارسى الأصل ، ولما ولى عبد الله بن طاهر مصر فى عصر المأمون اصطحب معه إسحق بن أبى ربعى ليكون كاتبه ، وفيه يقول بعض الشعراء[٢] :

أرَى كاتباً جاهُ الكتابة بَيِّنٌ عليه وتأديب العراق مُنيرُ
له حركاتٌ قد تشاهد أنهُ عليمٌ بتقسيط الخراج بصيرُ

وقد سبقنا ذلك لندل على أن مصر لم تستفد كثيراً فى عهد الولاة من حيث النشاط الأدبى فى باب الكتابة الرسمية ، إذ كانت تستورد كتّاب دواوينها من الخارج ، ومن أجل ذلك لم يكن لها نشاط واضح فى هذا الجانب إلا ما رواه المقريزى من أنه كان لبعض أمرائها كُتّاب ينشئون عنهم بعض الرسائل ، ومن هؤلاء الكُتّاب عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد[٣] ، ولعل مما يتصل بذلك ما يقال من أنه كان لعبد الحميد الكاتب عقبٌ يسكنون مصر منذ قُتل فى موقعة الزّاب وكانوا يكتبون لأمرائها[٤] . على أنه ليس عندنا نصوص لهذه الطائفة من كتاب الأمراء ، ولا للطائفة الأخرى من كتاب الولاة ، ومن ثمّ كنا لا نُبعد إذا قلنا إن مصر لم تستولها صورة واضحة من الكتابة الفنية فى عصر الولاة غير أننا لا نصل إلى عصر ابن طولون الذى استقل بها ، وأسّس فيها دولة كان لها شأن مهم فى القرن الثالث للهجرة حتى نجد مصر تبدأ عصراً جديداً فى تاريخ النثر الأدبى ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن ابن طولون اتخذ لنفسه ديوان رسائل ، وبذلك وجدت الوسيلة لنشوء حركة أدبية تماثل ما نشأ فى دمشق وبغداد حول دواوين الرسائل ، يقول صاحب صُبْح الأعشى : « لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى مدة نواب الخلفاء صرفُ عناية تقاصُراً عن التشبه بديوان الخلافة ، إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٥٦ والفهرست ص ١٦٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٩٣ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ٥٤ .
(٤) نفس المصدر ص ٨٢ .

عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كُتب منها ما تتوافر الدواعى على نقله ، وتنصرف الهمم لتدوينه ، مع تطاول الأيام وتوالى الليالى . . ولما أخذ أحمد بن طولون فى تدبير الملك وإقامة السلطنة بالديار المصرية ، وشمخ بها سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء (ديوان الرسائل) لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات فاستكتب ابن عَبْدَ كان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره »[١] ، ولم يكتف ابن طولون بابن عَبْدَ كان ، فقد جاء بجماعة من كتاب العراق تعاونه مثل أبى عَبْد الله الواسطى[٢] ويعقوب بن إسحق[٣] وأحمد بن أيمن ، وكان يكتب فى حداثته للعباس بن خالد البرمكى[٤] وضم إلى هؤلاء الكتاب آخرين من كتّاب مصر وعلى رأسهم الحسن بن محمد بن أبى المهاجر وإخوته على وأبو القاسم وأبو عيسى ، وكلهم من عقب عبد الحميد الكاتب[٥] . وبذلك كله نهض ابن طولون بديوان الرسائل فى مصر نهضة عظيمة ، وهى نهضة جعلت بعض كتاب العراق يهاجر إلى مصر طلباً للتوظف فى هذا الديوان على نحو ما يحدثنا ياقوت عن إسحق بن نصير[٦] الكاتب البغدادى ، فقد قدم على ابن عبد كان رئيس الديوان والتمس منه التصرف ولم يزل معه إلى أن توفى ، فاستخلفه مكانه خمارويه وأجرى عليه أربعمائة دينار فى الشهر ثم رفعها إلى ألف دينار[٧] . ويذهب عصر الطولونيين وتدخل مصر مرة أخرى فى عصر الولاة فيضعف بها ديوان الإنشاء ويستمر على ضعفه فى عصر الإخشيديين ، إذ لا نجد لمصر — على عهدهم — كاتباً مشهوراً يمكن أن نقرنه إلى ابن عبد كان الذى كان يباهى به ابن طولون كُتّاب بغداد

---

(١) صبح الأعشى (طبع دار الكتب) ١١/٢٨ .

(٢) المكافأة لأحمد بن يوسف طبعة (وزارة التربية والتعليم) ص ٢٠ .

(٣) المكافأة ص ٥٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٩١ ، ١٦٧ .

(٥) الوزراء والكتاب ص ٨٢ .

(٦) هكذا فى ياقوت ، وفى صبح الأعشى وحسن المحاضرة والنجوم الزاهرة : نصر .

(٧) انظر معجم الأدباء ٦/٨٥ .

والعراق ، ونحن نقف عند هذا الكاتب وقفة قصيرة لنطلع على ما كانت تخرجه مصر فى عهده من نماذج الكتابة الفنية .

ابن عبد كان

هو أحمد بن محمد بن مودود [١] ، وقد نال شهرة واسعة فى عصره وبعد عصره ، ولكن كُتّاب التراجم لم يهتموا به ، وأغلب الظن أن ابن طولون اصطحبه معه من بغداد ، فاسمه يدل على أنه فارسى ، إذ الألف والنون تأتى فى الفارسية القديمة للنسبة بينما تأتى الكاف للتصغير ، وإذاً فعَبْد كان تقابل فى العربية عُبَيْدِى ، وقد أحضره ابن طولون إلى مصر وبقى بها حتى وفاته ، ويظهر أنه توفى بعد سيده ، إذ تتفق المصادر القديمة على أن إسحق بن نصير تولى ديوان الرسائل من بعده لخمارويه بن أحمد بن طولون [٢] . وعُرف ابن عَبْد كان بجودة أدبه وفنه ، قال صاحب الفهرست : « كان بليغاً مترسلا فصيحاً ، وله ديوان رسائل كبير » [٣] ، ويقول ياقوت : « كان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون ، ومكاتباته وأجوبته موجودة » [٤] ، وقد أشاد به صاحب صبح الأعشى فى غير موضع من كتابه ، ومما قال فيه : إن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبد كان ، ويقولون : « بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما » [٥] ، ومر بنا فى غير هذا الموضع أن الصاحب بن عباد سأل رجلا من أهل الشام : رسائل مَن تُقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان ، قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى ، وفى اقتران ابن عبد كان ، وهو من كتاب القرن الثالث ، بالصابى وهو من كتّاب القرن الرابع قرن

---

(١) صبح الأعشى ١/٩٥ .
(٢) صبح الأعشى ١/٩٥ والنجوم الزاهرة ٧/٣٣٦ وحسن المحاضرة للسيوطى (طبع مطبعة الموسوعات) ٢/١٤٦ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٩٧ .
(٤) معجم الأدباء ٦/٨٥ .
(٥) صبح الأعشى ٣/١٧ .

التصنيع ما يجعلنا نقف — من بعض الوجوه — على مبلغ مكانته الأدبية . على أن للمسألة وجهاً آخر ، وهو أن الناس فى النصف الثانى من القرن الرابع كانوا يعتدُّون بابن عبد كان ورسائله مع أننا نعرف أنهم لم يكونوا يأبهون لغير السجع والبديع فى تلك العصور ، وفى ذلك ما يجعلنا نحس شيئاً من الصلة بين آثار ابن عبد كان وآثار أصحاب التصنيع من أمثال الصابى ، والمسألة لا تحتاج كل هذا الاستنتاج فإن من يرجع إلى رسالته التى كتبها عن ابن طولون إلى ابنه العباس ، وكان قد شغب عليه بالإسكندرية أثناء رحلة له بالشام ، وهى الرسالة التى احتفظت له بها المصادر القديمة يجده فيها يُعنى بالسجع عناية شديدة ، وحقاً قد يتخفف منه ولكنه يلتزمه فى أكثر جوانب الرسالة مما يجعلنا نؤمن بأنه كان يعتمد عليه اعتماداً دقيقاً فى صنع رسائله ، وانظرْ إليه كيف يستهل تلك الرسالة[1] :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسْبه ، العادى لطوره ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه ، المركوس فى فتنته ، المبخوس من حظ دنياه وآخرته ، سلامٌ على كل مُنيب ومستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكَظْم ، وحلول الفوت والندم . . . أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تُثير المدية بقرنيها ، والنحلة يكون حتفها فى جناحيها ، وستعلم هَبَلتك الهوابل — أيها الأحمق الجاهل ، الذى تَسَنَّى على الغَىِّ عِطْفه ، واغترّ بضجاج المواكب خلفه — أى مورد هلكة بإذن الله تورّدت إذ على الله عز وجلّ تمردّت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا (قرية كانت آمنة مُطْمئنة يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان ، فكفرت بأنعُم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، وإنا كنا نقربك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعاً فى إنابتك ، وتأميلا لفَيْئتك ، فلما طال فى الغىّ انهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعظة تُلين

(١) صبح الأعشى ٧/٥ .

كبدك ، ولا التذكير يُقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلا ، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحلاً . . واعلم أن البلاء — بإذن الله — قد أظلك ، والمكروه — إن شاء الله — قد أحاط بك ، والعساكر — بحمد الله — قد أتتك كالسيل فى الليل ، تؤذنك بحرب ووَيْل ، فإنا نُقسم ، ونرجو أن لا نجور ونظلم ، أن لا تَثْنَى عنك عِنانا ، ولا نؤثر على شأنك شأناً ، فلا تتوقل ذروة جبل ولا تلج بطن واد إلا تبعناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أممت منهما ، منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حين لا دافع بحَوْل الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن ساحتك ، وتعرف من قدر الرّخاء ما جهلت ، وتودّ أنك هُبلت ، ولم تكن بالمعصية عجلت ، ولا رأى من أضلّك من غُواتك قبلت ، فحينئذ يتفرىّ لك الليل عن صبحه ، ويُسْفر لك الحق عن مَحْضه ، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكاً بحبائل غرور ، متمادياً فى مقابح أمور ، من عُقوق لا يُنام طالبه ، وبَغْى لا ينجو هاربه ، وغدْر لا ينتعش صَريعه ، وكفران لا يُودَى قتيله ، وتقف على سوء رويّتك ، وعظم جريرتك ، فى تركك قبول الأمان إذ هو لك مبذول ، وأنت عليه محمول ، وإن السيف عنك مغمود ، وباب التوبة إليك مفتوح ، وتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه مسرعاً ، وانقدت إليه منتصحاً » .

وأنت ترى ابن عبد كان فى هذه القطعة يعنى بموازنة عباراته موازنة تخرج به إلى السجع فإن تركه فإلى الازدواج ، وهذا يدل على أنه كانت تتأصّل عنده رغبة فى إحكام عباراته وتنسيقها تنسيقاً بديعاً ، وهو تنسيق كان يعتمد دائماً على الملاءمات الصوتية ، وكأنما كان أساس الكتابة الفنية فى رأى ابن عبد كان هو الموسيقى وإحسانها ، وقد طبعتْ هذه الموسيقى أسلوبه بطابع خاص من الترادف حتى يلاحم بين أصواته من جهة ، وحتى يحدث ما يريد من سجع وازدواج من جهة أخرى . وليس ذلك كل ما يميز صناعة ابن عبد كان ، فهناك

جانب تظهر بعض شياته فى تلك القطعة ، وهو جانب التصوير . والحق أن ابن عبد كان من أهم الكتّاب الذين ظهروا فى القرن الثالث لا فى مصر وحدها ، بل أيضاً فى بغداد نفسها ، وهو حقّاً ليس مصرياً وإنما هو بغدادى ، ولكن مصر هى التى ظفرت به ، وقد استطاع أن يحقق لها كثيراً من أحلامها فى منافستها لبغداد على عهد ابن طولون . وليس كل ما يذكر لابن عبد كان فى هذا الباب هو صورة كتابته وما بها من فن وجمال ، بل إن هناك وجهاً آخر لعمله ، وهو أنه وضع للكتاب فى مصر رسوم الكتب وبماذا تنتهى وكيف تُعَنْوَن[1] . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن ظهوره بمصر كان طفرة ، وربما كان اعتباره تتميما لحلقة بغدادية أدق من اعتباره ابتداء لحلقة مصرية ، فإن مصر تراجعت بعده فلم تستطع أن تخرج كاتباً ممتازاً فى عصر الولاة بعد الطولونيين ولا فى عصر الإخشيديين ، وكأنها أبقت الكاتب الممتاز لعصر الفاطميين .

٤

الفاطميون ونهضة النثر المصرى

ما نكاد نشرف على النصف الثانى من القرن الرابع حتى تبدأ مصر صفحة جديدة ، وهى صفحة زاهية من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والفنية ، فقد دخلها الفاطميون فاتحين عام ٣٥٤ هـ وأسسوا فيها إمبراطورية عظيمة دانت لها شعوب أفريقيا الشمالية وبلاد الشام والعرب وخُطب باسمهم فى العراق وبغداد نفسها [2] وحتى بلوخستان كانت تخضع لهم ، فابن حوقل يقول : إن أهلها كانوا يرسلون للخليفة الفاطمى بأموال وذخائر كثيرة [3] ، ويقول ناصر خسرو الذى زار مصر عام ٤٣٩ للهجرة : إنه رأى بالقاهرة طائفة من أبناء الملوك والأمراء

---

(١) انظر صبح الأعشى ٨ / ١٦٠ وما بعدها .

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٥ / ٤ وما بعدها .

(٣) المسالك والممالك لابن حوقل (طبعة ليدن) ص ٢٢٢ .

الذين جاءوا من أطراف العالم مثل أبناء ملوك جورجيا وملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان[١]، وأكبر الظن أن هؤلاء الأبناء كانوا بعوثاً لبلادهم تريد أن تنهل من منابع الثقافة الشيعية بمصر. وكل ذلك يؤكد عظم المكانة التى احتلتها مصر فى العصر الفاطمى، وهى مكانة أهَّل لها نظام الدعاة الذى أقاموه، فقد كان لهم دعاة منبثُّون فى كل صقع وفى كل ناحية يدعون لهم، يقول المعز فى كتاب أرسله إلى أحد قواد القرامطة: «ما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حُجَجٌ ودعاة يدعون إلينا: يدلُّون علينا، ويأخذون بيعتنا، ويذكرون رجعتنا، ويَنشرون علمنا، ويُنذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن»[٢].

استطاع الفاطميون أن يرتفعوا بالقاهرة فى عصرهم إلى مرتبة لا تقل عن مرتبة بغداد فى أيام مجدها الأولى، فقد بنوا فيها القصور الفخمة والمساجد الضخمة وزركشوا هذه القصور والمساجد بضروب مختلفة من الزخرف لا نبعد إذا قلنا إنها كانت منتزعة من حياتهم التى كانت تقوم على التأنق وهو تأنق ساعد عليه ثراء مصر الذى يبالغ المؤرخون فى وصفه، ولعل مما يدل عليه من بعض الوجوه ما يقوله ابن ميسر من أن خراج دمياط وتنيس والأشمونين كان يزيد على مائتى ألف دينار فى العام[٣]، ويقول ناصر خسرو: إنه رأى بالقاهرة رباطاً يحصل منه كل شهر ألف دينار، وأن بالقاهرة مائتى رباط أكبر منه أو مثله[٤]. ويظهر أن هذا الثراء كان يعم الشعب وخلفاءه ووزراءه، يقول ناصر خسرو: «رأيت فى مدينة مصر نصرانياً من سراتها قيل أن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تُعَدّ، وحدث فى سنة ما أن كان النيل ناقصاً وكانت الغلة عزيزة، فأرسل الوزير إلى هذا النصرانى، وقال، ليست السنة رخاء،

---

(١) سفرنامه لناصر خسرو (الطبعة العربية) ص ٤٦.

(٢) الاتعاظ للمقريزى (طبعة بونتز) ص ١٣٩.

(٣) أخبار مصر لابن ميسر (طبع أوربا) طبع لجنة التأليف ص ٥٣.

(٤) سفر نامه ص ٦٣.

والسلطان مشفق على الرعية ، فأعط ما استطعت من الغلة إما نقداً وإما قرضاً ، قال النصرانى : أسعد الله السلطان الوزير ، إن لدىّ من الغلة ما يمكننى من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات . وكل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغى أن يكون لهذا الثرىّ لتبلغ غلّته هذا المقدار ، وأى سلام كانت فيه الرعية ، وأى عدل كان للسلطان بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر »[1].

ويتكلم ناصر خسرو عن قصر الخليفة فيقول : إن قصره به نحو ثلاثين ألفاً من الخدم والحوارى ، وإنه رأى يوم فتح الخليج — وكان أحد الأعياد فى العصر الفاطمى — سرادقاً نُصب للسلطان على رأس الخليج ، وكان هذا السرداق من الديباج الرومى ، موشى كله بالذهب ، ومكلل بالجوهر ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس ، وأمام هذا السرداق خيمة من أبى قلمون ، وسرداق آخر كبير ، ويسير فى ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبه وأطواق وألجمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى وأبى قلمون ، وكذلك كانت تسير إبل كثيرة عليها هوادج مزينة وبغال عماريّاتها (هوادجها) مرصعة بالذهب والجوهر وموشاة باللؤلؤ[2]. ويستطرد ناصر خسرو إلى وصف مائدة رآها للمستنصر يوم العيد فيقول : إنه رأى فى هذه المائدة شجرة أعدت للزينة تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً[3]. ومن يرجع إلى ما رُوى عن ثورة الأتراك فى عصر المستنصر أثناء المجاعة العامة بمصر يرى مبلغ ما كان فى دور الفاطميين من بذخ وترف يقصر عنهما الوصف ، فقد هجم الأتراك فى ثورتهم على قصر المستنصر ونهبوا ما فيه من مجاميع التحف والطُّرَف وباعوه بأبخس الأثمان ، فمن ذلك سبحة من الأحجار الكريمة قُوِّمت بثمانين ألف دينار وصندوق من الجوهر قوم بثلاثمائة ألف دينار ، وأربع عشرة كيلة من

(١) سفر نامه ص ٦٢ .
(٢) سفر نامه ص ٥٢ .
(٣) سفر نامه ص ٦٤ .

الجواهر، وكثير من أوانى الذهب والفضة، وأربعمائة صندوق من القطع الذهبية، وحصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا، وشطرنج رقعته من الحرير، وقطعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس المحلّى بالأحجار الكريمة، وطاووس من الذهب رُصِّع بالجواهر وكانت عيناه ياقوتتين وريشه من الزجاج المموه بالذهب، وديك من الذهب مرصّع باللؤلؤ، ومنضدة قوائمها من العقيق . . . ومضرب للخليفة الظاهر كان منسوجاً بالذهب، ومضرب آخر للوزير اليازورى كلّفه ثلاثين ألف دينار، إذ اشتغل فى صنعه مائة وخمسون فناناً مدة تسع سنوات، وما لا يحصى من الطيب والعطور والثياب[1] وبجانب ذلك نجد المقريزى يقول: إن بنتاً للمعز تركتْ بعد موتها ألف ألف دينار وسبعمائة ألف[2]، ويقول صاحب النجوم الزاهرة: إن ابنة للحاكم تركت نيفاً وثمانين زيراً صينيًّا مملوءة مسكاً، ووُجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت زنتها عشرة مثاقيل، وكان إقطاعها فى السنة خمسين ألف دينار[3]. وإذا تركنا قصر الخلفاء إلى الوزراء وجدنا ابن منجب يقول: إن إقطاع يعقوب ابن كلس أول وزرائهم كان مائة ألف دينار فى العام، وقد خلف بعد موته من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار ومن البز (الثياب والسلاح) ما قيمته خمسمائة ألف دينار[4]، وقد ترك الأفضل بن بدر الجمالى الذى قتله الخليفة الآمر ستمائة ألف ألف دينار عيناً ومائتين وخمسين إردبًّا دراهم نقد مصر وخمسة وسبعين ألف ثوب أطلس[5]. وهذه كلها صور تشبه أن تكون أقاصيص، ولذلك اتهمها بعض الباحثين، ولكن اتهامه لا دليل عليه، فقد أجمع المؤرخون على صدقها وتوثيقها.

ونحن إنما سقنا هذا الوصف الطويل لثراء الفاطميين لننفذ منه إلى أنهم أوتوا مادة كفيلة بإحداث نهضة واسعة فى مصر سواء فى عقلها أو فى أدبها وفنها.

---

(١) خطط المقريزى ١/٤١٥ وما بعدها.
(٢) الخطط ١/٤١٥.
(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٩٢.
(٤) الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب ص ٢٣.
(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٢٢٢.

أما من حيث العقل وما يتصل به من الحركات العلمية ، فإن مصر شهدت فى العصر الفاطمى نهضة علمية واسعة ، إذ شجع الفاطميون على الدراسة والثقافة ، وأكبر الدلالة على ذلك أنهم عملوا على تأسيس أكبر جامعة فى الشرق ، وهى جامعة الأزهر ، ذلك المسجد الذى بناه جوهر الصقلى ، وسماه بالأزهر تيمناً باسم فاطمة الزهراء ، ويرجع الفضل فى تحويل هذا المسجد إلى دار كبيرة للدرس والتثقيف إلى وزير الفاطميين الأول يعقوب بن كلس ، فهو الذى حوله إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والمدنية[١] ، وكان بيته يعتبر نادياً (صالوناً) كبيراً فى عصره ، فقد « رتب لنفسه مجلساً فى كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ويحضره القضاء والفقهاء والقراء والنحاة وأصحاب الحديث ، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح ، وكان فى داره قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب »[٢] ، وتبع الوزراء يعقوب بن كلس يعنون بتشجيع الحركة العلمية . وبنى الحاكم داراً عظيمة للكتب سماها دار العلم « وحمل إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل سائر الناس إليها يقرءون وينسخون ، وأقيم لها خزانون وبوابون ورتب فيها قوم يدرسون للناس العلوم »[٣] . ولعل من الطريف أن الفاطميين — مع أنهم كانوا مقيدين بحملة خاصة فيها تحجر عقلى واسع — كانوا فى الوقت نفسه يدعون لدراسة الفلسفة والتعمق فيها حتى ليقول المقريزى : « إن من جملة المعرفة عندهم أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة »[٤] . ولعل سبب دعوتهم إلى التفلسف أنهم كانوا يؤولون الديانات والشرائع تأويلا يؤدى إلى تبديلها ، فاحتاجوا إلى اللسان الجدل المزود بالفلسفة حتى يحسن ذلك . ومهما يكن فإن مصر ظفرت فى العصر الفاطمى بنهضة علمية واسعة ، ولعل مما يدل على ذلك ما رواه المقدسى الذى زارها فى أواخر

---

(١) Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40.

(٢) وفيات الأعيان ٢/٣٣٤ .

(٣) خطط المقريزى ١/٤٥٨ .

(٤) خطط المقريزى ١/٣٩٥ .

القرن الرابع للهجرة من أنه رأى فى المسجد الجامع بها مائة مجلس وعشرة [١] ويقول ناصر خسرو : إن من رآهم فى مسجد الفسطاط لا يقلون فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغُرَباء والكُتَّاب الذين يحررون الصكوك والعقود [٢].

وهذه النهضة العلمية الواسعة كان يؤازرها نهضة أدبية واسعة أيضاً، فقد كان الفاطميون يرون من الضرورى لدعوتهم أن يكون حولهم مجموعة نفيسة من الشعراء والكتاب تنافح عن مذهبهم، وقد أتوا من المغرب وفى ركابهم ابن هانئ الأندلسى يريدون أن يفخروا به ويشعره على المشرق كما قال المعز أول خلفائهم بمصر [٣]، وهو فخر لم يقفوا به عند ابن هانئ، فقد عرفوا كيف يذيعون فى مصر نشاطاً واسعاً فى الشعر وصُنْعه بفضل جوائزهم ومكافآتهم، وقد خصص العماد الأصبهانى مجلداً كبيراً فى خريدته وصفَ فيه آثار الشعراء الفاطميين وما كان من نماذجهم. وبإزاء هؤلاء الشعراء وُجدت طوائف من الكتَّاب الممتازين استخدمهم الفاطميون فى دواوينهم، وعُنى الفاطميون بديوان الرسائل خاصة وسموه ديوان الإنشاء [٤]، وتكثر الإشارة فى الكتب التاريخية عمن كتبوا فى هذا الديوان. وهناك نص طويل تتناقله هذه الكتب، يصف تسلسل رؤساء الكتاب فى ديوان الإنشاء الفاطمى، نجده فى صبح الأعشى وفى النجوم الزاهرة وحسن المحاضرة، وجاء فى الكتاب الأول على هذا النحو : «لما ولى الفاطميون الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتَّابه، فارتفع بهم قدره، وشاع فى الآفاق ذكره، وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعةٌ من أفاضل الكتاب وبلغائهم، ما بين مسلم وذمى، فكتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور ابن نسطوروس النصرانى، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات فى أيامه فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر النهركى، ثم كتب بعده لابنه الظاهر، وكتب للمستنصر القاضى ولى الدين بن خيران

---

(١) أحسن التقاسيم (طبع أوربا) ص ٢٠٥.

(٢) سفر نامه ص ٥٩.

(٣) وفيات الأعيان ٢/٥.

(٤) انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى (طبع فان فلوتن) ص ٧٨ وكذلك كتاب تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ص ١٥١.

ثم ولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة، وأبو سعيد العميدى، وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أبى أسامة الحلبى إلى أن توفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى فى أيام الحافظ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفى، والقاضى كافى الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس وابن أبى الدم اليهودى، ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق بن الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد، وبه تخرج القاضى الفاضل البيسانى، ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محموداً الأنصارى (وهو ابن قادوس السابق) ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق بن الخلال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم»[1] وهذا النص الطويل له طرافته من حيث إنه يذكر أن الفاطميين لم يفرقوا بين مسلم وذمى فى وظائف ديوان الإنشاء، وما من ريب فى أن ذلك يدل على أنهم كانوا يطلبون لهذا الديوان مَنْ تفوّق فى تحبير الكلام وصوغه دون تفريق بين من هو من دينهم ومن هو من غير دينهم، ومن هو من نحلتهم ومن هو من غير نحلتهم، فالبليغ التام يتولى هذا الديوان بغض النظر عن دينه ومذهبه، فالبلاغة هى مقياسه وهى موضع تقديمه، ولعل مما يدل على مدى تقدير الفاطميين للكاتب الممتاز فى تلك العهود ما يرويه ياقوت عنهم من أنهم جعلوا راتب صاحب ديوان الإنشاء ثلاثة آلاف دينار فى الشهر غير رسوم يتناولها عن السجلات والعهود وكتب التقليدات[2]، وبينما يروى ناصر خسرو أن راتب قاضى القضاة كان ألفى دينار فقط[3].

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن النص الطويل السابق لكتاب دواوين الإنشاء

---

(١) انظر صبح الأعشى ١/٩٦، والنجوم الزاهرة ٧/٣٣٧ وحسن المحاضرة ٢/١٤٦.

(٢) معجم الأدباء ٤/٥.

(٣) سفرنامه ص ٦٥.

فى العصر الفاطمى إنما عرض لرؤسائهم فقط ، ومن يرجع إلى كتب التراجم ليبحث هؤلاء الرؤساء يجدها لا تهتم بهم فى الغالب ، وخاصة بالمتقدمين منهم ، وكتب القلقشندى بتفصيل وإسهاب عن دواوين الإنشاء فى مصر ومع ذلك لم يعرِّف تعريفاً واضحاً بهؤلاء الكتاب ، وأيضاً فإنه لم يُعْنَ بحكاية آثارهم إذا نحن استثنينا قطعاً منثورة فيه عن ابن الصيرفى وابن قادوس والموفق ابن الخلال[1] ، ومع ذلك فإن ما رواه عن هؤلاء الثلاثة لا يفسر فهم تفسيراً كاملا ، وهل نستطيع أن نحكم برسائل عارضة على فن كاتب إن لم تكن تلك الرسائل من أمهات رسائله ، ويتصل بذلك أن هؤلاء الثلاثة جميعاً إنما كانوا فى أواخر العصر الفاطمى ، فما شأن سابقيهم ؟ وأى آثار تركوها ؟ والحق أن المؤرخين خاصموا كتاب الفاطميين ولم يصفوهم وصفاً واضحاً ، بسبب ما كانت عليه دولتهم من تشيع ، وكان ينبغى أن يفصل هؤلاء المؤرخون بين بغضهم للفاطميين وتشيعهم ، وبين تقديرهم لآثار من نشأوا فى ظلال دواوينهم ، وإن الإنسان ليعجب حقاً إذ يرى نهضة الكتابة فى العصر الفاطمى لا تكاد تبين إلا من خلال السطور ، ومن أجل ذلك لم يتبين مؤرخو الأدب مدى ما كان فى هذا العصر من حركة أدبية مزدهرة ! وإن من يقرأ فى معجم الأدباء لياقوت يجده يذكر أن ابن خيران المتوفى عام ٤٣٢ هـ أرسل بمجموع رسائله إلى بغداد ليعرض على الشريف المرتضى كى يودعه فى دار العلم هناك[2] . ويذكر عن العميدى الذى رأس ديوان الإنشاء بعد ابن خيران أن له كتاباً فى تنقيح البلاغة يقع فى عشر مجلدات ، وأن له كتاباً يسمى الإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنثور ، وكتاباً آخر يسمى انتزاعات القرآن ، وإن فى هذين الكتابين ما يدل على ميل العميدى إلى نثر الشعر فى رسائله واقتباسه الكثير من القرآن الكريم ، وهما صفتان استمرتا فى النثر المصرى من بعده ، روى له ياقوت

---

(١) انظر فى رسائل ابن الصيرفى وابن قادوس صبح الأعشى ٨/ ٣٢٤ وما بعدها وانظر فى رسائل ابن الخلال صبح الأعشى ١٠/ ٣١٠ وكذلك ١٠/ ٣١٨ .

(٢) معجم الأدباء ٤/ ٥ .

شعراً واضحاً فيه أثر الجناس [١]، ولسنا ندرى هل كان يستخدمه فى نثره أولم يكن يستخدمه، لهذه السدود التى أقامها المؤرخون بيننا وبين آثار العصر الفاطمى، وأيضاً ليس لدينا نصوص واضحة عمن ولوا الديوان بعده فى عصر المستنصر، فقد توفى العميدى عام ٤٣٣ هـ وخلفه أبو الطاهر النهرجى، وليس تحت أيدينا له رسائل نتعرف منها على فنه، إنما الذى تحت أيدينا حقاً هو مجموعة من رسائل كاتب آخر لعهد المستنصر، ولم يكن من رؤساء ديوان الإنشاء، ولكنه كان من كتّابه الكثيرين وهو ابن الشخباء المتوفى عام ٣٨٢ هـ وربما كان أهم كاتب فاطمى احتفظت لنا المصادر بصورة واضحة من عمله، ونستمر بعد ابن الشخباء فنلتقى بابن الصيرفى الذى خدم فى الديوان من عام ٤٨٥ هـ إلى عام ٥٣١ هـ، ويقول ياقوت: إن له رسائل تزيد على أربع مجلدات، ولكن هذه المجلدات فُقدت، وما بقى من نثره لا يصوره تصويراً واضحاً، وكذلك الشأن فى ابن قادوس الذى خدم من بعده فى ديوان الإنشاء على الرغم من أن القاضى الفاضل كان يسميه صاحب البلاغتين، ولعل ما رواه صبح الأعشى عن الموفق بن الحلال يفصح بعض الشىء عن فنه، فى رسالة له تصنّع واضح لاصطلاحات النحو، إذ يقول فى بعض جوانبها [٢]:

« وراقب الله فيما ألقاه إليك، فقد فوّض إليك مقاليد البسط والقبض، والرفع والخفض، والولاية والعزل، والقطع والوصل، والتولية والتصريف، والصرف، والإمضاء والوقف، والغض والتنبيه، والإخمال والتنويه، والإعزاز والإذلال، والإساءة والإجمال، والإبداء والإعادة، والنقص والزيادة، والإنعام والإرغام، وكل ما تحدثه تصاريف الأيام ».

وإن مما لاشك فيه أن كتابة الرسائل بلغت فى العصر الفاطمى مبلغاً عظيماً من الرقى والاكتمال، بدت فيها منذ أوائل هذا العصر نزعة إلى السجع، فإن من يرجع إلى الكتاب الذى كتبه المعز لأحد قواد القرامطة — وهو كتاب

---

(١) انظر ترجمة العميدى فى معجم الأدباء ١٧/٢١٢.

(٢) صبح الأعشى ١٠/٣١٦.

٣٨٢

الأدب العربي
عصوره وفنونه وقضاياه ومختارات مدروسة من نصوصه

٢

في الأدب العربي القديم

عصوره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسة منه

المجلد الثاني

"العصر العباسي والأندلسي"

الدكتور محمد صبحي الشنطي

دار الأندلس للنشر والتوزيع
حائل

الفصل الأول

ظواهر موضوعية وفنية

في الأدب الأندلسي

الموشحات

أولاً ـ التعريف :

أ ـ اصطلاحاً : يُعرّف الموشّح أو (التوشيح) بأنه فن أندلسي وهو (كلام منظوم على وزنٍ مخصوص، والموشحة قطعة شعرية طويلة غالباً تتألف من مقاطع تترتّب فيها الأشطر والقوافي على نسق مخصوص، فإذا اختار الوشّاح (كاتب الموشّحة) نسقاً أو نظاماً معيناً في المقطع الأول من موشحته، وجب عليه أن يلتزم هذا النظام في بقية الموشّحة [١] .

ب ـ لغةً : هناك خلاف حول سبب التسمية ، ففريق يرى أن الموشح مشتق من الوشاح وهو « كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالفٌ بينهما معطوف أحدهما على الآخر » ،وفريق آخر يرى أن الموشّح هو (المُعْلَم) بلون أو خطّ يخالف سائر لونه، أو الثوب حين تكون فيه توشيّة (تلوين) أو زخرفة[٢] ، فقد تصوّر الأندلسيون هذا النوع من النظم كرقعة الثوب وفيه خطوط أفقية أو عمودية، فالأصل فيه وحدات كبيرة هي الأشطار، وجزّئت أجزاءً صغيرة تتابعت تتابع النقش، فالتفريع هو الأصل وبالتالي يكون مرتبطاً بالتخطيط والتلوين . أما نظام الوشاح فهو يقوم على الازدواج والمخالفة فخطا اللؤلؤ فيه معطوف أحدهما على الآخر ومخالف بينهما في نظام صارم ،ونظام الموشحة ليس

---

(١) د. عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، جـ ٤ الأدب في المغرب والأندلس إلى آخر عصر ملوك الطوائف ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ٨٤ ص ٤٢٢ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ط دار الكتب ، القاهرة د. ت) مادة وشح .

على هذا النحو المحدد القاطع ، ومع هذا فإن ولع الأندلسيين بذكر المجوهرات والحلى جعلهم ينصرفون إلى معنى المراوحة بين الجوهر واللؤلؤ [١] .

نشأة الموشح :

هناك آراء متعدّدة في نشأة الموشح فيما يلي :

١ـ النظرية الأجنبية التي ترى أن الموشح نبت غريب عن الأدب العربي، إذ يرى أصحاب هذه النظرية أن شعراء الأندلس قد تأثروا فيها بطرق منشدي الشعر الإسباني الأصلي فمالوا إليها في شعرهم العربى، ونظموا أبياتهم ومقاطعهم موافقة لأصول التلحين والغناء، فهو من وجهة نظرهم تقليد لشعر غنائي أعجمي، وهو ما قال به المستشرقان الإسبانيان (خوليان ريبيرا) و (منذريث بيدال) وقد أخذ بهذا الرأي عدد من الباحثين العرب [٢] وهذا رأى غير مقبول من جمهرة الباحثين لأسباب عديدة سيأتي ذكرها .

٢ـ النظرية الفنية ، وقوامها ما جـــاء في مقدمة ابن خلدون من أنّ أهل الأندلس « لما كثُر الشعر في قطرهم وتهذّبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنسيق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه سمّوه الموشّح ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً يكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون ذلك عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بَعُدَ إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراس والمذاهب، وهم ينسبون فيها ويمدحون كما يُفعلُ في القصائد، وتجاروا فى ذلك إلى الغاية، واستطرفه الناس جملة، الخاصة والكافّة لسهولة تناوله وقرب طريقته » [٣] .

---

(١) د/ إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، دار الافاق ، بيروت ، طه ٦ ، ١٩٨١ص ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) خليل تقي الدين ، وفؤاد أفرام البستاني ، وواصف البارودي ، الأدب العربي في اثار أعلامه ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٥ م ، راجع أيضاً عمر فروخ ، المرجع السابق ص ٤٢٤.

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ١١٣٧ ـ ١١٣٨ .

وواضح من هذا النص أن ابن خلدون يرجع نشأة الموشّح إلى التطور الفني الذي لحق بالشعر العربي في الأندلس مما استدعته ضرورة التجديد والتطوير .

٣ـ نظرية التطور (تطوّر الأنواع الأدبية) ، وقد أخذ بهذه النظرية ابن رشيق فى كتابه العمدة ، فقد أرجع نشوء الموشّح إلى لون آخر من ألوان القصيدة هو المسمّط من السمط وهو عقد مكوّن من عدة خيوط يسلك فيها اللؤلؤ والخرز تجتمع عند ياقوتة واحدة [١] .

ويرى هذا الرأي عدد من الباحثين مشيرين إلى أن الأدوار في المسمطة تقابل الأغصان في الموشّحة، وكل دورة مثل الغصن ـ يتألف من أربعة شطور أو أكثر تتفق في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة ، وهو يتحدفيها مع الشطور الأخيرة في كل دور من أدوار المسمط ، ويسمي من أجل ذلك عمود المُسّمط فهو القطب الذي يدور عليه، وهو يقابل المركز أو القُفل في الموشّحة، وكل ما بينهما من فروق أن الشطر في نهاية أدوار المسمّط واحد بينما هو في مراكز الموشّحة متعدد، وقد لاحظ ذلك الاندلسيون فانتبهوا إلى المماثلة بين الموشّحة والمسّمط، ولذا سمّوا الموشحة بهذا الاسم نسبة إلى الوشاح، كما سميت المسمّطة نسبة إلى السّمط وهو القلادة تنتظم فيها عدة عقوة تلتقي عند جوهرة كبيرة، ومن الأدلة على أن الموشحة بدأت محاكاة للمسمط أن القبري (الوشّاح الأول) كان يجعل اللفظ العامي أو العجمي مركزاً، وهو القفل ويصنع عليه أشطاراً ، وكان شطراً واحداً كما كان فى المسمط [٢] .

٤ـ النظرية الموسيقية ، وصاحبها ابن سناء الملك في كتابه دار الطراز، إذ يرى أن أكثر الموشحات مبني على تأليف الأرغن (وهو مزمار ذو قصبتين مُثقّبتين إحداهما أطول من الأخرى) ، وأن هناك ألواناً من الموشّحات لا يجسر على عملها إلا الراسخون من أهل هذه الصناعة (الموسيقى) ، وأن الموشّحات نشأت من حاجة المغنين إلى كلام

(١) راجع النص كاملاً في : ابن رشيق ، العمدة ، ١/ ١٤٩ وما بعدها .

(٢) د. شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات في الأندلس ، دار المعارف (د. ت) ص ١٤٩ .

يسايرون به الألحان، ولم يجد أصحابها في أوزان الشعر العربي ما يكفي لإشباع هذه الحاجة فكانوا يلقون بأسماعهم إلى الألحان التي يسمعونها ثم يؤلفون عليها الكلمات لذا كانت أوزان الموشحّات كثيرة عد منها بعض الباحثين مائة وستة وأربعين بحراً (١) .

ولكن هذه النظريات جميعاً عبارة عن فروض لا ينهض كل منها سبباً رئيساً في نشأة الموشحات، فهناك عوامل متعددّة أدت إلى هذه النشأة، بعضه مردُّه إلى الفنون التي كانت سائدة حيث شاعت الأزجال في الأندلس، وهي أشعار عاميّة قريبة من فن الموشح، والزجل فن عربي خالص، يؤيد ذلك (الخرجة) العامية فى الموشّحة الفصيحة ، فالزجل كان تقليداً للأغاني التي كانت شائعة ثم بدأت عملية التقريب بينهما وبين الفصحى كما يقول الدكتور إحسان عباس، فكانت الأغنية الشعبية السائدة مزيج من العوامل التي أدت إلى نشأة الموشح، بالإضافة إلى التجديد الموسيقي الذي أدخله زرياب (مغنٍ مشهور)، ومن بعده تلامذته فقد زاد هذا الموسيقار في أوتار العود وتراً خامساً، وجعل الغناء منازل، ليس هذا فحسب بل إن التفنن العروضي حيث قام ابن عبدربه برسم الدوائر العروضية واستخراج فروع الوزن الواحد في كتابه (العقد الفريد)، يؤكد ذلك ما أشار إليه ابن بسام في الذخيرة من أن (القبري الشاعر الوشّاح) كان يضع موشّحاته على أشطار الأشعار وأكثرها على الأعاريض المهملة (يقصد الأوزان المهملة المستخرجة من الدوائر العروضية) » (٢) وهذه الأعاريض كانت معروفة ولكنها غير مستعملة استدعت اللجوء إليها ضرورة الغناء والتلحين، وكان الموشح شائعاً قبل انتشار المسمطات في المشرق العربي مما ينفي تأثرها بها، وكثير من الموشحات جارٍ على غير الأوزان المألوفة في المسمطات .

---

(١) راجع ابن سناء الملك ، دار الطراز ، ص ٣٥ ـ ٣٩، وراجع عمر فرّوخ أيضاً ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة جـ ١ : ص ١ .

أول من كتب الموشّحات :

اختلف الدارسون في تحديد الشاعر الذي كتب أوّل موشّحة، إذ يرى ابن بسام في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) أن محمد بن حمود القَبريّ الضرير هو أول من صنع أوزان الموشّح، وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العِقد الفريد هو السابق إلى هذا الفن .

أما ابن خلدون (٨٠٨هـ) فيرى أنه مُقدّم بن مُعَافي القَبْريّ ، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، ثم أخذ منه صاحب العقد الفريد (أحمد بن عبد ربه) ولكنهما لم يبدعا في هذا المجال ولم يشتهرا به فكسدت موشحاتهما فبرع بعدهما المعتصم بن صمادح حاكم المريّة .

وبرجح بعض الباحثين أنه محمد بن محمود القبري مبررين ذلك بحاجة شاعر ضرير إلى أن يثبت ذاته وقول هذا اللون الجديد للتكسّب به . والحقيقة إن المتأمل في هذه المسألة يرى أنها كغيرها من الأوليات لا يمكن القطع بها ، وأن نشأة فن من الفنون لا يمكن إرجاعه إلى شخصية واحدة ، فمثل هذا الأمر الذي يشكل ظاهرة متسعة الأغلب فيه أن يكون قد بدأ بداية جماعية على أيدى مجهولين استحسنت طريقتهم فشاعت وتبلورت على أيدي شعراء بعينهم عرفوا بهذا الفن ، وهذا ما يؤكده تطور الموّشح عبر مراحل متعددة .

تطور الموشح :

أولاً ـ كان الموشّح في البداية عبارة عن أشطار كالقصيدة تنظم على أوزان مهملة ، أما ما يفترق به عن الشعر فهو ما يسمى بالقفل الختامي (وسيأتي توضيح ذلك إن شاء الله) وهو المركز ويكون عامّياً أو أعجمياً ، وهذا هو الطور الأول ، وقد بنيت على الأعاريض المهملة غير المستعملة .

ثانياً ـ في الطور الثاني أكثر الوشاحون من التضمين فى المراكز فعددوا الأجزاء أو الشطور .

ثانياً ـ يقول ابن بسام « كانت صنعَة التوشيح التي نهج الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ولا منظمة العقود ، فأقام عبادة بن ماء السماء منآدها ، وقوّم ميلها وسنادها فكأنها لم تسمع في الأندلس إلا منه ولم تؤخذ إلا عنه، وظلت الموشّحات تنظم على عروض الشعر العربي المستعملة أو المهملة» .

رابعاً ـ تجزئة الأشطار فيما بعد إلى أجزاء صغيرة [١].

خامساً ـ الإكثار من التفريع وتجزئة الأشطار .

وقد نسب الطور الأول إلى القبّريّ وابن عبد ربه، والطور الثاني إلى الشاعر الرمادي والطور الثالث إلى عبادة بن ماء السماء ،ثم سار الموشح في طريق التطور وتعددت أشكاله وأنماطه ، فإذا كانت الموشحات قد ظهرت في أواخر القرن الثالث ، فإن القرن الرابع قد شهد اهتمام معظم الشعراء في الأندلسي بهذا الفن، ويعتبر عصر ملوك الطوائف هو عصر الازدهار ، وفي عصر المرابطين ظهرت ألوان جديدة برع فيها الأعمى التُّطيلي وابن بقي وأبو بكر الأبيض ، وقد انفرد ابن سهل شاعر إشبيلية وسبتة فى القرن السابع بالشهرة في هذا المجال، أما القرن الثامن فقد نبغ فيه لسان الدين بن الخطيب وانتهت إليه زعامة هذا الفن، وكان من تلاميذه (ابن زُمرك) وجاء بعده ابن عاصم وغيره من الوشاحين المبدعين .

بناء الموشح (الشكلي العروضي)

يتألف الموشّح من أجزاء وهو كالبناء المتراكب، وقد اصطلح على تسمية هذه الأجزاء بأسماء محددّة أصبحت علمية محددة ، وأجزاء الموشّح هي : المطلع أو المذهب، والقفل والخرجة والغصن والدَّوْر والسَّمط والبيت :

أولاً ـ المطلع : وهو يطلق على الجزء الأول أو القفل الاستهلالي في الموشّحة، ويتألف عادة من شطرين أو أربعة أشطر، وهو في الموشحة التي اخترناها للسان الدين بن

(١) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (مرجع سابق) ص ٩٥.

الخطيب . يتمثل في قوله :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى يا زمانَ الوَصْلِ بالأَنْدُلسِ
لَمْ يكُن وصلك إلا حُلما في الكرى أو خِلْسَةَ المُخْتَلِسِ

وقد تختلف قافية الشطرين كما هو الحال هنا أو تتفق كما في موشحة لابن اللّبانة يقول فيها :

سامروا من أرقا وارْحَموا من عَشِقا

فالقافية (القاف) موحّدة في الشطرين .

ثانياً ـ القُفْل، وهو الوحدة النظمية المتكررة في الموشّحة المتفقة مع المطلع في وزنه وقافيته وعدد أجزائه وهو هنا في موشحة ابن الخطيب (القفل الثاني بعد المطلع) .

وروى النُّعمانُ عن ماء السّما كيف يَروي مَالكٌ عن أَنَسِ
فكساهُ الحُسْنُ ثَوْباً مُعْلما يزدْهي فيه بأبهى مَلْبَسِ

ثالثاً ـ الخرجة : وهي القُفْل الأخير من الموشّحة، وهي هنا مطلعُ موشحة ابن سهل التي عارضها ابن الخطيب :

هل درى ظَبيُ الحِمى أَنْ قَدْ حَمى قلبَ صَبّ حلّهُ عن مكنسِ
فهوفي حرٍ وخَفْقٍ مثلما لَعِبتْ ريحُ الصَبا بالقَبَسِ

والخرجة أنواع هي :

١ـ الخرجة المعربة الألفاظ (الفصيحة) .

٢ـ الخرجة الملحونة الألفاظ (العامّية) .

٣ـ الخرجة الأعجمية (بغير العربية) .

ويشترط ابن سناء الملك ـ وهو أول من نَظَّر لهذا الفن في كتاب (دار الطراز) ـ في الخرجة أن تكون :

أـ عامية حادة، فإذا أعربت لا يكون الموشح من هذا الفن، أما في المدح فيمكن بل يستحسن أن تكون معربة .

ب ـ وإذا كان لا بد أن تكون معربة في غير المدح فيجب أن تكون (هزازة سحّارة) على حد تعبيره .

جـ ـ يجب أن يقدم لها بما يُمهِّد لظهورها مثل قال، وقلت، وغنى وغنّيت على لسان الحمام أو الغرام أو الهيجاء أو غير ذلك .

رابعاً ـ الغصن : ويقصد به كل شطر من أشطر المطلع أو الأقفال أو الخرجة في الموشح، وتتساوى الأقفال والخرجة مع المطلع من حيث عدد الأغصان وترتيبها وقوافيها.

خامساً ـ الدّور ، والدور هو ما يأتي بعد المطلع في الموشح التام وإن كان الموشح غير تام (أقرع) فإن الدور يأتي فى مستهل الموشّح، فأول دور في موشحة ابن الخطيب التي اخترناها يتمثل في قوله :

إذ يقـــود الدهرُ أشـــتـــات المنى ... تنـقُلُ الخطـو علـى مـــــا يـرسـم
زُمراً بـين فـــــــــرادى وثـنـا ... مـثلمـا يدعـو الحـجـيجَ الموسِمُ
والحـــيَا قـــد جللَّ الروضَ سنا ... فـــشـــغُور الزّهرِ فـــيـــهِ تبـــسمُ

والأدوار في أغلب الموشّحات لا تتجاوز الخمسة وخصوصاً (الموشّحات الغنائية) أما « الموشّحات الشعرية فلم يتقيد الوشّاحون فيها بعددٍ مُعيَّن من الأدوار وقد بلغ عدد الأدوار في موشّحة لسان الدين بن الخطيب عشرة .

سادساً ـ السِّمط : يطلق على كل شطر من أشطر الدور ، ولا يقلُّ عدد الأسماط فى الدور الواحد من الموشح عن ثلاثة . وعدد أسماط الدور الأول يلتزم في بقية الموشّحة.

سابعاً ـ البيت : يتكون في الموشحة من الدور ومن القفل الذي يليه مجتمعين . فالبيت الأول في موشحة ابن الخطيب هو :

من « إذ يقود الدهر أشتات المنى » إلى قوله : « يزدهي منه بأبهى ملبس » والبيت

فى الموشّحة نوعان بسيط ومركب ، فالبسيط ما كان أعدادُ أسماط دوره ثلاثة ، أما البيت المركب في الموشّحة فهو ما تألف كل سمط من دوره من فقرتين أو ثلاث أو أربع أو خمس فقرات من أمثلة ذلك قول أبي العباس التُّطيلي :

لله مـــا أقـــربَ * علـى مُحـــبـــيّه * وأبـعَدَا
حلـوُ اللـمي أشـنـبُ * آسـى الـضـنـى فـيـــه * وأَسْعَدا
أحْبِبْ بـه أحْبَبِ * ويـا تجـنّيـــــه * طـالَ المَدى
أمـــاَ ترى حـــزني * ناراً على قلبي * تحـــرق!
حُبـي لَهُ جـنّة * يـا مـــــاءُ يـا ظـلُّ * يـا رَوْنَقُ

موضوعات الموشحات :

طرقت الموشّحات العديد من الموضوعات، **فمنها ما عالج أكثر من غرض كوصف الطبيعة والغزل والخمرة**، ومن الموشحات ما استقل بغرض واحد من هذه الأغراض التي تعتبر محاور أساسية للموشحة، ولكن ذلك يبدو نادراً، والجمع هو الغالب ومن أغراض الموشحة أيضاً الحنين إلى عهد الشباب والمديح، وقد غزل هذا الفن موضوعات بعيدة عن طبيعته كالتصوف كما فعل محيي الدين بن عربي والششترى .

ومن الموشحات الشهيرة التي قيل فيها أن جماعة من الوشّاحين اجتمعوا في أحد المجالس في اشبيلية، وقد استحضر كل واحدٍ منهم موشحة ألفها وتأنّق فيها، فتقدم الأعمى التطيلي وأنشدها فمزّق كل واحد منهم موشّحته ومنها :

ضـــاحكٌ عن جـــمـــانْ ســـــافـــــرٌ عـن بـدرِ
ضـــــاقَ عنّه الـزّمـــــان وحـــــواهُ صـــــدري

* * * *

٢٩٣

أه مما أجدْ ... شفني ما أجد
قام بي وقعدْ ... باطشٌ متئد
كلما قلت قدْ ... قال لي أينَ قدْ
وانثني خوط بان ... ذا مهزٌ نضرِ
عا بثته يدان ... للصبا والقطرِ

ومن الواضح ـ كما لاحظ الدارسون ـ **أن غزل الموشحات يخلو من اللوعة ومن العمق الوجداني**، وذلك بسبب انشغال الشاعر بالجانب الشكلي وبالألفاظ، فالتزيين والزخرفة هما هم الموشّح، كما أنه إنما يعد شعراً للغناء في المقام الأول، غير أن الوشّاحين الكبار استطاعوا أن يتجاوزوا ذلك وأن يقرنوا إلى جمال الشكل وعذوبة الألفاظ عمق المعني وعذوبة المشاعر وروعة التصوير .

هل درى ظبيُ الحمى أن قد حمَى ... قلبَ صبٍّ حله عنَ مكْنَسِ (١)
فهو في حرٍّ وخفقٍ مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقبس (٢)

يا بدوراً أطلعت يوم النوى ... غُرراً تَسْلكُ في نهج الغَرَر (٣)
ما لقلبي فى الهوى ذنب سوى ... منكُم الحسنُ ومن عيني النظَرِ
أجتني(٤) اللذات مكلوم الجوَى ... والتذاذي من حبيبي بالفكَر
كلما أشكوهُ وجَدى بسمَا ... كالأُلى بالعارضِ المنبجس (٥)
إذ يقيم القَطْرُ فيها مأتماً ... وهي من بهجتنا في عُرُسِ (٦)

---

(١) الظبى الغزال ، الحمى : ما يُذاد عنه ، المكنس : مأوى الظبي . (٢) القبس : النار .
(٣) غرر : ذات جبين أزهر ، الغَرَر لهو الصبا .
(٤) أجتني اللذات : أحصل واستمتع بما يلذ ، مكلوم : مجروح .
(٥) العارض المنبجس : المطر الهطال ، الوجد : الشوق . (٦) القطر : المطر .

ومن الواضح أن الشاعر استثمر العديد من القيم الجمالية دون أن يفرط في القيم الشعورية، ومن أبرز هذه القيم أسلوبه في السبك فقد رصف عدداً من الأفعال والأسماء المنتهيه بالألف في تتابع إيقاعي ناجم عن الانسجام الصوتي، وعضده بالتماثل اللفظي والصوتي من خلال تكرار حروف بعينها كالحاء والميم والباء، وجاءت المصادر المتعاضدة المعنى (الحرَ والخفق) الدالة على المعنى المطلق في مبالغة مقصودة وتكثير متعّمد، وجاءت الصورة ذات سمة إطلاقية أيضاً لتوسع أفق الإحساس بالحرارة، فريح الصبا والقبس وهما المشبه به غير محددين، كما هي المصادر غير محددة بزمان أو مكان، وفى هذا الإطار تأتي عملية التنكير في النداء « يابدوراً »، وكذلك التجنيس اللفظي غير التام من أجل التوزيع الإيقاعي الغُرَرْ والغَرَرْ، وهذا التجانس في إطار التخالف يتضمن تماثلاً من نوع آخر يتمثل في بدور ودور، وتقديم الجار والمجرور مع حسن التقسيم في البيت الذي يليه مع تساوق السينات المتتالية أثرى النغم بالإيقاع .

وكذلك تتابع اللامات والتاءات والحروف الحلقية في قوله:

أجـــتني اللذّات مكلومَ الجـــوى والتـــذاذي من حـــبـــيـــبي بالفِكر

وجاءت المشاهد الطبيعية التي التقطها الشاعر، وخصوصاً تلك التي اتكأت على المطر مع التلوين في عناصر الصورة ما بين إبراز للحركة واللون في ريح الصبا والقبس أو الاثنين معاً مع عنصر الصوت (العارض المنبجس)، أو المقابلة بين المتضادات المتشابهات في آن : القطـــر الذي يقيم مأتماً، وكأنه دموع منهمرة، والأُلى المبتهجة لما أغدق عليها « وهي من بهجتنا في عُرس » هذا الجمع بين المتناقضات يعتمد على عنصر التخييل المحض منفصلاً عن خلفيته النفسية ، ومع هذا فإننا يمكن أن نلمح فيه تعبيراً عن الاضطراب الداخلي نتيجة للموقف الوجداني العنيف .

ومن الموضوعات التي عالجتها الموشحات بالإضافة إلى الغزل مجالس اللهو والأنس، والمديح، وقد أشرنا إلى لسان الدين بن الخطيب وموشّحته « جادك الغيث » وهي فى

المديح أما الرثاء فإنه ـ على الرغم من ارتباطه بفن الغناء ـ كان موضوعاً من الموضوعات التي طرقها فن التوشيح ، وفى اعتقادي أن الرثاء ليس بعيداً عن هذا المجال، لأن الندب يمكن أن يعتبر من صميم الغناء ، فالترجيع الحزين الذي يرافق مثل هذه المناسبات قريب إلى هذا الفن ولست مع أولئك الذين يرون أن ثمة تضاداً بين اللونين المشار إليهما . ومن موشحات الرثاء المشهورة مرثية ابن حزمون لأبي الحملات القائد البلنسي الذي قتله النصارى :

يا عينُ بكّى السّراج ... الأزهر النّيرا اللامعْ
وكانَ نعمَ الرّتاجْ ... فكّرا كي تْنثرا المدامع
من آل سَعدٍ أغَرّ ... مثل الشهاب المتّقدْ
بكّى عليه جميْع البشْر ... عليه لما أن فُقد
والمشرَفيُّ الذّكر ... والسْمهَرىُّ المُطرَد
شق الصفوف وكرّ ... على العدوّ متّئد

وقد احتال الشاعر لتطويع المُوّشحة لهذا الفن فاعتمد بشكل رئيس على بناء الصوّرة أكثر من اعتماده على الإيقاع وإن كان حاول التفّنن في التشطير والتفريع والتقسيم ، من الصور التي ابتكرها الشاعر استغلال السّراج كعنصر اساسي في الصورة فثمة مشاكلة بين السّراج والعين، وقد خلع على السراج كافة الصفات التي تجعل منه رمزاً للبهجة والتألق، وكما أن العين بمثابة سراج يرى الإنسان من خلاله ضروب الأشياء سارّها ومحزنها فإنها لكثرة بكائها سوف ترغم مثيلها وهو السراج على البكاء وبالتالي تنهار كل مقومات البشْر والفرح،كذلك فإن الانتقال المفاجيء إلى المرثي وتشبيهه بباب الحصن الذي تناثر كما تتناثر دموع العين وصل الكلام من طريق خفي، فسد الثغرة المعنوية التي بدا معها الكلام غير متصل، وهذه العلائق الصورية التي حلت محل

العلائق المعنوية تنبيء عن قدرة الشاعر المتميزة ، أما تشبيهه بالشهاب والسيف والرمح فهي صور جزئية شائعة ، وأهميتها تتأتى في أسلوب صياغتها ، وليس في معناها فليس ثمة عمق معنوي أو وجداني ، وكما هو معروف فإنه إذا طغى الشكل وزاد الاهتمام به افتقر المضمون واتسم بالسطحية .

أما فيما يتعلق بالتصوّف فقد كان للموشحات فيه نصيب من ذلك ما قاله المتصوف الشهير ابن عربي :

سـرائرُ الأعـيـان * لاحَتَ على الأكـوان * للناظرين
والعـاشق الغـيـران * من ذاك في حران * يبدى الأنين

*****

يقـول والوجـد أضناه والبُعـدُ قـد حـيّره
لمادنا البُعـدُ لم أدر مَن بعُد قـد غـيّره
وهيّم العـبـدُ والواحُد االفَرْدُ قـد خـيّره

******

في البـوح والكتـمـان والسّر والإعـلانُ في العـالمين
أمـا هـوَ الديّان يا عـابدَّ الأوثـانَ أنتَ الضنين

يتحدث عن أنّ الأشياء تكشف عن أسرارها لأولئك الذين هاموا حبّاً في الله في حرّان التي هي في البادية، يكني بها عن شدّة الظمأ للخالق جل وعلا، وينعي على عابد الأوثان بخله بالجهد لتنقية روحه، والأوثان هنا الأشياء المادية، ومعروف أن لغة المتصوّفة حافلة بالرمز ، وللكلمة عندهم ظاهر وباطن، فهم يتخذون من العاشق رمزاً للمتصوف العابد .

ومن شعراء الموشّحات **ابن عُبادة القزّاز المعروف بابن القزاز من إقليم غرناطة** ، وكان على علاقة بابن المعتمد بن عباد، وقد اختاره المؤرخ الأول للموشحات ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » مع خمسة شعراء جعلهم عماد حديثه عن هذا الفن، وهم ابن اللبانة والأعمى التطيلي ويحيي بن بقي من عصر المرابطين وابن زهر من عصر الموحّدين وقد تميز برشاقة ألفاظه فقد كان دقيقاً في اختيار الألفاظ ذا حساسية موسيقية، وله موشحة مشهورة جعلت بعض الباحثين يقولون عنه « كُلُّ الوشّاحين عيال على عبادة القزاز » لقوله من موشحة مشهورة له :

بَدْرتَمْ شَمْسُ ضُحـــــــــى غُصْنُ نقـــا مـــسكُ شم
مـــا أَتَمْ مـــا أَوْضَحـــا مـــا أَوْرَقـــا مـــا أنَمْ
لاجرَم مـن لَمَحـــــــا قـــد عَشِقـــا قـــد حُرِمْ

وله أربع موشحّات أخرى إحداها غزلية والثانية ذات موضوع جديد يتمثل فى وصف عَرْضٍ لأسطول المعتصم فى البحر المتوسط وأخرى مدح فيها المعتصم بن صمادح أو المعتمد بن عباد :

بَحْرا نِعـمْ لمـن وَرَدْ ظَمـــــآن سـيـــفـــا نقم لمن مَرَد أو حـــان

أما يحيي بن بقى القرطبي الذى سافر إلى بلاد المغرب وعانى من الاغتراب والحرمان إلى أن تدفقت الأموال غزيرة في يديه بعد اتصاله ببني عشرة (قضاة سلا) بالقرب من الرباط فأفاض عليهم من مديحه قصيداً وموشحات وأهمها الموشّحَة التي مدح بها القاضي أحمد :

أمـــا ترى أحـــمـــدْ في مَجـــدِهْ العـــالي لا يلحقُ
أطلَعَهُ المغـــــربُ فـــأرِنا مِثلَهُ يا مـــــشـــــرقُ

ولم تقتصر صناعة التوشيح عنده على المديح بل كان له باع طويل في الغزل من

ذلك بعض ما ذكره ابن سناء الملك :

يا ويحَ صبٍّ إلى البـــــرق له نَظَر وفـي الـبـكـاء مـع الـوُرْقِ لَهُ وَطَرْ

أما أبو بكر بن زُهرْ الإشبيلي فقد كان طبيباًوفقهيا ومحدثاً حفظ صحيح البخاري بأسانيده، وله إلمام بأدب المشرق، وكان يحفظ شعر ذى الرُّمة، وكان على صلة بأمراء الموحدين وعُرف بموشحته المشهورة :

أيُهـــا الســـاقي إليكَ المسُشْتكى قَدْ دعـــــــونـاكَ وإن لـمْ تـسْمَعِ

ونـــديمٍ هـــمـــتَ فـــي غُرّته .. إلـــخ

ومن الواضح أن أساس فن التوشيح لدى هؤلاَء الشعراء الذين أشرنا إليهم هو الاحتفال بالنغم وكانت مخالفتهم بين قوافي الأقفال وقوافي الأغصان، مما يثري الموشحة من الناحية الموسيقية، فقد استطاعوا أن يعوضوا ما أدى إليه هذا التنوع والمخالفة من إيقاع برشاقة الألفاظ وسلاستها وبتقصير الشطور وحسن تقسيمها.

ظاهرة النساء الشاعرات في الأندلس :

لم يخلُ عصر من العصور في الأدب العربى من الشاعرات ، غيرأن تلك الشاعرات كان لهنّ عالمهن الخاص، وإن اختلطن بالرجال ففي حدود وبمقدار، حتى فى العصر الحديث، فإنه من النادر أن نجد شاعرةً تتصدر مجلس حاكم أو أمير أو تتصدى لمهاجاة شاعر أو مناظرته أو توغل في الغزل وتتهتك فيه، في حين نجد شاعرات يفعلن ذلك في الأندلس، ويخرجن عن هذه الحدود فيتغزّلن غزلاً غير مألوف، ولعل مَرَدَّ ذلك إلى طبيعة المجتمع الأندلسي الذى شهد طفرات فى مختلف المجالات، فهو يتكون من شرائح مختلفة الأصول والأعراق والأمزجة والثقافات كما سبق أن أشرنا من قبل، وكان للمرأة فيه وضع خاص، إذ كانت بعض النساء يركبن مع رجالهن في المواكب خصوصاً الأمراء، إذ يروي عن عبد الرحمن الأوسط أنه قال لحاجبه عيسى بن شهيد وقد طال عليه المرض « إن بعض كرائمنا سألتنا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للنزهة على

مقتضى العادة، فاخرج من فوْرك فانظر في إقامة ما يحتاج إليه للنزهة على مقتضى العادة واعجل بذلك فإنا متحركون في صبيحة غد» وقد أشار ابن حزم إلى أن الأميرات الأندلسيات كن يبرزن سافرات، وثمة ما يشير إلى أن نساء البيت الأموي في الأندلس كن مثقفات يقمن الندوات والأمسيات وكانت نساء الطبقة الارستقراطية يقلدنهن .

وهكذا فإن بروز هذه الظاهرة في الحياة الأدبية مما يثير الاهتمام، ورأينا هنا ـ أن نستعرض نماذج من أشعار بعضهن .

حسّانة التميميّة :

لا تمدنا المراجع بمعلومات ذات بال عن هذه الشاعرة التي تعتبر من أشهر شاعرات الأندلس، وتعتبر أول شاعرة عربية حرة ظهرت في الأندلس، فهي من مواليد إلبيرة عام ١٥٤ هـ، وكان والدها شاعراً، ولما توفي والدها لجأت إلى الحكم أمير الأندلس آنذاك وأنشدته قصيدة عصماء على شاكلة المطوّلات المشرقيّة جاء فيها :

إني إليكَ أبا العاصى موجعةٌ ... أبا الحُسين ، سقتُه الواكفُ الديمُ
قد كنت أرتع في نعماه عاكفةً ... فاليومَ آوي إلى نُعماك يا حكمُ
أنت الإمامُ الذي أنقاد الأنام له ... وملكتَهُ مقاليدَ النُّهى الأُمَمُ
لا شيءَ أخشى إذا ما كنت لي كنفاً ... آوى إليه ولا يعروني العدمُ
لا زلتَ بالعزّة القعساء مُرْتَدياً ... حتى تذِلُّ إليكَ العُرْبُ والعجَمُ

ومن الواضح أن هذه الأبيات تتميز بعدة ظواهر أسلوبية ذات طابع مشرقي كالإيقاع الجهير والألفاظ ذات الجرس الفخم والصور المألوفة وخصوصاً الكنايات والأنماط التعبيرية السائدة في قصائد المدح خصوصاً إلى حد الاقتباس المباشر مثل « مقاليد النهى الأمم » و « العزة القعساء » وما إلى ذلك ، والتوسلات المعروفة مما يذكّرنا بقول الحطيئة :

أنتَ الأمينُ الذي من بَعـدِ صـاحـبِه ... القت إليك مـقـاليـد النُّهى البَشـرُ

كذلك فإن السمة الأنثوية الملتمسة للحماية فهي أيضاً من الملامح التي تميّز أسلوب الشاعرة وتمنحها خصوصيتها .

وقد أعجب الحكم بهذه القصيدة ورتّب لها جراية شهرية ، غير أنه بعد موت الحكم أساء إليها عامله جبار بن لبيد فشكته إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط في قصيدة قالتها فيها :

لِيَجْبُر صـدعَي إنه خيـرُ جـابِر ... ويَمْنعْني من ذي الظلامـةِ جـابرِ
فـإني وأيتـامي بقـبـضـةَ كـفِّه ... كذي ريشٍ أضحى في مخالبِ كاسرِ
جـدير بمثلي أن يُقـالِ مـروءة ... لموت أبى العاصي الذي كـان ناصري
سقـاه الحَيـا لو كـانَ حيّاً لما اعتـدى ... علىّ زمـانٌ باطش بطش قـادرِ
أيمحـو الذي خَطتّه يُمناه جـابرٌ ... لقـد سامَ بالأمـلاكِ إحـدى الكبـائر

ومن الواضح أن الروح الأنثوية تسرى فى النص معبرة عن الانكسار والخضوع ، وحتى إيقاع الأبيات التي جاءت على بحر الطويل تعكس هذه الروح، والصورة التي تمثل الضعيف بين مخالب القهر والاسترحام والدعاء،كل ذلك يعبر على نحو جلي عن محنة امرأة مهضومة الحقوق تستنجد وتستغيث .

وقد هب عبد الرحمن الأوسط لنجدتها التي استثارت منابع العطف ، وأمر بعزل الوالى ،ومما قالته :

ابنُ الهـاشـمين خـيـرٌ الناس مـأثرةً ... وخـيـرُ لـومـاً لـروّاد
إن هـزّ يـومَ الـوغـى أثـنـاء صَعْدَتِه ... روى أنابيـبـهـا من صـرف فـرصـاد
قل للإمـام أيا خـيرَ الورى نسـباً ... مـقـابلاً بين آباءٍ وأجـدادِ
جوهدت طبعي ولم ترض الظلامة لي ... فـهـاك فـضل ثناءٍ رائح غـادِ

٤٠١

فإن أقمت ففي نعماك عاطفة وإن رحلَت فقد زوّدتني زادي

وقد لاحظ بعض الباحثين أن هذه الأبيات وغيرها من أشعار الشاعرة حسانة يمثل **خصائص أندلسية بارزة منها :**

التركيز العاطفي و التجويد الفني، والحقيقة أن هاتين الخاصتين ليستا حكراً على الشعر الأندلسي، فالسّمة الأولى أُنثوية خالصة نجدها ماثلة في شعر المرأة أياً كانت وحيثما ظهرت، أما السمة الثانية فهي عامة نجدها لدى كل شاعرة صناع تهتم بشعرها وتعمل على تجويده، و الصورة التي تمثل أيتامها في قبضته الكاسرة دليل ساطع على إحساسها بالظلم وعلى شعورها بالاضطهاد .

أما الشاعرات الأخريات فينقسمن إلى قسمين :

الأول ـ يضم الشاعرتّ الجواري مثل الجارية العجفاء، و هي وافدة من الشرق ، جارية رجل مغمور يدعى مسلم بن يحيي، وكانت شاعرة ومغنية وعازفة على العود نحيلة دميمة ، عوضها الله عن تلك الدمامة صوتاً رخيماً وبياناً ساحراً ، وقد اشتراها عبد الرحمن الداخل بعدما تناهى إلى سمعه ما تمتاز به :ـ

من شعرها :

برح الخفاء فأيما بِكَ تكْتُمُ ولسوفَ يَظْهَرُ ما تُسِرُّ فيعلمُ
مما تضمن من عزيز قَلْبُه ياقلبُ إنك بالحسان لمُغرَمُ
ياليتَ أنك يا حسامُ بأرضنا تُلقى المراسي طائعاً وتخيّمُ
فتذوقُ لذة عَيشِنا ونعيمَه ونكونُ إخواناً فماذا تنقمُ

ويضم أيضاً « **قمر** » وهي كما يدل عليها اسمها مشرقية صبوحة الوجه ذكيّة وقد جلبت من بغداد لابراهيم بن الحجاج الذى استقل بإشبيليه زمن عبد الرحمن الأوسط ،

٤٠٢

وكانت معاصرة للشاعر الاندلسي الأديب المشهور ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وكان الحنين يعاودها إلى مهد طفولتها في بغداد فتنشد :

آهاً على بغـــدادها وعِراقـــهـــا وظبـائهـا والسّحـرُ في أحـداقِهـا
ومـجـالهـا عند الفـرات بأوجـه تبـــدو أهلّتُهـــا على أطواقِهـــا
مـتـبـخـتـراتٌ في النعـيمِ كـأنّمـا خُلقَ الهـوىَ العـذريُّ من أخـلاقِهـا
نفـسي الفـداء لهـا فـأي مـحـاسنٍ في الدهر تشـرقُ من سنا إشـراقِهـا

الثاني يضم الشاعرات الأندلسيات ومنهن :

عائشة القرطبية وتنتمي إلى أحد البيوتات العربية الكبرى فى قرطبة توفيت عام ٤٠٠للهجرة ، ماتت دون أن تتزوج وهي تقول في ذلك:

أنـا لـبْوَةٌ لـكـنـي لا أرتـضـي نفـسي مُناخـاً طولَ دهري مِنْ أحـد
ولو أنني أختـارُ ذلك لم أُجب كلبـا وكم أغلقت سـمـعي عن أسـد

ولها مدائح مرتجلة من ذلك قولها وقد دخلت على المظفر بن الحاجب المنصور وبين يديه أحد أبنائه :

أراك الله فـيـه مـا تريُد ولا بَرحَت مـعـاليـه تزيدُ
فَقَد دلت مـخـايلهُ على مـا تؤمِّلُهُ وطالعـهُ السـعـيـد
فـسـوفَ تراهُ بدراً في سـمـاءٍ من العَليـا كـواكبُـه الجنودُ

وحفصة بنت حمدون الحجارية، كانت ذات جاه ومكانة في بلدها (وادي الحجارة) ، وكانت أول أندلسية تقول الغزل وتفخر مُدلّةً بنفسها :

لي حـبـيبٌ لا ينثني لعـتـابِ وإذا مـا تركـتُه زادَ تيـهـا
قـال لي هل رأيتِ لي من شـبـيـه قلت أيضـا وهل ترى لي شـبـيـهـا

٤٠٩

والغسّانية البجانية، وهي من بجانة قرب المرية ، مُقلّة على عكس الحجارية فقد كانت مكثرة، لها شعر في الشكوى والغزل و المديح وقد مدحت الأمير خيران العامري فقالت في مقدمة القصيدة :

أتجزعُ إن قالوا سترحل أظعانٌ وكيف تطيق الصبر ويحك إذ بانوا
عهدتهم والعيش في ظل وصلهم أنيق وروض الوصل أخضر فينانُ

ومن الواضح أن هذه الأبيات تسري فيها روح نثرية فقيرة إلى الإيقاع باردة العبارة منطفئة وهذه الأبيات لا تشير إلى أنها في مقدمة قصيدة مديح بل هي أقرب إلى التشاؤم والحزن .

ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري التي نشأت في إشبيلية وكانت معلمة للنساء، بلغت السبعين إذ تقول :

وما يرتجى من بنت سبعين حجة وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصا وتمشى بها مشي الأسيرِ المكبّلِ

وقد حفظت كتب الأدب مساجلة بينها وبين الأمير الأموي عبيد الله بن محمد بن المهدي، فقد أرسل لها يوماً بعض المال ومعه رقعة كتب فيها :

مالي بشكر الذى أوليت من قِبَل لو أنني حزتُ نطقَ اللسْنِ في الحْلَلَ
يا فذّة الظرف فى هذا الزمان ويا وحيدة العصر في الإخلاص والعمل
أشبهت مريماً العذراء في ورَع وفُقت خنساء في الأشعار والمثل

فأجابت :

من ذا يجاريكَ في قولٍ وفي عَملٍ وقد بدرت إلى فضلٍ ولم تُسَل

مـالي بشكرِ الذى نظَّمتَ فى عُنُقي ... من اللآلي ومـا أوليت من قِبَلي

حلّيـتني بحليّ أصـبـحتُ زاهيَـةً ... بهـا على كُلّ أنثى من حُلى عُطُلِ

لله أخـلاقُكَ الغـرُّ التي سُقـيَت ... مـاءَ الـفُراتِ فَرَقَّتْ رقّةَ الـغزل

أشـبـهتَ مـروانَ من غـارتْ بدائعُـهُ ... وأنجَدت وغَدت مـن أحسَنِ المـثـل

من كـانَ والُده العـضُبَ المهنَّدَ لم ... يَلد من النّسلِ غـيـرَ البـيضِ والأَسِل

وقد تتبع الدكتور مصطفى الشـكعة في كتابه « الأدب الأندلسي ـ موضوعاته وفنونه » مختلف طوائف الشاعرات فتحدث عن الشاعرات القيان الوافدات الجارية العجفاء وحسّانة التميمية ثم تحدث عن الشاعرات وفق ترتيب ظهورهن الزمني في كل قرن، ووفق التوزيع المكاني في قرطبة والمرية وغرناطة وإشبيلية ووادي الحجارة واستعرض ما يزيد على عشرين شاعرة .